

علي الزيدي

# الدولة العادلة

يوتوبيا أم واقع

قراءة في الدين والتاريخ



# الدولة العادلة

يوتوبيا أم واقع

قراءة في الدين والتاريخ

علي الزبيدي



المؤلف: علي الزيدي  
العنوان: الدولة العادلة يوتوبيا أم واقع  
الناشر: دار سحر القلم  
الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

رقم الإيداع: في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٥٨٩ لسنة ٢٠٢٠  
الترقيم الدولي: ISBN 978-9922-9356-0-7

## The just state: Utopia or Reality

جميع الحقوق محفوظة  
للمؤلف

جميع الحقوق محفوظة باستثناء اقتباس فقرات قصيرة لغرض  
النقد أو المراجعة، فإنه لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا  
الكتاب أو تخزينه في نظام الإسترجاع أو نقله بأي طريقة من  
دون الحصول على إذن مسبق من الناشر

تنفيذ طباعي : دار الرافدين بيروت - لبنان



## الفهرس

١١.....	المقدّمة.....
١٧.....	الفصل الأول: آدم في الدنيا.....
٢٦.....	آدم وعنصر الوعي واللغة.....
٢٦.....	أولاً: التصرف الواعي.....
٢٩.....	ثانياً: اللغة.....
٣٥.....	نظريات نشوء اللغة.....
٣٥.....	أولاً: نظريات علماء اللغة.....
٤٣.....	المذهب الأول: مذهب الوحي والإلهام.....
٥١.....	مستويات الخطاب المحتملة لآدم عليه السلام.....
٥٨.....	المذهب الثاني: مذهب المواضع والإصطلاح.....
٥٩.....	المذهب الثالث: مذهب المحاكاة.....
٦٢.....	المذهب الرابع: نظرية التنفيس عن النفس.....

- المذهب الخامس: نظرية الإستعداد الفطري ..... ٦٤
- المذهب السادس: نظرية الملاحظة ..... ٦٦
- المذهب السابع: نظرية التطور اللغوي ..... ٦٨
- نظريات علماء أصول الفقه عن نشوء اللغة ..... ٧١
- النظرية الأولى: السببية الذاتية ..... ٧٣
- النظرية الثانية: نظرية الوضع والإعتبار ..... ٧٥
- النظرية الثالثة: نظرية التعهد ..... ٧٨
- النظرية الرابعة: نظرية القرن الأكيد ..... ٨١
- من الواضع للغة؟ ..... ٨٥
- كيف وجد آدم؟ ..... ٨٥
- انقراض بشري و آدم جديد ..... ٩٧
- الرد على صاحب كتاب المباحث الأصولية حول بشرية الواضع ..... ١٠٦
- الأمور التدريجية والأمور الدفعية في هذا الوجود ..... ١١٠
- الفصل الثاني: النبوة والإمامة ودورها في إيجاد الدولة العادلة ..... ١١٧

- الأمـر الأول: مستوى الوعى فى زمن قىادة مرآلة الغىبة ..... ١٢٢
- عود أبدى أم تعلم وإنطلاق؟ ..... ١٢٦
- هل نحن نعىش آالة تكرار الماضى؟ ..... ١٣١
- ما الذى وصلنا من التوراة والإنجىل ..... ١٤٢
- الأمـر الثانى: الفرق بىن قىادة الأنبىاء والأئمة وبىن قىادة المصلآىن فى زمن  
الغىبة ..... ١٥٠
- كىف ىنظر العالم لمفهوم الدولة؟ ..... ١٦٤
- سومر ..... ١٧٦
- الإمبراطورىة الأكدىة ..... ١٨٠
- الإمبراطورىة الآشورىة ..... ١٨٤
- الإمبراطورىة البابلىة ..... ١٨٨
- الفراعنة ..... ١٩٥
- الإمبراطورىة الفارسىة ..... ٢٠٢
- الإمبراطورىة الرومانىة ..... ٢٠٩
- الفصل الثالث: البشرىة وآآقىق الآكم العادل ..... ٢٢١

هل مرّت البشرية خلال تاريخها الطويل بحكم عالمي قد حقق سعادتها  
المنشودة؟ ..... ٢٢٣

ثلاثة أسماء يمكن أن تطرح بهذا الإتجاه ..... ٢٢٣

نوح عليه السلام ..... ٢٢٧

مكان سكن نوح عليه السلام ..... ٢٣٤

هل أن الطوفان شمل العالم كله، أم انحسر في منطقة قوم نوح؟ ..... ٢٤٠

تلخيص ما توصل إليه العالمان (وليام ريان) و (والتر بتمان) حول  
الطوفان ..... ٢٥٠

رفع إشكالات صاحب كتاب (دراسات تاريخية في القرآن الكريم) عن عالمية  
الطوفان ..... ٢٥٨

رفع إشكالات صاحب كتاب (التحليل العلمي في تفسير القرآن الكريم) عن  
عالمية الطوفان ..... ٢٦٤

رفع إشكال صاحب كتاب (مفاهيم القرآن) حول عالمية رسالة نوح عليه  
السلام ..... ٢٦٦

قصة الطوفان في الآثار والتوراة ..... ٢٧٠

الطوفان في تاريخ العراق القديم ..... ٢٧٠

٢٧٣..... قصة الطوفان السومرية

٢٨٠..... قصة الطوفان البابلية

٢٨٠..... نصوص ملحمة جلجامش الخاصة بالطوفان

٣٠٨..... متى حدث الطوفان؟

٣١١..... قصة الطوفان كما جاءت في التوراة

٣١٩..... التشابه والتقارب في نصوص طوفان جلجامش وطوفان التوراة

٣٢١..... دلالات التشابه والتقارب بين النصين

٣٢٩..... هل كان بناء الكعبة المشرفة موجوداً زمن الطوفان؟

٣٣٢..... اسباب عدم إنشاء الدولة العالمية الكبرى زمن نوح عليه السلام

٣٤٠..... هل نحتاج الى تأويل النص القرآني حتى يكون عمر نوح طبيعياً؟

٣٥٩..... سليمان عليه السلام

٣٦١..... سليمان بنظرة قرآنية

٣٧٥..... هل تحقق طلب سليمان بعدم اعطاء الملك لغيره؟

٣٧٧..... الوجه الأول: التفاوت في مسألة الطلب والإرادة



- الوجه الثاني: قول المعصوم حجة ..... ٣٧٩
- الوجه الثالث: تحقق طلب النبي سليمان عليه السلام ..... ٣٨١
- كيف سخرت الريح لسليمان عليه السلام ..... ٣٨٤
- كيفية إنتقال عرش ملكة سبأ؟ ..... ٤٠٧
- سليمان في التوراة والدراسات التاريخية ..... ٤٢٠
- كيف وصل النبي سليمان الى الحكم؟ ..... ٤٢٣
- هل أسس سليمان مملكة كبيرة وعظيمة؟ ..... ٤٣٢
- ثلاثية العالم والعفريت والهدهد، وهداية ملكة سبأ ..... ٤٤١
- هل أوجد سليمان عليه السلام الدولة العادلة؟ ..... ٤٥١
- ذو القرنين ..... ٤٧٣
- ذو القرنين الفاتح الكبير ..... ٤٧٣
- من هو ذو القرنين ..... ٤٧٥
- كورش الإخميني ..... ٤٨٥
- علاقة كورش باليهود ..... ٤٩١

- ٤٩٤..... قراءة في النصوص التوراتية
- ٥٠٣..... الإسكندر بن فيليب المقدوني
- ٥١٦..... التنوع البشري في الرحلات الثلاثة لذي القرنين
- ٥١٨..... لماذا لم يتم القضاء النهائي على يأجوج ومأجوج؟
- ٥٢٧..... ما حصل مع ذي القرنين في رحلاته هل سيحصل مع الإمام المهدي في ظهوره المبارك؟
- ٥٣٢..... هل رحلات ذي القرنين كانت الى الفضاء؟
- ٥٣٤..... حركة ذي القرنين ضمن السياق القرآني للقصة
- ٥٥١..... هل حقق ذو القرنين دولة العدل العالمية؟
- ٥٦٥..... المصادر والمراجع

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

أثار موضوع قدرة الإنسان وسيطرته على هذه الأرض، محاولات عدّة لبيان هذا الأثر، ووضع النظم والقوانين الضابطة لحركته في هذا الكون الفسيح، ولكن تباينت الرؤى، واختلفت النتائج، بحسب نظرة من يسعى الى التغيير وإقامة نظام عام وشامل يسود على البشرية كلها، أو في بعض مناطقها.

فتبارى القادة والفلاسفة في هذا الميدان، فكان للفكر البشري أن يسير بخطوات كبيرة نحو ترتيب ذلك الحشد التراكمي للأفكار والتجارب من أجل الوصول للسعادة وترسيخ أسس العدل والمساواة.

لكن ما نقل لنا من تصورات دوغمائية ادّعت كثير من الأفكار الدينية تبنيتها، بعد أن صيغت لأغراض شخصية ومقاطع ذاتية، هي أبعد ما تكون عن الحقيقة، وهي تتعامل مع الأرض والسماء، لتربط الإنسان بشكل من أشكال المطلق بمفهوم المشيئة الإلهية، وتطويقها بالتالي لأي تحرك عقلي في مجال الإبداع والتغيير، وبيان فاعليته في القدرة على المساهمة في تبديل وتحسين ما يحيط به من ظروف طبيعية أو إجتماعية على حد سواء.

هذا من جهة، وما تبتته جهات أخرى بالضد منها، بحيث أرادت أن تعزل أي فكر ديني وتبعد أي مقدس، وعدم السماح له في المشاركة لبناء وإيجاد

## الدولة السعيدة والحكم العادل.

وهذه الدراسة جاءت حديثة في ابعادها، وبكر في طرحها، تشتمل على عرض بعيد عن التقليد والرتابة، فقد بحثت عن أصل وجود الإنسان ولم وجد، ولأي غرض حمل الأمانة التي رفضت حملها السماوات والأرض والجبال، فهل يا ترى وجد للقتال والحروب، وممارسة الظلم والاضطهاد، وقيام دول وإمبراطوريات على جماجم البشر، وزهق الأرواح وإمتصاص الدماء. أم لا بد من أن يأتي اليوم الذي تتحقق فيه الدولة العالمية العادلة، ولكن ليس بمعايير مثالية المنشأ والصدور، كما أرادها أصحابها أن تكون، لتبقى حبيسة الذهن والخيال. ولا كما أرادها بعض الغنوصيين والمتنسكين بأن لا سعادة في الأرض وإنما هي في السماء، فالأرض ما وجدت إلا للشقاء، وكل ما فيها هو قدر مكتوب، ومشية إلهية لا يمكن أن يكون للإنسان قبالها خيار أو أي تحرك أو قرار.

فبعث الله بالرسول ليؤكدوا تطبيق بناء الدولة العادلة، ويرسوا لمبادئها القواعد والأسس الأولى، كما يمليه الواقع الراهن بلا رتوش وبلا أماني كاذبة. لم يتكلموا إلا بما يصلح الإنسان وبمنظار قد علم بما خفي عنهم.

ولكن بقي الإنسان معانداً متباهياً ومغروراً بعقله، وظن بأنه قادر على فعل كل شيء، وأستمر الوجود البشري لآلاف السنين وهو يجرب، ظاناً بأنه عندما يجدد الفكرة والتجربة سوف يصل الى معالم آيدولوجية جديدة لطرح الحكم المناسب، ولكن دون جدوى، فكلما مرّ الزمان، تعقدت المشاكل وابتعد الناس عن إنسانيتهم.

وبالرغم من كل هذا الكم الهائل من التجارب وإقامة الحكومات المتعاقبة،  
إلا أنه بقي للأناية والمصالح الذاتية الدور البارز في التحكم بأدوات وإدارة  
الحكم.

والآن لو نظرنا لما يخص آدم، وكيفية الإحاطة الإلهية والعناية به، وذلك  
الأمر الصادر للخلق النوري، والخلق الناري بعد تكامله، بأن يسجد له طائعين.  
وكيف لا يفعلوا ذلك فأمره عظيم وشأنه كبير، فهو الذي سوف يوكل بالخلافة  
في هذه الأرض، بعد أن تعيش تجربة العقل حينما ينتشي بنشوة وجود الفكر، ظاناً  
بأنه الوحيد الذي سيجلب له السعادة. ولكن أية سعادة هذه والبشرية بعمرها  
الطويل لم تجد من مباني هذا العقل إلا الأناية والذاتية المفرطة.

وحتى تتدرج البشرية في قبول هذه الخلافة في الأرض، عليها أن تمر  
بتجارب من نوعين:

الأولى: أن تجرب ما يطرحه العقل لوحده في إنشاء وبناء الدول  
والإمبراطوريات<sup>(١)</sup>.

الثانية: أن تعيش تجارب الرسل والمصلحين، وهم ينشؤون مساحة من  
العدل والمساواة في مجتمعاتهم، تكون مباني الحكم فيها تركز وتعتمد على البعد  
الساوي، قارة له بعجزها عن إدراكها الكلي لسعادتها المذخورة لها في هذه الدنيا.

وبعد ذلك ليوازن الفرد العاقل بين الحكيم، وليرى أيهما أفضل، ومن منهما  
الأقرب لفطرته ونشأته في هذا الكون.

(١) لا على نحو وجود فراغ رسالي في الأرض، وإنما يتم ذلك على نحو الإنحراف والابتعاد  
عن ما جاءت به الرسل.

ولذلك عندما قلنا بعنوان الكتاب عن الدولة العادلة هي (يوتوبيا) أم (واقع)، نقصد بذلك هل سنبقى نحلم بعالم مثالي تختفي منه شرور هذا العالم، ولننتقل الى الفردوس الأرضي كما صاغ هذه الكلمة الفيلسوف السياسي الإنكليزي توماس مور في كتابه (يوتوبيا). وهل سنبقى فكرة قد راودت خيال الإنسان منذ قديم الزمان، فتناولها الفلاسفة والمفكرون بصور مختلفة، تارة تأخذ الطابع الديني وأخرى الطابع الفلسفي، وتارة تصاغ بصورة حوار أو على شكل قصة خيالية. كما في جمهورية أفلاطون و (آراء أهل المدينة الفاضلة) للفارابي و (مدينة الله) للقديس أوغسطين أو (مدينة الشمس) لكامبا نيللا، فأصحاب هذه الرؤى المثالية لا يتعاملون مع الواقع، بل ذهب بعض منهم الى أنه من المستحيل أن تحدث سعادة الإنسان في الأرض، ولا يتم التخلص من الشرور فيها، بل سيحصل ذلك في السماء وفي عالم ما بعد الموت، كما ذهب الى ذلك القديس أوغسطين في كتابه (مدينة الله).

ففي الرؤية الطوباوية لا يوجد تعامل مع الواقع، وستبقى في ذهن وعالم منظرها لا غير، ولن تقفز في يوم ما لتجد مساحة عملية لها فوق هذه الأرض.

فدراستنا هذه لا تتعامل مع هكذا رؤية، وإنما تتحرك ضمن معطيات ما هو موجود على الأرض، لكن ليس على نحو الإستقلال، وإنما ضمن ضوابط سماوية تقنن وترسم خارطة طريق، متى ما تم السير ضمن ضوابطها سوف نصل الى اليوم الذي سيتم فيه العدل والسعادة والمساواة التي تنشدها البشرية في وجودها الأرضي.

ولذلك ففي هذه الدراسة سيجد القارئ الكريم في الفصل الأول رحلة تبدأ  
 بخلق آدم وما أودع الله فيه من هبات وعطايا، ومن أهمها اللغة والوعي، اللذان  
 عاصرا وجوده البدئي. وقد ناقشنا بعضها، ثم بينا أصل نشوء اللغة، وهل  
 وضعها بشري أم إلهي. ثم في الفصل الثاني تكلمنا عن النبوة والإمامة ودورها في  
 إيجاد الدولة العادلة، وبعدها بينا كيف ينظر العالم لمفهوم الدولة، ثم نتقل  
 لنعرض ملامح حكم الدول والإمبراطوريات التي نشأت في عمق التاريخ، وما  
 وصلت إليه من أبعاد إجتماعية ودينية وسياسية، ليطلع القارئ على مساحة  
 الظلم والعدوان الذي مارسه ضد الفرد البشري. أمّا في الفصل الثالث فستكلم  
 عن البشرية وهل مرّت خلال تاريخها الطويل بحكم عالمي قد حقق سعادتها  
 المنشودة، ثم سنختار ثلاثة نماذج من القادة الصالحين تمكنوا من الحكم في بقاع  
 معينة من الأرض وهم كل من نوح وسليمان وذي القرنين، بإعتبار أنه قد  
 سنحت لهم فرص تبدو ظاهراً أنها معدة لقيادة العالم، وإنشاء دولة العدل فيه،  
 ولكننا سنثبت ونعطي الأدلة على عدم وجود الظروف المناسب لذلك.

عموماً ففي هذه الدراسة سيجد القارئ الكريم بين يديه بحوثاً متنوعة، لا  
 تخلو من التجديد، ولعلي أستطيع القول بأنني في هذا الكتاب قد تطرقت وطرحت  
 أموراً تعتبر بكرةً في ساحة الفكر العربي المعاصر، عسى أن أوفق في إيجاد قراءة  
 جديدة لبعض من أحداث التاريخ والدين.

ويبقى شيء مهم لا بد من التنويه عليه، وهو أنني أحتاج الى إصدار كتاب  
 ثاني إن شاء الله تعالى لأتمم ما بدأت في هذه الدراسة، لتكتمل الرؤية حول تحقق  
 الدولة العادلة.

وأخيراً أسأل الله تعالى أن أكون قد وفّقت بهذه الدراسة، والله الحمد أولاً  
وأخيراً.

علي الزيدي

بغداد

٢٥ شوال ١٤٤١ هـ

١٨ / ٦ / ٢٠٢٠ م



الفصل الأول

آدم في الدنيا

## آدم في الدنيا

منذ أن وجد الإنسان على هذه الأرض وهو يصارع بإتجاهين:

الأول: وهو يواجه الطبيعة، وما ينبعث منها من آثار، عليه أن يتغلب عليها حيناً، وحيناً يتماشى معها.

الثاني: وهو يواجه أبناء نوعه للوصول الى تألف وود إجتماعي يسعد من خلاله.

أما في الصراع الأول فإن هناك كثير من صعوبات الطبيعة وآثارها الذاتية مع عوارضها على الأرض، تم التغلب عليها تارة أو مسايرتها لتكون في خدمة الإنسان. إلا أنه في الحقيقة بقيت جوانب مهمة أخرى لم يسيطر عليها من قبل الإنسان، وبقيت حاكميتها والقوة التي تحركها بيد الطبيعة، ولا يستطيع أن يتدخل بها. وبقي قبالها يعيش حالة التنبؤ والترقب لما ستحدثه من آثار فيما لو حدث أمر ما.

وهذا بحد ذاته يمثل جانباً مرعباً تجاه المجهول، وما يخفيه من عوامل وكوامن القوة لدى مفردات الطبيعة الهائلة. ولذلك كانت هناك آثار للطبيعة في هذه الأرض تُحدث كوارث، تسبب كثيراً من الخسائر في الأرواح والمعدات لتوصل عدّة رسائل الى البشر منها:

- تحدي قدرات العقل في معرفة الأسرار المحيطة بكوكب الأرض بالرغم من التطور الحضاري الهائل، هذا فضلاً عن معرفة أسرار الكون الكبير بأجمعه.

- عدم التوصل الى مرحلة من تكامل البشرية تستطيع من خلالها أن تعقد صلحاً مع قوى الطبيعة، لتسير بالتالي بما يريده الإنسان في هذا الوجود الكوني الكبير.

أما في الصراع الثاني، فأوضح صورة تمثل نشوء هذا الصراع، هو ذلك الصراع بين الخير والشر الذي تمثل بقايل وهايل، الذي أدى بالتالي الى قتل هايل على يد قايل، وفي الحقيقة هذا يعطينا مبرراً للخروج بتصور أن الدنيا بدأت بصراع الخير والشر، وتمكن الشر في كثير من الأحيان، بالتأثير على قوى الخير، وعرقلة حاملي لواءه في هذا الوجود.

ولذلك نستطيع القول بأن الوجود منذ خلقه الأول - ونحن نتكلم بكل تأكيد عن الوجود الإنساني المتمثل بآدم - هو وجود يبدأ بصراع الأضداد ببعديه الرئيسيين الخير والشر، وكأنا الإنسان خلق وهو مزود بأدوات المعرفة التي يسعى من خلالها للوصول الى الكمال الذي يتساق مع الكمال الكوني، وهو لذلك لم يكن قد تكامل التكامل المرجو حين وطأت قدماه الأرض، فهو وجد وهو يحمل الروح والعقل والجسد، وما يرافق ذلك من عمليات نفسية ووجدانية تسيطر في كثير من الأحيان على مشاعره وتصرفاته، مما تجعله غالباً ما يكون أسيراً لتلك الأدوات التي يتشكل منها سلوكه النهائي.

ولعل العنوان الواضح في تزويد الإنسان بقابلية الهداية أو الغواية، أو قل التعامل بالمنظور الإنساني أو المنظور الشيطاني ومنذ لحظاته الأولى في هذه الطبيعة، هو ما نتج من سلوك قايل العدائي مع هايل والذي دل على وجود نزعات نفسية ميالة للاستحواذ والهيمنة تحركها ملكات شريرة داخل الفرد نفسه، فمن أين جاءت تلك الميول والنزعات وبهذا الإتجاه الحاد، الذي بلغ ذروة

الانتقام، بقتل نفس هي أقرب مخلوق إليه ومن ناحيتين:

الأولى: النوع الإنساني، والثانية: الخروج من رحم واحد وأب واحد.

والشيء الذي يثار، وبسبب عدم وجود خبرات سابقة، ولا عوامل نمو مساعدة على إكتساب الرذائل والأحقاد والعداوات، بل لم يزل عدم وجود لمعرفة الانتقام الذي تهدأ تلك الغرائز الشريرة عندما تقدم عليه. فمن أين جاء كل ذلك التحامل على هايل من قبل قابيل؟!.

فهنا لن تسعفنا النظريات التي حاولت أن تفسر نشوء الحضارات بما تحويه من مميزات أو عوامل النشوء والبناء. فلا نظرية البؤرة الواحدة التي تحاول أن تفسر كيفية الانتشار الذي يحدث في منطقة محصورة من بقاع الأرض، لتأخذ بالزحف التدريجي نحو المناطق الأخرى، ولا يسعفنا ما طرحه أصحاب المنهج التاريخي بالطريقتين اللذين وضعاهما لتحليل سبل انتشار الحضارة، وإكتساب العادات والمهارات والأبعاد الثقافية المختلفة.

فلا الطريق الذي يؤمن بوجود مركز ثقافي واحد نشأ وتأسس لتنتشر منه الحضارة وميزاتها الثقافية الى بقية انحاء العالم، وهذا ما تبناه العالم الإنجليزي (إليوت سمث) والذي يعتبر من اعلام المدرسة الانتشارية ( Diffusionist school) والذي تأثر بتاريخ مصر والحضارة المصرية، وحاول أن يبرهن على أن مصر هي المركز لانتشار الثقافة والحضارة الى العالم.

ولا الطريق الثاني، الذي يؤمن بوجود مراكز متعددة إنتشرت من خلالها الثقافة، وكونت بعدها مراكز حضارية وثقافية. ولقد كان العالم الأمريكي

(فرانز بواز) الذي يدعى بأبي الأنثروبولوجيا الأمريكية، والذي كان يرى بأن الكثير من الثقافات تطورت بصورة مستقلة عن بعضها، وكلّ منها قام على مجموعة خاصة بها، وما يحيطها من ظروف خارجية وداخلية.

وكذلك لن يفيدنا المنهج البنيوي الوظيفي المضاد للمنهج التاريخي، الذي وجد للرد عليه، والذي أكد على دراسة الثقافات والحضارات البشرية بشكل منفصل. معتبراً ان لكل حضارة وثقافة عناصرها الخاصة، والتي تتقوم بها، بخلاف الحضارات والثقافات الأخرى. معتبرين إن للزمان والمكان دوراً هاماً في تحديد عناصرها.

وإن كان هذا المنهج بإعتبار ترافق الوظيفة مع البنية، أكثر إقناعاً كونه نموذجاً جديداً، قدم فيه مفهوم الوظيفة كأداة منهجية تعين الأنثروبولوجيين بإجراء ملاحظاتهم بشكل أكثر تركيزاً.

ثم هل تعيننا دراسة الزمن بإعتباره متغير مستقل لمعرفة الحياة الإنسانية، وهي تمر من خلال بوابته الكبيرة، ليدخل مرحلة الإستمرار والتغير ليصيب حالة الفرد وهو يتقلب عبر مراحل الطفولة والنضج. وقد يصادف في هذه الحالة إمتلاك أو وجود خبرات مبكرة أصرت على قبيل قتل أخيه هايبيل؟

أم هل تفيدنا الآمال المثالية لعلماء الإجتماع الليبراليين في أن الشرور الإجتماعية والسياسية يمكن تفاديها من خلال خبرات تنشئة إجتماعية مبكرة أفضل؟

أم تفيدنا النماذج التي قدمها (بياجيه) في النمو الأخلاقي والتي طورها من بعده (كوبرج).

أم نموذج المجال المعرفي الاجتماعي الذي صاغه (توريال) الذي اعتبر نموذج التفكير الأخلاقي كواحد من مجالات عديدة من المعرفة التي تنبغ في الإرتقاء الاجتماعي المبكر.

أم هل تفيدنا نظرية التحليل الجنسي لفرويد التي تعزوا كل ما يصدر من سلوكيات الإنسان الى الجنس. فأين هذا من موضوعة القربان الذي عرضته الآية المباركة: (وَآتُلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) المائدة: ٢٧.

كل هذه النظريات والآراء وغيرها، تقف عاجزة عن تفسير هذا الذي صدر من قابيل تجاه أخيه هاويل. حيث لا توجد خبرات مسبقة، ولا تجارب إجتماعية ناضجة للتأثير على الفرد، فلا أفراد ولا مجتمعات، فقط آدم وحواء، وأولادهما، ولا وجود لبؤرة ثقافية أو ملامح مجتمعية في اقطار الأرض المختلفة، حتى تكون حلقات تضاد وتناقض سلوكي يكتسب عبر تربية مقصودة، ومعنونة بذائقة أصحابها. أو حتى وجود نوع تربوي عبثي، يفرض هيمنته وسطوته على الأفراد، فأين الكره وأين الحقد، بل أين الشعور بالتفوق والتسلط، وعلى من أتفوق أو أتسلط، ثم أتسيد، ثم بعد أن تتسيد فما هي البواعث، والعائدات من وراء ذلك؟

بكل تأكيد إذا سرنا بهذا الإتجاه فإننا سائرون نحو وهم وسراب، لا يمكن أن نجد له ذرات من أثر الحقيقة.

وأما إذا انتقلنا خطوة أخرى، وقلنا بأن الكائنات التي وجدت على سطح الأرض أو نقول في المحيط الحيوي كما يقول (تيار دو شاردان)، وعندما كانت المنافسة في بعض الحالات غير مباشرة، فقد يبيد نوع، أو نموذج من نوع آخر

مثله، لا بالهجوم عليه أو استئصاله، بل يستحوذ لنفسه على حصة الأسد من مورد غذاء هو بالنسبة الى كلا المتنافسين من ضروريات الحياة، فعندما تتنازع نماذج من أنواع غير بشرية، أي من الحيوان، على الطعام أو الماء أو التزاوج، فالخاسر على ما هو معروف عنها، يطلب مأوى من الرابع ويحصل على ذلك لقاء خضوعه، ومن المعروف ان الكائنات البشرية هي الحيوانات الوحيدة التي تقتل فيما بينها حتى الموت، وإنما تتخن قتلاً في نساء العدو وأطفاله وشيوخه، كما تفعل ذلك بالمقاتلة من الذكور... ومن هنا فإن تقدم الحياة كان على خير ما فيه طفيلياً. أما في أسوأ حالاته فقد كان سلاباً نهاباً<sup>(١)</sup>.

ويزداد الأمر صعوبة وتحير، إذ إننا سمعنا وقرأنا حواراً يدل على وجود وعي وقصد جاد، برهن على وجود معرفة مسبقة، يفهم الفرد من خلالها سبب وجوده الأرضي. فعبارات مثل: (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ\* إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ) المائدة: ٢٨-٢٩، ثم انظر الى نفس خطاب القائل: (قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) المائدة: ٣١، ففيه دلالة واضحة على الشعور بالندم، ومعرفة الارتباط الأخوي الوشيج، ثم الإرتفاع في مستوى الوعي بحيث اطلق لفظ (السوءة) على جسد أخيه الميت، وهو يدل على وجود تلك المفاهيم المجردة التي هي بحالها تمثل مرحلة من مراحل الرقي الفكري الذي يحركه إدراك مسبق مليء بالتصورات الحسية والعقلية.

(١) تاريخ البشرية: ارنولد توينبي، ترجمة نيقولا زيادة، نشر الدار الأهلية، بيروت، ط ١،

ثم هناك خطاب لغوي قد حوى ألفاظاً متنوعة ومتباينة في نفس الوقت، أي أننا نستطيع القول ان الذي يهدم كل تلك النظريات أو يقلل من أهميتها، أو حتى يجعلها نظريات تفقد جزء أو أجزاء من التفسير الكامل لحركة ونشوء التطور البشري هو ذلك الوجود المبكر للوعي واللغة.



## آدم وعنصر الوعي واللغة

### أولاً: التصرف الواعي

هناك تحديداً للهدف الذي وجد من أجله الإنسان، وإن وجوده لم يكن وجوداً عبثياً، بل هو وجود يتدرج به الإنسان الى كماله المراد له من قبل خالقه. فهو قد عرف المعصية وقد عبّر عنها بالإثم، وعرف بأن مصير صاحبها النار، أي أنه عرف أن هناك حياة أخرى تنتظره، وهي غير هذه الحياة، وهناك فيها جزاء للظالمين، وعطاء للصالحين، وهناك شعور بالندم على الفعل الخاطيء. لأنه قد عرف بأنه يخالف الفطرة الإنسانية، بل الأكثر من ذلك فهو عرف بأن الإنسان أعلى مرتبة من المخلوقات الأخرى، ولكن خيبة فعله وسوء تصرفه جعلته يدرك بأنه قد أصبح متدنياً، بحيث تعلم كيفية مواراة سوءة أخيه من الغراب، الذي من المفروض أنه لا يمتلك قابليات الإنسان ولا عقله.

بل هو قد أدرك بأنه انتقل الى مرحلة التبدل في السنخية، بسبب قتله لأخيه، وتحول من سنخيته الإنسانية الى الحيوانية البهيمية، التي لا تتعلم إلا من خلال التقليد والمحاكاة للمخلوقات الأخرى. ولعله من هذا المقام تظهر لنا صورة ذهنية نحاول من خلالها إيجاد تفسيراً جديداً، يساهم مع الرؤى التفسيرية السابقة في تعميق الفهم القرآني، الذي يتبين من خلاله قابلية القرآن الكريم في اعطاء معالم تفسر بواسطتها نشوء الحياة الأولى لآدم وذريته، ومدى الإرتباطات المعنوية التي تساهم في ثبات الأبعاد الإنسانية لدى الفرد أو ضمورها وكمونها أو حتى غيابها لتتحول بالكلية الى سنخية كاملة لحيوانات أو مخلوقات غير إنسية.

ولعل هذا ما حدث بالفعل، مع إحدى قرى اليهود الذين اصطادوا السمك

يوم السبت، فقال لهم ربهم كعقوبة لمخالفة أمر منع صيد السمك يوم السبت: (كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) حيث بقيت هياكلهم الإنسية، وصورهم الظاهرية على شكل بنية الإنسان، لكنهم باطناً وكذلك أفعالهم، ما هي إلا أفعال تشابه أفعال وحركات القرود، وكان هذا الأمر مناسباً للفعل الذي أقدموا عليه، بحيث ظهر منهم دهاء وحيلة لم تكن موجودة في الديانات السابقة، ولم يكن لهم نصيب مشترك أو سعي بمثل هكذا حيلة، ظاهرها بعيد عن المخالفة والمعصية، وباطنها خبيث، فيه محاولة ظنوا أنهم يخدعون الله تعالى فيها.

فتصور من يصل بدهائه وتفكيره بهذا المستوى، وكما جاء في كتب التفسير عن ابن عباس أن اليهود إنما افترض عليهم اليوم الذي افترض عليكم، وهو يوم الجمعة فخالفوا الى يوم السبت، وأختاروه فحرم عليهم الصيد فيه وأبتلوا فيه فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرّاً بيضاً سماناً حتى لا يرى الماء من كثرتها، فمكثوا ما شاء الله تعالى لا يصيدون ثم أتاهم الشيطان فقال: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت، فاتخذوا الحياض والشبكات، فكانوا يسوقون الحيتان إليها فيه ثم يأخذونها يوم الأحد، وفي رواية أن رجلاً منهم أخذ حوتاً فخرمه بخيط ثم ضرب له وتداً في الساحل وربطه فيه وتركه في الماء، فلما كان الغد جاء فأخذه وأكله، فلاموه على ذلك فلما لم يأته العذاب، أخذ في السبت القابل حوتين وفعل ما فعل، ولم يصبه شيء فلما رأوا أن العذاب لم لا يعاجلهم تجاسروا فأخذوا وملحوا وباعوا، وكانوا نحواً من إثني عشر ألفاً أو من سبعين ألفاً<sup>(١)</sup>.

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م: ج ١٠، ص ١٢٥.

ولذلك كانت نتيجة وجود هذا المكر والخداع والتخطيط المسبق لمواجهة ومخالفة التشريع أن سلبت منهم الملكة التي تتولد منها هكذا أفكار. بحيث أصبحوا كالقردة واقعا في عدم القدرة على التعامل العقلي مع محيطهم الخارجي. وبقوا يعيشون على طريقة التقليد والمحاكاة.

أي أنهم من المحتمل جداً كانوا ينظرون الى من حولهم من الذين لم يمسه عذاب المسخ، ليتعلموا منهم ما يحتاجون إليه، من دون أن يفيدهم التكرار الى الحزن وكسب خبرات مستقبلية، تعينهم في الإستغناء عمّا وصلوا إليه من عمل التقليد.

وقد يكون هذا الأمر في ذلك الزمان من الواضحات التي يحس بها الناس الذين كانوا معهم، والمجاورون لهم. ليكونوا عبرة في ذلك الجيل ولأجيال متعاقبة كثيرة، ليكون له بالغ الأثر، وكدرس عملي يحدث به كل فرد نفسه، فيما إذا مال عن الحق ومخالفة الشريعة وأحكامها.

## ثانياً: اللغة

هل أن اللغة هي ظاهرة إجتماعية كما يذهب العالم (دي سوسير) صاحب المدرسة التركيبية أو البنيوية.

وهل الإنسان بدأ وسيلته التواصلية بالرقص والغناء والإشارة، حتى إستوى على عوده واستطاع أن يفعل قدراته اللغوية الممنوحة من الله تعالى، وأن يحققها في صورة أصوات لغوية منطوقة تفي نوع وفاء بحاجاته من التعبير والإتصال<sup>(١)</sup>.

ولما كانت اللغة هي الرابط الوحيد الذي يصل بين عالمين مختلفين في طبيعتها هما علما الأجسام والأذهان، وكانت دليلاً يستدل به على الواقع وأمارة على إنسانية الإنسان العاقل الناطق والمبين، عني بها كثيراً الفلاسفة والعلماء قديماً وحديثاً عربياً وعجمياً، فدرسوا طبيعتها ووظيفتها الإجتماعية وعلاقتها بالنفس الإنسانية، فتعددت رؤاهم حولها، مما يجعلنا نصطدم اليوم بكم هائل من التعريفات المتصلة بتحديد طبيعتها ووظيفتها، وخصائصها البنيوية ضمن طائفة من النظم التواصلية الأخرى<sup>(٢)</sup>.

ثم هل ان الكلمة عندما تخرج من فم الإنسان، هي مجرد صوتاً يحاكي الطبيعة والأشياء المحيطة حوله، أم هي تعبير عن فكرة لتكون مقياساً لجميع

(١) ينظر: التفكير اللغوي بين القديم والجديد: د. كمال بشر، نشر دار غريب، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٥م: ص ٨٧.

(٢) اللسانيات، اتجاهاتها وقضاياها الراهنة: د. نعمان بوقرة، نشر دار عالم الكتب، عمان، ط ١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م: ص ٣.

مظاهر الإنسان كما يقول دي سوسير<sup>(١)</sup>.

فالصوت لوحده هو الوحدة اللغوية الصغرى، ولا تعني هذه الوحدة شيئاً بحد ذاتها، ولكنها تحدد معنى ما تشير إليه بإتحادها مع وحدات أخرى، وبنفس مستواها. وهذه الأصوات تتحد في مجاميع لتكوين الكلمات، التي هي بدورها تتحد لتكوين جمل، وبالتالي تخرج وتتأهل اللغة بعد أن تتألف بعدد لا متناه من الجمل<sup>(٢)</sup>.

ثم من أي محور ننظر الى اللغة لكي نستطيع وضع مخطط توضيحي منذ بداياتها الأولى والى وقتنا الحالي، هل يغنيننا أو يفيدنا المحور الأفقي المتمثل بالمحور الوضعي الذي يصف الأشياء وهي في حالة ثبات، بعيد عن أثر الزمن؟ أم نعتمد على المحور الرأسي الساري المفعول بالملاحم التاريخية التي تعتمد وتقوم على أساس تغير الزمن.

أم هل تفيدنا النظرة الفسيولوجية والسيكولوجية - النظرة الوظيفية والنفسية - التي تتعلق بالمظهر الأولي للإنسان، ومنذ وجوده الأول على هذه الأرض. وكيفية استغلال تلك الوحدات بإتساق لتحقيق الغرض من وجوده الأولي الذي ينقله الى وجود آخر.

ثم إن الصوت تعاضد مع الكلمة ليشكل بالتالي جملاً بعدد لا متناه، كان على نحو التزامن، بحيث وجدت تلك المسميات بصورة الإستعداد الدفعية، أم أنها

(١) ينظر: علم اللغة العام: فردينان دي سوسور، ترجمة د. يوثيل يوسف عزيز، نشر دار آفاق عربية، بغداد، ط ١، ١٩٨٥م: ص ٢٧.

(٢) ينظر: شظايا لسانية: د. مجيد الماشطة، نشر دار السياب، لندن، ط ١، ٢٠٠٨م: ص ٧.

تواجدت على نحو التعاقب وبصورة الإنهاء والتدرج.

وأين يضع (دي سوسير) تلك الحوارية بين قابيل وهابيل في مجال علم اللغة، حينما أراد أن يصف تاريخ جميع اللغات، وتتبع تاريخ الأسر اللغوية بالقدر المستطاع. ثم ما هي القوى التي عملت في زمن آدم وولده، بحيث تشترك بصورة دائمية وعامة في جميع اللغات، ليستنتج منها القواعد العامة من جميع الظواهر التاريخية الخاصة.

فكل هذه التساؤلات وغيرها، قد حاول كثير من المتخصصين وعلماء اللغة من إعطاء أجوبة محاولة منهم لعبور الجهل والحيرة بهذا الموضوع الشائك والعسير. كيف لا وهم أمام وجود يمثل أعظم إنجاز بشري على ظهر الأرض، ولولا اللغة ما قامت للإنسان حضارة ولا نشأت مدينة، بل حتى بلغت القداسة للغة عند الشعوب البدائية أن ارتبطت اللغة عندهم بتأثير اللفظ وسحر الكلمة، وأختلط الاسم بالمسمى في عقيدة هذه الأقوام<sup>(١)</sup>.

فمتى نشأت اللغة، وعند أي قوم بدأت وأرتقت، وما هي الضابطة التي من خلالها تعلم الإنسان اللغة، بحيث مثلت وجوداً لا يمكن للإنسان أن يعيش دونها. وحين نقول بأن الإنسان لا يستطيع العيش دونها، معنى ذلك بأنها متى ما سلبت منه فلن يكون حينها إنساناً، بل نوعاً من أنواع الحيوانات الأخرى.

فنحن عندما نقول بأن الإنسان حيوان ناطق نريد أن نميزه عن الأنواع الأخرى من الحيوانات التي ينعلم عندها إدراك الكلليات والمفاهيم المجردة.

(١) المدخل الى علم اللغة: د. رمضان عبد التواب، نشر مكتبة المتنبى، المملكة العربية

وعندما نقول إدراك الكليات يعني هناك عمليات عقلية متحصلة عند الإنسان للوصول الى العلم، يختلف بها عن الحيوان، وهي غير العلم الحسي الذي تناله النفس بالحواس الخمس، ولا العلم الخيالي الذي هو الصور الحسية التي تحفظ بالذهن بعد زوال إتصالها بالمحسوس الخارجي، وهي غير العلم الوهمي الذي تدرك به المعاني الجزئية التي لا مادة لها ولا مقدار كحب الأبوين وخوف الخائف.

فنحن نتكلم عن علم عقلي عالي، يفترق به الإنسان عن الحيوان، وهذا العلم يحصل بقوة العقل والفكر الذي لا تقف عند حد معين، يستطيع الإنسان أن يدير دفة مدركاته الحسية والخيالية والوهمية، ليميز الصحيح منها من الفاسد، ثم ينتزع المعاني الكلية من جزئياتها. فيتعلقها وقيس بعضها على بعض، وينتقل من معلوم الى آخر، ليستتج ويحكم ويتصرف حسب قدراته العقلية شدة وضعفاً<sup>(١)</sup>.

وعندئذ إذا كان الإنسان بما هو إنسان قد ميز منذ وجوده الأولي عن باقي الحيوان بهذه الخاصية التي ينتزع بها المعاني الكلية من جزئياتها، فلا بد من وجود وسيلة يظهر بها تلك الإدراكات، ومن غير المعقول أن تبقى تلك الإدراكات عبارة عن وجودات ذهنية، لا يمكن أن ينتزع منها وسيلة تواصل مع الآخرين لتكون مفاهيم تبنى من خلالها مسيرة الإنسان الطويلة في هذا الوجود الممتد بآثاره وإحتياجاته.

ولو لم تكن اللغة هي الحاضنة والراعية لهذه المفاهيم، بحيث تكون قالب المناسب لها، لما تمكنا من إظهار ذلك المائز بين الحيوان والإنسان، ولبقي الإنسان

(١) ينظر: علم المنطق، للشيخ محمد رضا المظفر، ج ١.

في سلّم الحيوان، ولن يستطيع الترقّي والترفع عنه، وكيف لنا أن نميز من دون وجود اللغة التي تنقل لنا الأفكار والمشاعر، ليتشارك كل فرد إنساني مع الآخرين في تبادلها. فهل نعوّض على توارده وتخطّط الأفكار؟ فحتى الحاسة السادسة لن تستطيع أن تفهم بهذا الغرض. وحتى وإن تحرك الحس المشترك في معرفة ظواهر الأشياء كاللون والحجم والرائحة في البعد المادي، بل حتى بالبعد المجرد لتلاحق الأفكار، بحيث يقرأ كلّ منا ما يدور بعقل الآخرين من فكر وتصور.

بل كيف يتسنى لنا الحفاظ على إرث الأفكار، وبنائها التعاقبي، حتى تجتمع كلها لتظهر لنا بصور وأبنية مختلفة، ولكنها لا تتعدى نسيجاً معرفياً واحداً إتكتأت عليه في البناء الحضاري المائل بين أيدينا الآن، وإننا نستطيع القول بأن الإنسان لا يمكن أن يتصل بأجداده الأقدمين إلا عن طريق اللغة، فهي الموصل والمغذي الذي تتغذى عليه الإنسانية في بقائها وإستمرارها، وهذا خلاف ما ذهب إليه الفيلسوف والمؤرخ الأمريكي (جون هرمان راندال)، عندما يقول في كتابه (تكوين العقل الحديث): (إن الإنسان يتصل بأجداده الأقدمين عن طريق العقل)<sup>(١)</sup>.

نعم العقل هو أحد عوامل الإتصال، ولكن لولا اللغة لما تمكنا من الإتصال بعالم الأجداد القديم. بل حتى العقل لو ترك لوحده لكان كالصحراء قاحلاً أجذباً من دون اللغة. فاللغة تشكل مع العقل الماء الذي تُسقى الأرض به، وكلما زادت وفرة اللغة، زاد إرواء أرض العقل، ولأعطتنا أروع الثمرات.

(١) تكوين العقل الحديث: جون هرمان راندال، ترجمة جورج طعمة، نشر سلسلة ميراث

الترجمة، القاهرة، ط ١، ٢٠١٣م: ج ١، ص ٤٣.



ولأهمية اللغة في البناء الحضاري، وتكامل الإنسان، لنأتي ونحاول أن نبين هل أن اللغة وجدت مع الإنسان، وجوداً دفعياً، أم انها مرت بمراحل تعاقب فيها الإنسان شيئاً فشيئاً لتعلمها واكتساب ألفاظها، فهنا عندنا عدّة نظريات بهذا الشأن.

## نظريات نشوء اللغة

يمكن تقسيم نظريات نشوء اللغة الى قسمين:

الأول: نظريات علماء اللغة.

الثاني: نظريات علماء أصول الفقه.

### نظريات علماء اللغة

نحن نتصفح آراء اللغويين بإعتبار هذا الأمر من صميم إختصاصهم ودراستهم لعوامل نشوء اللغة وتطورها، وإن إرتأى بعضهم أن يطوي عنها كشحاً، وإن البحث في هذا المجال لن يجدي نفعاً، لأنه عبارة عن رجم في الغيب ولا يستند القول فيه الى ركن شديد ورأي سديد أو برهان علمي يتقدم بإحصائيات دقيقة وبيانات واضحة.

وقد ظهرت في ذلك عدّة نظريات مختلفة تحاول أن تفسر لنا، كيف تكلم الإنسان الأول هذه اللغة، التي تطورت على مر الأزمان، حتى وصلت إلينا في صورها المختلفة الراهنة. وقد نادى بعض اللغويين المحدثين بإخراج موضوع نشأة اللغة، من موضوعات علم اللغة: أمثال (فندريس vendryes) الذي يرى ان غالبية اولئك الذين كتبوا عن أصل الكلام، منذ مائة عام، يهيمون في تيه من الضلال، وغلطتهم الأساسية، أنهم يواجهون هذه المسألة من الناحية اللغوية، كما لو كان أصل الكلام، يختلط بأصل اللغات.

فإن اللغويين يدرسون اللغات، التي تتكلم والتي تكتب، ويتبعون هذا التاريخ بمساعدة أقدم الوثائق التي تم إكتشافها، ولكنهم مهما أوغلوا في هذا

التاريخ فإنهم لا يصلون إلا الى لغات قد تطورت، وتركت وراءها تاريخاً ضخماً، لا نعرف عنه شيئاً، أما فكرة الوصول الى إعادة بناء رطانة بدائية، بمقارنة لغات موجودة بالفعل، فسراب خداع<sup>(١)</sup>.

والعلماء والمفكرون لم يختلفوا في شيء من مسائل علم اللغة، كما اختلفوا حول موضوع نشأة اللغة. وقد تنوعت آراؤهم، واختلفت مذاهبهم، ومع ذلك لم يصلوا في بحثهم الى نتائج يقينية، بل كان جل آرائهم يصطبغ بالصبغة الشخصية، ولم يتجاوز مرحلة الفرض المبني على الظن والحدس. وفي ذلك يقول "ماريو باي": (فيما يختص بنشأة اللغة وطبيعتها، لدينا مصادر تعتمد على الأساطير والحديث المنقول والمناقشات الفلسفية، ولكن تنقصنا الحقائق العلمية في هذا الصدد)<sup>(٢)</sup>.

وقد قررت الجمعية اللغوية في باريس، عدم مناقشة هذا الموضوع نهائياً، أو قبول أي بحث فيه لعرضه في جلساتها، كما أن كثير من العلماء، ذو الشهرة الذائعة، والقدم الثابتة في اللغة، أمثال: (بلو مفيلد Bloomfield) و (فيرث Firth) لم يتعرضوا لدراسة هذا الموضوع بشكل علمي، أو بصورة تنبئ عن أهمية البحث فيه.

كما أن بعض من علماء اللغة، سخروا حتى من مجرد التفكير في إدراج هذا الموضوع، ضمن بحوث علم اللغة<sup>(٣)</sup>.

(١) المدخل الى علم اللغة ومناهج البحث، مصدر سابق: ص ١٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٩٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ٩٥ بتصرف.

والحقيقة أنه لا يوجد مبرر لمثل هذا الإبتعاد عن معرفة أمر مهم بل هو في غاية الأهمية، وخصوصاً إنه مرتبط بالإنسان وبمراحل رقيه التي تمثل بدايات المعرفة التي أسست لبناء الحضارة الأولى. علماً أن العلماء وبمختلف إختصاصاتهم وإهتماماتهم قد تناولوا موضوعات أخرى بالبحث الجاد والمكثف، ولاقوا في سبيل ذلك ما لاقوا من الصعاب والظروف الصعبة، أكثر بكثير من مسألة معرفة نشوء بدايات اللغة عند الإنسان، ولم يتراجعوا ولم يعدّوا البحث عنها ضرباً من الأساطير أو يتعرضوا الى السخرية والتهكم. بل على العكس هناك كثير من البحوث والنظريات قد إهتمت بمسائل أقل بكثير من أهمية موضوع نشأة اللغة، وقد تلقوا الدعم والإسناد المجتمعي والدولي، من أجل إكمال ما تبنيه من فرضيات.

وعلى الرغم من أنهم يدركون جيداً بأن الوصول الى معرفة متى نشأت اللغة ومتى استخدم الإنسان الألفاظ لتكون دالة على معاني مقصوده، سوف يحل كثير من التساؤلات، وسيضع النقاط على حروف علوم مختلفة، تكون بأمس الحاجة لهذه المعرفة كعلم الإجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا وعلم الأديان وغيرها، بل الأكثر من ذلك نستطيع أن نعرف ما سيؤول له مستقبل البشرية، وكيف ستكون ابعادها الفكرية والعقائدية، ومدى تأثيرها على الفرد. فهاذا نقول عن نظرية دارون في النشوء والإرتقاء التي لم تنزل تعاني من وجود كثير من الفراغات لم تسد لحد الآن.

فمثلاً ان الذين يجهلون المشاكل الخاصة التي يواجهها العلماء الذين يحاولون تفسير أصل الحياة، ربما ليس واضحاً لهم أن استدعاء (الانتخاب الطبيعي) لا يساعد في تفسير نشوء الحياة الأولى، إذ إن كان الانتخاب الطبيعي والطفرات في

نهاية المطاف، قادرين على إنتاج معلومات جديدة في الكائنات الحيّة. فلماذا لا يمكنها ذلك في بيئة ما قبل الحياة؟ وهذا الذي يجعل (تيوديسيوس دوزانسكي) - وهو أحد مؤسسي النظرية التركيبية الدارونية الحديثة المعاصرة - يقول بطلاقة: الإنتقاء الطبيعي ما قبل الحيوي هو مصطلح متناقض، أو كما يشرح عالم الأحياء الجزئية والباحث في أصل الحياة، الحائز على جائزة نوبل (كريستيان دي دوف) بأن نظريات الإنتقاء الطبيعي ما قبل الحيوي فاشلة، لأنها تحتاج الى المعلومات، بما يعني أنها تفترض سلفاً وجود ما عليها أن تقوم بشرحه في المقام الأول. فيبدو أنه من غير الكافي استدعاء عملية تبدأ عملها فقط بعد وجود الحياة - أو بمجرد ظهور المعلومات البيولوجية - لتفسير أصل الحياة أو أصل المعلومات الضرورية لإنتاجها<sup>(١)</sup>.

ولكن بالرغم من ذلك حاز كتاب أصل الأنواع لداروين على اهتمام الوسط العلمي بشكل صاعق، فمحاكاة داروين للإصطفاء الإصطناعي كانت قوية للإصطفاء الطبيعي والتباينات العشوائية سهلة الإدراك، ومهارته في تشتيت الآراء المضادة منقطعة النظير. فوق ذلك، كانت حجته المنصبة على تفسير الأصل العام المشترك مؤسسة بمهارة متقنة، وفي نهاية (أصل الأنواع) بدا للكثير أن داروين قد فند الاعتراضات الممكنة الطرح ضد نظريته بإستثناء واحد منها. وبغض النظر عن رؤية الإصطناع الخاصة به، إلا أن هناك مجموعة واحدة من الأدلة اشكلت على داروين، وهي مجموعة اعترف بها وعرف أن نظريته لا تقوى على شرحها كفاية، على الأقل حتى يومه ذاك. لقد كان داروين متحيراً بوجود

(١) شك داروين: د. ستيفن ماير، ترجمة د. موسى إدريس، د. مؤمن الحسن، نشر مركز براهين للابحاث والدراسات، ط ١، ٢٠١٦م: ص ٢٠.

نمط في السجل الأحفوري بدا أنه يوثق الظهور الجيولوجي المفاجئ للحيوانات، في الحياة في غضون فترة وجيزة من التاريخ، وقد اطلق على تلك الفترة العصر السيلوري، لكنها عرفت لاحقاً بإسم العصر الكامبري<sup>(١)</sup>.

وفي هذا السياق يقول الدكتور ستيفن ماير والذي يفصل الكلام في اطروحة التصميم الذكي والتي حاول فيها كسر التابو الدارويني لتقديم تفسيراً يتسق مع الاكتشافات العلمية المعاصرة، فالخلية الحية التي لم تكن عند العلماء في عصر داروين سوى مادة هلامية بسيطة لا تعقيد فيها، فقد بان في العصر الحالي أنها مصنع حيوي متكون من العديد من الجزئيات الوظيفية التي يعتمد بعضها على بعض في صورة بالغة التعقيد والتركيب، هذا التعقيد الذي لا يمكن تفسيره بالتطور التدريجي الزمني البطيء والمعتمد اعتماداً جوهرياً على تراكم آثار الطفرات، لتعمل عملها السحري المجهول في إبداع الأنواع.

ثم يقول: من الواضح أن النظرية التطورية المعيارية قد وصلت الى طريق مسدود، إذ لا الداروينية الجديدة ولا الأطروحات الحديثة (التوازن المتقطع، التنظيم الذاتي، البيولوجيا النهائية التطورية، الإنتقاء المحايد، الوراثة فوق الجينية، الهندسة الجينية الطبيعية) نجحت في شرح نشوء الأشكال الحيوانية الجديدة، التي ظهرت في الحقبة الكامبرية. مع ذلك اشتركت كل هذه النظريات التطورية بأمرين: اعتمادها على العمليات المادية البحتة، وفشلها في تحديد سبب قادر على توليد المعلومات الضرورية لإنتاج الأشكال الحية الجديدة.

ثم يقول: وهنا يطرح السؤال التالي: هل من الممكن إيجاد سبب مختلف وغير متوقع يوفر شرحاً أوفى لنشوء الأشكال والمعلومات الجديدة - بالإضافة الى

(١) المصدر نفسه، ص ٣٤.

الخصال الأخرى المميزة - الظاهرة في الانفجار الكامبري؟ تحديداً، هل من الممكن أن يلعب التصميم الذكي - الفعل الهادف لكائن واع وعاقل - دوراً في الانفجار الكامبري؟

وكيفما طرحت مسألة التصميم الذكي، ستجد في الغالب صعوبة كبيرة في إقناع بيولوجي تطوري معاصر ليرى أي داع لتدارس فكرة كهذه، أو لتجعله يقبل النقاش بأن التصميم يلعب دوراً في البيولوجيا على الإطلاق، مع أن العديد من علماء البيولوجيا اليوم يعلمون النقائص الحادة في نظريات التطور المادية، لكنهم يقاومون قبول بدائل تتضمن إرشاداً ذكياً أو توجيهاً أو تصميمياً. ويأتي الكثير من هذه المقاومة ببساطة من عدم فهم حقيقة نظرية التصميم الذكي، فالعديد من خبراء البيولوجيا التطورية هؤلاء يرون أن التصميم الذكي فكرة ذات أساس ديني، أي أنها ضرب من الخلفية التوراتية، وآخرون يعتقدون إنكار هذه النظرية لكل أشكال التغير التطوري، لكن على النقيض من التقارير الإعلامية، فإن التصميم الذكي ليس فكرة توراتية، إنه نظرية مبنية على الدليل حول بدايات الحياة، وتتحدى بعض - وليس ككل - معاني مصطلح (التطور)<sup>(١)</sup>.

فالذي نريد قوله بأنه ليس من حق أي شخص أن يعارض العمليات الفكرية والعلمية سواء على مستوى الفرضيات أو النظريات، التي تحاول جاهدة الوصول إلى تقديم أصول يعرض من خلالها النشوء الأولي للغة، حتى وإن ظهرت بعضها بحجة ضعيفة أو يصفها البعض هي أقرب للخيال والأساطير،

(١) للتوسع أكثر حول هذا الموضوع يراجع كتاب شك داروين: د. ستيفن ماير، ص ٥٣١

فلا بأس، فقد تختفي بعض العوامل الدخيلة في إكتشاف ومعرفة أصل ظهور اللغة لفترة ما، حتى وإن طالت، وذلك لدقة الأسباب الموصلة لذلك، وعدم حضورها الواضح في مسرح البحث والتنقيب، وهذا لعله راجع الى التزمت والإلتزام الشديد في البحث وقصر النظر على الأسباب المادية التي تفرزها الطبيعة، والتي غالباً ما تجود بالأخبار والأمور القليلة، وتدع وراءها الكثير من التساؤلات والأمور التي تحتاج الى تفسير وإجابات، وهي ترضن بها لتكافيء من يجد في عمله باحثاً عن الحقيقة أو عن معطيات علمية تساهم بشكل وآخر في عجلة التقدم البشري.

وعلى أقل التقادير، بدلاً من رفض وعدم قبول الفرضيات أو النظريات التي تبدو فاقدة الى الدليل الحسي في وقتها، وضعها على محمل الإحتمال الذي من الممكن حدوثه واعتباره من ضمن الإستدلالات التي تدرج أو تصاغ على أسس ومباني الإستدلال التراجعي<sup>(١)</sup>، الذي نادى به المنطقي الأمريكي "بيرسي" في القرن التاسع عشر والذي استند عليه علماء التاريخ في كثير من

(١) الإستدلال التراجعي: عند علماء التاريخ استدلال بصيغة منطقية متميزة، ويعرف تقنياً هذا النوع من الإستدلال بالاستدلال التراجعي. ففي القرن التاسع عشر وصف المنطقي الأمريكي بيرسي هذه الصيغة من الإستنتاج وميزها عن صيغتين أكثر شيوعاً، هما الإستدلال الإستقرائي، والإستدلال الإستنباطي، وكتب اننا في الاستدلال الاستقرائي نستنتج القواعد العامة من حقائق معينة، بينما في الاستدلال الاستنباطي نطبق القواعد العامة على حقائق معينة، في سبيل استنباط نتائج محددة. أما في الإستدلال التراجعي فإننا نحصل على استنتاجات حول أحداث - أو أسباب - في الماضي بناءً على دلائل أو حقائق في الحاضر. لرؤية الفرق بين هذه الأنواع الثلاثة من الإستدلال، أنظر الحجج التالية:



ابحاثهم، وإعتبارها من وجهة النظر العلمية من الأسباب المحتملة في حدوث الأثر.

وهنا يحتاج الباحث الى زاوية ابستمولوجية أخرى للنظر من خلالها، لإكمال مبانيه المعرفية، حتى وإن اضطر الى الإعتماد على موقف أنطولوجي يحاكي من خلاله هذا الكون الواسع، وهذه الزاوية هي التي لا تروق الى كثير من أصحاب النزعات المادية والإتجاهات الإلحادية - والتي جعلتهم يرفضون نظرية أو اطروحة التصميم الذكي - ولكنها على كل حال زاوية موجودة، وهناك كثير من نور المعرفة يمكن أن يشاهد من خلالها. وقد تكون من خلال الخطاب

\* حجة استقرائية:

أ هي ب

أ هي ب

أ هي ب

أ هي ب

أ هي ب

إذن: كل أ هي ب

\* حجة استنباطية:

الإفتراض الأساسي: إذا حصلت أ، فستحصل ب منطقياً.

الإفتراض الثانوي: أ حصلت.

النتيجة: كذلك ستحصل ب.

\* حجة تراجعية:

الإفتراض الأساسي: إذا حصلت أ، نتوقع منطقياً حصول ب.

الإفتراض الثانوي: تم ملاحظة الحقيقة المفاجئة ب.

النتيجة: إذن هناك سبب للظن بوقوع أ.

اللاهوتي للإنسان، فصاحب ذلك الخطاب أعلم بخفايا الأمور، وهو أدرى بحجم ومقدرة الإنسان وهو يسعى في معرفة وكشف أسرار وخفايا الكون. والعجيب أنه عندما يبين للإنسان الوجود والنشأة لبعض الأشياء، ويجعلها حاضرة أمامه، يشيح بوجهه عنها، ويبقى مصراً بعناده، محاولاً أن يجد مبرراً وحلاً يقوم على أساس التجربة والحس، بالرغم من أن تفسير الحالة أو الظاهرة يجده بين طيات كتاب الله تعالى. ومتى ما عجز عن الوصول إلى إيجاد الدليل الحسي ظل حائراً يتخبط ويكابح ويقول ستكشف الأيام ما كان مخبوءاً، وهو يقصد إيجاد الشيء الحسي، ولا يرضى بأية نتيجة تظهر له حسب الإستنتاجات العقلية المجردة.

والآن لنأتي ونستعرض بعضاً من النظريات والآراء، التي حاول العلماء بها تفسير نشأة اللغة الإنسانية. مع بعض التوضيح والنقد إن احتاجت لذلك.

### المذهب الأول: مذهب الوحي والإلهام

أو مذهب "التوقيف" كما يقول ابن فارس اللغوي، ويتلخص هذا المذهب، في أن الله سبحانه وتعالى، لما خلق الأشياء، ألهم آدم عليه السلام أن يضع لها أسماء فوضعها. ويستند أصحاب هذا المذهب إلى أدلة نقلية مقتبسة من الكتب القديمة، فاليهود والنصارى يستدلون بما ورد في التوراة من قولها: (وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية، وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم، ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية، فهو اسمها، فسمى آدم جميع البهائم، وطيور السماء وجميع حيوانات البرية) سفر التكوين ٢/١٩ - ٢٠. ويستدل أصحاب هذا المذهب، من علماء العرب، بقوله تعالى: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ) البقرة: ٣١، فكان ابن عباس يقول:

(علمه الأسماء كلَّها، وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناس، من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها). وقد إختار ابن فارس اللغوي في كتابه (الصاحبي في فقه اللغة) هذا المذهب. أما ابن جنبي، فقد تصدى لشرحه والرد عليه، فقال: (وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله: أقدم آدم على أن يكون واضح عليها)<sup>(١)</sup>.

ولنا في هذا المقام توضيح وبيان:

الحقيقة إن مسألة خلق الله للأشياء ثم إلهام آدم عليه السلام بوضع الأسماء لها، عملية تحتاج الى بيان، ولعل بيانها من جهة فلسفية يكون أقرب لدفع الإشكالات التي تثار على أتباع هذا الرأي، فمن الثابت والمتيقن أنه عندما خلق الله تعالى الأشياء لا بد أن يكون لها نحو تمايز فيما بينها، وجزء من هذا التمايز هو اللغة التي توجد عند المخلوقات كلُّ بحسبه، والحاجة التي ينمو ويتكامل بها، أو قل التي تحقق الغرض من وجوده، ولا يوجد شيء يشذ عن هذه القاعدة، وكما عبّر عن ذلك في لغة الفلسفة والعرفان (ان كل شيء في هذا الوجود ينطق) وجهة النطق هي أحد الجهات التي ينال بها كماله، ولولا جهة النطق عند المخلوقات لما تمكنت من ترتيب أمورها والحفاظ على تجمعاتها وتكاثرها واحتياجاتها. ومن أبسط تركيب فيها الى أعقد التركيبات التي تزداد فيها النسبة التي تؤثر في هذا الوجود من ناحية عظمة تنوع الخلق، وتباين الوظائف فيها، أو لعلها تساهم في إمداد الطبيعة بعناصر البقاء والديمومة. وقد يتمكن الإنسان من معرفة جزء من هذه الإسهامات، وقد يخفى عليه كثير منها، الى أن يأتي اليوم الذي تنكشف فيه

(١) المدخل الى علم اللغة: د. رمضان عبد التواب، نشر مكتبة المتنبى، المملكة العربية

جميع الحقائق أو أغلبها، ولعل ذلك سيكون سبباً رئيسياً في استغلال كل مخلوقات هذا الوجود للحفاظ على الوجود نفسه، الذي يعبر ويتعدى المحيط الحيوي ونظامه الايكولوجي من سطح الأرض والماء والهواء، الى ما هو أوسع من ذلك بكثير، حتى يمد حبل تحرك الإنسان الى مسافات أكثر بكثير مما كانت في السابق، فتصوركم ستكون الحياة حينها واسعة وسعيدة، وتنعم بوضع كل إنسان بل كل مخلوق في محله المناسب له. أو قل تهيئة الأسباب التي تناسب طبيعته والهدف الذي وجد من أجله.

المهم الآن لنأتي ولنبحث عن دلائل تفيدنا في هذا المقام، وأظن بأننا لن نظفر بعلم وتصديق ذي بال، لا بالمنهج التاريخي ولا الوصفي ولا التجريبي ولا المناهج التراكمية ولا التزامنية ولا غيرها، ولا حتى بالبعد الدلالي، ولا بالإستقراء ولا بالإستنباط، وحينئذ ماذا علينا أن نفعل هل نستسلم ونغلق أفكارنا قبال هذه الأمور عاجزين أو ننتظر مكتشفات أثرية وحفريات تجود علينا بها قشرة الأرض لنبحث فيها عن اللسانيات الأثروبولوجية أو غيرها.

إذن حتى نتحرك علينا أن لا نقف، وفي أقل التقادير أن نبقي نراوح لتبقى دماء المعرفة تجري في العروق، حتى ننطلق من جديد نحو البحث والنظر لجهة قد أهملها اصحاب العلوم المادية الذين أصرّوا على أن لا تحقق، إلا بالتجارب الحسيّة، وكما يقول اصحاب النظرية المادية الجدلية: بأن العالم المادي هو الحقيقة الوحيدة الموضوعية الموجودة خارج شعورنا.

هذه النظرة يوفرها لنا النص الديني من خلال لغة الخطاب بين الله تعالى وبعض مخلوقاته، أو بين بعض المخلوقات فيما بينها، حتى وإن كان هناك تباين بالجنس والنوع بينها، فهناك أربعة خطابات بيّنة الدلالة قد أجراها الله تعالى مع

بعض مخلوقاته وهي:

الأول: خطاب الله تعالى مع الملائكة.

الثاني: خطاب الله تعالى مع إبليس.

الثالث: خطاب الله تعالى مع آدم.

الرابع: خطاب الله تعالى مع المخلوقات الأخرى.

والشيء الملفت أن بعضاً من هذه الخطابات قد حدثت قبل النزول الأرضي لآدم، بل منها خطابات وقعت حتى قبل أن يخلق آدم عليه السلام، أو حتى قبل تخلق الأرض كما حدث مع الملائكة.

وهناك حوارات قد حدثت فيما بين المخلوقات نفسها، والذي يهمنا منها ثلاثة وهي:

الأول: مستوى الحوار بين إبليس وآدم وزوجته الذي حدث قبل خروجهما من الجنة.

الثاني: مستوى فهم لغة المخلوقات الأخرى التي تصنف مع الأنواع المباشرة للنوع الإنساني.

الثالث: مستوى الخطاب الذي جرى بين ابني آدم في بدايات نشوء المجتمع الإنساني، أو قل بدايات تشكيل نواة الأسرة المؤنسة.

أما خطاب الله تعالى مع الملائكة، فنختار بعضاً من الآيات التي بينت ذلك والتي منها:

- (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)\* وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ\* قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) سورة البقرة: ٣٠-٣٢.

- وخطاب الله تعالى مع إبليس نختار بعضاً من الآيات:

- (قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ)\* قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)\* قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)\* قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ)\* قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)\* ثُمَّ لَاتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)\* قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مَّدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ) سورة الأعراف: ١٢-١٨.

- وفي آيات من سورة الحجر قال تعالى: (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ)\* قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)\* قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)\* وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ)\* قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)\* قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ)\* إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)\* قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)\* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ) سورة الحجر: ٣٢-٤٠.

- وأما خطاب الله تعالى مع آدم عليه السلام فنختار بعضاً من الآيات منها:

- (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ \* فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ \* فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ \* قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) سورة البقرة: ٣٥-٣٨.

- وأما خطاب الله تعالى مع مخلوقاته الأخرى فمنها خطاب الله تعالى مع السماء والأرض، وجوابها له سبحانه:

- (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) سورة فصلت: ١١.

- وأما مستوى الحوار بين إبليس وآدم وزوجته، فكما جاء في الآيات المباركة التالية:

- (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَىٰ \* فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوَاتِمُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) سورة طه: ١٢٠-١٢١.

- (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِمِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ \* وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ \* فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتَ لَهُمَا سَوَاتِمُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ \* قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ

تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ \* قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ  
وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (سورة الأعراف: ٢٠-٢٤).

- وأما مستوى الحوار بين الإنسان والمخلوقات الأخرى التي تشترك معه في وجوده الأرضي أو مستوى فهم اللغة التي يتكلم بها غيره، فيمكن أن نراه في الآيات المباركة التالية:

- مستوى فهم لغة تلك النملة التي حاولت أن تحذر قومها من سليمان وجنوده، وعندها تبسم سليمان عليه السلام ضاحكاً من نباهة وشعور النملة بمسؤوليتها الإجتماعية مع النمل، بحيث حذرت قومها من الدمار والهلاك الذي قد يأتي من قبل جيش سليمان وهم غير شاعرين بوجودهم. وكما جاء في الآيات الكريمة: (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ \* حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتِ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ \* فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) سورة النمل: ١٧-١٩.

- وكذلك الحوارية التي جرت بين النبي سليمان وبين طائر الهدهد، عندما رجع من بعد غيابه غير المعلوم، ليبرره بعرض قضية إطلاعه على سبأ وملكيتها بلقيس عساها أن تشفع له في مسألة العفو عنه، حيث قال تعالى: (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ \* لِأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ \* فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ مَحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ \* إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا



عَرْشٍ عَظِيمٍ \* وَجَدْتُمَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ  
 الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ \* أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي  
 يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ \* اللَّهُ لَا إِلَهَ  
 إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ \* قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ \*  
 أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ) سورة  
 النمل: ٢٠-٢٨.

وأما مستوى الحوار الذي دار بين ابني آدم، فالآيات التالية تظهره:

- (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ أَنْزِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ  
 الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ \* لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي  
 مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ \* إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ  
 بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ \* فَطَوَّعَتْ لَهُ  
 نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ \* فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي  
 الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا  
 الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) سورة المائدة: ٢٧-٣١.

## مستويات الخطاب المحتملة لآدم عليه السلام

والآن لو أتينا الى هذه الآيات ومستوى الخطاب الذي جرى فيها، واللغة المطروحة من خلال هذا الخطاب، وتساءلنا هل كان هذا الخطاب على نحو أحد الإحتمالات التالية:

أولاً:

على نحو إطلاق الأصوات العشوائية فقط، دون الانتقال الى مرحلة الكلام، ومن ثم تركيب الجمل. فيكون هناك فهم خاص بين صاحب الخطاب والمتلقي من دون أن يكون هناك أي تدخل بالمعنى اللغوي المتعارف.

ثانياً:

أن يكون على نحو الإلهام، فيكون المخاطب يفهم ما يريد صاحبه صاحب الخطاب على نحو الميل القلبي والشعور الوجداني، الذي يتعدى مرحلة الخاطر والهاجس، الى مرحلة اليقينية بتلك الإلهامات الواردة على القلب، ليتخذ بعدها القرار أو التصرف المناسب مع المستوى العقلي في تلك المرحلة الأولى أو البدئية لنشأة الإنسان. فيكون حينئذ لا صوت يداعب أذن السامع كزقزقة العصافير أو صوت المدعور الخائف أو أي صوت من أصوات الطبيعة كهزير الماء أو حفيف الأشجار أو دوي الريح أو حتى هفيفها.

ثالثاً:

أم كانت تلك الخطابات والإجابات تصدر على نحو الإشارة والحركات الإرادية ذات البعد القصدي في ما نريده من تلك الحركات والإيماءات، لتأخذ

بالتالي مقام الحجية من باب الإستدلال بها في مقام التكليف وغيره، وليس على نحو الهزل والمراد غير الجدي في اللحظة المرصودة. وحينها سنتقل من مجرد حركات وإيحاءات الى نصائح وتوجيهات تبنى وتتضح سعادة أو تعاسة الإنسان من خلالها، وفي أدق التفاصيل وأكثرها إرتباطاً بوجوده، أو قل في صميم وجوده، وليس بأي معنى آخر.

رابعاً:

أم كان الخطاب لغوياً كاملاً بأصواته وبنيته ودلالاته وتركيبه بجمله التامة، الدال على القصدية في إيصال المعنى المطلوب وإحضاره في ذهن الآخر، لتكون اللغة نظاماً علامياً له خصائصه التي تميزه عن الأنظمة العلامية الأخرى، وهو عنصر مشترك لأرومات بشرية إحيائية وإجتماعية مختلفة.

والإجابة عن ذلك تكون بالشكل التالي:

أما بالنسبة الى مسألة الأصوات بإعتبارها هي وسيلة التفاهم الأولى عند الإنسان، فهذا بعيد عن المنال وذلك لعدة أسباب منها:

١- إن مسألة الاصوات هي مسألة ثابتة ومتأصلة عندما وجدت الحيوانات بأنواعها المختلفة، فكان لكل حيوان صوته الخاص به، لا بل حتى للريح صوتاً وللحاء صوتاً، وغير ذلك من الأشياء، وقد ثبت أن هذه الأصوات التي تصدرها الحيوانات هي لغة وإشارات تستخدمها فيما بينها للتعبير عن الجوع أو العطش أو الخوف من خطر ما أو لأغراض التزاوج أو حتى اللعب.

وهذا الأمر ثابت لها منذ وجودها على هذه الأرض ولم تحتاج الى فترة من الزمن حتى تتعلم وتكتسب ذلك من خلال التجربة وغيرها، ولكن بمجرد

ما وجدت، وُجد معها صوتها الخاص بها، والذي تعبر به عن بعض من أحاسيسها وشعورها، حتى وإن كانت بسيطة وساذجة. ويعتبر هذا الشيء من حقها الطبيعي في هذا الوجود، وجزء من كينونتها المكمل لسنخيتها وطبعها، فكما أن الأسد وجد مفترساً ولم يتعلم مسألة الإقتراس بالتدريب والممارسة، كذلك وجد معه الزئير الخاص به من دون الحاجة الى التعلم.

وحيث لو كان الإنسان يتعامل بالأصوات فقط، فسيكون حاله كباقي الحيوانات في لغة الخطاب، وذلك لأن أصوات الحيوانات هي سمة بايولوجية عند الجميع، ولا يمكن أن تنفك عنها، وجهازها الذي تصدر منه الأصوات غير مؤهل لتشكيل اللغة التي تصدر من الإنسان، لأنه يمتلك جهازاً نطقياً يختلف عنها جميعاً، وهو مهياً ووجد لخروج الحروف وتشكيل الكلمات وتركيب الجمل بترددات صوتية مختلفة، ليعبر من خلالها عما يدور في ذهنه ومشاعره، من أجل الارتباط بالآخرين والتواصل معهم، كونها استجابة ضرورية لحاجة الإتصال بين الناس، لتشكل بالتالي نشاطاً اجتماعياً تتحرك من خلاله أوجه الحياة الإنسانية بجميع صورها. وستكون اللغة عند استعمالها في أول وجود للإنسان حالها حال أجهزة وأعضاء جسم الإنسان كاليد والقدم والقلب والرئتين والعينين والأذنين وهكذا، فهي قد أدت وظيفتها منذ وطء الإنسان الأرض، ولم تتخلف تلك الأعضاء عن أداء وظيفتها، فكذلك أجهزة النطق عند الإنسان لم تتخلف عن أداء وظيفتها، بإصدار الأصوات المناسبة، لتكون على هيئة حروف تتركب منها الكلمات والجمل التي تعبر عن غايات ومقاصد متعددة، منذ الوجود الأولي للإنسان. وجهاز النطق قد قام بهذا الدور وأبرز ما عليه القيام به سواء في مرحلة خلق آدم الكامل، أو التهيؤ والتدريب والتعلم بالنسبة لأبنائه أو الأجيال التي تأتي

من بعده.

علماً أن جهاز النطق عند الإنسان لم تكن في يوم ما وظيفته منحصرة في إصدار الأصوات والحروف والكلمات، بل له وظائف حيوية أخرى، لم يتخلف عن أدائها. فالشفتين يستخدمان على سبيل المثال لتلقي الطعام، وكذلك تستخدمان صاماً لمنع الطعام من الخروج من الفم، والأسنان تستخدم لتقطيع الطعام ومضغه، واللسان لتقليب الطعام وتذوقه، وأما الأنف وتجويفه فهما حجرة يتكيف فيها الهواء قبل نزوله إلى الرئتين، وأما الحلق فإنه ممراً للطعام والهواء كليهما، وينتهي الحلق بالحنجرة، وفيها الأوتار الصوتية التي تؤدي وظيفة الصمام للرئتين لحفظهما، ولحبس الهواء فيها عند الحاجة إليه، أما القصبة الهوائية، فإنها الطريق الذي يمر به الهواء الداخل للرئتين أو الخارج منها، وأما الرئتان فإنها لتنقية الدم الموجود بالجسم، بإعطائه الأوكسجين، وتخليصه من ثاني أوكسيد الكربون وهكذا. وعلى ذلك فالنطق في الواقع، ليس أكثر من وظيفة تؤديها هذه الأعضاء، إلى جانب قيامها بوظائفها الرئيسية التي خلقت من أجلها<sup>(١)</sup>.

٢- إن الأصوات عند بعض الحيوانات تشبه بعض الحروف التي تصدر من الإنسان وهو ينطق بها، مثل مواء القطه فهو مشابه لصوت حرف الميم حينما ينطق به الإنسان، أو مثل عواء الذئب وكذلك أصوات بعض الطيور التي تشبه نطق حروف السين والصاد أو القاف عند الإنسان وغيرها الكثير.

والحيوانات عندما تصدر مثل هذه الأصوات فإنها في الغالب يكون لها قصد

(١) ينظر: المدخل إلى علم اللغة، مصدر سابق، ص ٢٧ وما بعدها.

وغاية من وراءها تريد أن تشعر أفراد نوعها بها، أو حتى تكون طريقة لإرسال رسائل التحذير الى الحيوانات الأخرى في حالة وجود خطر ما. وهي بالتأكيد عندما تصدر مثل هذه الأصوات وعدم الانتقال أو إستخدام التنوع في الاصوات، ذلك لأنها لا تمتلك مقومات وأجهزة نطق تعينها على ذلك، لا من حيث الإستعداد، ولا القابلية والقدرة العقلية، ولو كان لها لأستخدامتها، بإعتبارها هي جزء من كيانها ووجودها.

وحينها يكون من غير المنطقي أن يحصر الإنسان لغته ببعض الأصوات التي تصدر نتيجة لفظ بعض الحروف دون غيرها لتكون هي مدار تفاهمه وإرتباطه الإجتماعي مع الآخرين، وهو يمتلك كل مؤهلات تشكيل الحروف بأصواتها ونطقها المختلف بعضها عن البعض الآخر، والتي عجزت الحيوانات عن الإتيان بمثلها لقصورها الذاتي عن ذلك. وحينئذ يكون من الضروري أن يبرز الإنسان كل قابلياته التي وجدت معه في عالم الطبيعة ليسير بها خطوة خطوة نحو التكامل لتحقيق هدفه المنشود. والتي إبتدأها آدم عليه السلام حيث استخدم كل طاقاته التي تناسب تلك المرحلة من الوجود، وليؤسس لخلافة الإنسان في الأرض، بإعتبارها كأمانة في عنقه وذريته الصالحة، وذلك بإنشاء طرق التربية والتعليم المنوط تكاملها بالوجود الإنساني، وليساهم بعث الأنبياء، وعناصر الوسط الطبيعي كالمناخ والتضاريس والتربة والمياه والتكوين الجيولوجي، والحياة النباتية والحيوانية والموقع الجغرافي في زيادة إنماء وتطور اللغة وإثرائها.

إذن يفهم من ذلك إن مرحلة الخطاب الصوتي التي إفترضنا أن الإنسان الأول قد تعامل بها في تلك الحقبة من الزمن لا يمكن أن تتم، وذلك لوجود قدرة النطق الكامل التي زود بها من قبل خالقه، ولا يمكن تعطيل هذه الجهة

البتة، وخصوصاً لعدم وجود الضرورة الملحة على مثل ذلك، بل على العكس، الضرورة هي المبرر الرئيس لنطق الإنسان، وبلغه قد شملت جميع المخرجات اللغوية في تلك المرحلة من التاريخ.

أما بالنسبة الى مسألة الإلهام وإن الذي جرى من مسائل حوارية متعلقة بهذا الوصف، فهذا يلاقي عدّة اعتراضات وإشكالات منها:

١- إن الأمر يبدو واضحاً بان الخطاب والحواريات التي جرت كلها كانت تدل بالدلالة التطابقية على وجود نوع من اللغة قد تم تداولها بين الطرفين، ولم يوجد بين أيدينا أية قرينة تؤيد مسألة الحوار الإلهامي، أو هناك تخاطر<sup>(١)</sup> Telepathy كما صاغه الباحث النفسي "فريدريك مايرز" عام ١٨٨٢م وذلك نتيجة دراسة أجراها حول إمكانية انتقال الأفكار وتزامنها بين شخصين.

(١) التخاطر: Telepathy. هو اللفظ الإفرنجي المأخوذ من اللفظ اليوناني "tele" عن بعد و pathen يختبر وهو يعني الانتقال عن بعد للخواطر والوجدانيات وغيرها من التجارب الشعورية المعقدة، من عقل الى عقل، على سبيل الوصلة، مع الزعم بأن هذا الانتقال يتم بتغير الوسائل الحسية المعروفة. ويجب تمييز التخاطر عن قراءة الأفكار mind-reading التي يستخدم فيها القارئ وسائل حسية شعورية أو غير شعورية لمعرفة ما يجول في خاطر شخص آخر موجود معه، وذلك بالاستعانة ببعض الدلائل والإشارات وباستنتاج شواهد الحال؛ وعن القراءة العضلية muscular-reading لخواطر شخص آخر عن طريق القبض على يده، مهتدياً بالإختلاجات العضلية وبغيرها من الحركات العضلية المصاحبة للتفكير، وتسمى أيضاً نقل الأفكار Thought tran sference. (المعجم الفلسفي - مراد وهبة، ص ١٨٢).

٢- ثم اننا إذا تم عندنا قبول مثل هكذا نوع من الحوارات التي تحدث بالتخاطر، بحيث يتم معرفة الإنتقالات الذهنية والعمليات العقلية المعقدة من شخص الى آخر، نتيجة إحتيالية الإمكانية في حدوثها، فمن المفروض أن تحدث في مستقبل البشرية ورقياً في مسارات التكامل واستغلال كل تعبيرات الجسد وإيحائاته بصورة دقيقة ومحسوبة، لا أن تحدث في المستوى البدئي للبشرية، وهي لا زالت في دور النمو والإرتقاء.

أما بالنسبة الى مسألة أن الخطابات والإجابات كانت تصدر على نحو الإشارة والحركات الإرادية المقصودة فهي الأخرى تواجه إشكالات متعددة منها:

١- إن مسألة لغة الإشارة والتعبير من خلالها على تلك المفاهيم التي حملت بين طياتها بنى معرفية تنم عن وجود أفق حوار متطور، وليس بالهين الإحاطة به بمجرد حركات وإشارات، وإنما إذا بقينا بنفس السياق، فإننا نحتاج الى زمن طويل نسبياً حتى يتم التدريب على معرفة لغة الإشارات مضافاً الى أنه يجب أن يكون هناك إتفاق مسبق بين الأطراف المتحاوره، سواء إذا كان الخطاب يحدث بين شيئين يشتركان بالنوع والسنخية أو شيئين مختلفين. وهذا بالتأكيد يحتاج الى مهارات عالية، لتعطي بعد آلي ووظيفي جديد لأعضاء هي بالأصل غير مسؤولة عن إيجاد مثل هذه الحركات والإشارات ذات التعابير الدقيقة والمولدة لكثير من المفاهيم والإدراكات العقلية.

٢- هناك شيء آخر مهم، وهو اننا إذا نبحت أو نحاول أن نوجد وظيفة جديدة لعضو من الأعضاء البشرية، فإننا في نفس الوقت سوف نعطل عضو آخر وجهة ثانية عن أداء وظيفتها التي خلقت من أجلها، وهذا سيؤدي بالتالي، الى



وجود العبثية في الخلق، عندما يستخدم عضواً محل آخر، أو إجباره على أداء وظيفة مع عدم وجود اللزوم لها أو الإضطرار.

وإما إذا كان الخطاب الإنساني منذ بداياته خطاباً ضمن نظام لغوي خاص، وبحروف وكلمات مركبة، تعبر عن مراد المتكلم، فهذا ما سيظهر جوابه في البحوث القادمة إن شاء الله تعالى.

### المذهب الثاني: مذهب المواضعة والاصطلاح

هذا المذهب ذكره ابن جنبي. فقال: (إن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة، وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً، فيحتاجون إلى الإنابة عن الأشياء، فيضعوا لكل منها سمة، ولفظاً يدل عليه، ويغنى عن إحضاره أمام البصر. وطريقة ذلك أن يقبلوا مثلاً على شخص، ويومئوا إليه قائلين: إنسان! فتصبح هذه الكلمة اسماً له، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أو رأسه أو قدمه، أشاروا إلى العضو وقالوا: يد، عين، رأس، قدم .. الخ.

ويسرون على هذه الوتيرة، في أسماء بقية الأشياء، وفي الأفعال والحروف، وفي المعاني الكلية، والأمور المعنوية نفسها، وبذلك تنشأ اللغة العربية مثلاً. ثم يخطر بعد ذلك لجماعة منهم كلمة: (مرد) بدل إنسان، وكلمة: (سر) بدل رأس، وهكذا تنشأ اللغة الفارسية<sup>(١)</sup>.

وليس لهذا المذهب أي سند عقلي أو نقلي أو تاريخي، بل إن ما يقرره ليتعارض مع النواميس العامة، التي تسير عليها النظم الاجتماعية، فعهدنا بهذه

(١) المدخل الى علم اللغة، مصدر سابق، ص ٩٧ نقلاً عن كتاب الخصائص، ج ١، ص ٤٤.

النظم أنها لا ترتجل ارتجالاً، ولا تخلق خلقاً. بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها. هذا إلى أن التواضع على التسمية، يتوقف في كثير من مظاهره، على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون. فكيف نشأت هذه اللغة الصوتية إذن؟ وهكذا نرى أن ما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة، يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل<sup>(١)</sup>.

نعم هذا المبنى يصلح لإيجاد ألفاظ جديدة لمعاني جديدة أو ظواهر لم يكن لها إسم مسبق، فهنا يأتي الواضع ليضع قبالتها لفظاً، وبالإستعمال يصبح هو سمتها الخارجية. وهذا ما يطلق عليه بالوضع التعييني والقصدي. أما أن نأتي ونضع مذهب المواضعة ليتصدى لبيان نشوء اللغة، فهذا غير ممكن. لأن المواضعة نفسها تحتاج إلى لغة مسبقة، فمن أين أتت اللغة؟ وهكذا نقول أن الوضع جاء نتيجة وجود لغة مسبقة، واللغة جاءت نتيجة الوضع، وهذا هو عينه ما يسمى بالدور، والدور باطل، كما هو معروف عند المناطقة، وذلك لإستحالة باعتماد أنه يستلزم تقدم الشيء على نفسه بالوجود واجتماع التقيضين.

### المذهب الثالث: مذهب المحاكاة

وخلاصة هذا المذهب أن الإنسان سمي الأشياء، بأسماء مقتبسة من أصواتها، أو بعبارة أخرى أن تكون أصوات الكلمة، نتيجة تقليد مباشر، لأصوات طبيعية صادرة عن الإنسان أو الحيوان أو الأشياء. وتسمى مثل هذه الكلمات عند علماء الغرب: *onomatopoeia*.

وقد عرض لهذا الرأي من علماء المسلمين ابن جنى، فقال: (وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها، إنما هو من الأصوات المسموعات، كدوي الريح،

(١) المصدر نفسه، ص ٩٧.

وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الطيبي، ونحو ذلك. ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد).

وأول من دافع عن هذا المذهب من علماء الغرب بالتفصيل العالم الألماني (هردر) في كتابه (بحوث في نشأة اللغة) الذي نشره سنة ١٧٧٢م.

ويقول مؤيدوا هذه النظرية، ما نجده في بعض الأحيان، من إشتراك في بعض الأصوات، في الكلمات التي تحاكي الطبيعة في عدة لغات، فإن الكلمة التي تدل على (الهمس) هي في العربية - كما نعرف: "همس"، وفي الإنجليزية "Whisper"، وفي الألمانية "فلوسترن" Flustern، وفي العبرية "صفصف"، وفي الحبشة "فاصي"، وفي التركية "سوسمك" Susmak. فالعامل المشترك بين هذه اللغات جميعها في تلك الكلمة، هو صوت الصفير: السين أو الصاد وهو الصوت المميز لعملية الهمس في الطبيعة.

غير أن اشتراك اللغات في الكلمات المحاكية للطبيعة، على هذا النحو، أمر نادر. ولو كانت هذه النظرية صحيحة، لاحظنا اشتراكاً بين اللغات في الكلمات التي تحاكي الطبيعة، مثل الشق، والدق، والقطع، والصهيل، والعواء، والمواء، وما إلى ذلك.

ويرى بعض العلماء بناء على هذه النظرية، أن مناسبة اللفظ للمعنى مناسبة حتمية، وبمعنى أن اللفظ يدل على معناه دلالة وجوب، لا انفكاك فيها.

ويمتاز مذهب المحاكاة، بأنه يشرح لنا مبلغ تأثير الإنسان، في النطق بالألفاظ بالبيئة التي تحيط به، غير أن أهم ما يؤخذ عليه، أنه يحصر أساس نشأة اللغة، في الملاحظة المبنية على الإحساس بما يحدث في البيئة، ويتجاهل الحاجة

الطبيعية الماسة إلى التخاطب والتفاهم، والتعبير عما في النفس، تلك الحاجة التي هي من أهم الدوافع إلى نشأة اللغة الإنسانية، فإن الرغبة الذاتية في التعبير، والحاجة الماسة إلى التفاهم، كلاهما من أهم الدوافع، التي يجب أن يعتد بها في نشأة اللغة واضطرار الإنسان الأول للنطق بالألفاظ.

هذا وإن المذهب، لا يبين لنا كيف نشأت الكلمات الكثيرة، التي نجدتها في اللغات المختلفة، ولا ترى فيها محاكاة لأصوات المسميات، ويتضح ذلك بوجه خاص في أسماء المعاني، كالعدل، والمروءة، والكرم، والشجاعة، وغير ذلك<sup>(١)</sup>.

والآن سنضيف اعتراضاً آخر على أصحاب هذا المذهب له منحى دقي بعض الشيء وهو:

هناك مفاهيم ومعاني كثيرة مجردة كالعدل والشجاعة والإيثار وغيرها، وهذه المفاهيم ومعانيها عند البشرية كلها واحدة، ولا نكاد نرى لها إختلاف بين كل الشعوب، وهذا يدل على أن هناك شعوراً بشرياً موحداً يُسَقِّط على مثل هذه المفاهيم. وهذا يحدث نتيجة وجود الفطرة السليمة لدى الإنسان، التي أودعها الله تعالى فيه، بحيث مهما حاول الإنسان أن ينحرف عن هذه الفطرة أو يبتعد عنها، إلا أنه تبقى لها آثار تخص الفرد نفسه من جهة، والمجتمع الإنساني من جهة أخرى، لتنتج مشتركات لا يمكن الإختلاف فيها، مهما حاول الفرد أن يتغاضى أو يبتعد عنها. فالذي أريد أن أصل إليه إن مثل هذه الأحكام أو المفاهيم تصدر من محل واحد للشعور الإنساني فمن المفروض أن ما سيشكله الفرد من ألفاظ للتعبير عن تلك المفاهيم في عالم الخارج، أن تكون واحدة لا إختلاف فيها، بل

(١) ينظر: المدخل الى علم اللغة، ص ٩٧ وما بعدها، وكتاب الخصائص لابن جني، ج ١، ص ٤٦ وما بعدها.

هي في الواقع يجب أن تكون أبلغ في التأثير على إيجاد الألفاظ المتساوية بين البشر كلهم، بإعتبار صدق الحكم على تلك المفاهيم المجردة، وهي أقرب للموضوعية بمعناها الدقيق من الموضوعية التي تجلب من الظواهر الطبيعية التي من الممكن أن تتغير صورها وأصواتها وآثارها بحسب القوى الحسية للإنسان، بإعتبار أن ما يراه بعض الناس جميلاً في الصوت والصورة أو غيرها من الأشياء، فهو قد يكون قبيحاً عند البعض الآخر وهكذا. وهنا سيصعب إيجاد اللغة الموحدة أو المقاربة بين الناس، وهذا على العكس من ناحية النظرة الواحدة الإتفاقية نحو العدل والشهامة والكرم و.. و.. ولكننا بالرغم من ذلك لا نجد أي تقارب أو تشابه في ألفاظ تلك المفاهيم، بالرغم من أنها تتبع من شعور وإحساس موحد لدى كل البشر، وعلى هذا الأساس، فمثل هذه النظرية واقعاً لا تصلح لأن تكون تفسيراً معتداً به لأصل نشوء اللغة.

### المذهب الرابع: نظرية التنفيس عن النفس

وتتلخص في أن مرحلة الألفاظ، قد سبقتها مرحلة الاصوات الساذجة التلقائية الانبعاثية، التي صدرت عن الإنسان، للتعبير عن ألمه أو سروره أو رضاه أو نفوره، وما الى ذلك من الأحاسيس المختلفة، فهذه الأصوات الساذجة، قد تطورت على مر الزمن، حتى صارت ألفاظاً.

ويشرح (فندريس) تصور أصحاب هذه النظرية، لكيفية نشأة اللغة، فيقول: (عند هذا السلف البعيد، الذي لم يكن نحه صالحاً للتفكير، بدأت اللغة بصفة انفعالية محضة. ولعها كانت في الأصل مجرد عناء، ينظم بوزنه حركة المشي، أو العمل اليدوي، أو صيحة كصيحة الحيوان، تعبر عن الألم، أو الفرح، وتكشف

عن خوف أو رغبة في الغذاء.

بعد ذلك لعل الصيحة اعتبرت، بعد أن زودت بقيمة رمزية، كأنها إشارة قابلة لأن يكررها آخرون. ولعل الإنسان وقد وجد في متناول يده هذا المسلك المريح، قد استعمله للإتصال ببني جنسه، أو لإثارتهم الى عمل ما أو لمنعهم منه.. هذا الفرض تبدو عليه مخايل الصدق، وأن لم يكن مما يمكن البرهان عليه).

وتعتبر هذه النظرية ناقصة وغامضة. أما نقصها، فلأنها لا تبين منشأ الكلمات الكثيرة، التي لا يمكن ردها الى أصوات انفعالية. وأما غموضها، فلأنها لا تشرح لنا السر في أن تلك الأصوات الساذجة الانفعالية، تحولت الى ألفاظ أو أصوات مقطعية، فلهذين الأمرين انصرف عنها اللغويون<sup>(١)</sup>.

ومما يؤخذ على أصحاب هذا المذهب أيضاً، هو أنهم يبنون نظريتهم على أساس أن هناك مرحلة من المراحل البدئية للإنسان كان فيها مفتقداً الى عناصر اللغة التي يمكن عنونها بالمبادئ الأولية للغة، فالإنسان في تلك البدايات كان فاقداً للتركيبات اللغوية المفهومة للآخر، حتى وإن كانت قليلة وضمن أطر ضيقة تناسب ذلك المحيط والبيئة. بل كان عندهم أنه مخلوقاً لا يمتلك إلا الأصوات الساذجة والتي تطورت مع مرور الزمن، وأصبحت ألفاظاً. ولا نعلم كم إحتاجت من الزمن للوصول الى العتبة اللفظية الأولى. فهم أعجز من أن يبينوا هذا الأمر، لا بل أنهم لا يستطيعون حتى أن يعطونا أرقاماً تقريبية أو تخمينية. وحيثئذ ستتولد إشكالات كثيرة، تثيرها الأديان عن الوجود الأرضي لآدم عليه السلام، ولغة الحوار التي قدمتها النصوص الدينية، مضافاً الى ما يقدمه علم

(١) ينظر: المدخل الى علم اللغة، مصدر سابق، ص ١٠٠.

الأركيولوجيا وهو يحكي على لسان آلهته وأبطاله عن الظهور الأولي للإنسان، والحوارات التي رافقت ذلك الوجود.

ثم كيف تمكن ذلك المخ غير الصالح للتفكير، من أن يحول الأصوات المشابهة لصيحة الحيوان، المعبرة عن الألم أو الفرح أو الرغبة في الغذاء الى أن تكون قابلة للتكرار بينه وبين الآخرين، بعد أن يضيف لها قيمة رمزية كما يقول "فندريس" وهو يشرح تصور اصحاب هذا المذهب!.

### المذهب الخامس: نظرية الإستعداد الفطري

وهي النظرية التي أذاعها اللغوي الألماني (مكس موللر)، ودعاها نظرية: "دنج دونج" Ding Dong. وخلاصتها أن الإنسان مزود بفطرته، بالقدرة على صوغ الألفاظ الكاملة، كما أنه مطبوع على الرغبة في التعبير عن أغراضه، بأية وسيلة من الوسائل، غير أن هذه القدرة على النطق بالألفاظ، لا تظهر آثارها إلا عند الحاجة، أو في الوقت المناسب.

وحيثما سمى (مكس موللر) نظريته هذه، بنظرية (دنج دونج) إنما كان يريد أن يشبه هذه القوة الفطرية، بلولب الساعة الملتف في باطنها، ويشبه حوادث الزمن ببندول الساعة، الذي يتحرك، فيخرج بتحريكه القوة الكامنة في الساعة، التي ينطوي عليها اللولب، فالزمن ومقتضيات الأحوال، هي التي تخرج هذه القدرة من حيز القوة الى حيز الفعل. وكأن النفس البشرية مخزن ممتلئ بالألفاظ، يفتح شيئاً فشيئاً بمفتاح الزمن ومقتضيات الحياة الواقعية.

ولعل الذي دعا (مكس موللر) الى وضع هذه النظرية، ملاحظة الأطفال، في حياتهم اليومية الحرة، التي تدل على أنهم تواقون الى وضع أسماء للأشياء، التي

يرونها ولا يعرفون لها أسماء، وانهم يبتكرون أسماء لم يسمعوها من قبل، إرضاءً لرغبتهم الفطرية في التكلم والتعبير عن أغراضهم، فاستنبط من ملاحظته هذه أن الإنسان مزود بتلك القوة، التي تنشأ عنها الألفاظ.

وهذه النظرية لا تحل المشكلة، فإن لنا أن نسأل صاحبها: كيف ومتى زود الإنسان بهذه الذخيرة اللغوية؟ وكيف انطوت نفسه عن تلك الألفاظ الكاملة؟ وإذا كان قد زود بفطرته بهذه الألفاظ، فلم اختلفت اللغات وتعددت اللهجات؟ فإننا نكاد نجزم بأن آثار القوى الفطرية، لا بد أن تكون متحدة الى حد ما. ثم كيف تسنى للإنسان أن يخرج تلك الألفاظ من مكانها، ويطلقها على المسميات المختلفة؟ وهذه النظرية تنقل الباحث من مشكلة الى مشكلات أعمق منها، وربما كان من أبرز عيوبها أنها تفترض ظهور الكلمة أو الكلمات الأولى لدى الإنسان كاملة غير خاضعة لسنة التطور<sup>(١)</sup>.

في الحقيقة يجب علينا أن نلتفت الى شيء مهم وهو؛ صحيح ان الإنسان مزود بفطرته بالقدرة على صوغ الألفاظ الكاملة، كما أنه مطبوع على الرغبة في التعبير عن أغراضه، ولكن هذه القدرة على النطق بالألفاظ لا تظهر وحدها عند الحاجة وبدون سبب أو تدخل عوامل أخرى، كما يذهب اللغوي "مكس موللر" حسب نظريته "دنج دونج"، وكأن النفس البشرية مخزن ممتلئ بالألفاظ، فتخرج منه الكلمات حسب الزمن ومقتضيات الحياة، وبإنسيابية تامة. فالأمر ليس كذلك، صحيح ان الإنسان مزود بفطرته بالقدرة والإستعداد على صياغة الألفاظ وأن يضع كل لفظ قبال المعنى المخصص له. ولذلك كان الله تعالى هو المعلم الأول لآدم عليه السلام وكما جاء في الآية المباركة: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ

(١) ينظر: المصدر نفسه، ص ١٠١ وما بعدها.



كُلَّهَا) سورة البقرة: ٣١. ومن ثم كان آدم هو من علم أبناءه طريقة التكلم، وهكذا استمر التعلم من الآباء الى الأبناء. ولم تجمد اللغة على ألفاظ معينة، وإنما استمرت بالتطور والنمو بحسب تكثر مفردات الطبيعة والعلاقات الإجتماعية.

### المذهب السادس: نظرية الملاحظة

وصاحب هذه النظرية هو العالم الألماني (جيجر) Geiger فقد برهن هذا العالم على أن أقدم ما أمكنه الوصول إليه، من الأصوات اللغوية الأولى، يعبر عن أعمال أو إرشادات إنسانية. ومن هذه الحقيقة، استنبط أن تلك الأعمال والإرشادات، كانت لا محالة، هي التي لفتت نظر الإنسان الأول، وأثارت إهتمامه، وأنها كانت أول ما عرف الإنسان عن أخيه الإنسان، ولذا تمكنت من نفسه وحلت منها مكاناً حصيناً، فإن مشاهدة الإنسان لغيره، وهو متلبس بعمل من الأعمال الهامة، أو متأثرة بحال انفعالية قاسية، أثارت أقصى اهتمامه، وجعلته يتأثر به تأثيراً ألياً، بطريقة المحاكاة العكسية، فتظهر على وجهه علامات التأثر نفسها، البادية على وجه زميله. وقد حمله هذا الإنباه الى العمل، وملاحظة أخاه وهو يعمل، على أن تصدر منه، إشارة تلقائية، أو صوت ساذج معبر عن هذه الملاحظة. وعلى مر الأيام، وبتكرار التجارب المتشابهة، تطورت الأصوات الى كلمات، واستغنى عن الإشارات كلها، أو بعضها على الأقل.

ومع أن وضع هذه النظرية، يعد خطوة أخرى في سبيل حل المشكلة، فإنها لم تستطع أن توضح لنا، بأسلوب مفهوم معقول، كيف وضعت تلك الأصول العامة الأولى، التي يقول صاحب النظرية، إنها تتعلق بأعمال الإنسان أو إشاراته، والتي يعدها الكلمات الأولى، التي اشتقت منها غيرها من الكلمات. على أنه من

المتعذر، إرجاع جميع الكلمات التي تتكون منها اللغات كلها، الى تلك الأصول العامة<sup>(١)</sup>.

ويعترض على أصحاب هذه النظرية بإعتراض آخر؛ ولماذا يتأثر الإنسان تأثيراً آلياً بطريقة المحاكاة العكسية، فتظهر على وجهه علامات التأثر نفسها، البادية على وجه زميله، فتصدر منه إشارة أو صوت ساذج، معبر عن هذه الملاحظة، وبمرور الأيام والتكرار تتطور الأصوات إلى كلمات، واستغني عن الإشارات.

بينما الطبيعة البشرية حسب القوة المودعة من الله تعالى فيها تقتضي إفادة مقاصد الإنسان بالألفاظ، فيخترع من عند نفسه لفظاً مخصوصاً عند إرادة معنى مخصوص - كما هو المشاهد من الصبيان عند أول أمرهم - فيتفاهم مع الآخرين الذين يتصلون به، والآخرين كذلك يخترعون من أنفسهم ألفاظاً لمقاصدهم، وتتألف على مرور الزمن من مجموع ذلك طائفة صغيرة من الألفاظ، حتى تكون لغة خاصة، لها قواعد يتفاهم بها قوم من البشر. وهذا يتوافق مع النظرية الحديثة لنشوء اللغة القائلة بأن اللغة ظاهرة إجتماعية تخضع لمواصفات وشروط الظاهرة الإجتماعية التي منها (التلقائية)، ومن هنا قالوا: إن اللغة تنشأ نتيجة الحاجة الى التفاهم<sup>(٢)</sup>.

(١) ينظر: المدخل الى علم اللغة، مصدر سابق، ص ١٠٢ وما بعدها.

(٢) ينظر: دورس في اصول فقه الإمامية. العلامة د. عبد الهادي الفضلي، نشر مركز الغدير

للدراستات، بيروت، ط ١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م: ج ١، ص ٣٤٧.

## المذهب السابع: نظرية التطور اللغوي

لقد تأثر واضعوا هذه النظرية، بنظرية التطور العام، التي أذاعها (دارون) وحاول أن يبرهن على أثرها في جميع النواحي بعامة، وفي حياة الفرد والنوع الإنساني بخاصة، وقد أدت دراسة النمو اللغوي عند الطفل، الى ادعاء أصحاب هذه النظرية، بأن هذا النمو يشبه تطور لغة النوع الإنساني. وهم يزعمون أن لغة الإنسان الأول، سلكت مراحل فطرية متعددة، متمشية مع مراحل نموه العقلي، وهذه المراحل هي:

١- مرحلة الأصوات الساذجة الإنبعائية. التي صدرت عن الإنسان في العصور الأولى، حين كانت أعضاء النطق لديه غير ناضجة.. وإنما نلاحظ نظير هذه المرحلة في الطفل، حين تصدر عنه في أول عهده بالنطق بعض أصوات مبهمه، لا يفهم منها في كثير من الأحيان.

٢- مرحلة الأصوات المكيفة المنبئة عن الأغراض والرغبات. المصحوبة بالإشارات، التي تساعد الأصوات، مساعدة فطرية، في الإبانة عن الأغراض. وقد ساعد على هذا التطور في الأصوات وتكيفها، نمو أعضاء النطق من جهة، ونمو الإحساس والشعور الذاتي لدى الإنسان من جهة أخرى. وتناظر هذه المرحلة في نمو الطفل اللغوي، تلك المرحلة التي يصل إليها في أواخر السنة الأولى... وفي هذه المرحلة من مراحل النمو اللغوي عند الإنسان لم يكن هناك فرق، بين أصوات الإنسان وأصوات الحيوان، الدالة على شعوره بالخوف أو الحنين، أو النفور أو الرضا.. فهو بهذه الأصوات يعبر عن شعوره.

٣- مرحلة المقاطع. وفيها انتقلت لغة الإنسان من أصوات غير محددة المعالم، إلى أصوات محددة، في صورة مقاطع قصيرة، مستنبطة من أصوات الأشياء أو الظواهر الطبيعية. ويبدأ الطفل مرحلة تناظر هذه المرحلة، في الشهور الأولى من السنة الثانية. وذلك حين ينطق بمقاطع متكررة، يطلب بها ما يريد، أو يدل بها على أشياء معينة.

٤- مرحلة الكلمات المكونة من المقاطع. وفي هذه المرحلة تتكون من المقاطع التي سبق الحديث عنها، الكلمات أو الأصول العامة، التي استعملها الإنسان الأول لقضاء حاجاته، والتعبير عن أغراضه ورغباته. ومن هذه الأصول الأولى اشتق الإنسان كثيراً من الفروع، وبالتأليف بين هذه الفروع وتلك الأصول، اكتمل تكوين اللغة الفطرية.

وقد وصل الإنسان إلى هذه المرحلة حين اكتمل عقله، ونضجت أعضاؤه الصوتية، واتسع نطاق حياته الاجتماعية، واشتدت حاجته إلى التفاهم مع غيره. ويوازي هذه المرحلة عند الطفل، تلك المرحلة التي يستطيع فيها التكلم، كما يتكلم غيره ممن يحيطون به.

٥- مرحلة الوضع والإصطلاح. وهذه آخر مرحلة من مراحل النمو اللغوي. وهي وإن لم تكن مرحلة فطرية، فإنها تقوم على أساس فطري، ذلك هو حاجة الإنسان الملحة إلى الإحتكاك ببيئته.. ومسايرة اللغة التي يستخدمها لتفكيره وعقله. وفي هذه المرحلة، وضعت المصطلحات العلمية، وابتكرت الأسماء الدالة على المسميات المستحدثة. ويوازي هذه المرحلة، مرحلة النمو اللغوي، عند الطفل عندما يذهب إلى المدرسة، ويدرس العلوم والفنون.

وهذا المذهب على الرغم مما يبدو فيه من ثوب علمي، فإن فيه كذلك عيباً خطيراً، وهو أنه يتخذ الطفل أساساً، لتطبيق مراحل نمو اللغة عند الإنسان الأول، مع أن هناك فارقاً مهماً بين لغة الطفل، ولغة هذا الإنسان الأول، ذلك لأن الطفل يكتسب هذه اللغة من أبويه، والمحيطين به، وهم لا يملكون من ترديد المقاطع التي يتفوه بها الطفل، ويصلحون له أخطاءه، حتى يصل إلى مرحلة النضج اللغوي، ولم يكن هذا أمراً متيسراً للإنسان الأول، الذي كان يسير على غير هدى في لغته، لا يجد أمامه من يردد مقاطعه وجمله، ليحاكيها ويصل بها إلى مراحل النضج والإحكام<sup>(١)</sup>.

---

(١) المدخل الى علم اللغة، مصدر سابق، ص ١٠٣ وما بعدها بتصرف.

## نظريات علماء أصول الفقه عن نشوء اللغة

إن دراسة نشوء الدلالة اللغوية - دلالة اللفظ على المعنى - عند الأصوليين هي في واقعها دراسة لنشأة اللغة عند اللغويين، وذلك لأن نشأة اللغة تعني حدوث الألفاظ اللغوية المستخدمة بين الناس للدلالة على معانيها كوسيلة لتحقيق التفاهم وتبادل الأفكار<sup>(١)</sup>. وهم يدرسون في مباحث الدليل اللفظي ويريدون أن يشخصوا حقيقة الوضع بعد الإتفاق على أصل الإتجاه الموضوعي في تفسير العلاقة الحاصلة بين اللفظ والمعنى<sup>(٢)</sup>.

والحقيقة إن الذي أثار دراسة الوضع عند الأصوليين هو تأثيرهم فيه بما انحدر إليهم عن طريق الفلسفة اليونانية، وهو هل دلالة اللفظ على المعنى ذاتية أو مجعولة. ولأن أكثر علماء الأصول ذهبوا إلى أن الدلالة مجعولة وليست ذاتية، اختلفوا في نمط الجعل - جعل اللفظ دالاً على المعنى - :

هل هو على نحو التخصيص أو الإختصاص؟

والفرق بين الجعلين (التخصيص والإختصاص) هو بتوفر عنصر إرادة الجاعل وقصده إلى الجعل في مجال التخصيص وتصريحه به وتنصيبه عليه.

(١) دروس في أصول فقه الإمامية: د. عبد الهادي الفضلي، نشر مركز الغدير للدراسات، بيروت، ط ١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م: ج ١، ص ٣٤٥.

(٢) بحوث في علم الأصول: تقريرات السيد الشهيد آية الله العظمى محمد باقر الصدر، بقلم السيد محمود الهاشمي، نشر مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي، قم، ط ٣، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م: ج ١، ص ٧٢.

ففي التخصيص ينطلق الجاعل إلى وضع اللفظ المعين للمعنى المعين، وجعله له عن إرادة وقصد وتصريح منه بذلك. وفي ضوئه، تفهم دلالة اللفظ على المعنى من أول استعماله له فيه.

وفي الإختصاص يستعمل الجاعل اللفظ المعين في المعنى المعين من غير تصريح بالوضع، معتمداً على القرائن المصاحبة لإستعماله الموضحة لإرادته المعنى من اللفظ، وبعد شيوع الإستعمال بين الناس وألفهم له وأنسهم به يحصل نحو اختصاص بين اللفظ والمعنى، فيصبح اللفظ يدل على المعنى بمجرد إطلاقه مستغنياً عن القرينة<sup>(١)</sup>.

ففي كل لغة علاقات بين مجموعة من الألفاظ ومجموعة من المعاني، ويرتبط كل لفظ بمعنى خاص ارتباطاً يجعلنا كلما تصورنا اللفظ انتقل ذهننا فوراً إلى تصور المعنى، فالإنسان العارف بالعربية متى تصور كلمة (الماء) مثلاً قفز إلى ذهنه فوراً إلى تصور ذلك السائل الخاص الذي نشربه في حياتنا الإعتيادية، وهذا الإقتران بين تصور اللفظ وتصور المعنى وانتقال الذهن من أحدهما إلى الآخر هو ما نطلق عليه إسم (الدلالة)، فحين نقول: (كلمة الماء تدل على السائل الخاص) نريد بذلك أن تصور كلمة الماء يؤدي إلى تصور ذلك السائل الخاص، ويسمى لفظاً (دالاً) والمعنى (مدلولاً).

وعلى هذا الأساس نعرف أن العلاقة بين تصور اللفظ وتصور المعنى تشابه إلى درجة ما العلاقة التي نشاهدها في حياتنا الإعتيادية بين النار والحرارة أو بين طلوع الشمس والضوء، فكما أن النار تؤدي إلى الحرارة وطلوع الشمس يؤدي

(١) دروس في اصول فقه الإمامية، مصدر سابق: ج ١، ص ٣٤٦ بتصرف.

إلى الضوء، كذلك تصور اللفظ يؤدي إلى تصور المعنى، ولأجل هذا يمكن القول بأن تصور اللفظ سبب لتصور المعنى، كما تكون النار سبباً للحرارة وطلوع الشمس سبباً للضوء، غير أن علاقة السببية بين تصور اللفظ والمعنى مجالها الذهن، لأن تصور اللفظ والمعنى إنما يوجد في الذهن، وعلاقة السببية بين النار والحرارة أو بين طلوع الشمس والضوء مجالها العالم الخارجي.

والسؤال الأساسي بشأن هذه العلاقة التي توجد في اللغة بين اللفظ والمعنى هو السؤال عن مصدر هذه العلاقة وكيفية تكوينها، فكيف تكونت علاقة السببية بين اللفظ والمعنى؟ وكيف أصبح تصور اللفظ سبباً لتصور المعنى، مع أن اللفظ والمعنى شيئان مختلفان كل الإختلاف؟<sup>(١)</sup>.

وقد وجدت عدّة احتمالات وعدّة نظريات من أجل تفسير علاقة السببية هذه ومن أهمها:

### النظرية الأولى: السببية الذاتية

يذهب اصحاب هذه النظرية الى وجود علاقة ذاتية بين اللفظ والمعنى، أي أن اللفظ بذاته يدل على المعنى، لا يجعل جاعل ولا بوضع واضح، حاله حال الإحساس بالحرارة عند وضع اليد في النار مثلاً<sup>(٢)</sup>.

(١) دروس في علم الأصول: السيد الشهيد محمد باقر الصدر، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط ١، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م: ج ١، ص ١١٩ وما بعدها.

(٢) الدروس: شرح الحلقة الثانية للسيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره، ابحات السيد كمال الحيدري، بقلم علاء السالم، نشر دار فراقده، قم، ط ١، ١٣٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م: ج ١، ص ٢٦٥.



وهذا المذهب منقول عن عباد بن سليمان الصيمري من المعتزلة. فقد ذهب إلى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع هذه اللفظة أو تلك بأزاء هذا المعنى أو ذاك، وكان بعض من يرى رأيه يقول: إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها، فسئل عن معنى كلمة (إذغاغ) وهو بالفارسية الحجر، فقال: أجد فيه يُبساً شديداً، وأراده الحجر<sup>(١)</sup>.

وقد أورد على هذا المذهب عدة إيرادات منها:

١- يعجز اصحاب هذا الاتجاه عن تفسير الموقف تفسيراً شاملاً، لأن دلالة اللفظ على المعنى وعلاقته به إذا كانت ذاتية وغير تابعة من أي سبب خارجي، وكان اللفظ بطبيعته يدفع الذهن البشري إلى تصور معناه فلماذا يعجز غير العربي عن الانتقال إلى تصور معنى كلمة (الماء) عند تصوره للكلمة، ولماذا يحتاج إلى تعلم اللغة العربية لكي ينتقل ذهنه إلى المعنى عند سماع الكلمة العربية وتصورها؟ إن هذا دليل على أن العلاقة التي تقوم في ذهننا بين تصور اللفظ والمعنى ليست تابعة من طبيعة اللفظ، بل من سبب آخر يتطلب الحصول عليه إلى تعلم اللغة، فالدلالة إذن ليست ذاتية<sup>(٢)</sup>.

(١) ينظر: المزهري في علوم اللغة وأنواعها: العلامة عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، شرح وضبط وتعليق محمد أحمد جاد المولى وآخرون، نشر دار التراث، القاهرة، ط ٣، ج ١، ص ٢٧.

(٢) دروس في علم الأصول، مصدر سابق: ج ١، ص ١٢٠.

٢- استحالة إستعمال المشترك في أحد معانيه ضرورة كون اللفظ علّة للمعنى الأول دون الثاني<sup>(١)</sup>.

٣- استحالة إستعمال المشترك في أحد معانيه ضرورة كون اللفظ علّة لمعنيين معاً<sup>(٢)</sup>.

ولا شك في خطأ اصحاب هذه الإتجاه وعدم صلاحيته لتفسير ما نعيشه من دلالات لغوية ثبت عدم كونها ذاتية، لا لمجرد إختلاف الناس فيها، ليقال بأن مرد الدلالة الذاتية الى ميول لغوية غريزية وقد يختلف الناس في ميولهم وغرائزهم. بل لما تكشفه الملاحظة والتجربة لنا من عدم وجود أي ميل أصيل سابق على الإكتساب والتعلم للإنتقال من لفظ مخصوص الى معنى مخصوص<sup>(٣)</sup>.

### النظرية الثانية: نظرية الوضع والإعتبار

وملخص هذه النظرية: أن العلاقة بين اللفظ وبين المعنى ليست علاقة سببية حقيقية، وإنما هي ناشئة من الوضع الذي يمارسه الواضع الذي يعتبر هذا اللفظ لذلك المعنى، فيقول مثلاً: اعتبرت لفظ (ماء) المؤلف من الحروف الثلاثة (م، أ، ء) لهذا السائل المعروف المتصف بهذه الصفات المعروفة، أو من قبيل أنك تعتبر إسم (زيد) لهذا المولود الجديد، ففي البداية لا علاقة بين لفظ (الماء) وذاك (السائل) ولا بين لفظ (زيد) وهذا المولود الجديد، ولكن بعد إجراء عملية

(١) و(٢) المقدمات والتنبيهات في شرح أصول الفقه: الشيخ محمود قانصو، نشر دار المؤرخ

العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م: ج ١: ص ٦٢.

(٣) بحوث في علم الأصول، مصدر سابق: ج ١، ص ٧٢.

الوضع تلك ومعرفة الناس بذلك يتبادر الى أذهانهم ذلك السائل أو ذلك المولود عند سماع لفظ (ماء) أو لفظ (زيد). وعلى هذا الأساس يكون (الإعتبار) الذي مارسه الواضع هو الذي أوجد علاقة السببية بين تصور اللفظ وبين تصور المعنى<sup>(١)</sup>.

وهناك اتجاهات ثلاثة في نظرية الاعتبار هي:

الأول: أن يضع الجاعل شيئاً ليكون علامة لشيء آخر في عالم الخارج، أي يضع لفظاً على معنى وهذا من قبيل، وضع علامات الفراسخ في الطرق، ليعرف المسافر كم قطع من المسافة، أو كما تجعل الإشارات الحمراء مثلاً على مواقع معينة لتكون علامة على الخطر. غاية الفرق أن الوضع هناك حقيقي يحدث في الأمور التكوينية، والانتقال في عالم اللغة هو إعتباري، إذ لم يجعل اللفظ حقيقة على أمر خارجي - كما توضع الإشارة الحمراء على الموضع المعين - بل لا يعقل ذلك في اللفظ وإنما المعقول ادعاء وضعه عليه فيكون الجعل اعتبارياً<sup>(٢)</sup>.

الثاني: اعتبار اللفظ وجوداً تنزلياً للمعنى بوجوده الخارجي ومتحدداً معه فتسري إليه آثاره التي منها تصوّره عند الإحساس به<sup>(٣)</sup>.

أي أن الواضع إنما يضع اللفظ كأداة لتفهم المعنى، وذلك أن الإنسان قد يفهم المعنى من خلال الإحساس به، فقد يحس الإنسان بالحرارة من خلال وضع

(١) الدروس، مصدر سابق: ج ١، ص ٢٦٦.

(٢) ينظر: بحوث في علم الأصول، للسيد محمود الهاشمي: ج ١، ص ٧٤ وما بعدها. وأنوار الأصول؛ لآية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، تقرير أحمد القدسي، نشر دار الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، قم، ط ٣، ١٤٣٢ هـ: ج ١، ص ٤٨.

(٣) بحوث في علم الأصول، للسيد محمود الهاشمي، مصدر سابق: ج ١، ص ٧٦.

يده قرب النار، ومرة أخرى يسمع لفظ (حار) فيفهم المعنى المراد منه والذي هو ضد البرودة<sup>(١)</sup>.

الثالث: وهو الإتجاه القائل بإعتبار سببية اللفظ لتصور المعنى، وبتعبير آخر: إن الواضع ينزل اللفظ منزلة المعنى، وذلك من قبيل تنزيل (الطواف) منزلة (الصلاة)، فاللفظ ليس هو المعنى ولكن الواضع نزله منزلة المعنى بوجوده الخارجي، وبناءً على هذا تحصل علاقة السببية بين اللفظ وبين المعنى، ولكن هذه السببية سببية اعتبارية لا ذاتية كما كانت تدعي النظرية الأولى<sup>(٢)</sup>.

والحقيقة أن الموجود على نوعين: أحدهما: الموجود العيني، كالجواهر والأعراض، والآخر: الموجود الإعتباري. والوضع من النوع الثاني دون الأول، لوضوح أنه ليس من مقولة الجواهر ولا العرض، وعليه فلا بد من تفسيره بالتنزيل، على أساس أن اللفظ مباين للمعنى ذاتاً ووجوداً، وحينئذ فترتيب آثاره عليه التي منها إنتقال الذهن إليه عند الإحساس به بحاجة الى نوع اتحاد بين اللفظ والمعنى، بتنزيل وجود اللفظ وجوداً للمعنى بوجوده الخارجي، لكي يترتب عليه انتقال الذهن منه الى تصور المعنى عند تصوره، وبذلك تتحقق صفة الدلالة للفظ<sup>(٣)</sup>.

وهذه النظرية عند السيد الشهيد محمد باقر الصدر صحيحة، ولكنه قدس سره يعتبر الإتجاهات الثلاثة السابقة المطروحة في هذه النظرية قاصرة عن تفسير

(١) الدروس، مصدر سابق: ج ١، ص ٢٦٧.

(٢) المصدر نفسه: ج ١، ص ٢٦٧.

(٣) المباحث الأصولية: الشيخ محمد اسحاق الفياض، نشر مكتب الشيخ الفياض، قم،

ط ٢، ١٤٢٧ هـ: ج ١، ص ١٢٧.

وتبين الكيفية التي حصلت من خلالها علاقة السببية الحقيقية بين اللفظ والمعنى، بعد عملية الوضع، فإن الإنسان وبمجرد أن يقول: اعتبرت هذا اللفظ سبباً لذلك المعنى كما في الإتجاه الثالث، أو ما يقارب هذا الإعتبار والقول كما في الاتجاهين الآخرين، لا يمكنه التفكيك بينهما بعد ذلك. وبعبارة أخرى: إن (الإعتبار) أمر ذهني و (السببية) أمر واقعي وحقيقي، ولا يمكن أن يوجد ناراً في الخارج بمجرد أن يقول: اعتبرت وجود نار في الخارج؟ ومن ثم لا بد أن نفكر في تفسير آخر ننطلق فيه من أمر تكويني حقيقي لا اعتباري لإثبات علاقة السببية الحقيقية الواقعية بين اللفظ والمعنى<sup>(١)</sup>.

### النظرية الثالثة: نظرية التعهد

وتتلخص هذه النظرية: في أن الوضع ليس اعتباراً وإنما هو تعهد من قبل الواضع بأن لا يتلفظ بالكلمة إلا إذا كان يريد افهام المعنى الخاص الذي يحاول ربطه بها. وهذا التعهد يؤدي إلى أننا متى ما سمعناه ينطق بتلك الكلمة انتقل ذهننا إلى تصور ذلك المعنى وعرفنا أن المتكلم أراد تفهيمه لنا، وهذا معنى قيام السببية بين اللفظ والمعنى<sup>(٢)</sup>.

وأهم مميزات هذه النظرية:

١- ان العلة الوضعية على أساس هذه النظرية مختصة بما إذا قصد المتكلم باللفظ تفهيم المعنى، ونتيجة ذلك اختصاص الدلالة الوضعية بالتصديقية.

(١) الدروس، مصدر سابق: ج ١، ص ٢٦٧.

(٢) بحوث في علم الأصول، مصدر سابق: ج ١، ص ٧٨.

٢- ان الوضع على ضوء هذه النظرية أمر تكويني نفسي، وهو التعهد والالتزام في أفق النفس، وحيث إنه فعل اختياري للنفس فلا بد أن يتعلق بفعل اختياري، وهو التلفظ بلفظ خاص عند إرادة تفهيم معناه، حتى يدل على أنه إرادة منه.

٣- أن القضية المتعهد بها قضية شرطية، مقدمها التلفظ بلفظ خاص، وتاليها إرادة إفهام معنى مخصوص، ونتيجة ذلك هي أنه لا داعي وراء التلفظ بهذا اللفظ الخاص، إلا قصد إفهام ذلك المعنى المخصوص.

٤- ان كل مستعمل واضح حقيقة على أساس هذه النظرية، بإعتبار أنه متعهد بأنه لا ينطق باللفظ إلا عند ارادة تفهيم معناه الخاص، والغرض أن حقيقة الوضع هي التعهد، وتعهد كل شخص قائم بنفسه، وهو مسؤول عنه لا عن تعهدات الآخرين<sup>(١)</sup>.

ولتوضيح المطلب أكثر: يرشد الى حقيقة التعهد والالتزام الغرض الباعث على الوضع، بل الرجوع إلى الوجدان والتأمل فيه أقوى شاهد عليه، وبيان ذلك: أن الانسان بما أنه مدني بالطبع يحتاج في تنظيم حياته المادية والمعنوية، إلى آلات يبرز بها مقاصده وأغراضه ويتفاهم بها وقت الحاجة، ولما لم يمكن أن تكون تلك الآلة الإشارة أو نحوها لعدم وفائها بالمحسوسات فضلاً عن المعقولات، فلا محالة تكون هي الألفاظ التي يستعملها في إبراز مراداته من المحسوسات والمعقولات، وهي وافية بهما، ومن هنا خصّ تبارك وتعالى الإنسان بنعمة البيان بقوله عزّ من قائل: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ \* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) سورة الرحمن: ٣-٤. ومن

(١) المباحث الأصولية، مصدر سابق: ج ١، ص ١٣٥.

هنا - أي من أن الغرض منه قصد التفهيم وإبراز المقاصد بها - ظهر أن حقيقة الوضع هي التعهد والتباني النفساني، فإن قصد التفهيم لازم ذاتي للوضع بمعنى التعهد. وإن شئت قلت: إن العلة الوضعية حيثئذ تختص بصورة إرادة تفهيم المعنى لا مطلقاً، وعليه يترتب اختصاص الدلالة الوضعية بالدلالة التصديقية.

وعلى ذلك فنقول: قد تبين أن حقيقة الوضع عبارة عن التعهد بإبراز المعنى الذي تعلق قصد المتكلم بتفهمه بلفظ مخصوص، فكل واحد من أهل أية لغة متعهد في نفسه متى ما أراد تفهيم معنى خاص، أن يجعل مبرزه لفظاً مخصوصاً. مثلاً التزم كل واحد من أفراد الأمة العربية بأنه متى ما قصد تفهيم جسم سيال بارد بالطبع أن يجعل مبرزه لفظ (الماء) ومتى قصد تفهيم معنى آخر أن يجعل مبرزه لفظاً آخر، وهكذا.

فهذا التعهد والتباني النفساني بإبراز معنى خاص بلفظ مخصوص عند تعلق القصد بتفهمه، ثابت في أذهان أهل كل لغة بالإضافة إلى ألفاظها ومعانيها بنحو القوة، ومتعلق هذا التعهد أمر اختياري وهو التكلم بلفظ مخصوص عند قصد تفهيم معنى خاص<sup>(١)</sup>.

وقد اشكل السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره على هذه النظرية بما يلي:

١- ان ظاهر هذا المسلك أن التعهد يأتي باللفظ كلما أراد المعنى الموضوع له،

(١) محاضرات في أصول الفقه: تقريراً لأبحاث آية الله العظمى السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي (١٣١٧-١٤١٣هـ) بقلم آية الله العظمى الشيخ محمد اسحاق الفياض، نشر مؤسسة الخوئي الاسلامية، ط ٤، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م: ج ١، ص ٤٩.

وهذا يعني أن المتعهد قد إلترم ضمناً بأن لا يأتي باللفظ حين يريد المعنى المجازي له وحينئذ لا يحق له أن يستعمل اللفظ في معناه المجازي، وهذا خلاف ما نجده بالوجدان بأننا نستعمل الكثير من الألفاظ ونريد بها معانيها المجازية.

٢- ان وجود اللغة يرافق الإنسان منذ طفولته، وليست اللغة ظاهرة متأخرة في حياته، وما يذكره صاحب نظرية التعهد يقتضي استدلالاً منطقياً ينتقل فيه السامع من أحد طرفي الملازمة الى الطرف الآخر، والاستدلال المنطقي أمر يوجد في مراحل متأخرة من حياة الإنسان وفي الفترة التي ينضج فيها فكره الإستدلالي، فكيف يمكن أن تكون اللغة قد وجدت على أساس هذا الإستدلال وهذه الملازمة العقلية؟ بل إن وجود اللغة في حياة الإنسان ومنذ مراحل طفولته الأولى دليل على أنها ظاهرة بسيطة وليست كما يدعيه اصحاب مسلك التعهد<sup>(١)</sup>.

### النظرية الرابعة: نظرية القرن الأكيد

وهذه النظرية تبناها السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره، وذلك أن تشخيص حقيقة الوضع أن يقال: بأن الله سبحانه وتعالى قد جعل من الإحساس بالشيء سبباً في إنتقال الذهن الى صورته، فالإنتقال الذهني الى شيء استجابة طبيعية للإحساس به. فلو وضع الإنسان يده على جسم حار فإنه يحس بحرارته، وهذا الإحساس ينتقل الى ذهنه ويتحول الى صورة ذهنية، وهذا هو المعنى الذي

(١) ينظر: الدروس، مصدر سابق: ج ١، ص ٢٧٠. وبحوث في علم الأصول: ج ١، ص ٧٩ وما بعدها.



نتحدث عنه، واللفظ - ولنفترضه لفظ (الحار) أو (الحرارة) - إنما وضع لهذا المعنى الذي جاء من الإحساس بالخارج. وهذا قانون تكويني يحكم الذهن البشري، ويوجد قانونان تكوينيان آخران ثانويان يوسعان من دائرة تلك الاستجابة الذهنية.

أحدهما: قانون انتقال صورة الشيء إلى الذهن عن الطريق إدراك مشابهه، كإنتقال صورة الحيوان المفترس إلى الذهن بسبب رؤية رسم مشابه له على الورق. أي أن الإنسان قد لا يحس بالشيء بوجوده الخارجي، وإنما من خلال صورته، كأن يرى النار المرسومة على ورقة - مثلاً - وفي هذه الحالة فإنه لن يحس بها ولا بحرارتها، ومع ذلك ينتقل ذهنه إلى المعنى الذي عنده عن النار، وهذا ما يعبر عنه بقدرة الإنتقال من (المشابهة إلى المشابهة) كأن ينتقل من الوجود الكتبي (الصورة) إلى الوجود الخارجي.

ثانيهما: قانون إنتقال صورة الشيء إلى الذهن عن طريق إدراك الذهن لما وجدته مشروطاً ومقترناً بذلك الشيء على نحو أكيد بليغ فيصبح هذا القرين في حكم قرينه من حيث إيجاد نفس الأثر والاستجابة الذهنية التي كان يحدثها عن الذهن عند الإحساس به.

وبعبارة أخرى: أن الشيء إذا اقترن أو ارتبط بشيء آخر ارتباطاً خاصاً ثم انتقل هذا الارتباط إلى الذهن البشري، فإن الإنسان وبمجرد أن يتصور أحد هذين الشيئين ينتقل ذهنه إلى الشيء الآخر، فلو ذهب مثلاً إلى بلد معين وأصيب هناك بحمى شديدة جداً، فإنه يبقى دائماً حينما يتذكر ذلك البلد يتذكر الحمى التي أصابته فيه مع أن (الحمى) أجنبية عن (البلد)، ولكن حيث اقترن أحد هذين الشيئين (البلد) اقتراناً خاصاً وأكيداً بالشيء الآخر (الحمى) فإن ذهن

الإنسان ينتقل بمجرد تذكر أحدهما إلى الآخر.

ما ينبغي التنبيه عليه هنا، هو أنه لا بد من وجود ربط خاص وقرن أكيد بين الشئين لا كل ربط، فقد يمر الإنسان أثناء سفره بالعديد من المناطق، ولكنه لا يتذكر بعد ذلك من هذه المناطق إلا المنطقة التي أصابته فيها الحمى الشديدة والتي حصل فيها ربط خاص وأكيد بينها وبين مرضه ذاك.

وخلاصة القوانين السابقة التي ذكرناها هي أن ذهن الإنسان:

١- في القانون الأول ينتقل من الخارج إلى الصورة الذهنية.

٢- وفي القانون الثاني ينتقل من المشابه إلى المشابه.

٣- وفي القانون الثالث ينتقل من الشئ الأجنبي إلى الشئ الأجنبي إذا كان بينهما ربط وقرن أكيد.

واعتماداً على ما ذكر يمكن أن نبين نظرية السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره في تفسير علاقة السببية بين اللفظ والمعنى، فإنه قدس سره وإن قبل بنظرية (الإعتبار) إلا أنه يذهب إلى أن الاعتبار ليس هو الموجد لعلاقة السببية تلك، وإنما الموجد لها هو القانون التكويني الثالث الذي يحكم ذهن البشري، أي قدرة ذهن الإنسان على الانتقال من خلال تصور شئ أجنبي إلى تصور شئ أجنبي آخر إذا كان هناك قرن وإرتباط أكيد وخاص بينهما، وكان هذا الارتباط قد انتقل إلى ذهن الإنسان<sup>(١)</sup>.

(١) يعرف هذا القانون في العلوم الطبيعية بـ (نظرية بافلوف في المنبهات الشرطية) حيث قام هذا العالم الروسي بتجربة على كلب ملخصها: أنه كلما قدم لذلك الكلب طعاماً قرن

ومن هنا يكون دور الاعتبار هو دور الموجد للربط الخاص والقرن الأكيد بين اللفظ والمعنى، وذلك لأن الربط بين الأمور الخارجية لا يأتي جزافاً، وبعد أن يوجد هذا الربط الخاص والأكيد يفعل ذلك القانون التكويني فعله، فيكون هو الموجب للسببية الواقعية بين ذينك الأمرين الأجنيين (اللفظ والمعنى)<sup>(١)</sup>.

ذلك بدق الجرس. وقد كرر هذه العملية عدة مرات - لتحصل حالة الربط الخاص بين تقديم الطعام ودق الجرس - فوجد بعد ذلك أنه كلما دق الجرس سال لعاب ذلك الكلب ولو لم يقدم له الطعام، وما ذلك إلا محصول عملية (الإقتران الشرطي) في ذهن الكلب بين الجرس وبين الطعام، فبمجرد سماع الكلب لصوت الجرس ينتقل ذهنه الى الطعام فيسيل لعابه. وبناءً على هذه النظرية استنتج أنه إذا اقترن شيء بشيء آخر إقتراناً خاصاً، فإن هذا الإقتران يكون سبباً واقعياً لانتقال الذهن حين تصوّره لأحدهما الى تصور الشيء الآخر. (الدروس، ج ١، ص ٢٧٢)..

(١) ينظر: بحوث في علم الأصول، للسيد محمود الهاشمي: ج ١، ص ٨١. والدروس: شرح الحلقة الثانية للسيد كمال الحيدري: ج ١، ص ٢٧١ وما بعدها. ودروس في علم الأصول، للسيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره: ج ١، ص ١٢٢ وما بعدها.

## من الواضع للغة؟

يثار سؤال هل يجب وجود واضح لكل لغة، وحين يجب بالوجوب من هو الواضع؟ وهذا فيه قولان:

أحدهما: القول بإلهية الواضع، وقد إختار هذا القول جملة من العلماء الأصوليين منهم المحقق النائيني<sup>(١)</sup>.

ثانيهما: القول ببشرية الواضع، وهذا القول هو المشهور بين الأصوليين.

## كيف وجد آدم؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال، هناك أمر مهم بحاجة الى التوضيح والوقوف عليه، وهو هل أن آدم أبو الإنسانية والذي ذكر في القرآن الكريم، وجد نتيجة تسلسل وتطور سلالات سبقتة بملايين السنين، أم أنه وجد وجوداً دفعياً مباشراً، حتى بلا أب وأم؟.

والحقيقة هناك آيات حول آدم في وجوده الأرضي وبدء حياته في هذه الدنيا، ومسألة اللغة ومن هو الواضع لها ومن ثم تطورها، لا يمكن الوصول الى جواب حاسم حولها من دون تحديد أحد هذين الرأيين، وذلك لأن لكل رأي مباني واستدلالات التي تناسبه، دون الرأي الآخر. وإن لم نستطع تحديد آدم في وجوده الدنيوي، ستبقى المسألة معلقة، ولن يمكننا طرح الحل الأمثل. والآيات هما:

(١) ينظر: أجود التقريرات: تقرير بحث النائيني، للسيد الخوئي، نشر دار منشورات

مصطفوي، قم، ط ٢، ١٣٦٨ هـ: ج ١، ص ١١.

الأول: ان الإنسان عمره أكثر من (٢) مليون سنة، وقد مر بمراحل عديدة حتى وصل الى مرحلة الوعي واستخدام اللغة.

الثاني: هناك مرحلة من مراحل البشرية قد بدأت بآدم العاقل الذي يقارب عمره (١٠,٠٠٠) سنة تقريباً.

والأول هو رأي علماء الأركيولوجيا، وما تشير إليه احفورياتهم، وأما الثاني فهو رأي يعتمد على النص الديني، بإعتبار أن الله تعالى قد ذكر لنا إنساناً اسمه آدم وقد حمل مقومات الإنسان الكامل الذي يعي مسؤوليته في هذا الوجود، تلك مسؤولية الإستخلاف وخطورتها التي تدار من خلالها أمور العالم الأرضي، وفق نظام دقيق لا يمكن أن يعوضه شيء آخر. وما دام الأمر كذلك فالقضية إذن قد أنيطت بآدم أبو البشرية، هذا الذي خلقه الله تعالى بأحسن تقويم، والذي لا يمكن أن يكون سلباً لفصائل أخرى امتدت ملايين السنين، وقد يكون جده الأعلى قرداً من القروء!.

والحقيقة الأمر هنا يحتاج الى تأني وشيء من التفصيل، لكي تتضح الصورة، أو نحاول أن نعقد صلحاً بين الرأيين، فنحن هنا لا نكذب أي طرف منها، خصوصاً إذا ما نهض الدليل العلمي ببراهينه، وحيث لا يوجد أي تعارض بين الحقائق العلمية الثابتة والدين، ولكن كل ما هنالك نحتاج الى التوافق في المسألة حتى لا نصطدم بالتعارض، فنقول:

نحن لا ننكر وجود مخلوقات سبقت أبانا آدم عليه السلام قد تشبهه بالمظهر الخارجي، وقد مرت بمراحل طويلة من الزمن، وهي تتغير وتتبدل بالإنقراض أو بغيره. ويظهر نتيجة ذلك أنواع وسلالات متعددة من البشر. وهذا الذي

يجدونهم الآن من الهياكل أو الجماجم البشرية الدالة على عمقها الزمني الذي يصل في بعضها الى ملايين السنين، هو خير شاهد على هذا الأمر.

وهذه المسألة يدعمها العلم من جهة، ومن جهة أخرى الدين، فقد وردت عدة اشارات حول هذا الأمر منها ما ورد في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...) سورة البقرة: ٣٠، فقد جاء في تفسير استغراب وتعجب الملائكة، على أن لديهم علماً مسبقاً بهذا الإفساد وسفك الدماء، بسبب الأقوام التي سبقت آدم عليه السلام في الخلق، حيث أنهم لم يكونوا صالحين، فقد جاء في تفسير العياشي: عن هشام بن سالم قال أبو عبد الله عليه السلام: وما علم الملائكة بقولهم (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ) لولا أنهم قد كانوا رأوا من يفسد فيها ويسفك الدماء<sup>(١)</sup>.

ويقول صاحب تفسير الفرقان: هذه السابقة السيئة التي رأوها ممن سلف من الخليقة الأرضية هي التي استجاشتهم حتى سألوا، معترضين على الخليقة الأرضية: (أَتَجْعَلُ...) تكراراً لما سلف من إفساد وسفك، وما هي الحكمة إلا مزيد الصلاح والعبادة (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) وهم لا يسبحون ولا يقدسونك!... وقد عاش قبل هذا الإنسان نسل وأنسال ترايبية عاقلة مكلفة لا نعرفها، عرفتها الملائكة من ذي قبل، فضاقت بها ذرعاً ففرحت بانقراضها، فرحة العبد لمولاه، إذ يجده يعبد ولا يعصى، ثم تضايقت من جعل خليفة لها،

(١) تفسير العياشي: محمد بن مسعود ابن عباس السلمي السمرقندي المعروف بـ (العياشي)، تصحيح وتعليق العلامة السيد هاشم الرسولي المحلاقي، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ٢، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م: ج ١، ص ٤٧.

دون ان تحسب حساباً لخلفيات سؤاها فجهلهم الله: (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (١).

وجاء في الخصال عن أبي جعفر عليه السلام: لقد خلق الله عز وجل في الأرض منذ خلقها سبعة عالمين ليس هم من ولد آدم. خلقهم من أديم الأرض فأسكنهم فيها واحداً بعد واحد مع عالمه، ثم خلق الله عز وجل آدم أباً هذا البشر وخلق ذريته منه... (٢).

وجاء في كتاب التوحيد للصدوق عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل جاء في آخره: ولعلك ترى أن الله إنما خلق هذا العالم الواحد؟ أو ترى أن الله لم يخلق بشراً غيركم؟ بلى والله لقد خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم واولئك الأدميين.

أما في علوم الأركيولوجيا:

فإنه لا يعلم على وجه اليقين متى بالتحديد ظهر أول إنسان، لأن التغيرات تحدث دائماً عبر عملية التطور، كما هو الحال في صعوبة تحديد بداية للكون ولأصل الحياة. وتشير الأحفورات الى أنه قبل نحو (٣٥) مليون عام ظهر أوائل الأسلاف الحقيقيين المشتركين للإنسان وللقردة، أي الرئيسيات العليا التي انزلت في القارة الأفريقية، حين كانت كلها عبارة عن جزيرة، وتشير الدراسات الجيولوجية، أنه نحو (١٧) مليون عام التقت الصفيحة الأفريقية العربية بالصفيحة الأوروبية الآسيوية، مما شكّل جسراً برياً بين تلك القارات، سمح من

(١) الفرقان في تفسير القرآن: د. محمد الصادقي، نشر دار الأميرة، بيروت، ط ١، ١٤٣٤هـ

- ٢٠١٣م: ج ١، ص ٢٨٦ و ٢٨٧.

(٢) الخصال: الشيخ الجليل أبي جعفر محمد بن علي بن الحسن بن بابويه القمي المعروف

بالصدوق، نشر دار المرتضى، بيروت، ط ١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م: ج ١، ص ٣٨٢.

خلاله للكائنات الحية أن تنتقل فيما بينها<sup>(١)</sup>.

وقبل نحو (٥) مليون عام ظهر انسان *Ramapithecus Punjabicus* وكان يمشي على قدمين، ولكنه منحني، فالبعثات العلمية عثرت في شرق أفريقيا على (٢٥٠٠٠) أحفور منها (٢٠٠٠) عظم بشري، معظمها يعود الى نحو (٣) ملايين عام. ولعل أشهرها عظام الجذّة (لوسي). ومن خلال تلك الأحفوريات، أجزم العلماء أن الإنسان ولد بداية في أفريقيا، وبالذات في شرقها شمال خط الاستواء<sup>(٢)</sup>.

وقد ظهر جنس الإنسان الـ (هومر *Homo*) في حدود (2.7) مليون سنة قبل الآن وكانت أنواعه الأولى هي (الماهر، رود ولفن، الجورجي، إرجاستر) تميل الى انتصاب القامة، لكنها ما زالت منحنية لكن نوع (الماهر) كان حاسماً في درجته التطورية، أما النوع البشري الحاسم في انتصاب القامة فهو المنتصب (إيركتوس) الذي ظهر في حدود (108) مليون سنة قبل الآن وكانت منه عشرة أنواع فرعية في مختلف أنحاء العالم ووصل حجم دماغه الى كيلو غرام مكعب (1000 سم<sup>3</sup>). وأما النوع الحاسم الثالث فقد كان هو الإنسان العاقل المبكر الذي شكل سلالة متواصلة مع العاقل الأثري (الكرومانيون) وصولاً الى العاقل الحديث. وبين هذه الأنواع الحاسمة الثلاثة ظهرت أنواع كثيرة انقرضت كلها<sup>(٣)</sup>.

والإنسان العاقل الأول هو *Homo Sapiens* نوع منقرض

(١) الوجود الإنساني بين العلم والدين: د. جومانه الحويك ناصيف، نشر-الدار العربية

للموسوعات، بيروت، ط١، ٢٠١٥م-١٤٣٦هـ: ص٥١.

(٢) المصدر نفسه، ص٥١، نقلاً عن كتاب تاريخ الإنسان حتى ظهور المدنيات، ص٥٦.

(٣) تاريخ الخليقة: د. خزعل الماجدي، نشر دار تكوين، بيروت، ط٢، ٢٠١٨: ص٣٣١.



شبه الإنسان، عاش في افريقيا قبل (١٦٠) ألف سنة، ويقصد من إسمه أنه الإنسان العاقل البكر أو إنسان عاقل، عثر على بقاياه في اثيوبيا عام ١٩٩٧ لكن لم يكشف عنها حتى ٢٠٠٣ وباستخدام التقنية الإشعاعية لتحديد العمر، وقد قدر عمره ما بين (١٥٤ و١٦٠) ألف سنة، ويطلق دارسو الأنثروبولوجيا على الإنسان الحديث نوع الإنسان العاقل ... ويعرف عنه أنه يمتلك جسماً منتصباً ذا أطراف مفصلية علوية وسفلية يسهل تحريكها، وتعمل بالتناسق التام مع الدماغ، وهي خاصية تجعل من الإنسان المخلوق الوحيد على البسيطة الذي يستطيع توظيف قدراته العقلية والجسمية لصناعة الأدوات الدقيقة التي يحتاجها<sup>(١)</sup>.

وعندما خطى أول مخلوق يمكن أن نسميه بالإنسان على الأرض، كان عبارة عن مجرد مخلوق أرقى بسيطاً من القرود. وكان ممكناً بالنسبة له أن يمشي وأن يجري واقفاً وأن يتصل مع زملائه بطريقة فطرية وأن يستعمل يده في تشكيل أدواته الأولية. كما أنه كان يتصف بحساس قبلي قوي، أي أنه كان مازال حيواناً فظاً جميلاً. وقد جرى في جماعات للصيد وكان ألطف بقليل عن معظم الحيوانات الأخرى، فبعض علماء الأجناس يميلون إلى الاعتقاد بأن اختلاف المناخ الذي سبق العصر الجليدي من البلايو ستوسيني والعصر الثلجي الكبير نفسه، قد وفّر أرضاً للتدريب شكّلت تطور الإنسان، وما يترتب على ذلك من إدراك إنساني. وعندما واجهته الظروف المعيشية القاسية ايقظت فيه كل مصادر المقاومة وأصبح الإنسان مدفوعاً إما إلى التطور أو الموت، وقد تطور بدلاً من أن يموت. ولكن هل من الضروري وجود بيئة مثل التي كانت في العصر البلايو ستوسيني

(١) الوجود الإنساني بين العلم والدين، مصدر سابق: ص ٦٤ نقلاً عن فراس السواح، دين

حتى يكتمل تطور الذكاء؟ وهل خوف المخلوق من الطبيعة يؤدي الى ذكاء تام؟ وإذا كان هذا الحال، فكم من الكوكب لم يتطور فيها الذكاء بسبب عدم وجود ضرورة، وإما الى التطور أو الموت؟ وهل يمكن أن يكون تتابع حوادث غير فرضية ضروريا لتطور الذكاء في أي مكان؟ كل تلك التساؤلات وغيرها طرحها ويطرحها الإنسان لمعرفة من أي فروع الإنسان الأولى قد انحدر<sup>(١)</sup>.

وأما حول اصول الإنسان، فقد تعددت النظريات، لفقدان روابطنا التاريخية بأسلافنا، فالتعرف على حقيقة أصلنا هي مسألة ذات أهمية كبرى أنها جوهر هويتنا ومصيرنا، ورغم الكم الهائل من الإكتشافات الأثرية المثيرة، التي يمكن الاعتماد عليها في بناء قصة كاملة متكاملة حول أصول الإنسان، لازالت نظرية القرن التاسع عشر حول التطور والإرتقاء تدرّس للأجيال الناشئة<sup>(٢)</sup>.

وفي هذا الشأن يقول عالم الأنثروبولوجيا الشهير: ريتشارد ليكي: قمنا بجمع في غرفة واحدة كل المستحاثات والبقايا المتحجرة التي تم اكتشافها حتى الآن حول أسلافنا الذين عاشوا في الماضي البعيد، معظمها شبه بشرية، وهي عبارة عن كسرات من الأسنان وأجزاء من الجماجم. لكن وكما يقول ستيفن غولد: أنها لا تخدم ولا يمكن استخدامها كقاعدة تنطلق منها كمية لا متناهية من التخمينات والافتراضات والحكايا الخيالية<sup>(٣)</sup>.

كما أعلن ريتشارد ليكي عن اكتشافه لبقايا جمجمة يرجع تاريخها الى مليونين ونصف مليون عام، يعد أقدم أثر من نوعه للإنسان الأول. وحينها قال: (إن

(١) الوجود الإنساني بين العلم والدين، مصدر سابق: ص ٧٣.

(٢) المصدر نفسه: ص ٦٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ٦٨، نقلاً عن فراس السواح، دين الإنسان ص ٢٠٠.

هذه الإكتشاف يمتد في قدمه مليوناً ونصف مليون عام عن أقدم أثر أمكن العثور عليه حتى الآن، وقد تم اكتشاف عظام الجمجمة، مع عظام لساق بشرية ترجع الى نفس الحقبة من التاريخ، في جبل حجري، بصحراء تقع شرق بحيرة رودلف في كينيا)، ثم قال: (إن هذا الأثر يمكن أن يقلب النظريات القائمة بشأن تطور الإنسان عن أجداده فيما قبل التاريخ، وكيف؟ ومتى؟).

وقد قدّم تقريراً عن اكتشافه الى الجمعية الجغرافية في واشنطن، قال فيه: (إن نظريات التطور الحالية - وعلى رأسها نظرية داروين - تفيد أن الإنسان تطور من مخلوق بدائي، كانت له سمات بدنية شبيهة بسمات القرد، وإن أقدم أثر للإنسان كمخلوق منتصب يسير على رجلين، وله مخ كبير، يرجع الى نحو مليون سنة). هذا في حين أن الكشف الجديد يدل على أن المخلوق الإنساني المنتصب ذا الساقين لم يتطور عن المخلوق البدائي الذي يشبه القرد، بل كان يعاصره منذ أكثر من مليونين ونصف عام، وأنه يمكن على هذا الاعتبار استبعاد المخلوق البدائي الأول على أساس أن الإنسان انحدر من سلالته.

وذكرت الجمعية الجغرافية في تعليق لها على هذا الكلام: (أن نظرية ليكي تقوم على أساس أن المخلوق البدائي الأول وأسمه العلمي "أوسترالو بشيكوس" وكان أساساً من أكلة النباتات، قد وصل الى مرحلة تطورية مسدودة، بينما استطاع الإنسان الذي استخدم اللحم في غذائه، وتمكن من صناعة الأدوات الحجرية، أن يبقى على قيد الحياة).

وأكد ليكي في تقريره: (أنه أمكن إعادة بناء جمجمة من شظايا العظام التي عثر عليها، وأنه بالرغم من أن هذه الجمجمة لا تشبه جماجم الجنس البشري المعروف حالياً، إلا أنها تختلف كذلك عن جميع أشكال الجماجم التي عثر عليها

للإنسان الأول، وبذلك لا تتفق مع أي نظريات حالية عن تطور الإنسان).

وواضح إذن أن الفرق الزمني هائل بين هذا الرأي، وما تقوله نظرية داروين. كما أن الفرق هائل أيضاً في جوهر التصور للإنسان الأول بين النظريتين، فهو عند داروين يمشي على أربع منذ مليون سنة، ثم انتصبت قامته، وعند ليكي يمشي منتصب القامة منذ مليون ونصف المليون من السنين، وأنه كذلك منذ كان.

ويقول صاحب كتاب (نظرية داروين بين التأييد والمعارضة): وقد أذاع البروفيسور جوهانس هورذلر - العالم الذري في سمنتبال بسويسرا - بياناً في مارس ١٩٥٦. وقد عارض نظرية داروين بشدة وقال: (إنه لا يوجد دليل واحد من ألف على أن الإنسان من سلالة القرد، وإن التجارب الواسعة التي أجراها دلت على أن الإنسان منذ عشرة ملايين سنة وهو يعيش منفرداً، وبعيداً جداً). وأضاف الى ذلك: (أن الهياكل التي درس عليها تؤكد نظريته، وقد قدم البروفيسور المذكور للمتحف الطبيعي بمدينة بال قطعة من الفحم بداخلها قطعة من فك إنسان يرجع تاريخها الى عشرة ملايين سنة، وهذا هو التاريخ الذي أمكن الحصول فيه على هياكل آدمية)<sup>(١)</sup>.

وبتاريخ ٣١ مارس ١٩٥٦ أعلن في أمريكا أن الدكتور (رويتز) المشرف على الأبحاث بجامعة كولومبيا، قد أيد البروفيسور هورذلر في وجهة نظره، واعتبرت نظرية داروين بذلك رأياً لا يستند الى أي دليل علمي، وأن الكائنات إنما خلقت مستقلة الأنواع، استقلالاً تاماً، فمنها الإنسان الذي يمشي على

(١) أبي آدم: د. عبد الصبور شاهين: نشر دار رؤية، القاهرة، ط ١، ٢٠١٧: ص ٤٧.

رجليه، ومنها الدواب التي تمشي على أربع، ومنها الزواحف التي تمشي على بطونها<sup>(١)</sup>.

علماً إن النياندرتال الكلاسيكي الذي عرفته أوروبا خلال الباليوليت الأوسط، هو غصن منقطع من شجرة التاريخ الطبيعي للإنسان، وقد انقرض بعد أن بدأت طلائع الإنسان العاقل تفد من مناطق المشرق العربي، وهي طلائع تطورت عن النياندرتال المشرقي. فهياكل النياندرتال التي تم اكتشافها في فلسطين بشكل خاص، تظهر مرحلة وسطى نحو هيئة الإنسان العاقل، وحالة إنسلاخ كان يقوم بها النياندرتال هنا، عن الهيئة النموذجية المعروفة في أوروبا. وإن عظام أطراف الهياكل التي اكتشفت في مغارة السخول، على سبيل المثال، تبدي شبيهاً كبيراً جداً بعظام أطراف الإنسان العاقل، وكذلك عظم الفك الأسفل والجزء الخلفي من الجمجمة. ويبلغ الشبه درجة يعتقد علماء الأنثروبولوجيا معها. بأن هذه القطع لو اكتشفت مستقلة عن بقية هياكلها، لكان من الصعب التعرف عليها كأجزاء من هياكل نياندرتالية. وهكذا يبدو ظهور الإنسان العاقل في الشرق الأدنى، كنتيجة واضحة لتطور محلي، أما في أوروبا فقد ظهر الإنسان العاقل دفعة واحدة مع أدواته الجديدة التي كانت شائعة في الشرق الأدنى، منذ زمن بعيد، الأمر الذي يدل على وصوله مع ثقافته المكتملة من المشرق، عن طريق البلقان فأوروبا الوسطى، حيث عثر على دلائل تشير إلى مثل هذا الإرتحال<sup>(٢)</sup>.

(١) المصدر نفسه، ص ٤٨

(٢) دين الإنسان: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط ٨، ٢٠١٧م: ص ١٥١. نقلاً

أما أبرز أسلاف الإنسان من الأكثر قدماً إلى الإنسان الذي سبقنا مباشرة الهومر سايبان حسب أحدث الدراسات تبدأ بإنسان:

١- الأوريوبتيك: اكتشفه عمال المناجم في شمال روما، قدر عمره بين (١٢) و(١٥) مليون سنة. كان يمشي مستقيماً، وله فك به اسنان بشرية. سعة جمجمته أكبر بقليل من القروود مقارنة مع الإنسان الإنسان.

٢- الإنسان الاسترالي: أهم نموذج له اكتشف عام ١٩٥٩ في جنوب بحيرة فكتوريا تنزانيا، وسعة جمجمته (٥٠٠ إلى ٦٠٠ سم) استخدم أدوات بدائية وعمر لا يقل عن (٦٠٠) ألف سنة.

٣- إنسان البيثكانثرو بوس: اكتشف في جزيرة جاوه، ومنه إنسان الصين الذي اكتشفه تيارده شاردن بالقرب من بكين وسعة جمجمته تبلغ (١٠٠٠ سم) وكان يستخدم النار.

٤- إنسان نياندرتال: وسعة قحفه جمجمته نحو (١٤٥٠ سم)، وكان هذا الإنسان يوارى موته في التراب، ويتحدث بالكلام المفهوم.

٥- الإنسان العاقل: هو الإنسان الذي سبقنا مباشرة وتبلغ سعة قحف جمجمته (١٥٠٠ سم) وهو يقترب من سعة جمجمة الإنسان المعاصر<sup>(١)</sup>.

وقد يطرح تساؤل: كيف يستطيع العلماء أن يؤكدوا أن هذه الحفريات هي حفريات إنسان لا حفريات قرد مثلاً؟

(١) الوجود الإنساني، مصدر سابق، ص ٧٤، نقلاً عن الإنسان والكون والتطور بين العلم والدين، هنري بولاد اليسوعي، ص ١١٣.

والجواب: هو أن حفريات الإنسان يجب أن تتوفر فيها أحد هذه الأدلة أو بعضها:

١- أن نجد في المنطقة نفسها أي أثر للذكاء كوجود آلة، لأن الإنسان يتميز عن الحيوان بالذكاء ووجود الآلة دليل قاطع على الذكاء بشرط أن تكون مصنعة.

٢- حين تطور الإنسان اكتشف النار واستخدمها في حياته اليومية. لذلك نستطيع أن نقول بأن وجود أي أثر يشير إلى استخدام النار يمكن أن يكون دليلاً قاطعاً على وجود إنسان في هذه المنطقة في وقت ما.

٣- أنها ظاهرة أتت في مرحلة لاحقة، وهي دفن الجثة تحت الأرض، فلا يوجد أي حيوان يدفن جثث موتاه تحت الأرض إلا الإنسان<sup>(١)</sup>.

## إنقراض بشري وآدم جديد

وبعد أن يطمئن العقل على وجود البشر قبل أبينا آدم من خلال وجود النص الديني ومعطيات علماء الأركيولوجيا والأنثروبولوجيا، حدث إختلاف وتباين في الآراء حول وجود آدم عليه السلام، وهل كان وجوده دفعياً، بلا أب يسبقه ولا أم تحتضنه، بعد أن انقرض البشر الذين وجدوا قبله؟ أم كان وجوده نتيجة الإستمرار في تطور تدريجي أستمر لملايين السنين، حتى وصل الى طور النضج الإنساني، وصورته المكتملة بآدم؟ ثم أن أصحاب الرأي القائل بأن آدم لم يكن أصلاً نوعياً، وإنما هو تطور عن خلق سبقوه، أيضاً إنقسموا الى رأيين:

الأول: هم اتباع ومناصري النظرية الداروينية، من أن أصل الإنسان هو القرد، واحتاج الى ملايين السنين الى أن وصل الى مرحلة الأدمية من خلال الإنتخاب الطبيعي. بالرغم من أن الظهور المفاجئ لأشكال الحياة يضاد ركناً أساسياً من أركان نظرية التطور الدارويني، وهو إفتراض ترقى أشكال حياة من مراتب أدنى فأدنى، لأن الانفجار الكامبري ينطق بخلاف ذلك تماماً، فهو لحظة حاسمة فاصلة لا يمكن ردها الى رتبة أدنى في سلم التطور المزعوم.

الثاني: هم من يذهبون الى أن آدم وجد منذ بدايات الخليقة على نحو الخلق المستقل، فهو منذ وجوده ما كان إلا بشراً، وأن الأرض قد عرفت البشر الذي ظهر على سطحها منذ ملايين السنين، وقد قدر سبحانه فناء كل البشر من غير ولد آدم، وذلك بعد عزل السلالة الجديدة المتقاة في الجنة، حتى تتم إيادة جماعات الهمج البشرية، لتبدأ بعد ذلك الملحمة الإنسانية، بطليعتها المصطفاة آدم وحواء. ولذلك عند أصحاب هذا الرأي أن بين (البشر والإنسان) عموماً



وخصوصاً مطلقاً، ف (البشر) لفظ عام في كل مخلوق ظهر على سطح الأرض، يسير على قدمين، منتصب القامة، و(الإنسان) لفظ خاص بكل من كان من البشر مكلفاً بمعرفة الله وعبادته (فكل إنسان بشر) و(ليس كل بشر إنساناً)<sup>(١)</sup>.

ولذلك كان البشر خلال الأحقاب والعهود المتطاولة مجرد مخلوقات متحركة، حيوانية السلوك، ولكنها تزداد في كل مرحلة تعديلاً في سلوكها، ونضجاً في خبراتها، وتلوناً في طرائق التفاهم اللغوي فيما بينها. ومعنى ذلك أن خلق الإنسان تم عبر ثلاث مراحل هائلة، هي (الخلق، والتسوية، والنفخ)، وقد حدث بث الروح في الجسد في مرحلة (الخلق) الأولى، التي أحالت التراب أو الطين إلى مخلوق ظاهر (بشر) يتحرك على الأرض بالروح الحيواني، كما تتحرك سائر الكائنات من حشر وطيور وحيوان، ثم تناولت القدرة ذلك المخلوق في المرحلة الثانية (بالتسوية) أو ما يمكن تشبيهه بهندسة البناء وتجميله، وهي مرحلة التعديل المادي أو الظاهري، وقد استغرقت ملايين السنين، والله أعلم بتفاصيلها، ثم جاءت المرحلة الثالثة للهندسة الداخلية، وهي المتمثلة في تزويد المخلوق السوي بالملكات والقدرات العليا، التي جوهرها (العقل)، والحياة الإجتماعية ثمرة العقل، واللغة وسيلة الإتصال بين أفراد المجتمع من العقلاء، وبذلك اكتمل بناء الإنسان، فكان (آدم) هو أول (إنسان) وطلیعة سلالة التكليف بتوحيد الله وعبادته<sup>(٢)</sup>.

(١) ينظر: أبي آدم: د. عبد الصبور شاهين، نشر دار رؤية، القاهرة، ط ١، ٢٠١٧: ص ١١٨ وما بعدها.

(٢) من أراد التوسع يراجع كتاب (أبي آدم) للدكتور عبد الصبور شاهين، فهو من الذين ذهبوا إلى هذا الرأي، وقد ألفت الكتاب المذكور من أجل البرهنة على صدق فكرته.

والحقيقة أن هذا الرأي لا يمكن اعتماده والركون إليه لوجود عدّة اعتبارات منها:

أولاً: هناك آية في القرآن الكريم تبين أن آدم عليه السلام قد خلقه الله تعالى من تراب ثم قال له كن فيكون: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) آل عمران: ٥٩، وقد نزلت هذه الآية للإستشهاد بها حول بطلان عقيدة ربوبية عيسى أو إنه ابن الله، كونه نشأ من غير أب. ولذلك قطع الله حجة القائلين بذلك، لأنه إذا كان عيسى إله أو ابن إله، كونه من غير أب، فبالأولى أن يكون آدم عليه السلام كذلك، لأنه من غير أب وأم.

إذن لو كان آدم عليه السلام هو ابن لبشر سبقوه لما صح الإحتجاج به بالآية المباركة بخصوص هذا المقام!.

ثانياً: إن الله تعالى أشار في القرآن الكريم الى إمكانية إيجاد خلق جديد والذهاب بالخلق السابق، متى ما امتلأوا بالذنوب والمعاصي والفساد، وقد تكون من سنن هذا الوجود إزالة أمثال اولئك، والإتيان بخلق يتحمل المسؤولية التي تناط به. وكما جاء في قوله تعالى:

\* (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا) سورة النساء: ١٣٣.

\* (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) سورة ابراهيم: ١٩.

\* (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ\* إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ\* وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) سورة فاطر: ١٥-١٧.

ومعنى ذلك ان الله تعالى قادر على إفناء من يعصي، وخلق وإيجاد من يطيع، بحسب المصلحة وما يقتضيه المقام.

وفي هذا السياق هناك كلام للشيخ عبد الله الجوادى الأملى يقول فيه: ان ظاهر الآيات القرآنية التي تقول بأن آدم خلق من العناصر الأرضية الأربعة وأنه لم يولد من أحد، هو حجة، وما هو مطروح للبحث في علم الأحياء، وما تم الاستدلال عليه من الهياكل المكتشفة وما توصل إليه علم الآثار، كل ذلك ما دام لم يجتز حدود الفرضية ولم يأخذ لون التحقيق العلمي، فهو لا يعد مصدراً يعتمد عليه لدى خبراء العلوم الإنسانية، كما لا يصلح أن يكون سبباً لتأويل ظاهر النصوص الدينية والتصرف بها. وإذا تعدى حدود (الفرضية) وبلغ نصاب (النظرية) الثابتة، وصار معتمداً لدى الباحثين المتخصصين، فإنه لا يرقى أبداً الى مستوى إثبات كيفية خلق آدم عليه السلام حتى يسوّغ التصرف في ظاهر النصوص الدينية، لأن هناك أناساً كثيرين جاؤا الى الدنيا قبل آدم انقرضوا، ولكن آدم عليه السلام لم يولد من أحد منهم.

والسبب في عدم فائدة الهياكل المكتشفة وكون التجارب الفنية في علم الأحياء غير مجدية، هو أن هذا النحو من التجارب وإن دلّت على إكتشاف أمر ما لكنها لا تستطيع أبداً أن تنفي خلاف ما دلّت عليه، لأنها لم تجرب امتناع خلاف الأمر المكتشف، أي أن التجربة يمكنها أن تحكم بأن هذا الأمر قد وقع في المجتمع البشري، لكنها لا تتمكن من أن تحكم بأن غيره محال، وان البشرية قد وجدت فقط عن هذا الطريق الذي يقول به علماء الآثار وتؤيده تجارب علم الأحياء.

ويمكن تلخيص الغرض بما يلي:

أولاً: الفصل بين مسألة كيفية ظهور آدم عليه السلام الذي هو الأب للجيل الحاضر من البشرية عن البحث في كيفية ظهور الإنسان الأول.

ثانياً: التمييز بين مقدار ما يدل عليه العلم التجريبي والقيمة الدلالية لعلمي الفلسفة والكلام الذين يتمتعان بالنظرة الواسعة وقوة الدلالة في جانبي (النفي والإثبات)، والإعتراف بأن عدم الوجدان التجريبي لا يدل على عدم وجود الشيء الذي لم يخضع للتجربة، فلا ينبغي الخلط بين (الإمتناع العادي) و (الاستجابة العقلية).

ثالثاً: ان عنوان التعليم وإن كان يدل على سبق آدم المتعلم، لكن ذلك لا يدل أبداً على أنه وجد من جيل سابق ولا يدل على تطور الأنواع الدارويني.

وبناءً على ذلك فإن صحة وسقم آراء وأقوال علماء الأحياء، مثل ١- إنبات البشر من الأرض، ٢- المنشأ الكوني للبشر الذي أدى الى انتشار مواده الأولية في الجو، ثم انتقالها بواسطة المطر الى الأرض، ٣- التطور أو تكامل الأنواع، ٤- ثبات الأنواع، كل ذلك لا يمكنه أن يبين تاريخ خلق آدم عليه السلام، إلا في حالة انحصار الإنسان الأول في آدم وثبوت عدم وجود بشر قبله، في حين أنه طبقاً لبعض الأدلة الروائية وغيرها فإن هناك اقواماً كثيرين عاشوا قبل آدم وانقرضوا، كما أن هناك عوالم كثيرة كانت عامرة ثم دمرت، حتى جاء الدور الى آدم الأخير والعالم الحالي. وليس هناك نص من النصوص الدينية يقول بإنحصار خلق البشرية في آدم عليه السلام وعدم وجود أي إنسان قبل آدم<sup>(١)</sup>.

(١) تسنيم في تفسير القرآن: العلامة الشيخ عبد الله الجواد الطبري الأملي، نشر دار

الاسراء، بيروت، ط ٢، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م: ج ٣، ص ٥٧٢ وما بعدها.

إذن بعد الذي ذكرناه فنحن نميل الى الرأي الذي يقول بأن آدم عليه السلام كان وجوده دفعيًا، وبعد أن انقرضت البشرية التي سبقته، وقد خلقه الله تعالى من غير أب وأم، وهو الأصل في هذا الوجود الإنساني لا غير.

والآن بعد هذا التوضيح لنعود الى أصل البحث، وهو من الواضع للغة، هل هو الله تعالى، أم البشر؟

ودليل أصحاب القول ببشرية الواضع هو:

أن كون عملية الواضع من صنع الله تعالى تقوم على أساس نقطة واحدة، وهي عدم تمكن البشر من القيام بالعملية بدون إلهام مباشر من الله تعالى، رغم أن العملية من متطلبات حياة الإنسان اليومية وحاجاته الضرورية. ولكن تلك النقطة خاطئة، ولا واقع موضوعي لها، وذلك لما مرّ من أن الإنسان بمقتضى النعمة الأولى، وهي نعمة العقل، يدرك ما تتوقف عليه حياته اليومية، وبمقتضى النعمة الثانية، وهي نعمة البيان، يتمكن من إبراز ذلك للآخرين باستخدام الوسائل والأسباب التي تنقل ما في نفسه.

وبكلمة، إن الإنسان بموجب هاتين النعمتين، يتمكن من إبراز ما في نفسه من المطالب والحاجات والأفكار للآخرين باستخدام الوسائل والأسباب التي تنقل المعاني، غاية الأمر أن الإنسان في العصر البدائي، أي منذ أن وضع قدمه على وجه الكرة الأرضية، وقبل أن ينضج فكره وعقله ما كان يدرك إلا الوسائل البدائية، كالإشارات وتقليد الأصوات والصور وغيرها من المنبهات الطبيعية، حيث أن متطلبات حياة الإنسان في ذلك العصر لم تستدع أكثر من استخدام تلك الوسائل البدائية والمنبهات الطبيعية، وأما بعد نضج الإنسان فكرياً وتطوره

اجتماعيا وعقليا وتوسع متطلبات حياته وعدم كفاية استخدام المنبهات الطبيعية لسد حاجاته في نقل الأفكار والمطالب الى الآخرين، فدعته الحاجة الى استخدام الوسائل الأكثر تطوراً والأوسع شمولاً واستيعاباً، وهي متمثلة في ظاهرة اللغات، على أساس أنها تتطور بتطور المجتمع وتتوسع بتوسعه، لإرتباطها الوثيق به. ومن هنا كلما نضج المجتمع فكراً وتطور عقلياً وتوسع ثقافياً تطورت لغاته وتوسعت كذلك، لأنها جزء المجتمع وحينئذ فمن الواضح أن الإنسان هو الذي يقوم بجعل الألفاظ واللغات وسيلة لنقل المعاني وتفهم الآخرين بمقتضى نعمة العقل والإدراك، بدون عناية خاصة من الله تعالى مباشرة وهي الإلهام .. والنتيجة، أن عملية الوضع من صنع البشر<sup>(١)</sup>.

ويرد على اصحاب هذا القول بما يلي:

أولاً:

إن الله تعالى قد بعث الى الإنسان من يعلمه بعض من الأمور التي هي أقل بكثير من أهمية اللغة وإحتياج الإنسان الضروري لها، لتكون جزءاً من ذاتياته. كإرساله الغراب ليعلم قابيل طريقة الدفن لمواراة جثة أخيه، وكذلك تعلم داود صناعة التروس كما جاء في القرآن (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) سورة الانبياء: ٨٠، وقيل أنه علم بعض الأنبياء الخياطة، وكذلك تعليم ذي القرنين أموراً لم تكن حاضرة لديه سواء في طريقة اجراء الأحكام كما في قوله تعالى: (..قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) سورة الكهف: ٨٦. أو في تعلم كيفية تسخير القوى المادية، كما في

(١) المباحث الأصولية، مصدر سابق: ج ١، ص ١٥٠.

قوله تعالى: (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) الكهف: ٨٤. وكذلك إرساله تعالى الملكين ليعلموا الناس السحر ليدفعوا به ضرر سحر السحرة الذين كانوا يؤذون الناس. وحينئذ يكون من الضروري أن يكون للغة حصة في تعلم الإنسان لها من قبل الله تعالى كالإلهام أو بنحو غيره، لأنها أهم بكثير من تلك الأمور التي ذكرناها.

الثاني:

الحواريات واللغة التي كانت مستخدمة مع آدم سواء في الجنة أو في الأرض، والتي جرت بينه وبين الله تعالى أو مع إبليس، أو اللغة والحوارية بين إبني آدم، فكلها تدل على دفعية اللغة في بداياتها. ولكنها بدايات قليلة وتناسب ذلك الوجود الإنساني البدائي. إلى أن تطورت شيئاً فشيئاً، وهذا التطور هو الذي جرى على يد الإنسان لما يمتلكه من موهبة العقل والبيان. ولذلك فهو لم يعيش تجربة الإشارة وتقليد الأصوات على أنها الوسيلة الأولى للتفاهم، بإعتبار عدم ظهور لغة الحروف والألفاظ، نعم هو في بداياته كان يستخدم الإشارات أو الأصوات مع استخدامه للغة البسيطة، فتكون الإشارة وتقليد الأصوات من العوامل المساعدة لتفهم الآخرين، وليست هي العامل الرئيسي. ومما يدل على ذلك إننا الآن وفي العصور الحديثة، بالرغم من تقدم اللغة وتنوعها وكثرة الإشتقاقات فيها، ولكننا في بعض الأحيان نحتاج إلى استخدام الإشارة لإيصال معاني لا تستطيع اللغة أن توصلها. وهذا الأمر يبين حاجة الإنسان إلى الإشارات أو تقليد الأصوات كعوامل مساعدة وثانوية وليست أولية.

الثالث:

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) سورة التين: ٤، وحسن التقويم لا يمكن أن يتم من دون أن تكون خطى الإنسان الوجودية في عالم الدنيا كلها نحو التكامل، وأول خطوات التكامل هو التعلم، والتعلم لا يمكن له أن يتحرك في بدء مسيره الطويل من دون اللغة، لأنها عماده الذي يتقوم به، بإعتبار لا يوجد تعلم من دون نقل أفكار وتبادلها في عالم الأذهان، لتتلقاها العقول في ساحة الرفض أو القبول، لتنتقل تارة أخرى بصور جديدة وآفاق أوسع مما حصلت عليه. وهكذا يكمل الإنسان مسيره الكوني بلا توقف. فكما أن الإنسان ولد وله عينين يرى ويميز الأشياء بهما، فمسألة اللغة وإحتياج الإنسان لها، قد تكون أهم من مسألة الرؤية للعينين، كوسيلة تعليمية، فنحن نرى كم من أعمى ولكنه بلغ أعلى المراتب العلمية في الفكر والنتاج العلمي والأدبي والفلسفي، لكننا لم نعهد بأن شخصاً قد وصل الى مراتب علمية عالية وهو فاقد للغة، ولم تكن حاضرة معه في حياته الدنيا. ولذلك فإن أولئك الذين يذهبون الى أن الإنسان هو الذي تعلم اللغة بنفسه، وهو الذي وضع الألفاظ للأشياء والمعاني شيئاً فشيئاً، فإحتاج الى زمن حتى أتقن ذلك، يريد أن يجعل من الإنسان في تلك الفترة التي لم تكن اللغة حاضرة معه، مخلوقاً ليس بصاحب رسالة، تبدأ معه في أولى خطواته في عالم الدنيا، ويريد أن يسلم منه مقام الخلافة التي وهبها الله تعالى له بقوله: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...)، فكيف يكون خليفة وهو فاقد لأهم عنصر من عناصر الإستخلاف وبيان مراميه من أوامر ونواهي من المطالب التي تناسب الشأنية البدائية في تلك المرحلة.



## الرد على صاحب كتاب المباحث الأصولية حول بشرية الواضع

هذا وقد ذهب الشيخ محمد اسحاق الفياض في كتابه المباحث الأصولية الى القول: (من أن الصحيح هو كون عملية الواضع من صنع البشر منذ نشوء ظاهرة اللغة في حياة الإنسان، بدون تدخل وعناية من الله تعالى مباشرة بالإلهام، لأن نعمة العقل والبيان التي خص الله تعالى البشر بها تكفي في تمكنه من القيام بها)<sup>(١)</sup>.

وفي الحقيقة بالنقاط الثلاثة السابقة التي ذكرناها كفاية بالرد على ما تبناه الشيخ، ولكن سنضيف الآن ثلاثة ردود أخرى ليستحكم الرد على اصحاب هذا المذهب:

أولاً:

بقوله ان عملية الواضع من صنع البشر منذ نشوء ظاهرة اللغة في حياة الإنسان، وبدون تدخل وعناية من الله تعالى مباشرة بالإلهام، يتعارض مع ما ذكره القرآن الكريم، إذ بينت الآيات المباركة، وجود لغة وحوارية قد تحدث بها الله تعالى مع آدم وكذلك إبليس، مضافاً للحوارية التي حدثت بين إبنى آدم، وهذه كلها تدل على وجود اللغة، بشكل دفعي قد ميز الله بها آدم عليه السلام. فإذا كانت اللغة تحتاج الى وضع من قبل البشر، فكم سيستغرق ذلك من الوقت للوصول الى تكوين لغة خطاب كامل يناسب تلك المرحلة، ومن ثم لكي يتم التخاطب المشار إليه.

(١) المباحث الأصولية، مصدر سابق: ج ١، ص ١٥٧.

ثانياً:

إن مسألة العقل والبيان لا تعيننا في هذا المقام، لأن الآية واضحة بأن الله تعالى هو الذي علّم الإنسان البيان (خَلَقَ الْإِنْسَانَ \* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) سورة الرحمن: ٣-٤، بإعتبار ان الإنسان قد زوّد بإمكانات لها قابلية البيان متى ما علّمت طريقة البيان، ويا ترى هل أن العقل الإنساني يستطيع لوحده الوصول الى أن يكون واضحاً، وهو في بداياته، وأن يجعل لفظاً لكل ما يقابله في حياته، ومن ثم ينحى منحى لوضع الألفاظ قبال المفاهيم التجريدية. وهو الذي إحتاج الى أن يعلمه الله تعالى أموراً، هي أقل أهمية وأكثر بساطة من اللغة وتعقيداتها، بالرغم من وجود العقل لديه، ولكن عجز العقل عن الوصول لتلك الأمور، فأحتاج الى أن يساعده الله تعالى فيها. وهذا ما حصل مع قابيل، إذ لم يكن يعرف كيف يدفن جثة أخيه، بعد أن قتله، حتى بعث له غراباً يعلمه كيفية الدفن. فأين كان عقله في هذه اللحظة، بالرغم من أن عملية الدفن لا تحتاج الى التركيب والتعقيد اللفظي، إذا ما قيست بوضع الألفاظ وتعقيداتها الجعلية للمعاني. علماً إن إنسان النياندرتال في عصر الباليوليت الأوسط - العصر الحجري القديم الأوسط - الذي سبق آدم بما يقارب (100.000-35.000) قد دفن موتاه، واعتنى بدفنهم حين ترك معهم اسلحة وأدوات وزهوراً، وكان يوجههم نحو شروق الشمس، لاعتقاده بأفكار أخروية (إسكاتولوجية) بدائية<sup>(١)</sup>. فلم يكتسب شيئاً من تلك الخبرات البسيطة والسائدة في تلك العصور، وأختلط عليه الأمر، فكيف سيتسنى له الوصول الى معرفة الوضع اللغوي المعقد والمركب؟!.

(١) ينظر: حضارات ما قبل التاريخ: د. خزعل الماجدي، نشر دار تكوين، بيروت، ط ٢،

ثالثاً:

إن مسألة اللغة وإرتباطها بالإنسان هي من الضروريات التي لا يمكن أن توجد لحظة وهي غير مرتبطة بالإنسان ولصيقة به، فهي يمكن أن تشبه بالأكل والشرب للإنسان، فكما أن الإنسان لا يمكن له أن يستغني عنهما في حياته، كذلك لا يمكن له أن يستغني عن اللغة في حياته الإجتماعية والفكرية والعلمية، إذ لا يمكن أن نتخيل إنساناً كاملاً يعيش بدون لغة لفترة طويلة، الله العالم بها، حيث يمر بمراحل الوضع والجعل اللغوي وهو يختار الألفاظ للمفردات التي تحيط به والتي تشكل محيطه الإجتماعي والطبيعي.

وقد بينا في البحوث السابقة عجز الوسائل الأخرى عن أن تكون بديلاً عن اللغة لفترة ما، كالإشارات والأصوات العشوائية. فكما أن آدم عليه السلام وزوجه وجدا بالفطرة وهما يأكلان ويشربان، ولم يحتاجا إلى التعلم التدريجي، كذلك كانت اللغة معهم بالإلهام والتعليم الإلهي. ولم يكونا بحاجة إلى التعليم التدريجي. وذلك لأن الضرورة هي التي حكمت وأوجبت هذا الشيء.

وبتعبير آخر هناك أمور تتعلق بالإنسان يمكن أن توجد معه بالتدريج، حتى وإن استغرق ذلك وقتاً طويلاً، وهناك أمور لا بد أن توجد مع الإنسان بشكل دفعي، فهي لا تتحمل التأخير والتراخي لتنمو شيئاً فشيئاً، وهذه أيضاً تختلف، فهناك أمور منها لا بد أن توجد معه في بداياته الأولى، كاللغة وكيفية الأكل والشرب، وهناك أمور تأتيه بشكل دفعي ولكن بعد حين، مثل عملية الحمل وكيفية رعاية الطفل فيها، ومن ثم كيف التعامل مع الطفل وهو يخرج من بطن أمه وقص جارته، وثم كيفية إرضاعه والعناية به وهكذا. فهذا بكل تأكيد لا يتعارض أو يتناقض مع مسألة وجود العقل ودوره في تحريك الإنسان للمصالح

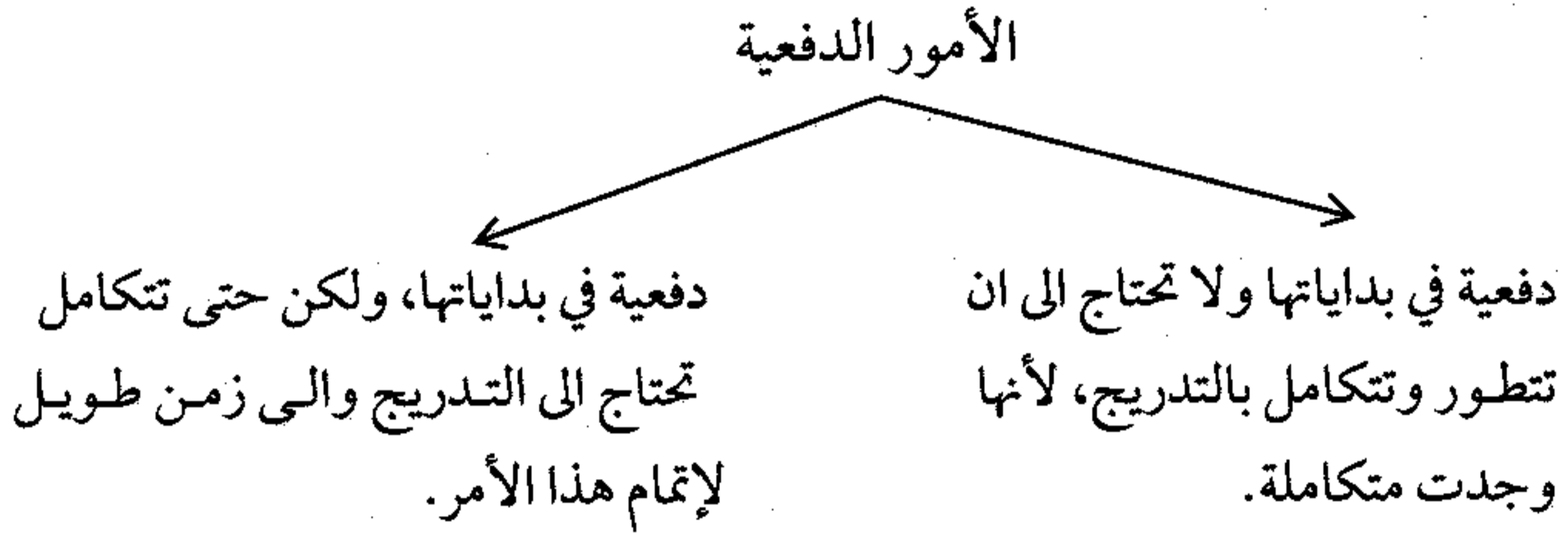
والابتعاد عن المفسد. وكل ذلك يحدث لتعزيز العلاقة بين الفرد وربّه، وليبقى دائماً يتطلع الى الله سبحانه في حياته الدنيا ويشعر باحتياجه وفقره، وأن هناك أموراً كثيرة تحدث في هذه الدنيا، يعجز العقل من أن يجد لها حلولاً ومخارج، لولا التدخل والرحمة الإلهية لهلك دونها. ولما كان له شيئاً يذكر.

## الأمر التدريجية والأمر الدفعية في هذا الوجود

ولبيان الأمر الدفعي والأمر التدريجي بشكل أكثر وضوحاً سنين ذلك فيما يلي:

هناك في هذا الوجود الدنيوي أمور على أنواع منها:  
أولاً: أمور تدريجية.

ثانياً: أمور دفعية. والأمر الدفعية تنقسم الى قسمين



ومن الأمور الدفعية الوجود، والتي لا تحتاج الى التدرج والتكامل، هو إيجاد الأنبياء والأئمة، فكل الأنبياء لو تفحصنا واحداً واحداً، نجد أن وجوداتهم دفعية. وأنا أقصد بدفيعتهم أنهم منذ البدء وجدوا متكاملين ومعصومين عن الخطأ ولم يتعلموا على يد أحد ولم تبدر منهم أية معصية.

علماً أنا هنا لا أتكلم عن التفاضل فيما بينهم صلوات الله عليهم أجمعين، وأن الأخير يكون أوسع وأعمق في رسالته وإحاطته للكون والحياة من السابق، فذاك شيء وما نحن بصدد شيء آخر.

وقد يسأل سائل ويقول: إن وجود الأنبياء وبعثتهم كانت على نحو التدرج في التكامل وسعة الرسالة، ولم تكن دفعية وبشكل فوري وأناي؟

فنقول: نعم، إن بعثة الرسل بما تمثله كخط رسالي واحد يبدأ من الشيء البسيط وغير المعقد، وتنتهي بتكامل وعي البشرية التي تحتاج الى سعة في الأحكام وحل المشاكل التي تتولد نتيجة التزاحم والتشظي البشري الهائل. ولكن كشخص الرسول، فوجود بعثته دفعية، ولم يكن يحتاج الى التدرج للوصول الى مقام النبوة، ففي بعده الشخصي وفي مقام نبوته اللازمة في ذلك الزمن هو دفعي الوجود، ولكن في بعده النوعي هو تدريجي الوجود، وفي ذلك فارق كبير علينا الالتفات إليه وأن نفرق بينهما. وثمره ذلك تخرج من خلال بيان ما يلي:

١- لو كان بعث الرسول يحتاج الى التدرج في نفس بعثته - أي من ناحية قصر النظر على شخص الرسول في زمن محدود ومكان محدد - لما استطاع أن يؤدي غرضه الذي بعث من أجله، بشكل كامل، كون هناك مشاكل ومواقف إجتماعية وغيرها تحتاج الى إيجاد الحلول وإتخاذ القرارات المباشرة التي تناسب ذلك المحيط والمستوى الإجتماعي والفكري فيه، وهنا من المفروض أن يكون مستوى الرسول أعلى من ذلك المستوى، وان يكون محيطاً بكل احتياجاته، والمعرفة التامة بكل متطلباته، وهنا تتشكل الدفعية، بوجود الرسول، بحيث يعلم بإحتياجات قومه، وله القدرة الكاملة في إيجاد الحلول لهم، ولا يحتاج الى زمن يتدرج فيه لتكامل معرفته وهيمته على الاوضاع الإجتماعية السائدة ومعرفة الحلول المناسبة لها.

٢- لو بعث رسول ما، ونحن نعلم بأنه لازال في مرحلة التدرج في التعلم والنضج، ولم يصل بعد الى أعتاب التكامل الخاص في زمن بعثته، فهنا لن يتم الإطمئنان الكامل لما يصدر منه من أحكام أو حلول مجتمعية، على اعتبار إن ما يفهمه اليوم، ويحاول طرحه نتيجة لوجود تشريع سماوي منزل أو نتيجة المعرفة الاجتماعية وأعرافها، فإنه يفهم وي طرح ما يناسب تكامله في تلك المرحلة، وما أن يتدرج ويتكامل بشكل أكبر، من خلال التجارب واكتساب الخبرات والمهارات العقلية وغيرها، فبعد تلك المرحلة قد يكون له موقفاً وقراءة ثانية تختلف عن قرائته الأولى، حتى من ناحية فهمه للأحكام الشرعية. وهذا الأمر محسوس ومعاش في أمورنا اليومية، وعشنا الكثير من امثال هذه التجارب، حتى انك تجد كثيراً من أساطين العلم وجهابذته الذين يشار إليهم بالبنان، تجدهم عندما يتكلمون عن شيء ما، ويؤلفون حوله الكتب، بعد فترة من الزمن يقولون لو كتبنا في نفس الموضوع الآن، لكان رأينا وفهمنا يختلف عن الفهم والرأي الأول.

أما الأمور الدفعية الوجود في بداياتها، ولكنها حتى تتكامل وتنضج تحتاج الى التدرج، وهذا بدوره يحتاج الى زمن طويل لإتمام هذا الأمر. وحينها سيعتمد الإنسان على نفسه في إكمال طريق التطور والنضج فيه، بعد أن يمنحه الله تعالى الدفعة الأولى التي يتمكن من خلالها من معرفة ما يحتاجه في تلك المرحلة، ومن هذه الأمور هي اللغة ونشأتها في بدايات الوجود الإنساني.

فإذا قلنا إن اللغة هي متدرجة، فهذا يحتاج الى وقت طويل، وهذا بدوره ينفي أن تكون هناك ثمار في البدايات، لأنها لا ترى ولا تؤتى إلا في النهايات، وهذا خلاف ما صرح به القرآن الكريم من وجود نوع من اللغة والحوار بين آدم

والله تعالى، وبينه وبين إبليس، أو مستوى الحوار بين أولاد آدم، وكلها تدل على مستوى عال من الألفاظ والمعاني. بل الشيء الملفت أن هناك ألفاظ كانت تدل على معاني مجردة، لا يمكن أن تؤدي، إلا أن يكون آدم عليه السلام وأبناؤه على إحاطة معتد بها، في دلالة اللفظ على المعنى. كورود لفظ القربان بالمحاورة التي جرت بين ابني آدم، وكما قال تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) سورة المائدة: ٢٧، بحيث تأثر الذي لم يتقبل منه تأثراً شديداً، وكان سبباً قد أدى الى أن يقتل أخاه، وهذا فيه دلالة واضحة على وجود وعي وإدراك لا يمكن أن يكون فيه الإنسان بدائياً في كل شيء. ثم انظر الى مستوى اللغة والخطاب الذي حصل بينهما:

- (لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ...)

- (إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

- (إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ...)

- (فَتَكُونَنَّ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ...)

- (وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ) سورة المائدة: ٢٨-٢٩.

ثم انظر الى نفس خطاب القائل مع نفسه:

- (قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَةَ أَخِي

فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) سورة المائدة: ٣١.

فتمعن بالعبارات والألفاظ:



- (قَالَ يَا وَيْلَتَا... ) فهنا تكلم بمنطق العارف بالعقوبة، فأتى بلفظ الويل.

- (أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ) بيان عدم القدرة والفتنة لديه في تلك اللحظة، بحيث تعلم من مخلوق هو يعلم بأفضليته عليه، مضافاً الى أنه قد عرف إسم هذا الطائر، مما يدل على وجود معرفة مسبقة، بأسماء الموجودات حوله، وكان ملتفتاً الى مسألة وجود الألفاظ المناسبة لها، ولذلك هو لم يتردد في إطلاق لفظ الغراب حينما استشعر الألم وهو يحدث نفسه.

- (فَأَوَارِي سَوْءَةَ أَخِي...) فهنا تكلم بالموازاة وإخفاء الشيء، وهو لفظ أقرب للمعاني المجردة، يحتاج الى نوع من الوعي والشعور بالمسؤولية قبال الأشياء الأخرى.

ثم عرف أن أخاه قد أصبح بموته سَوْءَةً، ويجب أن لا تبقى على سطح الأرض، ثم أنه قد عرف المعاني الخاصة بتكوين الأسرة وإرتباط الأفراد فيما بينهم. ولو لم يكن للأسرة وجود وأن هناك قيم أخلاقية وشعور بالود والمحبة فيما بينهم، لما قال أحد الأخوين يا ويلتاي أعجزت أن أوارى سَوْءَةَ أَخِي. فهو هنا يقر بالإخوة وأن أباهما آدم وأمهما حواء، فهم تحت غطاء ورابطة الأسرة، وليس تحت أي غطاء من الفوضى والعبثية. ولكن وجود الشيطان وتسويلات النفس، هي التي تجعله يُقدم على قتل أخيه، فشعر بالندم بعدها، بل وعرف عاقبة أمر ذلك الفعل الذي أقدم عليه. وها نحن الى الآن نرى بعضاً من الناس يقدمون على قتل افراد من أسرهم، بالرغم مما وصلنا إليه من عمق في مفاهيم الدين وعمق في مفاهيم الروابط الأسرية وما يترتب عليها من إلتزامات. وبذلك

يظهر خطأ ما ذهب إليه بعض الباحثين<sup>(١)</sup>. من أن أول مفهوم أخلاقي تم فيه التمييز المباشر للإنسان عن البهائم قد ظهر أول مرة في تاريخ الإنسان في زمن نوح عليه السلام بقوله تعالى: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ) سورة نوح: ٢٨، بل ان أول المفاهيم الأخلاقية الأسرية، وجدت مع وجود آدم عليه السلام، ومن ثم نمت شيئاً فشيئاً.

إذن يظهر من ذلك أن الله تعالى قد ساعد آدم في بدء خلقته، وألهمه كيفية النطق بمجموعة من الألفاظ وبتراكيب وهيئات مختلفة، بحيث يقضي احتياجاته ضمن محيطه ووجوده البدائي ذاك، من دون أن يكون له علم مسبق بالوضع، وكانت تلك هي لغته الأولى ومن ثم تطورت شيئاً فشيئاً، كلما توسع ما يحيط بالإنسان من الأسرة والقبيلة والقرية والمدينة وهكذا، فهذا التوسع يولد الكثير من الأشياء ويظهر مفاهيم وعلاقات جديدة، وكل ذلك يحتاج إلى ألفاظ جديدة لتساير التجديد والتنوع الذي أحاط به.

وأما الأمور التدريجية، فهي الغالبة في هذا الوجود الدنيوي، بإعتبار ان الإنسان كائن إجتماعي ومتعلم وخازن للتجارب، بما فضلّه الله تعالى بكثير من الخصائص والقابليات التي تؤهله للرقى والتواصل مع هذه الحياة. ومن هذه الأمور تكوين الأسرة والقبيلة والقرية والمدينة والدولة، وكذلك التدرج في العلوم والنظم الإجتماعية والقوانين المدنية وغيرها الكثير.

(١) هذا ما ذهب إليه د. محمد شحرور وآخرون، ينظر كتاب (الدولة والمجتمع) لـ محمد شحرور، ص ٥٥ وما بعدها.

الفصل الثاني

النبوة والإمامة

ودورها في إيجاد

الدولة العالمية العادلة

## النبوة والإمامة ودورها في إيجاد الدولة العالمية العادلة

قد يطرح تساؤل بهذا الشكل: نحن عندما نتكلم عن قيادة الأنبياء والأئمة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومدى تأثيرهم على المجتمعات الإنسانية، مع الالتفات الى أمر مهم وهو أنه كلما كان الفرد أكثر تكاملاً، وذو حظ وافر في جنبته الإيمانية والمعرفية، كان تأثيره على الجماهير أو المجتمع أبلغ وأظهر وأسرع. فلماذا لم يؤثر وجود الأنبياء والأئمة على العالم بأجمعه، فضلاً على مجتمعاتهم، بحيث يجبروا ما فيه من نواقص وإكمال لوازمه المعدّة للعيش في هذه الدنيا تحت عدالة التشريع السماوي؟

والحقيقة أن مسألة وجود الأنبياء والأئمة، وقيادتهم للأمة، هي مسألة جداً دقيقة، ولها ميزاتها التي علينا النظر إليها بدقة، وأن لا تأخذنا النظرة السطحية، لتكون هي المحطة التي نتوقف عندها دون غيرها من المحطات التي تغايرها في الآراء والأفكار، فهنا سيكون ظلم وسنبتعد عن الفهم الواقعي، بل قد يحجب عنا بالمرّة.

وتوجد هنا مسألتان ضروريتان علينا التعرض لهما لتتضح الصورة بشكل أوسع:

الأولى: إن شخصية النبي أو الإمام، بالرغم من إمتلاكها لحقائق ومفاهيم غيبية مهمة، وكذلك أسباب تحرك العناصر المادية، ولكنه يتعامل مع الآخرين بما يناسب المستوى العلمي والفكري والبنى الإجتماعية في تلك المرحلة. على الرغم من أن هذا التفاوت بين الأنبياء والأئمة وبين مجتمعاتهم كبير ولا يمكن حصره

برافد واحد.

الثانية: وجود القادة المصلحين في عصر الغيبة، والذين يأتي دورهم بعد غياب الإمام المهدي عليه السلام غيبته الكبرى عام ٣٢٩هـ، والتي بدأت بوفاة السفير الرابع علي بن محمد السمري. والذين لم يكن لديهم بكل تأكيد ما عند الأنبياء أو الأئمة عليهم السلام. ولكن بالرغم من ذلك، فإنهم يتعاملون مع مجتمعات قد وصلت لمرحلة من مراحل التكامل، هي أعلى من تلك المستويات التكاملية التي وجدت في عصر الأئمة.

وأنا أقصد بالبعد التكاملي الإيماني بالخصوص. بدليل أن عصر غياب الإمام المهدي عليه السلام قد بدأ منذ زمن طويل، ولم يعد بالإمكان النظر إليه والتعايش معه بالمباشر ومعرفته شخصياً، وهذا ما كان ليحدث لولا وصول المؤمنين الى مرحلة من مراحل التكامل يستطيعون بها الإستمرار في هذه الحياة والإمام غائب عنهم ليشقوا طريقهم، وهم يصارعون ضغوطات الحياة بما وصلوا إليه من إعتقاد صادق، ورصيد معرفي تركه لهم النبي والأئمة من ولده، يتمكنوا بواسطته من إكمال مسيرهم. وهذا بدوره سيعطيهم نوعاً تدريبياً جديداً، زاخراً بالتجارب والتمحيصات ليمكنوا من خلاله حصد ثمار إيمانية كبيرة سيكون لها دوراً مؤثراً عند ظهور الإمام المهدي عليه السلام وبناء دولة العدل المنتظرة.

وهذا ما أشار إليه الرسول صلى الله عليه وآله، فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث طويل قال: يا علي واعلم أن أعجب الناس إيماناً وأعظمهم يقيناً قوم يكونون في آخر الزمان، لم يلحقوا بالنبي، وحببتهم الحجة، فأمنوا بسواد علي بياض. وفي رواية: وحببت عنهم

الحجة، وهو الصحيح<sup>(١)</sup>.

هذا طبعاً مع عدم إغفال أهمية التقدم المادي، وسيره بمستوى من مستويات التطور العالي، الذي يختلف عما كان عليه في الزمن السابق، الذي تجلى فيه وجود الأنبياء والأئمة سلام الله عليهم أجمعين. وهذا يعد أمراً طبيعياً وفق منهج تطور وتكامل الأجيال في البعد الإيماني والفكري والبعد المادي، وعدم البقاء ضمن أطر وحدود مغلقة.

وهنا ستظهر لنا أمور لها معطياتها الفكرية الجديدة والتي يتبلور من خلالها فهم جديد لمصطلح قيادة الأنبياء والأئمة المعصومين وقيادة غيرهم.

(١) المعجم الموضوعي لإحاديث الإمام المهدي: علي الكوراني، نشر دار المرتضى، بيروت،

ط ١، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م: ص ٤٠٤.

## الأمر الأول

### مستوى الوعي في زمن قيادة مرحلة الغيبة

علينا أن نلاحظ لطف الله تعالى فينا، وكم خفف عمّن هو دون قيادة الأنبياء والأئمة، وسهّل أمره في عملية القيادة والإصلاح في مجتمعه، بحيث قلل وقلّص له الفارق فيما بينه وبين أفراد المجتمع الذي يتواجد فيه، أو من يتزامن مع حركته.

أي أن الله تعالى قد صعّد في ميزان الوعي المجتمعي من جهة، ومن وعي الأفراد النوعيين من جهة أخرى، على الرغم من أن التكامل الموجود في جهة القيادة ما بعد الغيبة، لم يرتق الى مستوى تكامل قيادة الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

ويستمر الحال هكذا الى أن يصل المجتمع الى مستوى من التكامل الإيماني والفكري، بحيث لا يستطيع القائد الإصلاحي الذي وجد بعد الغيبة الكبرى أن يلبي حاجاته ويسير به لمواصلة تكامله، الذي لا يمكن ان يحدد بنقطة معينة للوقوف عندها. وحيثُ سيكون من اللازم والضروري أن يتولى القيادة الإمام المهدي عليه السلام بنفسه، ولن يؤدي أي قائد آخر هذا الدور. ولذلك سيتم خروجه، وهذا ما يضبطه المسار التاريخي في سنته، والتي يتم بها الحفاظ على البشرية، وإحاطتها بإطار الأمان الذي لا بد من إيجاده، من أجل مستقبل يضمن لها إستمرارها وتحصيل الهدف من خلقها.

وبعبارة أخرى يمكن عدّ مسألة إحتياج البشرية كلّها - المؤمنون وغير المؤمنين - وعلى مختلف المستويات الإيمانية والعلمية، وكذلك على المستوى

السياسي والفكري، الى قيادة عالمية لا يمكن لأي نوع من قيادات عصر الغيبة أن تؤديه - القيادات ذات المستوى الإيماني العالي والقيادات الدنيوية الأخرى بمختلف مسمياتها - وعلى سبيل المثال؛ سوف يصل المؤمنون المخلصون الى مستوى تكامل معين وسيقفوا عنده، ولن تتمكن قيادة ما دون العصمة في زمن الغيبة من إعطائهم بُعداً تكاملياً جديداً يستطيعون من خلاله الإستمرار في الصعود والترقي.

وكذلك أهل العلوم الدنيوية المختلفة، سوف يصطدمون بتحديات تفرضها عليهم الطبيعة والإحتياج البشري، لن يتمكنوا من مواجهتها والخروج منها بسلام. ولذلك سيقرون بعجزهم عن مواجهة تلك التحديات - كأن تواجههم أزمات وبائية أو كوارث طبيعية أو غيرها من تحديات الطبيعة - حتى وإن لم يعترفوا بذلك علناً.

مضافاً الى يأس المجتمعات من قاداتهم السياسيين والاجتماعيين من أن يجدوا لهم حلولاً مناسبة تعالج مشاكلهم. ففي ذلك الوقت سيتم خروج الإمام المهدي عليه السلام.

وحينئذ يمكن عدّ هذا الأمر شرطاً يضاف الى شرائط الظهور الرئيسية للإمام سلام الله عليه<sup>(١)</sup>.

(١) ذكر السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره في موسوعة الإمام المهدي ثلاثة شروط لظهور الإمام هي:

الشرط الأول: وجود الأطروحة العادلة الكاملة التي تمثل العدل المحض الواقعي، والقابلة للتطبيق في كلّ الأمكنة والأزمنة، والتي تضمن للبشرية جمعاء السعادة والرفاه في العاجل، والكمال البشري المنشود في الآجل.



فالتاريخ الإنساني لا يمكن ربطه بشكل دائري مغلق، لتكون البدايات هي النهايات والنهايات هي البدايات، بل يستمر المجتمع الإنساني في حالة من الصيرورة الدائمة، فهو في تقدم وتحول نوعي، وليس تراكمياً كمياً لأحداث التاريخ فقط. بل يتطور وينتج فكراً وحضارة في إطار أوسع.

وهذا ما يقرّه الدين منذ البدايات الأولى للخلق، ولولا ذلك لما وصلت الأديان الى مرحلة تكاملها في الدين الإسلامي، بعد أن تدرجت مع المستويات العقلية البدائية للإنسان، والى أن وصلت الى انفتاح عقلي وفكري يريد مساحة أوسع، لكي تنطلق من خلاله الى أفقها الحضاري السعيد.

فجاء الدين الإسلامي ليبي تلك الحاجات وذلك الطموح، وأنزل بصفته خاتم الأديان كونه له القابلية على الإستمرار والبقاء، بعكس الأديان الأخرى التي أنزلت وهي محفوفة بالتدرج والانتقال. ولذلك نادى هذا الدين الجديد بكل ما يدعو الى الإبداع في الحياة، ولذلك قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...) (الأنفال: ٢٤)، فربط ربطاً مباشراً بين الدنيا والآخرة، فكلا العالمين غير منفصلين عن بعضهما، بل لك في الحياة الدنيا وجود وعمل وسعادة، وأنت كإنسان لك قابليات ومؤهلات وهبها الله تعالى لك وهي كبيرة وهائلة جداً، لن تستطيع الدنيا بأسبابها وطبيعتها، أن تلبى كل إحتياجاتك المادية والروحية، نعم قد تلبى كثير من إحتياجاتك المادية، ولكن

---

الشرط الثاني: وجود القائد المحنك الكبير الذي له القابلية الكاملة لقيادة العالم كله.

الشرط الثالث: وجود الناصرين المؤازرين المنفذين بين يدي ذلك القائد الواحد (\*).

(\* تاريخ الغيبة الكبرى: السيد الشهيد آية الله العظمى محمد الصدر قدس سره، نشر دار

التعارف للمطبوعات، بيروت، ط ١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م: ج ٢، ص ٣٩٩ وما بعدها.

في نفس الوقت من الظلم أن لا تلبى الإحتياجات الروحية بشكل أوسع وأكبر مما هي عليه في هذه الدنيا.

فمجرد أن يلتفت الفرد لتلك الإحتياجات سوف يصطدم بعدم قدرة القوانين الطبيعية من أن تلبى له ذلك. وهنا في هذه النقطة نحتاج ذلك البعد الأخرى للإرتباط به من خلال عالم الدنيا، وليس من عالم آخر.

ولذلك كانت الموازنة بين العقل والروح والإحتياجات المادية والروحية بأوسع معنى لها، قد تمثل بالدين الإسلامي، لأنه استطاع أن يمتلك مقومات إعطاء كل طرف ما يحتاجه ويكمّله. ولذلك فالقرآن نزل وهو يحث الإنسان على عدم الإنصياع والقبول بما يملئ عليه ظرفه الخارجي والطبيعة، بل عليه أن يسعى وبقوة، لتحقيق تكامله الذي أراده الله تعالى له، وعليه أن لا يبقى مكتوف الأيدي قبال من يريد منعه عن ذلك.

ولعلك تجد ذلك واضحاً من خلال كثير من الآيات القرآنية والتي منها:  
(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)  
الزمر: ٩.

- (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ \* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ \* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ \* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) سورة العلق: ١-٥.

وفي الحديث: (من استوى يومه فهو مغبون، ومن كان آخر يوميه شرهما فهو ملعون، ومن لم يعرف الزيادة في نفسه فهو في نقصان، ومن كان الى النقصان فالموت خير له من الحياة)<sup>(١)</sup>.

(١) ميزان الحكمة: محمد الريشهري، نشر دار الحديث، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م:

## عَوْدُ أَبَدِيٍّ أَمْ تَعَلُّمٌ وَإِنِّطْلَاقٌ؟

وهذا الذي قلناه بالتأكيد خلاف ما يحمله أصحاب القول بالعود الأبدى (التكرار الأبدى) الذين يصرون على أن العقلية الدينية على النقيض من العقلية العلمية، وعندهم الدين يشكل خطراً، لأنه يقف بوجه حركة التاريخ. سواء كما يرى نيتشه: بأن الدورة الحالية للزمان ستنتهي، ولكن لن يتوقف الزمان إذ إنه سيبدأ في التو دورة أخرى لا تختلف عن سابقتها في أي شيء، وحينما تنتهي ستبدأ من جديد وبنفس الطريقة، فهو عَوْدُ أَبَدِيٍّ مَادِيٍّ أَلِيٍّ رَتِيبٍ، والإنسان كالساعة الرملية سيعود من جديد ويذهب من جديد دائماً أبداً. إنها تكرار أبدى لنفس الشيء ولنفس الحياة. ولذلك فهو يقول للحظة: (فلتكرري نفسك الى الأبد) وهو ما يعني الإذعان الكامل للضرورة والإدراك المأساوي لأنه لا يوجد أمل في المستقبل، وإنما سيتكرر نفس الوجود، أي أن الحياة الحالية هي كل ما هناك دون أي أمل في الخروج منها، حتى ولو في دورة كونية مقبلة. وفي هذا أيضاً إلغاء لفكرة الهدف، فالتكرار هو ثابت الحركة، وهو حركة الإتجاه وتقبل العود الأبدى في هدوء هو حب القدر<sup>(١)</sup>.

أو كما يراه عالم الأنثروبولوجي وتاريخ الأديان (ميرسيا إلياد) الذي تكلم عن العود الأبدى وقال بأن الدين بأكمله قائم على فكرة العود الأبدى، أي أن المؤمن في عصرنا الحالي يعود الى أصول دينه ميثولوجياً وطقسيا لينشط الحاضر، لأن الحاضر مدنس، وهو يحتاج الزمن المقدس الذي حصل في الماضي.

(١) نيتشه وجذور ما بعد الحداثة: تحرير د. احمد عبد الحليم عطية، نشر دار الفارابي، بيروت، ط١، ٢٠١٠م: ص ١٩٢ بتصرف.

كما أنهم يرون في المفهوم الأنطولوجي (البدائي): الشيء أو الفعل، لا يصير حقيقياً إلا أن يحاكي، أو يكرر، نموذجاً أصلياً، أي أن الحقيقة لا تكتسب إلا بالتكرار أو الإنقسام، وكل ما ليس له نموذج مثالي فهو (عار من المعنى)، أي مفتقر الى الحقيقة، ولذلك كان لدى الناس ميل الى أن يصبحوا مثاليين أو نموذجيين. ولعل في هذا الميل شيئاً من تناقض يتبدى في أن الثقافات التقليدية لا يعترف بحقيقة نفسه، إلا عندما لا يكون هو نفسه، مكتفياً بمحاكاة حركات غيره أو تكرارها. بعبارة أخرى، لا يعترف بنفسه حقيقياً، أي أنه (هو نفسه حقاً)، إلا عندما ينقطع أن يكون هو نفسه تحدياً. ولذلك يمكننا القول ان هذه الأنطولوجيا (البدائية) قائمة على بنية أفلاطونية، أو يمكننا اعتبار أفلاطون فيلسوف (العقلية البدائية) بإمتياز، أي المفكر الذي حالفه التوفيق في تقويم طراز الوجود والسلوك عند البشرية القديمة تقويماً فلسفياً<sup>(١)</sup>.

ثم ماذا يعني (العيش) لإنسان ينتمي الى الثقافات التقليدية؟ إن معناه، قبل كل شيء، هو أن يعيش وفقاً لنماذج تفوق الشرط البشري، أي وفقاً لنماذج بدئية، وبالتالي أن العيش في قلب (الحقيقي)، ما دام ليس من حقيقي حقاً غير النماذج البدئية.

ومعنى أن يعيش المرء طبقاً للنماذج البدئية، أن يحترم (الشريعة)، ما دامت الشريعة ليست غير تجلّ إلهي أولي، وكشق في الزمن البدئي عن قواعد الوجود التي استتتها الألوهة، أو كائن ميطيقي (سماوي). ولئن أفلح الإنسان القديم في إلغاء الزمان عن طريق تكرار البوادر المثالية وبواسطة المراسم الدورية<sup>(٢)</sup>.

(١) اسطورة العود الأبدي: ميرسيا إلياد، ترجمة نهاد خياطة، نشر دار طلاس، دمشق، ط ١،

١٩٨٧: ص ٧٠.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٦٨.

ولنا على هذا الكلام تعليق لا بد منه:

إن القول بمسألة: أن الفعل لا يصير حقيقياً إلا أن يحاكي أو يكرر، نموذجاً أصلياً، وأن يعيش وفقاً لنماذج تفوق الشرط البشري، أي وفقاً لنماذج بدئية، هو قول غير مقبول بإطلاقه، وعلى نحو أن كل فعل لا يتسم بالواقعية والقبول إن لم يكن مكرراً لنموذج أصلي وعلى أن لا يكون بشرياً.

نعم هناك بعض الأفعال لا يمكن أن تؤدي أو حتى يلتفت إليها أصلاً، إن لم يكن هناك مثيراً يستتبعه فعل أصلي يكون بدئي في وجوده، ولولا هذه البدئية لما توصل الإنسان للقيام بهذا الفعل. ومثل تلك الأفعال يجب أن تكون مهمة، وفي غاية الإحتياج إليها، بل قد تساهم في حدوث دور حضاري لا يمكن أن يكون له وجود دونها، ولو خُلي الإنسان وطبعه، من دون أي تدخل خارجي، لن يتمكن من الوصول إليها، وقد يكون أحياناً غير ملتفت إليها واقعاً، ولم تكن حاضرة في ذهنه أصلاً.

ولكن بما إنه وجد في هذه الدنيا ليؤدي دوراً فيها على الأرض، لا بد من مدّه بوسائل التمكين والتطور، حتى وإن كان غافلاً عنها، أو غير حاضرة في ذهنه، بإعتبار أنه متى ما امتلك تلك الوسائل، فإنه يستطيع بعدها فك رموز وألغاز الوصول إلى الحضارة والتمدن. بل ويطور تلك الأفعال أيضاً إلى مديات أبعد وبتقنيات أكبر، حتى يبدو ذلك الفعل البدئي، الذي حاول أن يقلده في حدوثه، في المستقبل صغيراً متى ما نظر إليه، ولا يمكن أن يقارن بما وصل إليه من تطور ونمو، بفضل الجهد الإنساني المبذول من أجل تحديث كل شيء في هذا الوجود. وستفتح آفاق جديدة وتنبت أعمال وأفعال كثيرة، نتيجة التكرار والتعلم من ذلك النموذج أو الفعل الأصلي.

وعلى سبيل المثال مسألة اللغة وتعلم الإنسان كيفية معرفة أسماء الأشياء والنطق بها، ثم مسألة التحاور ونقل ما يدور في الذهن من أفكار الى الآخر، فهي تحتاج الى نظام اعلامي مميز، كونها تختلف عن لغات الحيوانات ولغات الإشارة، لينتقل بعدها الى الإنتاج اللغوي productivity وهو قدرته على النطق بتركيبات لم يسبق له أن سمعها من قبل.

فإذا كان الأمر كذلك فهي لابد أن تكون من وضع إلهي، لأنها تحمل نظاماً دقيقاً ومعقداً تفتح من خلاله آفاق إنسانية يصعب أن تحد. بالرغم من كثرة الآراء والنظريات اللغوية والدراسات الألسنية في هذا المجال، التي حاولت أن تجد تفسيراً منطقياً في كيفية تعلم الإنسان اللغة، فكلها في الحقيقة قابلة للرد والنقاش، كما بيّنا ذلك مفصلاً في البحوث السابقة.

إذن هي هبة إلهية وفعل إلهي وجه به آدم على نحو الإلهام أو الوحي أو التكلم، ثم تعلم آدم هذا الفعل، ثم نطق الحروف والكلمات وأشار للأشياء بأسمائها، والآية القرآنية واضحة بهذا الشأن إذ قال تعالى: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ...) البقرة: ٣١. ومن هذا القبيل نذكر بعض الآيات:

- (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ) النساء: ١١٣.

- (خَلَقَ الْإِنْسَانَ \* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) الرحمن: ٣ - ٤.

- (وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) يوسف: ٦٨.

- (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ) الانبياء: ٨٠.

- (وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) سورة البقرة: ١٥١.

- (وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ...) سورة النمل: ١٦ .

فهذه الآيات تشير بصراحة الى أن آدم والأنبياء من بعده كانت هناك اعمال لم يكونوا يعرفونها ولا البشرية، ولكنهم تعلموها نتيجة الفعل البدئي والنموذج الأصلي من قبل الله تعالى. ثم بعد ذلك تطور هذا الفعل بواسطة العقل الإنساني، كونه لا يقف فقط عند التقليد والتكرار، كحال بعض الحيوانات التي عرفت بالتقليد. بل يستمر بالتعلم والتطوير، وهذه هي ميزة الإنسان التي افرق بها عن غيره من المخلوقات، وهي ميزة الإبداع والتجديد، نتيجة التطور الفكري والعقلي. ولنقرب ذلك بمثال الطالب المبتدئ، فهو يدخل الى المدرسة، وهو جاهل لكثير من العلوم، ولكنه بعد أن يدرس ويتعلم، وعندما يتقن العلم الذي يتخصص به، تجده كثيراً ما يبدع ويجدد وقد يضيف أشياء على ما تعلمه، ولا يقف فقط على ما اعتاده من الدرس.

هذا طبعاً مع ملاحظة مهمة وهي: ليس كل الأشياء والأفعال تدخل ضمن هذا المبدأ الذي ذهب إليه أصحاب فكرة العود الأبدي من أن الحقيقة لا تكتسب إلا بالتكرار، فهناك كثير من الأفعال، هي من نتاج بشري خالص، ولا تحتاج الى نموذج أصلي حتى تحاكيه وتتعلم منه.

إذن بالنتيجة نصل الى نسبية هذا القول الذي ذهبوا إليه، ولا يمكن قبوله على اطلاقه، فإن في ذلك تسويق وتجاهل وغبن للعقل البشري بشكل واضح.

## هل نحن نعيش حالة تكرار الماضي؟

إذا كان اصحاب فكرة العود الأبدي، وخصوصاً (نيتشه) يرون أن الديانة المسيحية واليهودية تقف بوجه القوى الطبيعية للإنسان، وبالتالي تشكل عقبة كبرى تحول دون نمو هذه القوى، فهذا لا يمكن أن يعمم على الدين الإسلامي، وبالتالي سنبتعد عن المنهج العلمي الذي يبحث ويغوص في الوقائع، وسنعمد على تصورات مسبقة، لنمارس نفس الدور الذي نقف بالضد منه - أي إعادة الحكم على ما هو جديد، وبالاعتماد على تكرار الماضي المعهود للديانات السابقة - فصحيح ان الذي شجعهم على التركيز على مبدأ العود الأبدي أن لا مقدس إلا ما يأتي عن طريق الدين، وكل شيء تابع للعالم فهو مدنس، ولذلك يجب أن يهمل موضوع الدنيا، ويجب أن لا ينظر الى التاريخ لأنه يمشي بطريقة مستقيمة<sup>(١)</sup> وعلينا الاعتماد على الزمن المقدس الذي يمشي بطريقة دائرية أبدية، وهو الذي يشكل الاسطورة الأساسية. هو ما يجدونه في الديانات القديمة والديانتين اليهودية والنصرانية، ولكن هذا ليس مبرراً بأن يكون لهم الحق بالتعميم على كل الديانات. وأمر آخر عند اصحاب فكرة العود الأبدي، يضربون به الدين وهو مبدأ (المينوك menok) و (الجيتيك Getik)<sup>(٢)</sup>، فهناك سماء مرئية وأخرى غير مرئية، وأرضنا تتطابق مع أرض أخرى سماوية. وإن كل ما حصل على الأرض فهو موجود في السماء، أي أن السماء هي الحقيقة الصحيحة، وهي التي تحفظ

(١) لأن صانعه هو الإنسان.

(٢) (المينوك menok) هو مرحلة تسبق مرحلة الدنيا. و (الجيتيك Getik) وهو مرحلة الدنيا. ينظر: اسطورة العود الأبدي: ميرسيا إلياد، ترجمة نهاد خياطة، نشر دار طلاس، دمشق، ط ١، ١٩٨٧: ص ٢٢ وما بعدها.



الأحداث الأولى، أي المثال الأول للأحداث إنعكس على الأرض، فإذا لا جدوى من أن نفعل شيئاً، لأن كل الأشياء قد قررت فوق، ونحن بالتالي نسخة معادة.

وأمر آخر عند أصحاب فكرة العود الأبدي وهو تحمل الألم، أي أن المتدين يجب أن يتحمل الألم، بإعتبار أن الألم جزء من التاريخ، ولا بد من حمل جزء منه نيابة عن البشرية الضالة غير المؤمنة.

وفي هذا يقول ميرسيا إلياد: ففي إطار هذا الوجود، ماذا كان عساه أن يعني الألم والمعاناة؟

لا يستطيع الإنسان أبداً أن يتحمل خبرة مجردة من المعنى إلا أن تكون مما لا يمكن تجنبه، كأن يتحمل قسوة الأحوال الجوية، مثلاً، إن لمعانته معنى مهما كانت طبيعتها وأسبابها البادية، فإن لم تكن تستجيب دائماً لنموذج أصلي، فهي تستجيب - على الأقل - لنظام لا يتحمل قيمته الأخذ والرد. وقد قيل أن أكبر مآثرة للمسيحية، في نظر الأخلاق المتوسطة القديمة، كانت في إعطاء المعاناة قيمة: تحويل الألم من حالة سلبية إلى خبرة ذات محتوى روحي (إيجابي). لا يصح هذا التوكيد بمقدار ما يمنح المعاناة قيمة وحسب، وإنما حتى بمقدار ما يتعلق الأمر بالبحث عن الألم من أجل صفاته الخلاصية. لكن إن كانت بشرية ما قبل المسيحية لم تسع وراء الألم ولم تعطه قيمة بإعتباره أداة للتطهير والإرتقاء الروحي، فهي لم تعتبره مجرد عن المعنى أبداً<sup>(١)</sup>.

ولذلك فهنا التاريخ لا يمثل إلا الألم والسعادة لا توجد إلا في الأبد. ولكن

(١) اسطورة العود الأبدي: مصدر سابق: ص ١٦٩.

في الحقيقة أن هذه الأمور وجدت في الديانات القديمة والتي نقلت إلينا عن طريق علم الآثار وما وجدته من رقم طيني وألواح بخصوص ديانات تلك المرحلة أو ما تناولته الأساطير وأمورهم الطقسية، وهي في الغالب بطبيعتها لم تكن تمثل الواقع، وإنما كانت تكتب وتؤرخ ضمن رؤيا طوطمية وميثولوجية، وتحويل البطل الاسطوري الى كائن ميطيقي (سماوي)، والتعامل مع الآلهة على أسس الخرافة والسحر، ولربما تأخذ حيزاً كبيراً من ثقافة واعتقادات تلك الحقب القديمة من التاريخ، أو يتقصد حكام وملوك تلك الحضارات الى تبني ورعاية مثل تلك الاساطير والملاحم والخرافات للبقاء في الحكم وإضفاء الشرعية لهم.

وبالتأكيد فإنهم سيميلون الى توثيق تلك الخرافات والأساطير التي تدعم ملكهم وتديم بقائهم، وحينها ستختفي الحقيقة التي تمثل الجانب السماوي الصحيح، لأنها لا ترضى بالواقع الذي يمثله ملوك وحكام تلك المراحل من التاريخ، وستبقى حينها محجوبة ومتسلط عليها بالقهر والقوة، وعندها ستضيع الكثير من المعالم التوحيدية هناك، وخصوصاً إذا ما عرفنا إن الدين في بداية الخليقة، لم يكن معمقاً وواسعاً، وإنما اكتفى بأمور توحيدية فطرية بسيطة تناسب ذلك الوجود البدئي للخليقة، الذي ما زالت التجارب المعقدة والتي يتوالد منها الوعي والفكر، لم يكن للإنسان نصيب منها إلا القليل.

وكانت الصبغة السائدة والغالبة في بدايات عصر التدوين، وعصر تكوين الحضارات هو كيفية الإستيلاء على الأراضي، وإحداث الحروب والقتل والأسر، وبناء المعابد ومقابر الملوك وإنشاء الزقورات والأعمال التي تبرز التسلط والقوة ومباركة الآلهة للملوك.

وهذا ما ستعرض له وبيان لمحة عن تلك الحروب والمظالم الذي كان يقوم

بها ملوك وحكام تلك الحضارات في الأوراق القادمة إن شاء الله تعالى.

فإذا كانت المظالم وظروف القتال والسيطرة والأسر هي السائدة في تلك المراحل من التاريخ، فبالتأكيد ستكتب وتوثق ما يناسب طموحاتها، ولن يكون للحق المتمثل بالدين الواقعي من نصيب يذكر، ولذلك ضاعت تلك الآثار والوثائق الدالة على حقانية الدين وخلوه من الخرافة والملاحم والأساطير.

ففي الحضارة المصرية، ومنذ عصر المملكة القديمة ما يقارب النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد كانت الشمس هي الإله الأعلى، وقد سجدوا لها، للإله الناري (رع) في عصور الممالك المصرية الثلاث:

١- المملكة القديمة: (النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد).

٢- المملكة الوسطى: (أواخر الألف الثالث قبل الميلاد).

٣- المملكة الحديثة: (امتدت حتى اواسط الألف الأول قبل الميلاد).

ولقد كان (رع) إلهاً مصرياً مشتركاً، وكان معه آلهة آخرون وكلهم تحت سلطته، الى أن سنّ الفرعون (امينحوتب الرابع) في اواسط الألف الثاني قبل الميلاد شريعة عبادة الإله الواحد، وبات هذا الإله الواحد يدعى آتون (قرص الشمس) وتبعاً لهذا بدّل الفرعون اسمه، فبات يدعى (اخناتون) - أي الذي يجبذه الإله - وقد وقع ذلك الحدث في حوالي الوقت الذي بدأ فيه إبراهيم - إبراهيم - يدعو قومه لعبادة الإله الواحد.

وحظي منصب رئيس أو رئيسة الكهنة بأهمية سياسية كبيرة، فقد كان الملك يسنده الى أحد ابنائه أو أحد أصدقائه الأقوياء. ومثل المواطنين الأثرياء، كانت

المعابد تملك عقارات في وادي النيل كاشفة بذلك عن وزنها وأهميتها في استقرار ووحدة البلاد<sup>(١)</sup>.

فهنا يمثل وجود إبراهيم عليه السلام مع الأهمية السياسية الكبيرة التي يحظى بها منصب رئيس الكهنة دليلاً على أن هناك ديانات حق، ولها تعاليمها التي تدل على الوحدانية، ولكن لم يكن لأصحابها الملك والحاكمة، ولا آثارهم تدون وتوثق كدين رسمي للدولة، وإنما كانت تدون المعتقدات الدينية التي يتبناها الملك أو الحاكم دون غيره.

عموماً وبعد وأن مات الفرعون المصلح، عاد كل شيء إلى ما كان عليه، وواصلت مصر عبادة آلهتها القدامى. وتعج الديانة المصرية بكثرة كثيرة من الآلهة، ولكن عددهم لا يقارب عدد آلهة الديانة الهندوسية، وثمة عدد من هؤلاء الآلهة يشبه الإنسان: الإله الخالق بتاح، والإله آمين، وزوجته موت وإبنهما خونسو، وإيزيس وأوزيريس، والآلهة حاثور إلهة الحب والمرح، وإلى جانب الآلهة الذين يشبهون البشر، لدى المصريين أيضاً عدد من الآلهة المختلطة. وقد رسموا هؤلاء بجسد ورأس واحد من الحيوانات.

وبالرغم من أن الإله (بتاح) الذي منحوه مظهراً بشرياً، لكن زوجته الآلهة المقاتلة (سخميت) كان لها رأس لبوة، كما كانت لإله الحكمة (توت) رأس الطير أبي منجل، وإله النور (حورس) رأس صقر، وإله الماء (سيبيك) رأس تمساح،

(١) معجم الأديان: ميرسيا إلياد وآخرون، ترجمة وتعليق خليل كدري، نشر مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، بيروت، ط ١، ٢٠١٨م: ص ٣٤٨. وينظر: تاريخ الأديان القديم للدكتور رؤوف سبهاني، نشر مؤسسة البلاغ، بيروت، ط ١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م: ص ٢١ وما بعدها.

ولإله الخصب (خنوم) رأس كبش، وكان الإله الأعلى (رع) قد تجسد بدوره عدة مرات: مرة في صورة الشيخ أتوم، ومرة في صورة مومياء، ومرة في صورة جُعل، ولكي يتغلب على الثعبان (أبوب) اتخذ (رع) أيضاً صورة هرّ رمادي.

وكذلك عبد المصريون شتى أنواع الحيوانات، ولم يتجل هذا فقط في منحهم ألهتهم رؤوس حيوانات، لكنه تجلى أيضاً في أنه كان للآلهة أنفسهم حيواناتهم المقدسة، وقد أطلق الباحثون على مثل هذه الديانة إسم (زوو - لاتوبيا)، أي السجود للحيوانات.

فلقد كانت للبقرة، والهرّ، والكبش، والثور، وأبي منجل، والقرد، والثعابين، والأسماك مكانة مرموقة جداً عند المصريين، وتحول بعض منها الى رمز وطني، بل لقد حنطوا بعضها، كما كانوا يحنطون الفراعنة. وإذا ما قتل أحدهم الهرة: حيوان الآلهة (باست) المقدس، فقد كان يمكن أن يحكم عليه بالإعدام<sup>(١)</sup>.

وأما الآلهة في وادي الرافدين، فإن ما تظهره اللقى الأثرية التي عثر عليها في مواقع وادي الرافدين، فمنذ أقدم العصور، عندما لم تكن المعابد الكبيرة قد شيدت بعد، عرفت بلاد ما بين النهرين مخازن مقدسة، كانت تخزن الحبوب فيها، وليس خافياً لماذا عدت مثل تلك المخازن المقدسة، فالخبز هو الحياة. وقد سجدوا له، لقد كانوا يؤدون حول تلك المخازن طقوساً مهمة، ولقد عولوا على الآلهة لضمان محصول وفير. ولكن الآلهة كانوا يطلبون تقدمات وصلوات.

(١) ينظر: أسرار الآلهة والديانات: أ.س. ميغوليفسكي، ترجمة دكتور حسان ميخائيل، نشر دار علاء الدين، دمشق، ط ٤، ٢٠٠٩م: ص ١١ وما بعدها. ومعجم الأديان: جون ر. هينليس، ترجمة هاشم أحمد محمد، نشر المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط ١، ٢٠١٠م: ص ٥٥. وتاريخ الأديان، للدكتور رؤوف سبهاني: ص ٢١ وما بعدها.

ولقد جرت العادة في بلاد ما بين النهرين، أن تجاور كل معبد حظيرة حيوانات، كما كانت تحدد هناك قطعة أرض يحيط بها سياج ترعى الحيوانات فيها. وكان ثمة كاهن يقيم في مثل هذه الحظيرة إذا كان المعبد مكرساً لآلهة، وكاهنة إذا كان المعبد مكرساً لإله، وكانوا يقيمون طقوس زواج الكاهن والآلهة أو الكاهنة والآله.

وكان هيرودوت قد ترك لنا الوصف التالي لمعبد الإله بل، مردوك في بابل: (في هذا المعبد سرير كبير مزين زينة فخمة، وإلى جانبه مائدة ذهبية، وليس ثمة صور أو تمثال لأي إله هنا، كما لا يبيت أي إنسان ليلة هنا، ما عدا امرأة واحدة، يقول الكلدانيون مهنة هذا الإلهة، إن الإله يختارها لنفسه من بين النساء المحليات، ويؤكد هؤلاء الكهنة إن الإله يأتي إلى المعبد أحياناً ويقضي ليلته على السرير).

ولقد كان نشاط معابد المدن متنوعاً وتنوعاً واسعاً، فهي كانت تملك مراعي رحبة وقطعاً كثيرة وحقولاً واسعة، وكانت تدير تجارة متنوعة مع البلدان المجاورة والبعيدة، كما كانت تحقق شتى العمليات النقدية، فتقدم قروضاً بفائدة (فضة وحبوباً) وتشتري أملاكاً منقولة ثم تعيد بيعها من جديد، وترهن وتؤجر المنازل والبساتين. وقد كانت تتبع المعبد ورش حرفية متنوعة. ولذلك فإن حياة المجتمع كلها كانت تحت إشراف الكهنة الذين كان نفوذهم واسعاً وثرواتهم طائلة، ولم يتناول الملوك يوماً على المعابد، لذلك حافظ التعاقب هنا على مجراه على الرغم من أن سادة الشعوب كانوا يتغيرون، فقد كان الغزاة يطيحون بالسلالات الحاكمة، أما المعابد فقد بقيت كقاعدة، بعيدة عن كل اذى<sup>(١)</sup>.

(١) ينظر: أسرار الآلهة والديانات، ص ٢٣ وما بعدها، ومعجم الأديان لجون ر. هينليس، ص ٥٧، وتاريخ الأديان القديم، ص ١١٥ وما بعدها.

ففي آشور كانت القوة الثانية التي يعتمد عليها الملك هي قوة الدين، ولكنه لم يكن ينال معونة الكهنة إلا بأعلى الأثمان. فقد كان إجماع القوم منعقداً على أن رأس الدولة من الوجهة الرسمية هو الإله آشور. وكانت الأوامر الرسمية تصدر باسمه، وكل القوانين قرارات تملّحها إرادته الإلهية، وكل الضرائب تجمع لخزائنه، وكل الحروب تشن لتأتي له (أو لإله غيره أحياناً) بالمغانم والمجد. وكان الملك يحمل الناس على أن يصفوه بأنه إله، وكان في العادة هو الإله شمش (الشمس) مجسماً. وقد أخذ الآشوريون دينهم عن سومر وبابل كما أخذوا عنها علومهما وفنونهما، وكانت هذه كلها تكيّف أحياناً بما يتفق مع مطالب الدولة العسكرية<sup>(١)</sup>.

وكانت النصوص الأثرية يحلو لها أن تؤكد بأن النظام الملكي قد هبط من السماء. ويظهر هذا الدور السياسي الذي يلعبه رجال الكهنوت أو الكاهن الأعظم في شؤون المدينة أو المملكة، نتيجة للمعتقد الديني وغنى الهيكل، وهكذا فإن النظام يحتفظ، من وجهات عدة، بالمظهر الشوقراطي، فالسلطة الملكية لا تصبح علمانية، لا بل لا تتجه نحو العلمنة، بل تسعى لتستفيد من وضع سبقها في الزمن. ويفترض في الآلهة أمر تعيين صاحب السلطة، فهي تنظر إليه بحدب أو تلفظ اسمه. وكانت هذه الوقائع تتم بموجب طقوس لا تزال نجهلها، ولا غرابة في التوفيق بين هذا الإصطلاح وبين مبدأ الوراثة، إذ أن الملوك يفخرون بالأصل الملكي الذي يتسبون إليه. ولكنهم مع هذا لا يتناسون في الوقت نفسه عن التذكير بالانتخاب الذي وقع عليهم من قبل الآلهة<sup>(٢)</sup>.

(١) قصة الحضارة: وول ديورانت، ترجمة د. أحمد زكي نجيب محمود، نشر دار الفكر،

بيروت، ط ١، بدون سنة طبع: ج ٢، ص ٢٧٥.

(٢) تاريخ الحضارات العام: إشراف موريس كروزيه، نقله إلى العربية فريدوم. داغر

وآخرون، نشر دار عويدات، بيروت، ط ١، ٢٠٠٦م: ج ١، ص ١٤٠ بتصرف.

وفي هذا نجد دليلاً آخر على قوة نفوذ الكهنة وقدرتهم على إيجاد وتصوير آلهة ينالون كل أطماعهم من خلالها، ليحضوا بالقوانين الروحية والمادية معاً. وقد كسبوا الحكام كقوة فاعلة في بقائهم وحمايتهم، ليكونوا هم بالتالي من يعطي الحق والمباركة المقدسة بإسم الإله الى الحكام.

وبما أن الدين ورساله الواقعيين لا يرضون بمثل هذه الأعمال والتصرفات، فبالتالي ستكون هناك مواجهة وضغط عليهم، وستتجهم حركتهم ورسالاتهم الإيمانية، بسبب تلك الضغوط السلطوية التي إتحدت بها سلطة الكاهن الروحية مع سلطة الحاكم العسكرية. وهذا ما حدث لإبراهيم عليه السلام وهو يواجه النمرود، وما حدث لموسى عليه السلام مع أحد فراعنة مصر، وما حدث ليحيى وزكريا عليهما السلام في عهد الحاكم الروماني هيرودس، وغيرهم من الأنبياء.

ولقد كان عدد الآلهة الذين عبدوا في تلك المعابد كبيراً جداً، ففي العام ١٩١٤م أصدر دايميل في روما كتابه (المجمع البابلي) وأورد فيه أسماء ٣٣٠٠ إله معبود في وادي الرافدين.

أما أقدم الآلهة وأكثرهم جبروتاً فهم إله السماء (آن) - آنو عند الأكاديين - وإله الريح والمكان الكوني من السماء حتى الأرض (إينليل)، وإله المحيط والمياه الجوفية العذبة (أنكي) - أيا عند الأكاديين - كما حظيت الآلهة الأم (نينخور ساغ) بقدر عظيم من التبجيل في سومر. ففي فجر تاريخ سومر، كانت هذه الآلهة هي الآلهة الأكثر جبروتاً.

وعند أواخر الألف الرابع وأوائل الثالث ق.م صعد الإله دوموزي الى الصفوف الأولى، وكان هذا زوج الإلهة إينانا - عشتار - وسكان وادي الرافدين



لم يكتفوا زمنتذ بتزويج آلهتهم، بل انتقوا لهم أفضل البغي.

إذن لقد كان لسكان وادي الرافدين كثرة كثيرة من الآلهة، ولذلك فإننا عاجزون عن استعادة وظائفهم، وتحديد الأطوار التي بلغ نشاطهم فيها قمة حيويته وفاعليته. ومع ذلك فإن معطيات النصوص التي حملتها لنا الألواح الطينية التي اكتشفت هناك، تجيز لنا رسم تصوّر عن أهم أولئك الآلهة. فالإله (آنو) مثلاً كان إله السلطة، وجسد الإله (إينليل) القوّة على وجه العموم. أما الإله (إنكي) فقد كان هو المكر عينه، والمهارة، فقد أتقن الفنون كلها وحاول أن يحمي البشر من دسائس الإلهين (آن) و (إينليل). فقد كان هذان الإلهان لا يكثران كثيراً لأمر الجنس البشري. وكان يمكن أن يصدر عنها أي فعل كان بما في ذلك النزوات الشريرة والسلوك الأرعن. وكان للإله إينليل ابن إله، هو الإله (نينورتا) الذي لم يكن له مدينة خاصة. ولكن نينورتا كان يجسد البسالة والإقدام. ولذلك بجله ملوك آشور المقاتلون. وأما الإله الذي يرى كل شيء، (أوتو) إله الشمس، فقد كان القاضي الأكبر وناصر المظلومين والضعفاء. وتأقلم مع الحالة الدينية في بلاد ما بين النهرين أيضاً، الإله العموري (إيشكور) - الأكادي أداد - إله الرعود والعواصف.

وعرف وادي الرافدين الى جانب الآلهة. إلهات أمّهات أيضاً، لكن عددهن لم يتجاوز الثلاث إلهات وهن: (نينخور ساغ، ومالي، وبابا). كما كان لكل إله زوج، وكان ثمة إلهات ارتبطن بالعالم السفلي - عالم الأموات - ونذكر في هذا السياق أن إله الموت (غولا) تحولت مع الوقت الى إلهة مداوية. وقد عثر على صورها مع رفيقها الدائم: (الكلب)، وغدا رأس هذا الأخير رمزاً لها. وكان

النجم هو رمز الآلهة عشتار، والهلل رمز الآلهة إينانا<sup>(١)</sup>.

ونكتفي بهذا القدر من ذكر الآلهة في الديانات القديمة، وندع ديانات الصين والهند والاعريق والرومان وغيرهم، وذلك لأن سيطول بنا المقام وسنخرج عن أصل فكرة الكتاب. هذا مع العلم أن الديانات المتبقية لا تخرج بإطارها ومحتواها العام، عمّا كانت عليه الديانة المصرية وديانة وادي الرافدين، إلا باختلافات بسيطة ويبقى طابع الخرافة والاسطورة هو المتسيد عليها.

---

(١) ينظر: أسرار الآلهة والديانات: ص ٢٤ وما بعدها.

## ما الذي وصلنا من التوراة والإنجيل؟

وأما بالنسبة للديانتين اليهودية والمسيحية، فبالرغم من وجود التوراة والأنجيل التي وثقت أصول تلك الديانتين، إلا أنها في الحقيقة لم ينجوان من التحريف والإضافة والحذف، وهذا من الأمور التي لا غرابة فيها، فالتوراة لم تكتب أصلاً في زمن موسى عليه السلام وإنما كتبت في عصر الأسر البابلي لليهود، بيد الكاتب (عزرا) الذي بينه وبين موسى عليه السلام أكثر من ثمانية قرون. بالرغم من أن اليهود قد ذكروا بأن موسى عليه السلام قبيل وفاته كتب التوراة واعطاها لحاملي التابوت وفي هذا قالوا في سفر التثنية (9-31): (وكتب موسى هذه التوراة وسلمها للكهنة من بني لاوي حاملي تابوت عهد الرب، ولجميع شيوخ إسرائيل، وأمرهم موسى قائلاً: في نهاية السبع السنين في ميعاد سنة البراء في عيد المظال حينما يجيء جميع إسرائيل لكي يظهروا أمام الرب إلهك في المكان الذي يختاره، تقرأ هذه التوراة، أمام كل إسرائيل في مسامعهم). ثم ذكر اليهود في خاتمة هذا السفر السبب الذي لأجله دون موسى عليه السلام التوراة فقالوا في سفر التثنية (24-31): (فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها، أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً: خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم، ليكون شاهداً عليكم، لأنني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة. هوذا وأنا بعد حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحري بعد موتي).

وذكر اليهود في سفر يشوع (يوشع) كتب التوراة مرة أخرى على أحجار المذبح حسب وصية موسى عليه السلام، وفي هذا قالوا: (حينئذ بنى يشوع مذبحاً للرب إله إسرائيل في جبل عيبال... وكتب هناك على الحجارة نسخة

توراة موسى التي كتبها أمام بني اسرائيل ... وبعد ذلك قرأ جميع كلام التوراة البركة واللعنة حسب كل ما كتب في سفر التوراة).

ثم ان نسخة عزرا وما دوّنه عزرا لا يعلم على التحقيق مصيرها، وإنما بعد ذلك بما يقارب قرنين من الزمان كتبت النسخة السبعينية، في زمن الحاكم اليوناني بطليموس الثاني (282-247 ق.م) طلب من اليعازر رئيس الكهّان أن يرسل إليه اثنين وسبعين عالماً من علماء التوراة، لترجمة أسفار موسى الخمسة إلى اليونانية فنفذ الطلب، وكان اليعازر على رأس أولئك، وتمت المهمة خلال اثنين وسبعين يوماً، فكانت الترجمة المعروفة بـ (السبعينية). في اللغة اليونانية للأسفار الخمسة، وعن اليونانية ترجم العهد القديم إلى اللاتينية.

ثم أن اليهود فقدوا المقدرة على فهم اللغة العبرية المدونة القديمة بعد إختلاطهم بالأمم، وذلك لأن اللغة العبرية في أصلها بدون نقط ولا حركات، وهذا يسبب أخطاءً كثيرة في القراءة، فاهتدوا إلى وسيلة لإزالة هذا اللبس بإدخال النقط والحركات والفواصل، واستمر هذا العمل من القرن السابع الميلادي إلى القرن العاشر الميلادي، فأخرجوا نسخة من التوراة باللغة العبرية على هذا النمط تسمى (النسخة الماسورية) انتهوا منها في القرن العاشر الميلادي، وعن هذه النسخة - أي العبرية - المعدلة نسخت جميع النسخ العبرية والمترجمة عنها.

ولو سألنا سؤالاً: أين النسخ الأصلية التي نقلت عنها النسخة الماسورية؟

والجواب: أنه لا يوجد بأيدي اليهود أو النصارى شيء من النسخ الأصلية سوى مخطوطات وادي قمران عند البحر الميت، والتي عثر عليها في الفترة من

عام ١٩٤٧ - ١٩٥٦م وهي مجموعات متكاملة للعهد القديم كتبت قبل الميلاد بثلاثة قرون، وأقربها عهداً ما كتب قبل الميلاد بقرن واحد، إلا أن هذه المخطوطات التي استولى على الجزء الأكبر منها كل من أمريكا وبريطانيا واليهود في فلسطين لم تكشف ولم تعلن حتى الآن، مما يجعل في الأذهان استفهامات عديدة حولها، وإنما تتضمن أموراً خطيرة، جعلت اليهود والنصارى يتفقون على عدم كشفها على غير عاداتهم في الآثار التاريخية<sup>(١)</sup>.

وأما بالنسبة للديانة المسيحية ومسألة الأناجيل فيها، فقد جاء في إنجيل مرقس (١ - ١٤): (وبعد ما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله، ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل). ولكن هذا الإنجيل، لا وجود له بين يدي النصارى، وليس هو ضمن الأناجيل المكتوبة التي يقدسها النصارى. مع التصريح السابق بوجوده وطلب الإيمان به.

وهذا ما يقوله سفر اعمال الرسل (٨ - ٢٥) عن بطرس ويوحنا في دعوتها للسامريين من اليهود: (وكما شهدا وتكلما بكلمة الرب رجعا الى اورشليم وبشرا بالإنجيل في قرى كثيرة للسامريين).

وذكر بولس أيضاً في رسائله منها قوله في رسالته الأولى الى أهل تسالونكي (٢ - ٢): (جاهرنا في الهنا ان نكلمكم بإنجيل الله في جهاد كثير لأن وعظنا ليس عن ضلال ولا عن دنس ولا بمكر، بل كما استحسنا من الله ان نؤمن على الإنجيل هكذا نتكلم...) ثم يقول: (... فإنكم ايها الأخوة تذكرون تعبنا وكدنا

(١) ينظر: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية: د. سعود بن عبد العزيز الخلف، نشر

دار اضواء السلف، الرياض، ط ١، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م: ص ٧٧ وما بعدها.

إذ كنا نركز لكم بإنجيل الله (...).

فإذا الإنجيل كان كتاباً موجوداً ومعروفاً لدى النصارى بأنه إنجيل الله أو إنجيل المسيح، إلا أن هذا الإنجيل لا نجد بين الأناجيل الموجودة اليوم فأين هو؟ وبدل هذا الإنجيل الواحد صار عندهم أربعة أناجيل، لم ينسب واحد منها الى المسيح عليه السلام، وإنما هي منسوبة إلى هؤلاء الأشخاص الذي يزعم النصارى أن اثنين منهم من الحواريين وهما: (متى ويوحنا) واثنين أحدهما (مرقص) تلميذ بطرس، والآخر (لوقا) تلميذ بولس في زعمهم.

وهذه الأناجيل تحتوي على تاريخ لعيسى عليه السلام، ذكر فيها ولادته وتنقلاته في الدعوة، ثم نهايته بصلبه وقيامته في زعمهم، ثم صعوده إلى السماء في زعمهم، كما تحتوي على مواعظه وخطبه ومجادلاته مع اليهود ومعجزاته، فهذه الأناجيل أشبه ما تكون بكتب السيرة، إلا أن فيها اختلافات ليست بقليلة، وبعضها اختلافات جوهرية لا يمكن التوفيق بينها إلا بالتعسف.

والقارئ لهذه الأناجيل الأربعة، يستطيع بسهولة أن يدرك أن ما ورد فيها تعود إلى مطلبين أساسيين ركز المسيح عليهما:

١- الدعوة إلى التوبة والأخذ بروح الشريعة التي جاء بها موسى عليه السلام.

٢- التبشير بقرب قيام مملكة الله التي يتحقق فيها العدل والمساواة<sup>(١)</sup>.

وإذا بحثنا في التاريخ لدى النصارى عن اسناد هذه الكتب الى هؤلاء الناس

(١) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية: مصدر سابق: ص ١٣٨ بتصرف.

الذين تنسب اليهم لا نجد من ذلك شيئاً البتة لا قليلاً ولا كثيراً... وقد حاول النصارى أن يجدوا لهذه الكتب إسناداً أو إخباراً عنها في كلام متقدميهم يتفق مع الزمن الذي يدعى أنها كتبت فيه وذلك في الربع الأخير من القرن الأول الميلادي على أكثر تقدير. إلا أن هذه المحاولات باءت بالفشل الذريع مما اضطرهم إلى الإقرار بأن هذه الكتب لم تعرف إلا بعد موت من تنسب إليه بعشرات السنين<sup>(١)</sup>.

وفي هذا السياق يقول عالم الأديان ميرسيا إلياد ويوان ب. كوليانو: لا تزال مسألة أصالة نصوص العهد الجديد مثار جدل منذ خمسمائة عام. وتمثل رسائل بولس، متى ما سلمنا بأصالتها، أقدم طبقات القانون المسيحي نحو (60 - 50 ق.م) وبخلاف ذلك، إن العديد من الرسائل القانونية الأخرى، لم تؤلف إلا خلال النصف الأول من القرن الثاني، أي بعد رحيل مؤلفيها المزعومين بزمن.

أما الأناجيل، فإنها نتاج متأخر قام على أكتاف تقاليد عديدة. وتسمى الثلاثة الأولى منها (متى، مرقس، لوقا) الأناجيل الإزائية، بسبب التشابهات الموجودة بينها والتي تسمح بوضعها بعضاً إزاء بعض في ثلاثة أعمدة. ويعد الإنجيل بحسب مرقس، الذي تم تأليفه نحو (70 ق.م)، أقدم الأناجيل. أما الإنجيلان الآخران (نحو 80 ق.م)، فإنها يتبعان مرقس ومصدراً ثانياً يشار إليه بالحرف اللاتيني (Q). أما الإنجيل المعروف بإنجيل يوحنا، الذي ألف قبل عام (100 ق.م) بقليل، فإنه ينحو منحاً باطنياً، وينطوي على تأثيرات أفلاطونية لا غبار عليها. ولا سيما تقديمه ليسوع بوصفه لوغوس (Logos) أو كلمة الإله التي تمثل النموذج الإلهي المحتذى في إنشاء العالم.

(١) المصدر نفسه، ص ١٤١.

يضاف الى ذلك أن إنجيل يوحنا يتضمن موقفاً سلبياً للغاية من عالم الناس الاجتماعي، ويسميه هذا العالم *comonde* الواقع تحت سيطرة الشيطان الذي يبدو خصماً وليس خادماً للإله. وقد جرت العادة على مقارنة هذه التصورات بالغنوصية وبنصوص قمران *Qumran* الأسيينية المعروفة بمخطوطات البحر الميت، ما يدل على أن طائفة من نصوص العهد الجديد تتسم بقدر من الغموض يسمح بقيام شتى أنواع النظريات. وعلى كل حال، من الثابت أن الأسيينيين، وربما الغنوصيين قبل ذلك، كانوا يتمون الى المناخ الفكري الذي ساد في هذا العصر<sup>(١)</sup>.

إذن إذا استند اصحاب فكرة العود الأبدي على مثل هذه المرتكزات الدينية المحرّفة، والتي هي أساساً نتاج بشري خالص، ليحكموا على المتدين على أنه إنسان بدائي وتقليدي، يكون لهم الحق في تبني مثل هكذا إستنتاجات ونقد. ولكن ليس من الواقعية والتقصي العلمي أن يعمم مثل هذا الفكر وإعتباره قراءة شاملة للمنظور الإسلامي أيضاً. الذي يعتبر هو خاتم الأديان، بإعتبار شموليته وقدرته على مسaire الحياة والتشجيع على استغلالها الى أقصى قد ممكن، ولما يعود لفائدتها ورقبها الروحي والمادي، وها هي كديانة سليمة ولم يتعرض كتابها القرآن الكريم لأي تحريف أو زيادة أو نقص، فالموجود بين أيدينا الآن هو عينه الذي نزل على محمد صلى الله عليه وآله، وهو أبين من الشمس ولا يختلف عليه إثنان. فليخبرونا أصحاب فكرة العود الأبدي، هل وجدوا في القرآن الكريم لما ذهبوا إليه وعمموه على الأديان، أم هو محض إفتراء وتجاهل للحقائق التي

(١) معجم الأديان: ميرسيا إلياد وآخرون، ترجمة وتعليق خليل كدري، نشر مؤمنون بلا



يفرضها البحث الموضوعي؟!.

وللأسف كانت نظرتهم إحادية وبإتجاه واحد، ولم ينظروا الى الجانب الآخر والوجه المشرق للدين في صورته الأخيرة كما يقررها القرآن.

فقد آثروا النظر الى التخلف والتراجع الذي هو حال المسلمين اليوم في العالم، مرجعين سبب ذلك للدين والتمسك بالمقدس، والعيش على بقايا الموروث والنماذج الأصلية التي طرحها الدين. مختارين تجربة التخلف والإنحطاط للتعميم، تلك التجربة التي كانت موجودة في العصور المظلمة التي ورثتها أوروبا بسبب الكنيسة وأحكامها القاسية، ورفضها للقانون الطبيعي، وفرض الخرافة والتعاشيش معها، مع إضافة هالة القداسة لعناوين أو لمصورات تاريخية، يضبطون واقعهم النفسي وعلاقاتهم اليومية على ضوء النتائج المتحصلة من وراء إيجاد النماذج المقدسة، على نحو الشعور بالخطيئة وكؤوس الغفران والدم المقدس وهكذا.

وفعلاً عندما وجدوا بأن المجتمع الأوربي عندما تخطى الضغط الكنائسي، وتعامل مع الطبيعة على أساس أنها من المفردات الواقعية في هذا الوجود، ومتى ما أحسن التصرف معها سوف تأتي بعطائها. وستكون بالتالي مطواعة ومرنة في قبول تدخل الإنسان للإستفادة من طاقاتها ومواردها.

فعندما لمسوا ذلك بأيديهم، وجاءت النتائج عالية في خدمة الإنسان، اعتقدوا جازمين بأن الدين كان قد حرمهم من هذا الإثراء المعرفي، وهذا التقدم العلمي في خدمة البشرية.

ولأنهم عندما كانوا يعيشون في حيز تطبيق الشريعة الكنسية، ولم يروا منها

إلا الجهل ومحاربة العلم الذي يتوافق مع الطبيعة، وتصديها للمفاهيم الجديدة التي تحاول أن تفسر وتعالج الواقع بعيداً عن التفسيرات البابوية التي تقبع تحت غطاء الميثولوجيا والخرافة. مع تحمل أحكامها القاسية جداً التي مارست دور الإله الأرضي، لتعاقب من تشاء وتثيب من تشاء، وتغفر لمن تشاء، بحسب ما يفيد أو يضر الكنيسة والبابا المتنفذ فيها. أصرّوا على أن الدين هو السبب في تفشي الجهل والظلم والظلام. ولذلك يجب عزل الدين عن الأدلجة والتدخل في قيادة المجتمعات، وليبق روحياً، وروحياً فقط لا غير، ولينطلق الإنسان حرّاً بلا قيد ليحدد أيديولوجيا الحكم والسياسة والقيادة التي تفيد طموح المجتمعات على المستوى الدنيوي والمادي فقط، بعيداً عن الدين وعن المقدس وعن تأييد التاريخ.

ولذلك عندما جاؤا ونظروا إلى الإسلام، وشاهدوا فيه الآن ما كان قد حصل لأوروبا في العصور المظلمة، لم يبحثوا عن الأسباب التي أوصلتهم إلى هذه الحالة من الضعف والتراجع، وأوعزوها بالمباشر إلى الدين، مستخدمين تجربة الحكم على الدين الكنائسي، لتكون هي كذلك على الدين الإسلامي، لتنطوي بالتالي على التكرار والتقليد بلا دراية واقعية، وهذا بالأصل خلاف ما يتبناه أصحاب مبدأ العود الأبدي، بإعتبار أن أحد المآخذ على الدين هو التكرار والتقليد!. ليتم بعدها خلط الدين الإسلامي مع كل الأديان، وليتحدوا بإتخاذ حكم عزل الدين عن قيادة الشعوب، ولا يحق له أن يدخل المنظومة الأيديولوجية التي تُنظّر لطرح نظامها القيادي داخل المجتمع، لأنها ستفشل، وستحول الحياة إلى جحيم لا يطاق.

## الأمر الثاني

### الفرق بين قيادة الأنبياء والأئمة وبين قيادة المصلحين في زمن الغيبة

هنا سنتطرق لبيان الفارق والمائز بين قيادة الأنبياء والأئمة عليهم السلام وبين قيادة المصلحين في زمن الغيبة الكبرى، ليتضح بعدها الفارق بينهم وبين ما هو دونهم في مستويات التكامل والوعي.

وهذا في الواقع ينتج دلالة مفادها: أن هناك مستويات من التربية تحتاجها البشرية، لا يستطيع أحد من تأدية الدور المناسب فيها إن لم يكن نبياً مرسلًا أو إماماً منصوباً عليه. وذلك لأن الدور لا يتقبل البديل، فأحتاجت البشرية في توجيه هذا الأمر بإتجاهه الصحيح إلى مرحلة النص، ولولا النص لضاعت البشرية بأهوائها ولضلت في مسعاها إلى عهد لا يعلمه إلا الله تعالى، وقد يبقى مفتوحاً ولا نستطيع الوصول إلى منتهاه.

ومرحلة النص والتعيين لا يمكن أن تعبر قادة العصمة إلى ما دونهم، ولذلك تجدهم ينجحون في قيادة مجتمعاتهم أو الأمم التي أرسلوا إليها، بالرغم من أنهم على مستوى عالٍ من العلم وصفاء السريرة والرؤية الصادقة والعميقة في معرفة الواقع وتحديد الإحتياج، وما دونهم من البشر في تلك الحقب الزمنية البعيدة كان الغالب عليهم سمة الجهل وظلام النفس، وإن كان التفاوت النسبي فيما بينهم موجوداً.

وهذا الأمر في الحقيقة دعى بعض الأنبياء والأئمة المعصومين لأن يثبوا

شكواهم بين حين وآخر في هذا الإتجاه، ليبينوا لنا وللأجيال القادمة مدى المعاناة الشديدة، والصبر على ذلك البلاء وهم يواجهون أناساً لا قبل لهم بالوعي والتكامل، الذي يرتقي الى مستوى خطابهم وفعلهم، إلا أن يتنزلوا لهم، بحيث لو كان أي قائد لم يكن نبياً أو إماماً معصوماً. لولى هارباً من هذا الأمر بادياً عجزه في تحقيق هدف بعثه ووجوده.

وكمثال لبث الشكوى وبيان الحال التي وصلوا إليها مع مجتمعاتهم انظر الى ما قاله نوح عليه السلام في القرآن الكريم: (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا \* فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا \* وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا \* ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهْرًا \* ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا \* فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) الى أن يقول تعالى: (قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا \* وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا \* وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آهْتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا \* ...).

وأنظر الى قول إبراهيم عليه السلام كما يخبرنا الله تعالى: (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا \* يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا \* قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آهْتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا \* قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا \* وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا) سورة مريم: ٤٤ - ٤٨.

وفي سورة الأنبياء أنظر لقوله عليه السلام: (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ \* فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا هُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ \* قَالُوا مَنْ فَعَلَ

هَذَا بِالْهَيْتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ \* قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ \* قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ \* قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ \* قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ \* فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ \* ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هُوَ لِأَنْ يَنْطِقُونَ \* قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ \* أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ \* قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ \* قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ \* وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (سورة الأنبياء ٥٧ - ٧٠).

وهذا قول موسى عليه السلام: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُوذَوْنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) سورة الصف: ٥.

وهذا بعض من الذي جرى مع رسول الله صلى الله عليه وآله بسبب قومه حيث يخبرنا الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْرِفُونَ الْكَلِمَةَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَاخْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ) المائدة: ٤١.

وقوله تعالى: (وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) سورة التوبة: ٦١.

وقوله تعالى: (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) فاطر: ٤.

وقوله تبارك وتعالى: (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) فاطر: ٨.

ثم انظر وتمعن في شكاوى الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام من قومه وما عاناه منهم:

(يا أهل الكوفة، مُنيت منكم بثلاث واثنتين: صمٌ ذوو أسماع، وبكم ذوو كلام، وعميٌ ذوو أبصار، لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء!)<sup>(١)</sup>.

تَرِبَتْ أَيْدِيكُمْ! يَا أَشْبَاهَ الْإِبِلِ غَابَ عَنْهَا رُعَاتُهَا! كَلَّمَا جَمَعْتَ مِنْ جَانِبِ

(١) (منيت بكم) أي أمتحنت بواسطتكم وابتليت بكم (بثلاث) من الخصال السيئة التي فيكم (واثنتين) أي خمس خصال سيئة، وإنما فرقها لأن الإثنتين شكل آخر، من غير شكل الثلاث، وإن كان الجميع خصال سوء. أما الثلاث (صم ذوو اسماع) أي أن أسماعكم لا تنفع، فأنتم كإلنسان الأصم الذي لا ينفع بسمعه، صم جمع أصم، وهو من فقد حاسة السمع (وبكم ذوو كلام) وحيث أن كلامهم لا ينفع فهم كالأبكم الذي لا يتكلم، إذ عدم الكلام والكلام غير المفيد سواء. (وعمي ذوو أبصار) والحاصل أن اسماعكم وأبصاركم وألستكم لا يأتي منها الخير فوجودها كعدمها .. وأما الإثنتان (لا أحرار صدق) أي ليس أحدكم حراً صادقاً لأن عملكم عمل العبد (عند اللقاء) في الحرب، فالعبد يفر، لأنه لا يهمه من كان سيده أو خصمه (ولا إخوان ثقة) أي إخوان يثق بكم الإنسان. (نهج البلاغة، تعليق السيد محمد الحسيني الشيرازي، ص ١٨٠).

تفرقت من جانب آخر، والله لكأني بكم فيما إخالكم: أن لو حمس الوغى، وحمي الضراب، قد انفرجتم عن ابن أبي طالب إنفراج المرأة عن قبْلِها. وإني لعلى بينة من ربِّي، ومنهاج من نبِّي، وإني لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطاً<sup>(\*)</sup>.

وخطب عليه السلام بعد ليلة الهرير، حيث قال: (أما والله لو أني حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيراً، فإن استقمتم هديتكم وإن اعوججتم قومتكم، وإن أبيتم تداركتكم، لكانت الوثقى<sup>(١)</sup>، ولكن

(١) (تربت ايديكم) أي أصابت التراب، وهذا دعاء عليهم بعدم الخير (يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها) فإن الإبل إذا غاب عنها الراعي تفرقت أشد التفرق (كأني بكم) أي هكذا أراكم وأظنكم (فيما إخالكم) أي فيما أظن (أن لو حمس) أي اشتد (الوغى) أي الحرب (وحمي) أي صار حاراً (الضراب) أي القتال (قد انفرجتم) أي تفرقتم (انفراج المرأة عن قبْلِها) كما تبدي النساء عوراتها لدى الوضع عند الولادة، أو لدى ملاقاته السلاح، لأنها تذهل عن أمرها، حتى أنها لا تعرف إنكشاف قبْلِها إذا فرت (لعلى بينة من ربِّي) فأنا أعرف أحكام الله سبحانه (ومنهاج نبِّي) أعلم سنة الرسول صلى الله عليه وآله (ألقطه لقطاً) أي أخذ الحق كما يأخذ الإنسان اللقطة الثمينة من بين ما لا ثمن له. (المصدر نفسه، ص ١٨٠).

(\*) نهج البلاغة، تعليق السيد محمد الحسيني الشيرازي، نشر دار العلوم، بيروت، ط ١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م: ص ١٨٠.

(٢) (هذا) أي فشلكم أنتم المغفلون، الذين انطلت عليكم حيل معاوية (جزاء من ترك العقدة) أي حصل عليه التعاقد، فقد تعاقد الإمام واصحابه على حرب معاوية، لكنهم تركوا الحرب عند حيلة ابن العاص برفع المصاحف (أما والله لو أني حين أمرتكم بما أمرتكم به) من الإستمرار في الحرب وعدم تركها لحيلة ابن العاص (حملتكم على المكروه) أي نفذت أمري بكل شدة وصلابة، وإن كرهتم ذلك (الذي يجعل الله فيه خيراً) فإن تنفيذ الإمام لرأيه - ولو بكره من اصحابه - مما جعل الله فيه الخير، لإصابة

بمن وإلى من؟ أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة، وهو يعلم أن ضلعها معها اللهم قد ملّت أطباء هذا الداء الدوي، وكلت النّزعة بأشطان الرّكيّ!<sup>(١)</sup>

وفي خطبة أخرى يذمّ فيها العاصين من أصحابه: (أحمد الله على ما قضى من أمر، وقدّر من فعل، وعلى ابتلائي بكم أيها الفرقة التي إذا أمرت لم تطع، وإذا دعوت لم تجب، إن أمهلتكم خضتكم، وإن حوربتكم خرتم. وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم، وإن جئتم إلى مُشاقّة نكصتم<sup>(٢)</sup>. لا أبا لغيركم! ما تنتظرون بنصركم

رأي الإمام عليه السلام الهدف (فإن استقمتم هديتكم) إن كنتم مطيعين بيّنت لكم طريق الصّواب (وإن اعوججتم) بأن أردتم العصيان (قومتكم) بالقوة والعقاب (وإن أبيتم تداركتكم) بقتل العصاة وإخراجهم من زمرة الجيش (لكانت الوثقى) لكانت الطريقة الوثقى لنجاح هذه الطريقة وكفالتها لإنتصار الإمام على الأعداء. (نهج البلاغة، تعليق السيد محمد الحسيني الشيرازي، ص ٢٣١.

(١) (ولكن بمن) أقوم العصاة؟ (والى من) أرجع في مساعدتي عليكم؟ (أريد أن أداوي بكم) داء التفرق وعدم الإطاعة (وأنتم دائي) فمنكم التفرق وعدم الإطاعة (كناقش الشوكة بالشوكة) أي كمن يريد إخراج الشوكة بالشوكة، فإنها تألم جسمه أكثر (وهو يعلم أن ضلعها معها) الضلع الميل، أي أن الإنسان يعلم ان ميل الشوكة الى جنسها، لا الى جسد الإنسان، فربما انكسرت الشوكة في الجسم، وصارت مع الشوكة السابقة، أوجبت الألم أكثر (اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوي) وصف للداء للمبالغة، مثل ليلة ليلاء، ومعنى ملالة الأطباء يأسهم عن العلاج (وكلت) أي تعبت وعجزت (النّزعة) جمع نازع وهو الذي ينزع الماء من البئر (بأشطان) جمع شطن وهو الحبل (الركي) جمع ركية وهي البئر. (نفس المصدر، ص ٢٣٢.

(٢) (أحمد الله على ما قضى من أمر) كما قال سبحانه: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) الإسراء: ٢٣ (وقدّر من فعل) كما قال سبحانه: (وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا) فصلت: ١٠ فإن



والجهاد على حقكم؟ الموت أو الذلُّ لكم؟ فوالله لئن جاء يومي - وليأتيني -  
ليفرقن بيني وبينكم وأنا لصحبتكم قال، وبكم غيرُ كثيرٍ<sup>(١)</sup>. الله أنتم! أما دين  
يجمعكم! ولا حمية تشحذكم!

ولهذا سيكون من الضروري وجود القيادة الإصلاحية في الظرف المناسب  
لتحركها، وبما يتلاءم مع حجمها، لكي تتمكن من إعداد مجتمع يرتبط أفرادُه

القضاء والقدر يستعملان بمعان والظاهر إرادة ما ذكرنا بقريئة (أمر) و (فعل). (وإذا  
دعوت) الى الجهاد وما أشبه (لم تجب) جبنا أو تكاسلاً (إن أمهلتكم) فلم أطلبكم للجهاد  
والعمل (خضتم) في الباطل، دون أن تعلموا لسعادتكم (وإن حوربتكم) أي حضرتكم  
ميادين الحرب (خرتم) أي صحتكم، من خار بمعنى صاح، فإنَّ المحارب يجب أن يلزم  
الصمت والسكينة لا الصياح والعجيج، فإن ذلك مما يوهن الإنسان (وإن اجتمع  
الناس على إمام) يريد نفسه الكريمة (طعتم) في ذلك الإمام، بأن تنحتوا له معائب  
ومنقصات (وإن أجتتم الى مشاققة) المراد بها الحرب (نكصتم) أي رجعتكم القهقري،  
وفررتكم عن الحرب. (نهج البلاغة، تعليق السيد محمد الحسيني الشيرازي، ص ٣٥١).

(١) (لا أبا لغيركم)، لا أبا لك، جملة تستعمل للذم بمعنى فقدت الأب، حتى تكون من  
دون والي، وتستعمل للدعاء بمعنى تملك أمرك، وقد تلتطف الإمام بتوجيه الجملة  
للغير، إما إحتراماً لهم إن أريد بها الذم، أو إهانة لهم إن أريد بها الدعاء (ما تنتظرون  
بنصركم والجهاد على حقكم)؟ إستفهام استنكاري، أي هل بعد هذا موقع للإنتظار،  
إن حقكم قد غصب، والنصر قد فاتكم بإستيلاء معاوية على بعض بلادكم، فما وجه  
الإنتظار بعد ذلك؟ (الموت أو الذلُّ لكم) فإنكم إن بقيتم بلا محاربة أما متم أو سيطر  
معاوية حتى تذلوا (فوالله لئن جاء يومي) أي وقت موتي (وليأتيني) إخبار بأنه سيأتي  
يومي (ليفرقن بيني وبينكم) بالموت (وأنا لصحبتكم) أي مصاحبتمكم (قال) أي كاره  
(وبكم غير كثير) فإن الكثرة إنما تراد للمنفعة، فإذا انتفت كان وجودها كعدمها، يعني  
لست كثيراً بسببكم لعدم نفعكم. (نفس المصدر، ص ٣٥١).

بالوعي إرتباطاً تصاعدياً ممنهجاً، لا على نحو الجمعية واكتساب سلوكيات وقيم من زاوية التشريط الإجتماعي، التي يبدو فيها الفرد بمنزلة الأحق الثقافي وهو تحت أسر أطر هذا المبدأ.

وحيث نستطيع القول بعدم قدرة القائد المصلح، الذي يتواجد الآن - في زمن الغيبة الكبرى - في قيادة المجتمعات الأولى في صدر الإسلام، لأن سيكون مصيره الفشل لا محال، وذلك للفارق الكبير بين ما يمتلكه هذا القائد من وعي وقدرة عالية على استيعاب المفاهيم الإسلامية، وبالتالي بسطها في المجتمع ضمن خطوات توافقية يسيطر عليها هو، وبين عصر لا زال المسلمون يعيشون فيه المراحل التمهيديّة الأولى، لفهم الإسلام والتعايش مع مفرداته بشكل تدريجي. أو قل هكذا هم في بداياتهم يميلون للعاطفة والجانب الوجداني أكثر من ميلهم للجانب العقلي والتركيز على البعد العقائدي العمق في فهم القضايا الإسلامية.

وهذا لا يعني أن القيادات الرسولية والإصلاحية في مجتمعات بدء الدعوة الإسلامية، هي أقل من ناحية المستوى التكاملي من القيادات الإصلاحية في زمن الغيبة، بإعتبار أن المجتمع في بدء الدعوة لم يكن في مستوى عال من الوعي، فيحتاج حينئذ إلى قيادة تناسب هذا المقدار من الوعي، بحيث تحافظ عليهم من الوقوع في الجانب الإحيائي الذي عاشته الثقافات البدائية للدين.

ولذلك فالأمر لا يمكن أن يحسب ويدار بهذا الشكل، بل على العكس، فإن هناك أساس جديد لدين جديد، يجب أن يحظى بإرتكاز متين، بإعتبار أنه سيغير العالم بأسره في المستقبل، فيحتاج إلى من يستطيع أن يجعل عقول وأفئدة ذلك المجتمع الغارق في جاهليته ووثنيته تذوب في الرسالة ومنهجها السماوي الجديد، لتقدم بالتالي الرشحات الأولى من التضحية والإيثار في سبيل نشره والحفاظ

عليه، وعرضه كأساس قوي وثابت للأجيال القادمة التي ستتحمل مهمة إيصال صوته وإيقاع أحكامه في كل العالم، فتصور كم ستكون المهمة صعبة في تلك البدايات، ولذلك فإنها بكل تأكيد ستحتاج إلى قيادة فذة قد أعدت وأختيرت إختياراً إلهياً خالصاً. فكان الرسول محمد صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام هم خير من مثل هذه المهمة الصعبة، بحيث عرفوا كيف يتعاملون مع مرحلة من مراحل التاريخ التي كانت تأن من التخلف والانحراف الديني والعقائدي مضافاً إلى التسلط والتعامل الجبروتي، وليجعلوا من شبه الجزيرة العربية محطة الإنطلاق للتغيير القادم.

تلك المنطقة التي لم تعش من قبل تجربة النبوات، وتفتقر للملامح الحضارة والأبعاد المدنية، التي ترقق القلوب وتفتح العقول، ولذلك لم تطمع الإمبراطوريات الكبيرة كالرومانية والفارسية ولا حتى الإغريقية في اقتحامها واحتوائها. فمن يجرؤ على أن يفكر في هدايتها وإصلاح قبائلها، فضلاً على أن يكون هناك توقعاً بأنها ستتهياً لتكون النقطة التي تتحرك منها الهداية لتعم جميع حواضر العالم.

فمثل هذا العمل يجب أن ينجح، ولا يوجد شيء آخر غير النجاح، لأنها مرحلة لا بدية تثبت أمر الرسالة، وإذا كان الأمر كذلك، إذن لن يتحمل مسؤولية التنفيذ إلا من كان قائداً قد أعد اعداداً كاملاً لهذه المهمة، بحيث له قدرة التعامل مع كل الظروف الخارجية، المتوقع منها وغير المتوقع. وهذا يعني أن القائد لهذه المهمة يجب أن لا توجد عنده لحظة ذهول أو حيرة أو جهل في التعامل مع الحدث. وهذا الشيء لا يمكن ان يتوفر إلا في القائد المعصوم. وأما مرحلة القيادة في زمن الغيبة الكبرى، فلا يمكن لها أن تحقق كل هذه الأمور،

وتكون قبالتها بدرجة واحدة، وإنما إن عرضت عليها بعض المهام الخارجة عن محيط ادراكها وتجربتها، فمن الممكن أن لا تؤدي الدور بنجاح، وهذا الأمر بطبيعة الحال لن يحدث مع القيادة المعصومة بكل تأكيد.

والآن لو تساءلنا عن الفروق ما بين قيادة الأنبياء والأئمة عليهم السلام وبين قيادة المصلحين زمن الغيبة الكبرى، فيمكن أن نستعرض بعضاً منها وكما يلي:

أولاً:

زيادة العداوة والبغضاء للجاهل والمعاند والمكابح مع النبي والإمام للفارق الكبير بين الجهل والعلم وبين النور والظلام، والناس على كل حال أعداء ما جهلوا. وبالطرف الآخر محبة المؤمنين لهم لا ترتقي للمستوى المطلوب، وذلك يأتي لعدم الفهم الكامل للمعصوم. أما في حال أن المجتمع بشكل عام، والأفراد المخلصين بشكل خاص يرتقون في مستواهم العلمي والإيماني والاجتماعي. والقيادة تقترب منهم من ناحية التكامل والوعي غير المقيد بالعصمة الأولية، سيكون التعامل فيما بينهم متوازناً ومقبولاً، حتى وإن اعترضتهم جزئيات من حالات المواجهة والرفض، أو الإختبارات المتنوعة، وبعض صور العداوة والعصيان، من قبل بعض الذين لا ينسجمون مع البنى الإصلاحية الجديدة، فضلاً عما إذا كان بالوفاق والتفاهم والانفتاح مع الآخر، فالجميع هنا يصبحون تحت طائلة الإختبار، التي يمارس فيها الفرد العادي والقائد في عصر الغيبة مستوى المواجهة والتحدي من ساحة كلاهما يعيشان فيها الطبع الإنساني أو الجبلة الإنسانية التي ما دون مستوى عصمة النبي أو الإمام سلام الله عليهم. وفي ذلك فارق كبير وجوهري في تعامل القائد المعصوم مع قومه، وفي أية مرحلة من

مراحل الوجود، وبين تعامل القائد في عصر الغيبة مع قومه المشروط بمرحلة محددة من مراحل الوجود، لفقده الخواص الضرورية التي تناسب المراحل المتعددة والمتعاقبة في ثنايا الزمان والمكان. والتي هي موجودة بكاملها وتماها عند المعصوم سلام الله عليه.

ثانياً:

يضطر النبي أو الإمام صلوات الله عليهم في بعض الأحيان الى استخدام المعجزة للتخلص من زيادة الجهل المفرط الذي يؤدي في بعض الحالات الى القضاء عليه من دون أن يحقق هدفه التربوي المناط به. وبتعبير آخر متى ما وجدت أو لاحت بالأفق ظروف يمكن أن يتم من خلالها القضاء على النبي أو الإمام من قبل أن يؤدي دوره الذي كلف به وبأكمل وجه، هنا يضطر الى التعامل مع المعجزة كمفردة جديدة من مفردات استمرار الهداية في المكان والزمان الذي وجد فيه.

وإستخدام المعجزة في الحقيقة - في الغالب - هو لردم الهوة الواسعة بينه وبين المجتمع، تلك التي تؤدي الى إيجاد حلبة صراع لا تنظفي نارها ولا يهدأ سعيرها إلا بالمعجز، ومن هذا نحس ونستشعر مدى المظلومية التي يعيشها الأنبياء والأئمة المعصومين، وهم يواجهون لحظات من القسوة والجهل بين مجتمعاتهم، بحيث يصل الأمر الى أن الأسباب الطبيعية ومجريات سننها، لن تستطيع أن تفي بالغرض الذي يؤدي الى الهداية - وإن كانت مفاهيم الصبر والبلاء والجزاء موجودة وهي في دور الفاعلية - إلا من خلال المعجز الذي يكون مناسباً كإجراء وقائي على مستوى المرحلة في أقل التقادير.

وهذا الأمر كما حدث مع إبراهيم عليه السلام عندما جعلت النار عليه برداً وسلاماً، وكما قال تعالى: (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ \* قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ \* وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ) سورة الأنبياء: ٦٧ - ٧٠.

وكما حدث مع موسى عليه السلام وإنشقاق البحر له وتحول عصاه الى أفعى وغيرها من المعجزات، قال تعالى: (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) سورة البقرة: ٥٠. وقوله تعالى: (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى \* قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى \* قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى \* فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى) سورة طه: ١٧ - ٢٠.

وما قام به عيسى عليه السلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وكما جاء في قوله تعالى: (وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ) آل عمران: ٤٩.

بينما نلاحظ في زمن القيادة في عصر الغيبة تكاد تكون المعجزة معدومة، وإنقطاعها بسبب عدم الإحتياج لها، كون لديه عدّة وسائل وبدائل من الممكن استخدامها لتجاوز المرحلة، وبغض النظر إن كلفه ذلك حياته أم لا. وهذا الأمر يتم للتقارب النسبي الموجود بينه كقائد يمتلك آليات للإصلاح والتربية والتوجيه، وبين المجتمع الذي تواجه فيه. وأقول تقارب نسبي فيما إذا قورن بين الفارق الكبير بين القائد على مستوى النبوة أو الإمامة وبين المجتمع الموجود فيه.

وهذا الفارق النسبي هو الذي أزال مسألة المعجزة في وقتنا الحالي، خصوصاً بعد تقلص الفارق بشكل اعلى منه وهو في الأجيال السابقة.

وهنا في هذا السياق توجد مسألة مهمة، لا نريد أن نعبرها، وهي بحسب هذا الطرح الذي أشرنا إليه، أن المعجزة سوف تعود، ويمكن أن نعيش نتائجها ونلمس آثارها، عند الظهور المبارك للإمام المهدي عليه السلام، وذلك لأن الفارق بين القائد المعصوم والمجتمع غير المعصوم سيعود، مهما تكامل الأفراد، باعتبار أن كلما تكامل الأفراد، فالقائد المعصوم، لا يقف دون حراك، فهو أيضاً يتكامل وتكامل المتكامل فوق تكامل غير المتكامل بكثير، وحيثئذ سيحتاج الى حدوث المعجزة، لتحقيق أهداف ونتائج، ما كان لها أن تتحقق لولا وجودها.

ثالثاً:

النبي أو الإمام صلوات الله عليهم منذ وجوده في عالم الدنيا، هو يعلم بأنه ولد ووجد لقيادة الأمة، ويعلم أن وجوده علة رئيسية لهداية الناس، ولولاه لماجت الأرض بأهلها. وهذا خلاف القائد والمصلح في عصر الغيبة، فإنه ليس من الضروري أن يكون عالماً وشاعراً بهذا الأمر منذ بداية نشأته وتربيته، فهو يسعى للوصول الى هذا الدور والرتبة، ويبقى التوفيق وإيجاد الظروف المناسب هو الذي يحدد ذلك. وهناك في بعض الأحيان يظهر مصلحون آنيون في نفس مرحلة الإحتياج والتواجد، ولم يكن قد حسب لها من قبل، وحينها يشعر بمسؤوليته في تحمل ثقل أمانة الهداية والإرشاد، فيتلبس بلباس القيادة وهو يعرف بأنه قد إختار هذا الأمر بالإضطرار.

رابعاً:

إمكانية القائد المعصوم في قيادة العالم بأكمله، وبجميع أصنافه وثقافته وعاداته وطبائعه التي نشأ وترعرع عليها، متى ما تهيأت الأسباب لذلك، وإنزاحت عنه الموانع. وهذا بخلاف القائد في زمن الغيبة، فإنه لا يستطيع أن يقود العالم بأسره، حتى ولو فرش له البساط، وتهيأت له الأسباب وإنزاحت عنه الحجب والعقبات. فلا بد أن يكون هناك تقصير معين بهذا الإتجاه، لن يستطيع إصلاحه مهما أوتي من قوّة وحكمة. نعم يستطيع بشكل وآخر أن يقود مجتمع ما، أو أن يتسيد على منطقة ما، لها من الخصائص والقابليات التي تجعلها متجاوبة ومتعاطفة معه.

ولذلك أنيطت مهمة قيادة العالم بأجمعه الى القائد المعصوم وليس غيره، ولهذا السبب لم يوجد قائد ولا حتى منهج حضاري معين استطاع أن يوحد العالم تحت قيادته، بحيث لا يشذ شعب من شعوب الأرض عن سلطته وقدرته، أما ما نسمع به عن الحضارات الكبرى في التاريخ كالسومرية والبابلية والآشورية واليونانية والرومانية والفارسية والمصرية، فهي لم تتمكن من قيادة العالم بأسره وتوحيده تحت راية وحكم واحد، فضلاً عن إرساء مبدأ العدالة والمساواة فيه، وإنما كانت تلك الحضارات في أقصى إتساع لها، لا تتعدى بقع من بقاع الأرض سواء في الشرق أو الغرب.



## كيف ينظر العالم لمفهوم الدولة؟

العالم الآن في كرتنا الأرضية مقسم الى دول متعددة قد يصل الى ما يقارب من ١٩٣ دولة، وهي الدول الأعضاء في الأمم المتحدة، ولكل من هذه الدول كيان مستقل، ودستور وقانون يحكم أفرادها، وإن كان كثير منها يدور بمدار فكري وأيديولوجي واحد، قد فرض عليها فرضاً سواء بالإضطرار أو لعدم وجود البدائل، أو أن البدائل ضعيفة وليس لها قدرة التأثير بالآخرين.

والآن لو أتينا ونظرنا الى مفهوم الدولة، وهي تمثل كياناً سياسياً يقيمه مجتمع لنفسه<sup>(١)</sup>، بوجود رابط أو عدة روابط يشيدها أفرادها مع حكاهم.

وفي هذا السياق يقول الفيلسوف الإنكليزي توماس هوبز في كتابه المواطن والتين: نقصد بالدولة شخصاً واحداً يجب أن تؤخذ إرادته، بحكم عقود إلتم بها أكبر عدد من الناس، وكأنها إرادة هؤلاء الناس جميعاً، بحيث تستطيع قوى الخاصة منهم وإمكاناتهم من أجل السلام والدفاع المشترك.

وأما جان جاك روسو فيقول في العقد الاجتماعي: فليست الدولة أو المدينة سوى شخص معنوي تقوم حياته على وحدة أعضائه. ثم يقول في الكتاب نفسه: فالمقصود هو إيجاد شكل من أشكال الترابط - العقد الاجتماعي - يدافع ويحمي بكل ما تجمع من قوة، الشخص المنضوي في هذا الترابط وممتلكاته، وعن طريق هذا الشكل، فإن كل فرد وهو يتحد بكل الناس لا يخضع مع ذلك إلا لنفسه ويبقى حراً كما كان من قبل.

(١) قاموس الفلسفة، وضعه ديديه جوليا، نقله الى العربية، د. فرنسوا أيوب وآخرون، نشر

أما هيغل فينظر للدولة في كتابه مبادئ فلسفة القانون: تعتبر الدولة في نظر دوائر الحق الخاص والملكية الخاصة وفي دوائر الأسرة والمجتمع الإقتصادي، الشكل الأسمى للتنظيم الإجتماعي.

ولماركس نظرة خاصة حول الدولة بينها في كتابه الأيديولوجية الألمانية: لما كانت الدولة الشكل الذي بواسطته يؤمن الأفراد الذين ينتمون الى طبقة سيطرة، مصالحهم المشتركة، والذي يختصر فيه المجتمع المدني بكامله في حقبة معينة، ينتج عن ذلك أن كل المؤسسات المشتركة تمر عبر الدولة وترتدي شكلاً سياسياً. وهو في ذلك قد خالف هيغل، حين حدّد الدولة كجهاز مراقبة وقمع في خدمة طبقة اجتماعية مهيمنة<sup>(١)</sup>.

وفي أصل الدولة الحديثة التي تطورت في فرنسا وإنكلترا وإسبانيا بدءاً من القرن الرابع عشر، نجد التأكيد على سلطة سياسية مركزية، الى جانب تطور الإدارة. وقد فرضت نفسها من خلال وظائفها (العدالة، الشرطة، الجيش) والوظائف هذه التي تمارس في مرحلة الأزمات الشديدة - الحرب بين الدول، أعمال عنف داخلية تأخذ شكل حرب أهلية - وهي التي سمحت للدولة بتثبيت نفسها كوحدة سياسية منذ القرنين الثامن والتاسع عشر. وهي وظائف ما زالت مركزية حتى اليوم<sup>(٢)</sup>.

والدولة في اللغة، الإستيلاء والغلبة، والشيء المتداول فيكون مرة لهذا ومرة لذلك.

(١) ينظر: قاموس الفلسفة، ديديه جوليا، مصدر سابق: ص ٢١٥ وما بعدها.

(٢) معجم العلوم الإنسانية، بإشراف جان فرنسوا دوريتيه، ترجمة د. جورج كتورة، نشر دار

مجد، بيروت، ط ١، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م: ص ٣٩٧ بتصرف.

وأما في الإصطلاح: جمع من الناس مستقرون في أرض معينة، مستقلون وفق نظام خاص، أو هي مجتمع منظم له حكومة مستقلة وشخصية معنوية تميزه عن غيره من المجتمعات المماثلة له. فالدولة إذن هي الجسم السياسي والحقوقى الذي ينظم حياة مجموع من الأفراد يؤلفون أمة<sup>(١)</sup>.

فعندما بدأت المجتمعات البشرية بالتطور من حرفة الجمع الى الصيد ثم الرعي والزراعة والصناعة، فهذا يعبر عن تطور بشري بحيث وصل الى العشيرة ثم الى القبيلة حتى وصل الى الأمة، فتكونت الدولة بمعناها السياسي، أي كوحدة سياسية لها حدود، وتتألف من شعب تدبر أموره حكومة تتمتع بسيادة على الشعب والأرض. وعندما عرف الإنسان الاستقرار واستثمار الأرض شعر بضرورة تنظيم جهوده، وكانت بذلك البداية لوجود السلطة التي هي رمز الدولة.

وإن لفظ الدولة يعود الى الأفكار التي عرفت في عهد اليونان، وكذلك الى عهد الإمبراطورية الرومانية. وكان أفلاطون قد اعتبر الدولة كائناً بشرياً مكبراً، وعمد الى رسم تشبيه مفصل بين وظائف الدولة ووظائف الفرد. ووضع أرسطو مقارنة بين تناسق الدولة وتناسق الجسم، وتمسك بهذا تمسكاً ثابتاً بإعتقاده ان الفرد جزء ذاتي من المجتمع.

وقد بحث العديد من الفلاسفة في الدولة ومفهومها، فاعتبرها البعض ككائن عضوي حي وهم اصحاب النظرية العضوية للدولة أمثال أفلاطون، وأرسطو، وشيشرون، وروسو، وهربرت سبنسر. لكن الفكرة الحديثة للدولة،

(١) المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، نشر دار ذوي القربى، قم، ط ١، ١٣٨٥هـ: ج ١،

دخلت في الإصطلاح السياسي في القرن السادس عشر، حيث كانت تشير الى ظهور سلطات مطلقة، لكنها متمركزة ومحصورة ضمن حدود، ومرتبطة بسكان معينين، وتنادي هذه السلطات بالثورة ضد السيادة الإمبراطورية وضد السيادة البابوية<sup>(١)</sup>.

وجاء في موسوعة السياسة تعريفاً للدولة: وهي الكيان السياسي والإطار التنظيمي الواسع لوحدة المجتمع والناظم لحياته الاجتماعية وموضع السيادة فيه، بحيث تعلو إرادة الدولة شرعاً فوق إرادات الأفراد والجماعات الأخرى في المجتمع وذلك من خلال إمتلاك سلطة إصدار القوانين وإحتكار حيازة وسائل الإكراه وحتى استخدامها في سبيل تطبيق القوانين بهدف ضبط حركة المجتمع وتأمين السلم والنظام وتحقيق التقدم في الداخل والأمن من العدوان في الخارج ... وتتألف عناصر الدولة من الشعب والأرض والسلطة. ومن الناحية القانونية تعتبر الدولة شخصية قانونية موحدة وكياناً جماعياً دائماً. يتمتع بسلطة الأمر والنهي على نحو فريد في المجتمع، يضم هيئة من الأشخاص الطبيعيين، يديرون السلطة العليا للدولة والتي تمارسها عنها وكالة الحكومة<sup>(٢)</sup>.

والمعنى الغربي المعاصر لمفهوم الدولة فقد ولد على يد (ماكيا فيلي) في القرن السادس عشر، حيث ينطلق المفهوم المعاصر في فهم سلطان الدولة من التأكيد على السيادة القانونية - إصدار القوانين وتفسيرها وتطبيقها - وعلى السيادة

(١) الجغرافية البشرية: د. علي وهب، نشر المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط ١،

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م: ص ٣٤٨.

(٢) موسوعة السياسة: د. عبد الوهاب الكيالي وآخرون، نشر المؤسسة العربية للدراسات،

بيروت، ط ٤، ٢٠٠١م: ج ٢، ص ٧٠٢.

السياسية، إحتكار وسائل العنف والإكراه لضمان طاعة المواطنين، وصيانة الإستقلال إزاء الدول الأخرى.

وأختلف ماكيا فيلي عن سبقوه بأنه لم يحاول تعريف الدولة أو تبرير وجودها فافتراض تمتعها بالسيادة، وركز على دراسة طريقة احتفاظ الحكم بالسيطرة على مقاليد الأمور، وعلى الصفات المطلوب توافرها لإستمرار قوة الدولة... وبالتالي فإن المهمة الأساسية للدولة عند ماكيا فيلي هي الأمن لا الأخلاق والحرية<sup>(١)</sup>.

أما التبرير الفلسفي للدولة الإستبدادية المطلقة السيادة فقد جاء على يد الفيلسوف الإنكليزي (هوبز) الذي رسم صورة قائمة للحياة بدون نظام سياسي، خاصة أنه كان سيء الظن بالطبيعة البشرية، فقد ذهب الى القول بأن الحياة في ظل غياب النظام السياسي تكون حالة إحتراب دائمة بين الجميع، وإن الخلاص الوحيد من هذه الحالة هو تسليم السلطة المطلقة لصاحب السيادة في الدولة.

ولعل هذا نابع من آراء وأفكار (هوميروس) الذي كان قد قال آراء تتعلق بشكل السلطة الحاكمة، حيث يرى أن أفضلها هي (الملكية البطلية) وهو ما أورده صراحة في النشيد الثاني من الألياذة بقوله:

(ان السلطة المتعددة الرؤوس هي غير مقبولة، ولنعمل على أن يكون لنا سوى سيد واحد هو الملك الذي تعطيه الآلهة السلطة والولجان)<sup>(٢)</sup>.

أما جون لوك المفكر الإنكليزي الآخر، فقد إعترض جذرياً على ما ذهب

(١) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٧٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٠٤.

إليه هوبز، والذي شدد على تمتع الإنسان بحقوق طبيعية هي جزء من القانون الأخلاقي الذي فرضه الله على البشر، وبأن هذه الحقوق تتركز حول أسس ثلاثة (الحياة، الحرية، الملكية)<sup>(١)</sup>.

علماً أن جون لوك يعتبر أحد الأضلاع الثلاثة لمؤسسي مدرسة العقد الاجتماعي مع توماس هوبز وجان جاك روسو. لكنه يقول: أن الإنسان خير بطبعه، وهناك حقوق يجب أن تتوفر للإنسان في البدء عدّها عشرة حقوق، ومن ثم إختزلها في ثلاثة حقوق رئيسية وهي التي ذكرناها أعلاه، واعتبرها هي الحقوق التي يجب على الدولة والسلطة أن توفرها للشعب.

وجون لوك لا يعطي السلطة المطلقة للحاكم كما ذهب توماس هوبز، بحيث حتى لو كان الحاكم ظالماً لا يحق للشعب أن يثور عليه ويغيّره، بل هو يقول بعكس ذلك: إن السلطة للحاكم نسبية، ومتى ما ظلم واستبد يحق للشعب أن يزيحه عن السلطة. هذا ويمكن اعتبار أفكار جون لوك هي المنبع الرئيس للفكر الليبرالي. وقد تأثر بها الفكر السياسي الأمريكي، وكان لها دوراً مباشراً في استقلال أمريكا.

هذا وقد اسقط هيغل في نظريته إلى الدولة فكرة السيادة الشعبية، فالدولة عنده: هي العقل المطلق المتيقن الذي لا يعترف بسلطة عدا سلطته، ولا يقر أي قواعد مجردة للخير والشر. لقد نظر هيغل الذي كان يسعى لدعم فكرة وحدة ألمانيا، إلى الأمة نظرة تقديسية، وأعتبر أن الدولة هي تعبير عن وحدة المجتمع وفق الأفكار الأخلاقية وتجسيد للأمال القومية. وقد رأى أن الدولة تحقق ذاتها

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٠٤.

في طبقة النبلاء التي ترتفع دون غيرها من طبقات المجتمع للإحساس بالوطن. فالعمال وأصحاب العمل في نظره لا يهتمون إلا بالمال والفلاح لا يستطيع أن يصل بذكائه المحدود الى الخصائص التي يتطلبها الحكم، بعكس النبلاء الذين يتمتعون بالذكاء وبالترفع عن مصالحهم الضيقة، ليمتزج عندهم الصالح العام بالصالح الخاص... فالدولة عند هيغل هي (مسيرة الله في العالم) أو في التاريخ<sup>(١)</sup>.

ولقد تعرضت نظريات هيغل الى أقوى معارضة من قبل مفكر تبنى المنهج الجليلي الذي طوره هيغل وهو كارل ماركس الذي أحلّ الفكر المادي مكان الفكر المثالي الهيجلي. لقد أدت دراسات ماركس للجوانب التاريخية والإقتصادية للمجتمعات البشرية الى التناقض مع استنتاج هيغل بأن الدولة هي تجسيد العدل والقيم الأخلاقية، ونادى بمقولة تبنتها المدارس الفكرية الشيوعية والفوضوية كافة، بأن الدولة هي أداة سيطرة إستغلالية طبقية تشوه الطبيعة الطيبة للإنسان وقدراته على التطور. وفي الوقت الذي ترافق مفهوم الدولة عند هيغل بالروح الأخلاقية فإن النظريات السياسية الماركسية واللينينية اعتبرت الدولة مساوية لمؤسسات الحكم. وبالنسبة لماركس فإن مؤسسات الدولة والأخلاق والدين والثقافة هي بنى فوقية قائمة فوق بناء حقيقي تحتي هو الإقتصاد وعلاقات الإنتاج. وبينما ذهب هيغل الى القول بأن الدولة ضرورة أخلاقية وتجسيد للحرية. قال ماركس بأن الدولة أداة قمع ومصادرة للحرية. هدفها الحفاظ على الإمتيازات القائمة للطبقة الحاكمة على حساب الأغلبية المحكومة المعذمة. وتؤدي التناقضات التي تنشأ بالضرورة داخل النظام أو الدولة الرأسمالية الى زيادة الاستقطاب والتناقض بين الطبقات الحاكمة والطبقات المحكومة، الأمر

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٠٥.

الذي يؤدي في نهاية المطاف الى الثورة البرولتارية وتهديم كيان الدولة الرأسمالية<sup>(١)</sup>.

أما المدارس الفوضوية فيجمع بينها العداء لظاهرة وجود الدولة، لأنها ضارة تفسد الحاكم وتقسم المحكومين، ولأنها غير ضرورية لكونها عديمة الفعالية، وإن اختلفت الآراء في فهم الطريق الى زوالها.

وعلينا أن نفرق بين الدولة والحكومة، فإننا نستعمل في أحاديثنا اليومية مصطلحي الدولة والحكومة كل مكان الآخر، لكن الواقع إنها ليسا شيئاً واحداً، إذ أن الحكومة هي أداة للدولة، وذلك لأن الدولة هي شخص مثالي، غير محسوس وغير مرئي قابل للتغير. بينما الحكومة هي وكيلة عن الدولة، وفي دائرة وكرالتها تعد ممثلاً كاملاً، ولكنها خارج هذه الدائرة تعتبر إغتصاباً خارجاً عن القانون.

والحكومة حسب تعبير "روسو" ما هي إلا أداة حيّة وهي التنظيم العملي للدولة فتشكل عن طريق هذا التنظيم إرادة الدولة ويعبر عنها وتتحقق، بينما أهداف الدولة واغراضها تنفذ عن طريق الأداة الحكومية. إذ بدون الحكومة لا يقوم وجود للدولة. لأن هذه الأخيرة تجريد الى حد كبير، لكن الحكومة واقع يدرك بالحواس.

كما أن الدولة ثابتة في حين أن الحكومة مؤقتة ودائماً في حالة تغير. وهناك ظروف رئيسية قد تتوقف بها الدولة عن الوجود ومنها: الغزو الذي يتبعه الإندماج، وتدمير إقليم الدولة أو تدمير سكانها، وقد حدث مثل ذلك في عام

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٠٥.



١٨٦٦م عندما أدمجت مملكة (هانوفر) مع (بروسيا) بعد غزو الأخيرة للأولى، كما أن سلطة الحكومة ليست أصلية لكنها مشتقة من الدولة.

ويقول (لاسكي): إن الحكومة تقوم لتنفيذ أغراض الدولة، وهي ليست القوة المسيطرة العليا، وإنما هي مجرد جهاز الإدارة الذي يحقق أغراض تلك القوة، وإن وظائف الحكومة هي وظائف تنفيذية وتشريعية وقضائية<sup>(١)</sup>.

هذا ومن المعروف إن سيادة الدولة في العلاقات الدولية محدودة بقواعد وأغراض القانون الدولي في السلم وفي الحرب على حد سواء، وذلك على الرغم من عدم وجود قوة قسرية ملزمة وراء الهيئات الدولية، بما في ذلك الأمم المتحدة ومحكمة العدل الدولية. فالتقيد بالقانون الدولي يعمل إجمالاً لصالح المجتمع الدولي، وقد يؤدي خرقه إلى قيام رأي عام دولي معاد للدولة التي تخرق قواعده... وفي هذا الصدد لا بد من الإشارة إلى أن هيئات ومنظمات دولية عديدة تسعى لغرض إحترام حقوق الإنسان على الصعيد الداخلي للدول، وهو ما كان يعتبر حتى الأمس القريب تدخلاً في الشؤون الداخلية وخرقاً لسيادة الدول<sup>(٢)</sup>.

وعلى هذا المنوال فقد تشكلت دول ونهضت حكومات على سطح الأرض، وظهرت سياسات ضاغطة ذات ضبط اداري صارم يتحجم من خلاله الفرد في سلوكه الاجتماعي العام، ليكون في صالح الطبقة الحاكمة، فهي كثيراً ما تحمي نفسها بالشعب الذي تظلمه، وهي نفسها التي اتخذته أداة للدفع بها إلى السلطة. بالرغم من وجود التفاوت والتباين في نوعية ممارسة الحكم، الذي يريد أن يؤسس دولة خاصة به، ليتقيد من خلالها الشعب أو أمة بإكملها، وبالتالي

(١) ينظر: الجغرافية البشرية، مصدر سابق، ص ٣٥٣.

(٢) موسوعة السياسة، مصدر سابق: ج ٢، ص ٧٠٦.

ستشكل كوحدة مضادة لوحدة أخرى قد تكون مجاورة لها، أو بعيدة عنها  
 بآلاف الكيلومترات. هذا الذي يوجد تحت ذريعة خوف العدوان الخارجي  
 الذي يهدد أمن واستقرار الدولة، ولذلك تضطر بعض الدول الى أن تظهر قواها  
 العسكرية، كأستعراضات ترهب به الدول الأخرى، وهناك بعض الدول يكون  
 استعراض قواها بشكل آخر، وقد تظهر بشكل علمي متطور، كأن ترسل  
 المركبات الفضائية الى كواكب أخرى، لتكون إشارة واضحة للدلالة على أن  
 قدراتها العلمية ممكن أن تصل الى أبعد نقطة من نقاط الأرض وتؤثر فيها، لتكون  
 بالتالي تحت سيطرتها متى ما أرادت. وهذا ما حدث في زمن الحرب الباردة بين  
 الإتحاد السوفيتي سابقاً والولايات المتحدة الأمريكية. وهناك دول تبرز هذا  
 الشيء على شكل وفرة في الإنتاج والقدرة الإقتصادية الكبيرة التي تستطيع من  
 خلالها اجتياز كثير من الصعاب والمشاكل التي قد تواجهها من قبل الدول  
 الكبرى. وقد تكون هناك دول تظهر قوتها من خلال سيطرتها التامة على شعبها،  
 وسلب إرادته بشكل شبه تام أمام ضغوطها ونهجها في الحكم، بحيث تظهر هذا  
 الإجراء للدول الأخرى كقوة لا يمكن أن يستهان بها قبال أي عدوان. كما  
 نلاحظ ذلك في كوريا الشمالية، على الرغم من أنه بين الحين والآخر يقوم  
 بإستعراضات عسكرية تظهر مقدرته العالية في هذا الجانب، لكنه في الواقع لا  
 يثق بهذا السلاح العسكري، بقدر ما يتكل ويثق برضوخ الشعب وخوفه الكبير  
 منه ومن سلطانه وجبروته بحيث يفعل له ما يريد.

ولذلك حسب هذه النمطية ستبقى الدول الضعيفة عرضة للأخطار  
 وإنتهاك حرمتها من قبل الآخرين، على طول مراحل وجودها، ولذلك تضطر  
 في الغالب الى البحث عن أحلاف وعقد اتفاقيات دفاعية وأمنية مع الدول  
 القوية، حتى تستطيع الحفاظ على كيانها وحدودها، ولكنها في المقابل سوف تفقد

الكثير من استقلالها وحريتها في التحكم في مواردها الإقتصادية والطبيعية، لتكون بالتالي، دولة فاقدة للإرادة ومبتزة من قبل الآخرين.

وهذه الأمور التي تحدث بين الدول ستؤدي بالتالي الى ظهور عنصرين هما:

١- الخوف من الإنهيار والسقوط.

٢- عدم الثقة والإطمئنان.

والأول قائم على أساس الخوف من تسلط الدول الأخرى وفرض سيطرتها على الآخرين، خصوصاً عندما تظهر دولة كقوة كبرى في المنطقة، وعدم وجود إمكانية للحاق بتطورها التي وصلت إليه. وأما الثاني فهو عنصر لا يمكن أن يتوقف ويرتفع بين أية دولتين مهما بدا ظاهراً منهما على أنها صديقتين، فأمر الخيانة والتقلبات السياسية الطارئة محتمل ومن الممكن أن يطرح على الطاولة في أية لحظة من الزمن.

إذن يفهم من ذلك أن مسألة القلق والخوف وعدم الشعور بالأمان، كل هذه الأمور موجودة ومستمرة مع استمرار هذا الخط المتباين للحكومات والدول، فلا أمان ولا سعادة حقيقية في هذه الدنيا مع هكذا تقلبات وأمور لا يمكن أن تحصر بإتجاه واحد أو زاوية واحدة، فهي متشعبة ومبعثرة، وفوق كل ذلك هي غير منضبطة ولا تخضع لأي قانون يحكمها.

وهذا الأمر في الحقيقة هو عينه في أزمنة التاريخ القديمة، ولكن يحدث بصور مختلفة، فمنذ نشوء الدول والحضارات الكبرى في العالم، وهذا هو حالها وديدها في السيطرة والتأثير على الآخرين من خلال القوة والسطوة والسلب والنهب، وإجبار الآخر على التخلي عن عاداته وطبائعه وتاريخه والإنصهار فيها

يمليه عليه أصحاب الحضارة الجديدة أو قل الدولة المحتلة. فكلها قد قامت وانتشرت بقوة السلاح واضطهاد الشعوب الضعيفة، وإليك نبذة مختصرة تختص بالجوانب العسكرية والقسوة والتسلط لتلك الإمبراطوريات والدول القديمة.

## سومر (نحو ٣٠٠٠ - ٢٢٣٠ ق.م)

ظهر السومريون حوالي الألف الرابع قبل الميلاد في بلاد ما بين النهرين السفلى، وتجمع السومريون في مدن أمثال (أريدو - أور - أوروك - لجش - أمّا - أدب - شوروباك) (ينظر المصوّر رقم ١) وكان رؤساء هذه المدن يسعون الى الهيمنة على بلاد سومر والى الحصول على لقب (لوجال) أي الملك<sup>(١)</sup>.

وعندما نصل الى الدور التالي في التاريخ السومري، وهو الذي يبدأ في منتصف الألف الثالث ق.م نجد أن الصفة البارزة هناك، لم تكن الحفاظ على الوضع المميز الذي كان في كل من المدن/الدول، بل كان صداماً فيما بين هذه المدن/الدول، وثمة نقش نافر لإيناتم ملك لاغاش (تلو) يصور إنتصار هذه المدينة على جارتها أمّا (جوها)، ويرينا هذا النقش أن الحروب بين دول سومر قد بلغت درجة كبيرة من التنظيم، وأنها كانت نسبياً ضارية ومدمرة. ولم يكن جنود إيناتم فقط مزودين بالحوذ - لعلها كانت معدنية - والتروس الثمينة بكثرة، بل كانوا قد درّبوا على القتال في صفوف من الكتائب. وقد اظهرهم نقاش إيناتم وقد صفوا متكاتفين متراصي الصفوف فما تبرز أسلحتهم من الصفوف الأمامية عبر التروس المتلاصقة، وكانت جثث القتلى من العدو المهزوم مطروحة تحت أقدام الجيش الظافر وقائده. ولعل ملوك المدن / الدول السومرية كانوا قد توقفوا في هذا التاريخ عن المطالبة بتقديم الضحايا البشرية عند قبورهم، لكنهم كانوا يتطلبون الآن ضحايا بشرية على مقياس أوسع من الذين يقاتلون في المعارك، وقد كانت ضحايا الحروب خيرة المحاربين من شباب الجماعات.

(١) معجم الحضارات السامية: هنري س. عبودي، نشر دار جروس برس، بيروت، ط ٢،

# دولتا سومر واکاد

## الاصطلاحات

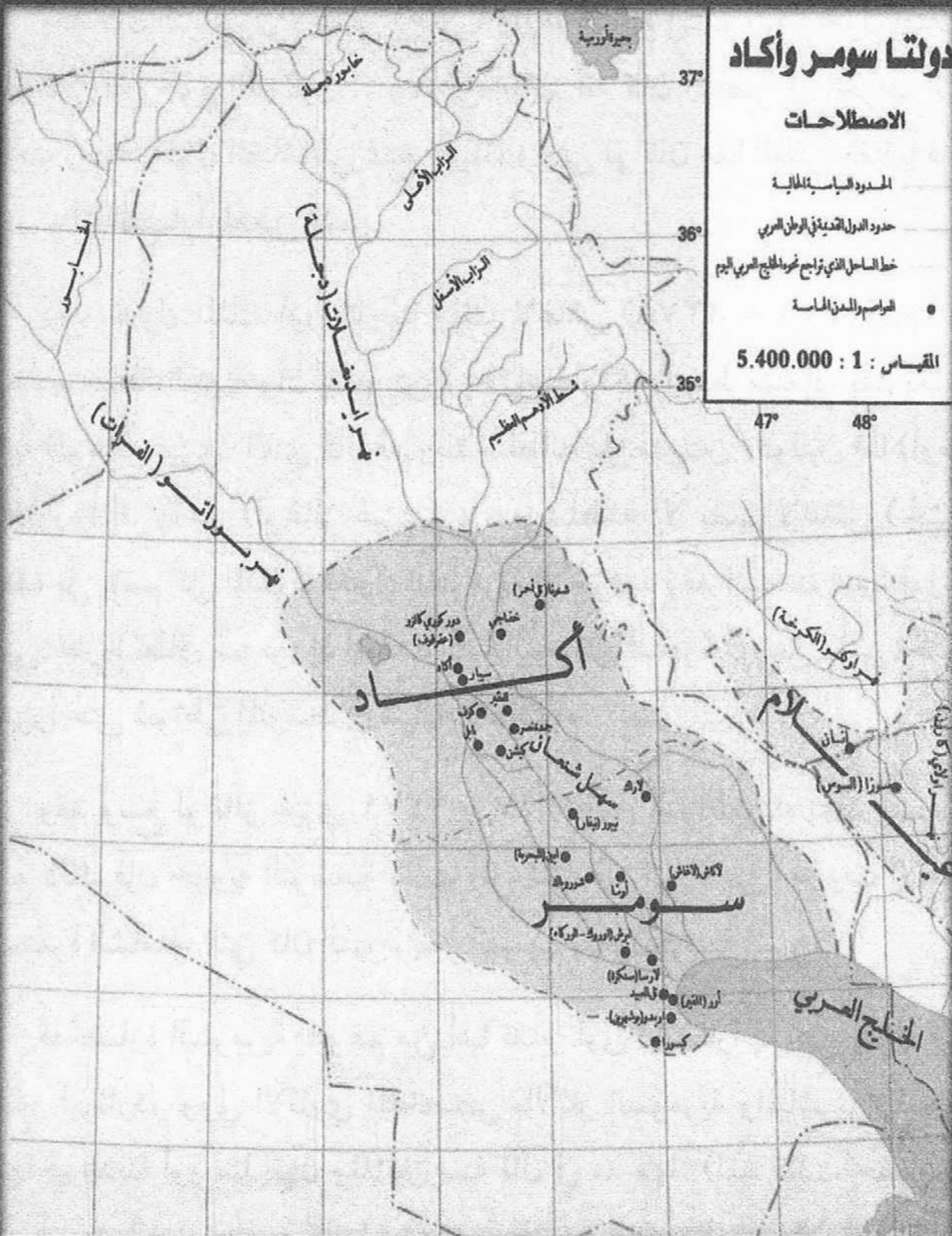
الحدود السياسية الحالية

حدود الدول القديمة في الوطن العربي

خط الساحل الذي تراجع نحو الخليج العربي اليوم

العواصم والمدن الهامة

المقياس : 1 : 5.400.000



المصوّر رقم (١) أطلس التاريخ القديم: ص ٢٦

اليونانيين، ويعدهم مبدعين لها من غير تقليد ولا إقتباس.

لقد علمنا الآن أن حضارة اليونانيين تتصل في الأصل بشجرة امتصت ريعها من أرض الليديين والحثيين وأرض الفينيقيين وجزيرة كريت وبابل ومصر. وإن جذور تلك الشجرة رسخت في أرض السومريين أقدم كل هذه الأمم).

ولكن بالرغم من ذلك فإن كثرة ملوكهم وسلاطنتهم فقد كان القوي منهم يجارب الضعيف، فيضم الى مملكته مدينته، ويضرب عليه الجزية والأتاوة، ويوجب عليه الطاعة، وهذا العصر سمي بعصر (فجر السلالات) لذلك السبب<sup>(١)</sup>.

(١) ينظر: فصل تاريخ العراق من دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠م، تأليف محمود فهمي درويش والدكتورين مصطفى جواد وأحمد سوسة، صدرت تحت إشراف وزارة الإرشاد سنة ١٩٦٠، نشر دار مطبعة التمدن بغداد، ١٩٦١م: ص ١٢١.

## الإمبراطورية الأكديّة

(٢٣٥٠ - ٢١٥٩ ق.م)

الأكديون هم من أقدم القبائل العربية التي نزحت من جزيرة العرب واستوطنت في وادي الرافدين منذ أقدم العصور، واستقروا في بداية الأمر على ضفة نهر الفرات الغربية، في البقعة الممتدة بين دير الزور وهيت، وهي أقرب موئل خصيب من موطنهم بإعتبارها مجاورة لبادية الشام، ثم انحدروا جنوباً حتى اتصلوا ببلاد سومر، ودام هذا الإحتكاك بين الأكديين والسومريين عدّة قرون، حتى تمكن الزعيم الأكدي سرجون الأول، الذي انقطع عن ركائز عصر فجر السلالات، وأسس مملكة أكد (٢٣٤٠ - ٢٢٨٤ ق.م) بعد ان تمكن من القضاء على المملكة السومرية، وشكل جيشاً قوياً مركزاً على فرق المشاة، وقد شمل حكمه معظم أقسام الهلال الخصيب وبلاد عيلام وجزءاً مهماً من آسيا الصغرى الى البحر المتوسط، وضمت هذه المملكة بلاد آشور وما حولها شمالاً وبلاد الكوتيين (قبائل زاغروس)، وسيطرت على أشهر الموانئ الفينيقية ومنها جبال (الفضة) - جبال طوروس - كما سيطرت على بلاد الشام، ومنها المدن الواقعة على طول نهر الفرات التي تضم مملكتي (ماري) و (أبلا)، وقد أسس سرجون اسطولاً في الخليج العربي بعد استيلائه على الدويلات السومرية في جنوبي العراق، وكان هذا الإمتداد يمثل أكبر دولة شملت هذه الأراضي في حينه<sup>(١)</sup> (ينظر المصوّر رقم ٢).

(١) حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور: د. أحمد سوسة، نشر وزارة الإعلام العراقية، بغداد، ط ١، ١٩٧٩: ص ١٣٥ وما بعدها بتصرف، وينظر عظمة بابل: هاري ساغز، ص ٢٦٢ وما بعدها.



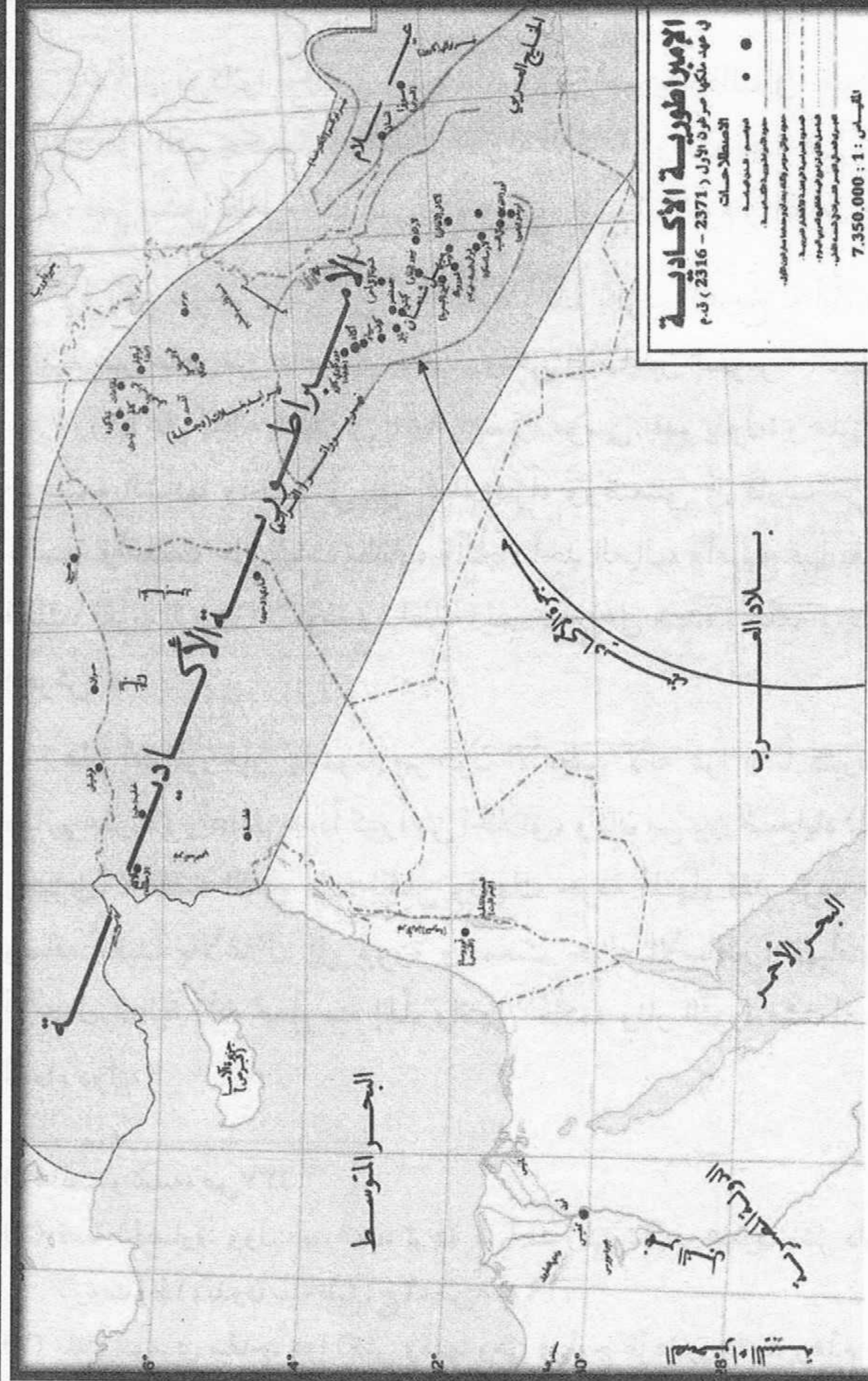
# المصور ورقه (٢) أطلس التاريخ القديم: ص ٢٧

**الإمبراطورية الأكادية**  
في عهد ملكها عرشون الأول ( 2371 - 2316 ) ق.م

**الأصطلاحات:**

- قديمية
- حديثية
- حدود الإمبراطورية الأكادية.
- حدود بلاد الرافدين وخصها بالخط العريض.
- حدود القديس القرون الأربعة الغربية.
- حدود القرون الأربعة الشرقية الغربية.
- حدود القرون الأربعة الغربية الشرقية.

التقياس : 1 : 7.350.000



والأكديون كانوا أول من ابتدع نظام الإمبراطورية وذلك في تعيين الحكام في الأصقاع التي يحكمون فيها بإسم الدولة الأكديّة، وقد سبقوا جميع الأمم الى ذلك، فهم منشؤا نظام الحكم الدولي المعروف والمتبع الى اليوم في العالم<sup>(١)</sup>.

ولم يكن سرجون هذا من أبناء الملوك، فلم يعرف التاريخ له أباً، ولم تكن والدته غير عاهر من عاهرات المعابد. ولكن الأساطير السومرية اصطنعت له سيرة روتها على لسانه شبيهة في بداياتها بسيرة موسى. فهو يقول: وحملت بي أمي الوضيعة الشأن، وأخرجتني إلى العالم سراً، ووضعتني في قارب من الأسل كالسلّة وأغلقت عليّ الباب بالقار، وأنجاه أحد العمال، وأصبح فيما بعد ساقى الملك، فقربه إليه وزاد نفوذه وسلطانه، ثم خرج على سيده وخلعه وجلس على العرش<sup>(٢)</sup>.

علماً أن المؤرخين يسمونه سرجون الأعظم، لأنه غزا مدناً كثيرة، وغنم مغنم عظيمة، وأهلك عدداً كبيراً من الخلائق، وكان من بين ضحاياه (لوجال-زجيزي)<sup>(٣)</sup> نفسه الذي نهب لكش وانتهك حرمة آلهتها، فقد هزمه سرجون وساقه مقيداً بالأغلال إلى نبور، وتجمعت حوله الأساطير، فهيات عقول الأجيال التالية لأن تجعل منه إلهاً، وانتهى حكمه ونار الثورة مشتعلة في جميع أنحاء دولته<sup>(٤)</sup>.

(١) المصدر نفسه، ص ١٣٧.

(٢) قصة الحضارة: وول ديورانت، ترجمة د. أحمد زكي نجيب محمود، نشر دار الفكر، بيروت، ط ١، بدون سنة طبع: ج ٢، ص ١٨ و ١٩.

(٣) ملك سومري سفاح، غزا لكش ونهبها وهي في أوج عزّها ورخائها، وهدّم معابدها، وذبح أهلها في الطرقات.

(٤) قصة الحضارة، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٩ وما بعدها بتصرف.

هذا وقد دخل سرجون في أربع وثلاثين معركة، وكان حكمه يعتبر أول نظام استبدادي في بلاد ما بين النهرين، وقد كلف آلاف من القتلى، وآلاف من الأسرى، خصوصاً إذا ما ضم إليه فترة حكم أخويه (رموش) و (مانشتوشو).  
وتخبرنا نقوش (رموش) عن عدد الأسرى والقتلى بأربعة وخمسين ألف إنسان ومثل هذا الرقم في تلك الحقبة من الزمن يعتبر كبير جداً<sup>(١)</sup>.

---

(١) ينظر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص ٣٩٢ وما بعدها. وقصة الحضارة، ج ٢، ص ٢٧٢ وما بعدها، وتاريخ الحضارات العام، ج ١، ص ١٣٦ وما بعدها.

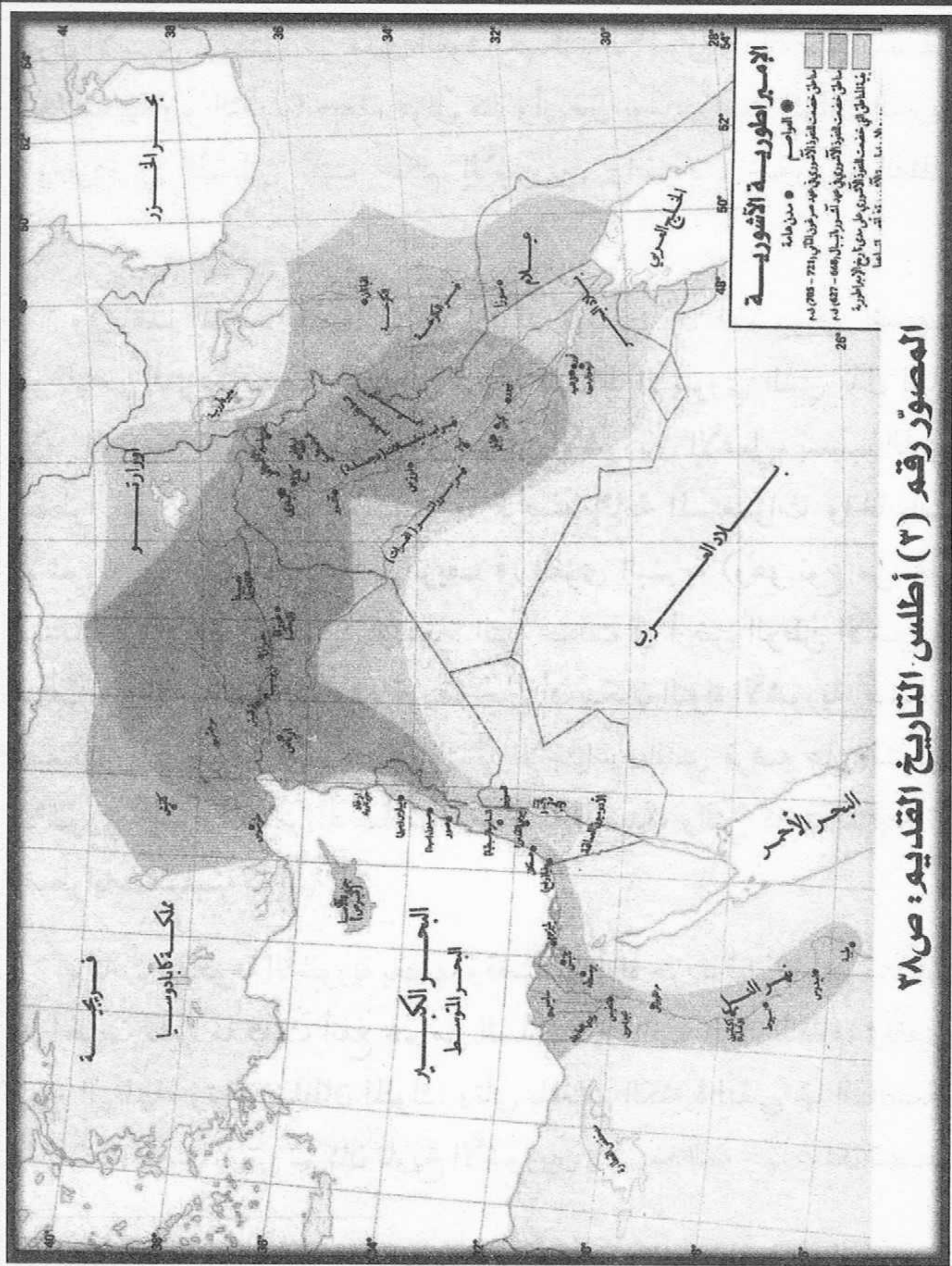
## الإمبراطورية الآشورية

أما آشور وفي الفترة التي كانت تعتبر فيها كأقوى دولة في الشرق الأدنى، فهي في عهد آشور بانيبال كانت تضم تحت جناحها بلاد آشور، وبابل، وأرمينية، وميديا، وفلسطين، وسوريا، وفينيقية، وسومر، وعيلام، ومصر. (ينظر المصوّر رقم ٣).

وقد كانت فيها جميع الأساليب الإدارية قاسية وفضّة. وكانت الدويلات تحت الضغط الآشوري تقع تحت شكل من أشكال السيطرة، نظراً فيما إذا قدمت الدولة التابعة فروض الطاعة، ولكنها إذا استنكفت عن دفع الجزية السنوية، فإن فشلها في دفع المستحقات، تعتبره آشور عملاً معادياً، ويستدعي تحرك القوى الحربية لإجراء عمل عسكري. وعندما يتم الهجوم على أرض الملك المرتد باستخدام القوة، وحينها لن تنسحب إلا بعد ضم أملاك المرتد الى أملاك دولة موالية، أو ولاية موالية. وكانوا يستبدلون الحاكم المرتد بحاكم موال لآشور.

وعلى أي حال فإن الحاكم الذي تعترف به آشور سوف يرتبط بعد أداء القسم أمام الآلهة العظام. ولقد اعتبر الخروج عن الطاعة ومخالفة القسم جريمة ليس بالنسبة لملك آشور فحسب، بل بالنسبة للآلهة التي حدث أمامها القسم. وكان عقاب هذا الجرم الموت. وكان حكم الإعدام عندهم يستبدل أحياناً بالتعذيب مع بعض الإجراءات الدينية وحتى السحرية، مثل سلخ الجلد أو الدفن في جدار أو سحب اللسان أو الحرق.

وهناك سبيان آخران جعلوا المؤرخين يشعرون بحالات من الغضب والكراهية ضد آشور، أحدهما تكوين رؤوس أو أجسام البشر المقتولين، والثاني



حرق الأسرى. ويكفيينا عن مدى القوة العسكرية للأشوريين، أنه منذ أن تسلم (تغلات بيلاسر الثالث) وبعد حوالي مئة وأربعين يوماً، وقعت الممالك العبرية الموجودة في فلسطين تحت حكم الأشوريين واصبحت تدور في الفلك الآشوري<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الصدد يقول المؤرخ أرنولد توينبي: إن الآشوريين أنفسهم ورعاياهم الغربيين عنهم، أصبحوا فريسة النشاط الآشوري الذي بذل لبناء الإمبراطورية. فقد نقص السكان في موطن الآشوريين الأصلي، بسبب الذين سقطوا قتلى في الحروب، وبسبب ما فرضته إقامة المستعمرات والحاميات الآشورية في البلاد المفتوحة من نزيف في القوى البشرية (وهو نوع من نقل السكان في الاتجاه المعاكس). والثغرة التي حدثت في أرض الوطن الآشوري عبئت عن طريق استيراد أقوام غريبة، حتى أن سكان النواة الآشورية أصبحوا شبه آراميين. يضاف إلى ذلك أن التوتر الإجتماعي الذي فرضه على الشعب الآشوري تجنيده المستمر للحملات العسكرية البعيدة، والتي كانت تتزايد أثر اضطرابات سياسية داخلية<sup>(٢)</sup>.

وكانت الحكومة الآشورية بقضها وقضيضها أداة حرب قبل كل شيء. ذلك أن الحرب كثيراً ما كانت أنفع لهم من السلم، فقد كانت تثبت النظام، وتقوي روح الوطنية، وتزيد سلطان الملوك. وتأتي بالمغانم الكثيرة لتغني بها العاصمة، وبالعبيد لخدمتها. ومن ثم كان تاريخ الآشوريين يدور معظمه حول مدن تنهب،

(١) ينظر: عظمة بابل: هاري ساغز، ص ٢٦٢ وما بعدها. وتاريخ الحضارات العام، ج ١،

ص ١٣٧ وما بعدها. وقصة الحضارة، ج ٢، ص ٢٧٢ وما بعدها.

(٢) تاريخ البشرية، مصدر سابق، ص ١٥٤.

وقرى وحقول تخرب. ولما أن قمع آشور بانيبال ثورة أخيه شمش - شم - أو كين واستولى على بابل بعد حصار طويل مرير، كان للمدينة منظر رهيب تتقزز منه نفوس الآشوريين أنفسهم فقد كان معظم من قضت عليهم الأوبئة والقحط ملقين في الطرقات أو في الميادين العامة، فريسة للكلاب والخنازير. وحاول من كانت لهم بقية من القوة من الأهلين أو الجنود أن يفروا إلى الريف، ولم يبق في المدينة إلا من كان ضعيفاً لا يستطيع أن يجر قدميه إلى أبعد من أسوارها. وطارده آشور بانيبال هؤلاء المشردين، ولما أن قبض عليهم كلهم تقريباً، صب عليهم جام غضبه ونقمته، فأمر بأن تقتلع ألسنة الجنود، وأن يضربوا بعد ذلك بالهراوات حتى يموتوا. أما الأهالي فقد أمر بذبحهم أمام العجول المجنحة العظيمة، التي شهدت منذ خمسين عاماً مجزرة أخرى شبيهة بهذه المجزرة في عهد جده سنحريب<sup>(١)</sup>.

ولذلك كان هذا الإسراف في العنف من أكبر أسباب ضعف الممالك الشرقية ومن ثم التعجيل بنهاياتها.

(١) قصة الحضارة: ول ديورانت، ج ٢، ص ٢٧٦ و ٢٧٧.

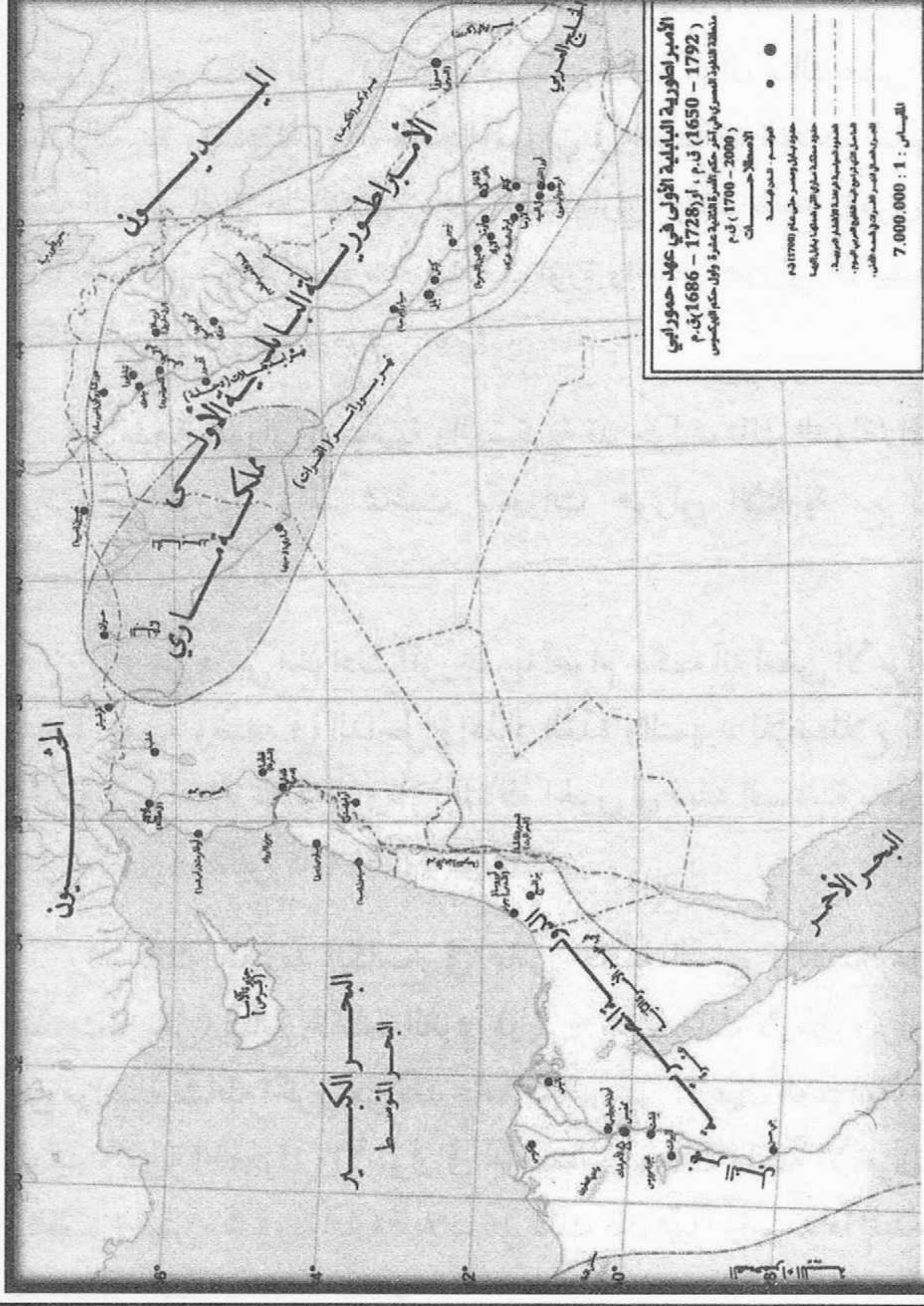
## الإمبراطورية البابلية

أسست السلالة الملكية البابلية الأولى (١٨٣٠ - ١٥٣٠ ق.م) واستقر (سامو ابي) أول ملوك هذه السلالة في بابل، وجعلها عاصمة للمملكة التي قام سادس ملوكها، حمورابي (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م) بحروب متتالية لتوحيد أجزائها.

وكانت بابل من حيث تاريخها وجنس أهلها نتيجة إمتزاج الأكديين والسومريين، فقد نشأ الجنس البابلي من تزاوج هاتين السلالتين، وكانت الغلبة في السلالة الجديدة للأصل السامي الأكدي. فقد انتهت الحروب التي شبت بينهما، بانتصار أكد وتأسيس مدينة بابل لتكون حاضرة أرض الجزيرة السفلى بأجمعها.

وقد صعد حمورابي على العرش وهو على رأس دولة قوية وقابلة للتوسع وتمتد من حدوده حتى الخليج العربي وعليلام (ينظر المصور رقم ٤)، وقد كان نجاحه النهائي يرتكز على سيطرته على جميع منطقة بابل. وفي زمن السنة التاسعة والعشرين من حكم حمورابي قام (زمرى - ليم)، بعد أن عرف أن بابل قد أصبحت خطراً على استقلاله، قام ضد حمورابي في إئتلاف ترأسته عيلام وإيشنونا، ولكن استطاع حمورابي أن يهزم هذا الإئتلاف ونصب نفسه السيد الوحيد والقوة العظمى الوحيدة في المنطقة بشكل حاسم. ونظراً لأن (ريم - سن) حاكم لارسا قد سيطر فعلاً على جميع منطقة جنوبي بابل، لذلك فقد تواجعت دولتان قويتان واصبحتا وجهاً لوجه.





**الأمبراطورية البابلية الأولى في عهد حمورابي**  
 ( 1792 - 1650 ق.م ، أو ( 1728 - 1686 ق.م )  
 منطقة للحدود المصرية في آخر حكم الأسرة الثانية عشرة وأول حكم الأسرة الحادية عشرة ( 2000 - 1700 ق.م )  
 الأصملا - حدودات

- قوسم - الحدود المصرية
- حدود مملكة وسوس حتى عام ( 1700 ق.م )
- حدود مملكة ساري التي ضمتها مملكة البابلية
- الحدود الطبيعية للحدود الأقاليم المصرية:
- ضامات التي توضع في الحدود المصرية القديمة.
- الحدود الحالية للمصر القديمة في حدوده القديس.

التقاسم : 1 : 7.000.000

المصور رقمه (٤) أطلس التاريخ القديم

ففي السنة التالية هزم همورابي (ريم - سن)، وبذلك أصبح همورابي الحاكم المطلق في جميع منطقة بابل ١٧٦٣ ق.م، ولكن كان لا يزال هناك بعض الدول / المدن البعيدة والمستقلة، وقد هزمها همورابي في السنوات الثلاث التالية وكان هدفه الرئيسي التالي هو الإستيلاء على مملكة ماري. ولقد أصبح (زمرى - ليم) تابعاً لحمورابي، ولكن بعد سنة اندلعت ثورة واضطر همورابي أن يهدم أسوار مملكة ماري، وأن يطرد (زمرى - ليم).

إن أنشطة همورابي السياسية والعسكرية قد حولت تلك الدولة/ المدينة الى مركز إمبراطوري، ولقد تماشى منجزات همورابي الإدارية مع نجاحاته العسكرية<sup>(١)</sup>.

ويبدو من درس الحوادث المؤرخة بها أعوام حكمه أنه أمضى الأعوام الأولى منها في تقوية وضعه في الداخل وإعداد العدة والتمهيد للإضطلاع بالمشاريع الحربية التي اعتزم تنفيذها. وظهر نشاطه الحربي في سنته السادسة بالهجوم على مدينة (أيسن) و (الوركاء) وضمها إلى مملكته.

وتلا ذلك هجومه الكاسح في عامي حكمه السابع والتاسع على إقليم (يموت - بعل) التابع لخصمه القوي (ريم - سين) ملك لارسا. ونراه يتوقف عن مواصلة نشاطه الحربي من بعد عامه العاشر على الأعمال العمرانية، مثل بناء المعابد وتقوية الحصون والأسوار في عاصمته وفي مدن مملكته الأخرى المهمة، وتنظيم الجيش وشؤون إدارة البلاد، كل ذلك كان تهيؤاً واستعداداً للبدء بأعماله

(١) ينظر: عظمة بابل، هاري ساغز، ترجمة خالد أسعد عيسى، نشر دار رسلان، سورية، ط ١، ٢٠١١: ص ٨١ وما بعدها. ومعجم الحضارات السامية، مصدر سابق:

الحربية الجسيمة في أعوام حكمه التالية، حيث تحرك بعد أن قضى على أقوى وأخطر خصومه (ريم - سين) ملك لارسا، فكان العام ١٧٦٣ ق.م عاماً حاسماً. وأعقب ذلك اكتساحه لمملكة (أشنونا) في عام حكمه الواحد والثلاثين، ثم بلاد (آشور) ومنطقة ماري في العام الثاني والثلاثين، ثم اتجه إلى بلاد الشام، فأصبح منذ عام حكمه الثامن والثلاثين سيد وادي الرافدين.

وخلف همورابي خمسة ملوك ورثوا عنه مملكة موحدة قوية تضم العراق وأجزاء مهمة من بلاد الشام وأعلى ما بين النهرين. وقد شغل أوائل هؤلاء الملوك بالمحافظة على هذه المملكة الواسعة، ولم تخل أعوام حكمهم من تجريد الحملات الحربية في الداخل والخارج للقضاء على محاولات الانفصال وصد الطامعين من الأقوام المجاورة، الطامحة بخيرات وادي الرافدين.

أعقب همورابي في الحكم ابنه المسمى (سمسو - إيلونا) (١٧٤٩ - ١٧١٢ ق.م) وكان هذا على شيء من المقدرة العسكرية، كما تدل على ذلك حملاته الحربية التي قام بها في أوائل حكمه إزاء الثائرين للانفصال عنه. وقد كلفته إحدى الثورات جهداً جسيماً، وهي الثورة التي نشبت في أحد الأقاليم المتأخمة لبلاد عيلام، وقادها الشخص المسمى (ريم - سين) وهو غير (ريم - سين) ملك لارسا الذي قضى عليه همورابي، فلم يستطع (سمسو - إيلونا) إخمادها إلا بعد عامين، وظهرت من جديد بوادر قيام دول المدن في عهده، حيث استطاع الشخص المسمى (إيلوما - إيلو) أن يثور ويستقل في المناطق الجنوبية من البلاد، مؤسساً بذلك ما يعرف في تاريخ العراق القديم باسم (سلالة القطر البحري) لمجاورتها مناطق الخليج والأهوار الجنوبية. وذكرها جامعو إثبات السلالات

البابلية باسم سلالة بابل الثانية (١٧٤٠ - ١٥٠٠ ق.م)<sup>(١)</sup>.

وواصل الملوك الأربعة الذين خلفوا (سمسو إيلونا) الدفاع عن كيان المملكة والمحافظة عليها طوال القرن الذي استغرقت مدة حكمهم، فنجد الملك المسمى (أبي - إيشوخ) الذي خلف (سمسو - إيلونا) (١٧١١ - ١٦٨٤ ق.م) يصد هجوماً آخر قام به الكشيون، ومع نجاح هذا الملك في ذلك فقد تغلغت من هؤلاء الكشيين في بلاد بابل على هيئة عمال وزراع واستطاع القسم الأكبر منهم أن يؤسس كياناً سياسياً في منطقة عانة على الفرات الأوسط.

ومع أن الكشيين هم الذين خلفوا سلالة بابل الأولى في الحكم إلا أن الضربة القاضية التي أطاحت بها جاءت على أيدي الحثيين، في حدود القرن السابع عشر ق.م، وقام منها ملوك أقوياء، أشهرهم الملك المسمى (حاتوسيليس) وقد زحف هذا الملك على بلاد الشام. وبعد أن قتل في أحد المعارك، وخلفه في الحكم ابنه المسمى (مورسيليس) (١٦٢٠ - ١٩٥٠ ق.م) فاستأنف الهجوم على حلب فدمرها، واستولى كذلك على كركميش (طرابلس الآن) واتجه من بعد ذلك جنوباً على طول نهر الفرات إلى بابل نفسها، فاستولى عليها في عهد آخر ملوكها المسمى (سمسو - ديتانا) (١٦٢٥ - ١٥٩٥ ق.م)<sup>(٢)</sup>.

والأمر الغامض عن هذا الغزو الحثي لبابل أن الملك الحثي لم يبق في بلاد بابل، إنه انسحب لأسباب مجهولة، فأغتنم هذه الفرصة الكشيون في منطقة الفرات الأوسط وجاؤا إلى بلاد بابل وأسسوا فيها سلالتهم الحاكمة التي سميت

(١) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، نشر دار الوراق، بيروت، ط ١، ٢٠١١م: ص ٤٧٦ وما بعدها.

(٢) ينظر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، مصدر سابق: ص ٤٧٦ وما بعدها.

بسلاطة بابل الثالثة، بإعتبار أن سلاطة القطر البحري التي ذكرناها كانت سلاطتها الثانية<sup>(١)</sup>.

ثم بدأت الدولة الآشورية بالتعاظم والقوة منذ القرن الرابع عشر ق.م، بحيث أن أحد ملوكها الأقوياء المسمى (آشور - أو بالط) (١٣٦٥ - ١٣٣٠ ق.م) بلغ من القوة درجة إنه تدخل في شؤون بلاد بابل وفرض على الملك الكشي (بورنا بورياش) الثاني مصاهرة سياسية، ونصب على البابليين ملكاً إختاره هو من بين مناصريه، من بعد مقتل حميه. وازداد نفوذ الدولة الآشورية، وتدخلها في بلاد بابل التي حلّ فيها الضعف وساءت أحوالها الداخلية<sup>(٢)</sup>.

ولكن الأمور لن تبقى على حالها، وبعد حدوث عدة تغيرات وقلقل تعرضت لها الدولة الآشورية قبل إنهارها، وكان أكثر هذه القلاقل خطورة هي التي قامت في الجنوب، حيث انتهز البابليون فرصة تدهور آشور وبدأوا كفاحهم من أجل الإستقلال، وقد بدأ الحاكم البابلي - الذي عينه آشور بانيبال بعد أخيه - الثورة بمجرد تعيينه، وبعد وفاته أصبح حاكم بلاد البحر (نبو بولصر) زعيماً للثورة ولم تتمكن القوات الآشورية من هزيمته فأعلن نفسه ملكاً على بابل، مؤسساً الأسرة الحادية عشرة البابلية، وهي التي تعرف بإسم (الأسرة البابلية الأخيرة) أو (المملكة الكلدانية). وقد ظلت الحروب قائمة بين بابل وآشور نحو ١١ عاماً استطاع بعدها (نبو بولصر) أن يحرر كل بلاد سومر وأكد ثم استمر في فتوحاته شمالاً على طول الفرات، حتى وصل الى منطقة حرّان، ومنها تقدم على طول دجلة الى كركوك وآشور. وأنتصر البابليون بمساعدة الميديين، وحينها

(١) المصدر نفسه: ص ٤٧٧.

(٢) المصدر نفسه: ص ٥٠٨ بتصرف.

وقعت سوريا وفلسطين في أيدي المصريين كمحاولة غير ناجحة من (نخاو) لمساعدة حلفائه الآشوريين تقدم البابليون للقاءه بقيادة (نبوخذ نصر) لأنهم كانوا يحرصون على إبقاء طريقهم الى البحر المتوسط مفتوحاً، وأنتصر البابليون وفتحوا سوريا وفلسطين وتقدموا نحو مصر، ولكن موت (نبو بولصر) اثناء ذلك جعل ولده (نبوخذ نصر) يعود مسرعاً الى بابل. وقد تولى العرش بعد والده، وكانت البلاد قد بدأت في الإزدهار واستقرت أمورها السياسية. فوجه جهوده الى تشييد العمائر وترميم المعابد، وإن كان قد أرسل جيشاً لتأديب مملكة يهوذا، حيث احتل بيت المقدس، إلا أن اليهود ثاروا بعد مضي عشر سنوات فسار إليهم ودخل بيت المقدس وخربها وفتك بأهلها. فصار بليّة على الممالك الصغيرة في آسيا الصغرى.

وبعد أن حكم (نبوخذ نصر) نحو ٢٣ سنة خلفه على عرش بابل ملوك ضعاف، فلم يكد ولده يحكم عامين حتى ثار عليه الكهنة، لسماحه لليهود بممارسة طقوسهم الدينية بحرية وعلى نطاق واسع، وقتلوه ونصبوا مكانه أحد قوات والده وهو صهره في نفس الوقت. ولم يقم هذا الأخير بما يستحق الذكر، ثم مات بعد أن حكم ٤ سنوات، وتبعه ابنه الصغير الذي لم يحكم سوى اسابيع قليلة، ثم تدخل الكهنة ثانية وأبعدوه عن الحكم، وعيّنوا مكانه أحد أبناء طائفتهم ويدعى (نبو نهيد) ولكن هذا لم يستطع أن ينهض بأعباء الحكم ولم يقم إلا ببعض النشاط العمراني، وقد تحالف مع الملك الفارسي كورش ضد الميديين ثم غزاهم وغزا شمال بلاد العرب، وانشغلت فارس بحروبها في جهات أخرى، وفي عهد خلفه ثار حاكم سوسة، وأنضم الى الفرس وبعدها هاجم ملك الفرس (كورش) بابل ودخلها، وأخذ ملكها نبو نهيد (نبو نهيد) أسيراً، وهكذا زالت آخر سلالة بابلية، وانتهى رمز الحضارة البابلية، رغم محاولات الفرس لإحياء مجد مدينة بابل، ومن بعدهم حاول الاسكندر أن يجعلها مركزاً إمبراطوريته،

ولكنها سرعان ما أهملت بعد وفاته وتحولت الى أطلال<sup>(١)</sup>.

## الفراعنة

أما بالنسبة لحضارة الفراعنة في مصر، فلم يكن الملوك في بلد من البلاد بالكثرة التي كانوا بها في مصر القديمة، والتاريخ يضمهم جميعاً في أسر، تشمل كل أسرة ملوكاً من بيت واحد أو ذرية واحدة، ولكن عدد هذه الأسر نفسها يثقل الذاكرة التي لا تطيق كثرتها. وحكم مصر (بيبي الثاني) أحد هؤلاء الفراعنة أربعاً وتسعين سنة ٢٧٣٨ - ١٦٤٤ ق.م وحكمه هذا أطول حكم في التاريخ كله، فلما مات عمّت الفوضى البلاد وأدت الى الإنحلال وخسر خلفه عرشه، وحكم امراء المقاطعات حكماً مستقلاً. وهذا التعاقب بين السلطة المركزية وغير المركزية من الظواهر التاريخية تتوالى بانتظام، كأن الناس يملّون الحرية المفرطة تارة والنظام المسرف تارة أخرى، وطغى على البلاد عصر مظلم سادته الفوضى أربعة قرون<sup>(٢)</sup>.

ثم قام بعدها رجل قوي، أعاد النظام الى البلاد وأسس الأسرة الثانية عشرة

(١) ينظر: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: د. محمد أبو المحاسن عصفور، نشر دار النهضة العربية، بيروت، ط ٢: ص ٣٨٥ وما بعدها. ومعجم الحضارات السامية: هنري س. عبودي: ص ١٩١ وما بعدها، وتاريخ الحضارات العام: ج ١، ص ١٣٩، وحضارة بابل وآشور، غوستاف لوبون: ص ٥٠، وقصة الحضارة: وول ديورانت، ج ٢، ص ١٨٧ وما بعدها.

(٢) قصة الحضارة، مصدر سابق، ج ٢، ص ٧٣.

وتسمى بإسم (أمينمحيث) ولكن خلف لإبنه نصيحة مرّة، هي في واقع أمرها  
قاعدة عجيبة للحكم المطلق جاء فيها:

إستمع إلى ما سأقوله لك،

حتى تكون ملك الأرض،

وتزيد فيها الخير.

أقس على جميع من هم دونك،

فإن الناس لا يعنون إلا بمن يرهبهم،

ولا تقرب منهم بمفردك،

ولا تملأ قلبك بالموودة لأخ،

ولا تعرف صديقاً...

وإذا نمت فاحرس بنفسك قلبك

لأن الإنسان لا صديق له في أيام الشر.

عموماً وبعد مائتي عام انقضى عهد الدولة الوسطى في حال من الفوضى  
والتفكك دامت مائتي عام. ثم غزا الهكسوس، وهم بدو من آسيا، مصر المتقطعة  
الأوصال، فأحرقوا مدنها وهدموا هياكلها وبددوا ما تجمع من ثروتها،  
وأخضعوا وادي النيل مدى قرنين لحكم ملوك الرعاة. ولكن هؤلاء الهكسوس  
لم يلبثوا هم أيضاً أن سمّوا وأترفوا وفقدوا سلطانهم، مما ساعد هذا المصريين  
على جمع شملهم وشنوا حرباً عواناً يبغون بها تحرير بلادهم، فطردوا الهكسوس،



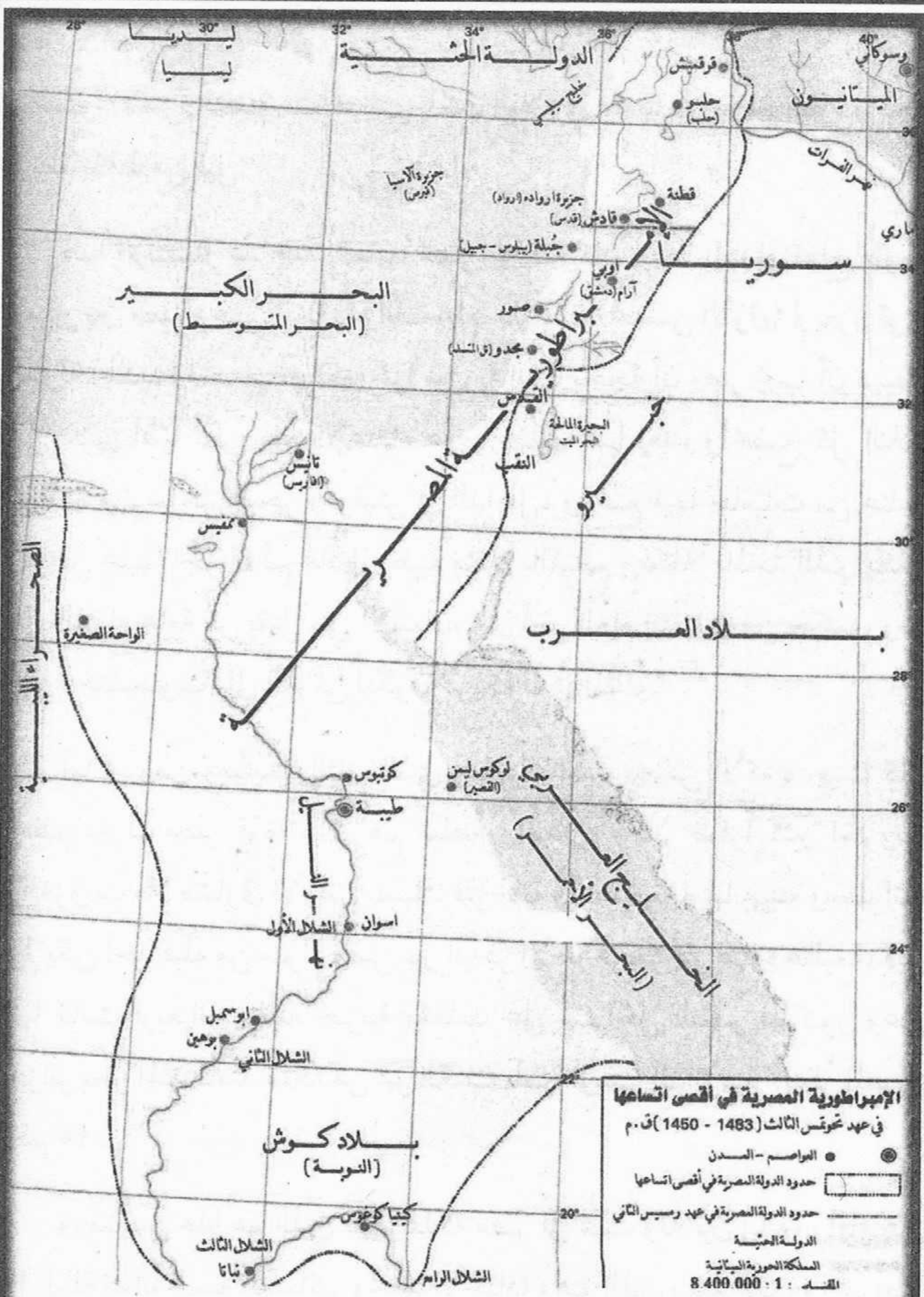
وأسسوا الأسرة الثامنة عشرة، التي بلغت البلاد في أيامها درجة من القوة والمجد لم تبلغها قط من قبل.

هذا الانتصار قد جدد شباب مصر، ولكنه كان إيذاناً بإبتداء كفاح طويل ومريع بين مصر وغربي آسيا دام ألف عام. ذلك أن (تحتمس الأول) لم يعزز قوى الدولة الجديدة فحسب، ولكنه غزا سورية أيضاً بحجة أن مصر يجب أن تسيطر على غربي آسيا لكي تمنع الإعتداء على أراضيها فيما بعد، وأخضع كل البلاد الواقعة بين ساحل البحر وقرقيش في الداخل، ووضع فيها حاميات من عنده، وفرض عليها الجزية، ثم عاد إلى طيبة مثقلاً بالغنائم ومكلاً بالمجد الذي يكلل على الدوام هامة من يقتل بني الإنسان. وفي آخر العام الثلاثين من حكمه، رفع ابنته (حتشبسوت) إلى العرش لتكون شريكة له في الملك<sup>(١)</sup>.

أما في زمن رمسيس الثاني الذي اشتهر بإسم رمسيس الأكبر، حيث كان أعظم ملوك مصر قوة، وأكبرهم سلطة وإقتدار، وكان ظافراً كثير الحروب والغزوات ملاً مشارق الأرض بصيت فتوحاته وأرهب مغاربها بهيبته وسطواته، ولم يكن أحد قبله من ملوك مصر عبر البحر الأحمر فجهز هو عمارة عظيمة، قيل إنها كانت اربعمائة سفينة حربية وتغلب على سواحل البحر المذكور وعلى جزائر بحر الهند فأمتد ملكه من نهر الكنك بآسيا إلى نهر الدانوب. (ينظر المصوّر رقم ٥).

ورمسيس هذا هو الذي قسم مملكة مصر الى ست وثلاثين إيالة، وأقام على كل إيالة نواباً لجمع العساكر وتجنيد الأجناد، وهو الذي رسم صورة الخريطة

(١) ينظر: قصة الحضارة، وول ديورانت، مصدر سابق: ج ٢، ص ٧٦ وما بعدها.



المصور رقم (5) أطلس التاريخ القديم

وصور فيها صورة المدن التي افتتحها ليين لأهل مصر عظم ملكه وكنه جبروته وكان فيه تيه وتعاضم، فإنه كان إذا ركب في موكبه لزيارة المعابد أو التنزه يأتي ببعض الملوك والأمراء والعظماء الذين أسرهم ويلبسهم ثيابهم الملوكية، ثم يربطهم كالخيل أربعة أربعة ليجرُوا عربته<sup>(١)</sup>.

وقد صار شخص الملك بسبب ألوهيته مشحوناً بالقدسية المحظرة بالنسبة إلى البشر الآخرين من ناحية الإقتراب منه ومخاطبته، فكانوا لا ينطقون بإسمه بل يشارون إليه بصفات التعظيم كصاحب الجلالة، وقد صاروا يشارون إليه في عهد الامبراطورية (منذ السلالة الثامنة عشرة) بإسم الفرعون أي (البيت العظيم)، وهي الكنية التي اطلقت على جميع ملوك مصر. واستتبع ألوهية الفرعون أيضاً أمور أخرى مهمة في حياة الدولة المصرية ونظامها وفي حياة الشعب. فكان الفرعون بصفته إلهاً مطلق الحكم والسيطرة في البلاد وسكانها، حيث يملك جميع البلاد - بصورة نظرية في بعض الأحيان وبصورة عملية في أحيان أخرى - والملكية الفردية غير ممكنة إلا نتيجة منح الملك إياها للأشخاص الذين يتصرفون بها، ويصدق ذلك أيضاً على هوية الأفراد الشخصية وعلى مكائهم في المجتمع. فكان كل ذلك رهن إرادة الملك<sup>(٢)</sup>.

وإذا استثنينا الملك ومعه أفراد الأسرة المالكة الذين كانوا فوق طبقات الشعب فبالإمكان تقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات، الطبقة العليا المؤلفة من النبلاء والأشراف وكبار الموظفين والكهنة، وكان هؤلاء بيدهم مقاليد الأمور

(١) ينظر: الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث، ميخائيل شاروويم بك، نشر مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٤م - ١٤٢٥هـ: ج ١، ص ١١٤ وما بعدها.

(٢) ينظر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، مصدر سابق: ج ٢، ص ١٨٥.

والثروة، ويليهم طبقة يمكن تسميتها بالطبقة الوسطى، وأهم أفرادها الصناع والعمال الأحرار والفلاحون الأحرار، ثم تأتي جماعة الأرقاء. وكانت الحروب الخارجية مصدراً مهماً لجلب الحشود من المستشرقين، فيخبرنا (رعمسيس الثالث) أنه أهدى (113000) عبد إلى المعابد المهمة في أثناء حكمه، وإذا أضفنا إلى مثل هذه الحشود من الأرقاء العمل القسري الذي كان يفرضه الملوك والحكام على الطبقات الدنيا من الفلاحين والعمال في مشاريعهم الجسيمة أدركنا العمل الغزير في مصر القديمة<sup>(١)</sup>.

ولم يستمر الوضع على ما هو عليه، حتى أسست الإمبراطورية المصرية حكومة دينية راكدة، أزهت فيها البناء والتخريف، واطمحل فيها كل ما عدا هذين من مقومات الحياة القومية. ووضعت الرقى لتصبغ كل قرار يصدره الكهنة بالصبغة المقدسة الإلهية. وامتص الآلهة كل ما في مصر من مصادر الحياة، حتى نضب معينها في الوقت الذي كان فيه الغزاة الأجانب يعدّون العدة للإنقضاض على كل هذه الثروة المتجمعة. وثار نزع الفتنة في جميع أطراف البلاد، وكانت هناك أمماً جديدة في بلاد آشور وبابل وفارس، كانت أئذ تتمرد وتشتد ويقوى سلطانها في الطرف الآخر من طرفي هذا الطريق التجاري في البحر المتوسط، وكانت تدعم قوتها بالمخترعات والمغامرات وتجروء على منافسة المصريين، وكان الفينيقيون وقتئذ يتمون صنع السفائن ذات الثلاثة صفوف من المجاديف لكي يصلوا بها إلى ما يبغون من كمال، وأخذوا بفضل هذه السفائن ينتزعون من مصر السيطرة على البحر شيئاً فشيئاً. وكان الدوريون والآخيون قد استولوا على كريت وجزائر بحر إيجه (حوالي ١٤٠٠ ق.م) وكانوا ينشئون لهم

(١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٩٣.

إمبراطورية تجارية. وعلا نجم الأمم الواقعة على شواطئ البحر المتوسط الشمالية، وازدهرت. وأما الأمم المقيمة على شواطئه الجنوبية فضعفت واضمحلت. وفقدت مصر تجارتها وذهبها وسلطانها وفنونها، ثم فقدت آخر الأمر كبرياءها نفسه، وزحفت على أرضها الأمم المنافسة لها، واحدة بعد واحدة وعدت عليها وإجتاحت أرضها وخربتها<sup>(١)</sup>.

(١) قصة الحضارة: ول ديورانت، مصدر سابق: ج ٢، ص ١٨٣.

## الإمبراطورية الفارسية

أخذ كورش الأكبر (٥٥٨ - ٥٣٠ ق.م) يقوي نفسه وأسس عاصمة جديدة هي (بزر كاده) وأخذ يدبر أمر انفصاله واستقلاله عن الماڤين. وكان يحكم بلاد بابل الملك (نبونيد) الذي أعد الخطط للإستيلاء على بعض الأقاليم التابعة لمملكة ماڤي، فدارت مفاوضات سرية بين نبونيد وبين كورش ليكونا حليفين. وبعد أن علم (استياجز) ملك الماڤين بالمؤامرة من تابعه وقريبه، قاد استياجز جيشاً بنفسه، بعد أن إنحاز كبير قواده (هر باخوس) الى جانب كورش بناءً على خطة وإتفاق مدبرين، وذلك عندما تقدم كورش من العاصمة اكبثانا لأخذها، فدارت معركة مريرة دحر فيها جيش الملك الماڤي ووقع أسيراً بيد كورش، وهكذا صفا الجو لكورش فأخذ أكبثانا عاصمة المملكة المتحدة، وفتح عهداً جديداً في تاريخ إيران حيث إتحد الفرس والماڤيون، ولم يمض طويل عهد على كورش حتى أسس امبراطورية عظمت.

فلقد كوّن كورش من بعد ضمه بلاد ماڤي في زمن جيل واحد امبراطورية معظم شملت معظم العالم القديم المعروف، ممتدة من الهند الى بلاد الإيجية والى البحر العربي، وبفتح قمبيز لمصر، ويفتوح دارا اتسعت هذه الإمبراطورية، فكانت أعظم امبراطورية عرفها العالم القديم، وبعد توطيد كورش لمملكته في فارس، وسّع حدودها الى آسيا الصغرى فقضى على مملكة ليديا، واستولى على عاصمتها (ساردس) عام ٥٤٧ - ٤٥٦ ق.م في عهد ملكها قارون - كروسوس - وبإستيلاءه على مملكة ماڤي ورث حقها في الأجزاء التابعة لها في

بلاد ما بين النهرين<sup>(١)</sup>.

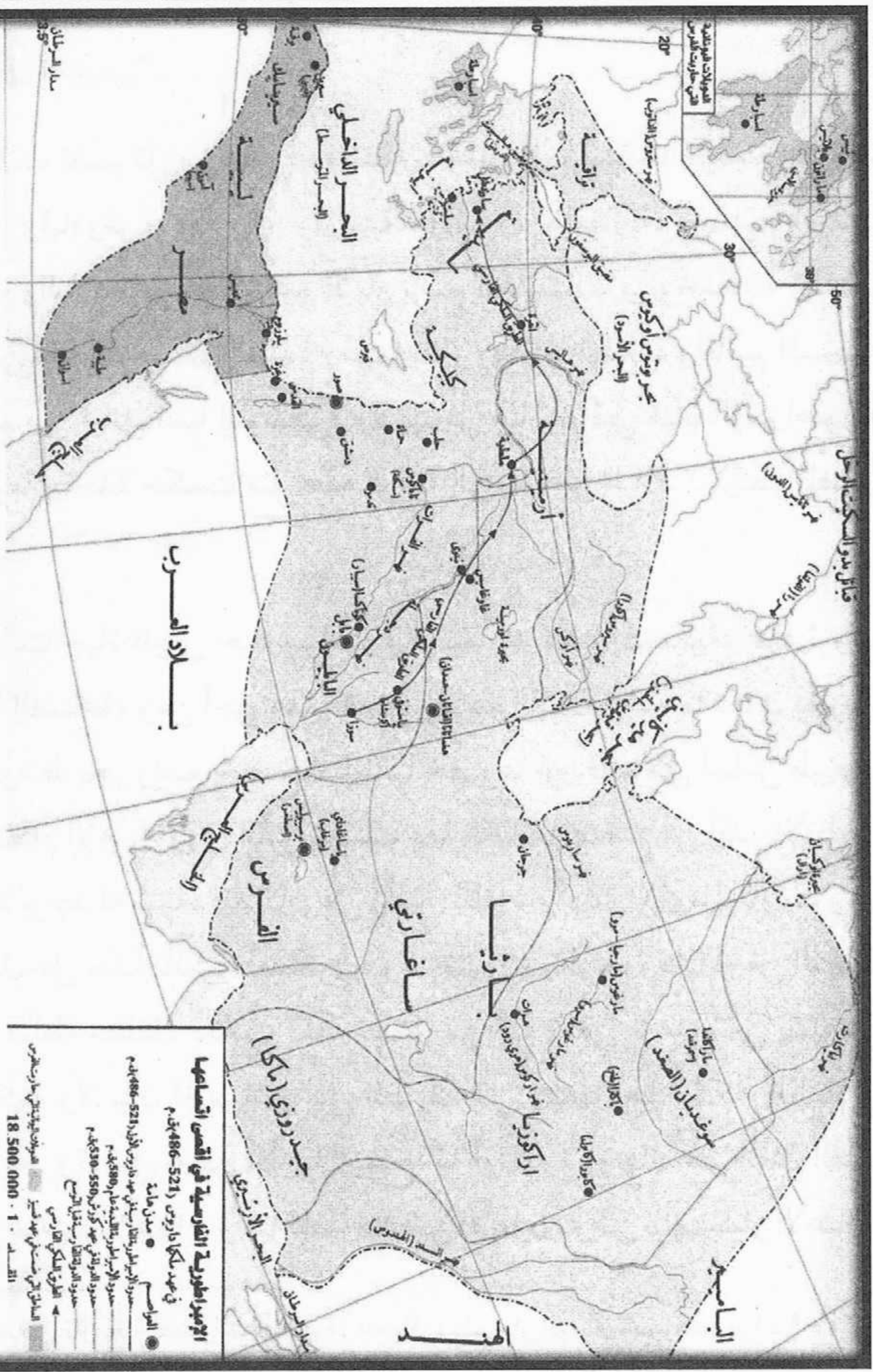
وكانت تضم كل من مصر، وفلسطين، وسوريا، وفينيقية، وليديا، وفريجيه، وأيونيا، وقبادوش، وقلقية، وأرمينية، وآشور، وقفقازية، وبابل، وميديا، وفارس، والبلاد المعروفة في هذه الأيام بإسم أفغانستان، وبلوخستان، والقسم الممتد من الهند غرب نهر السند، وسيمديانا، وبكتريا (بلخ)، وأقاليم المسجينة وغيرهم من قبائل آسيا الوسطى، ولم يسجل التاريخ قبل هذه الإمبراطورية أن حكومة واحدة حكمت مثل هذه الرقعة الواسعة من البلاد<sup>(٢)</sup>. (ينظر المصور رقم ٦).

وكانت حياة فارس حياة سياسية وحرية أكثر منها إقتصادية، عماد ثروتها القوة لا الصناعة، ومن أجل هذا كانت مزعزة الكيان، أشبه ما تكون بجزيرة حاكمة وسط بحر واسع خاضع لسلطانها خضوعاً غير قائم على أساس طبيعي. وكان النظام الإمبراطوري الذي يمسك هذا الكيان المصطنع من أقدر الأنظمة، ولا يكاد يوجد له شبيه، فقد كان على رأسه الملك (أوخشتر) أي المحارب، وهو لقب يدل على منشأ الملكية العسكري، وصبغتها العسكرية. وكان له من الوجهة النظرية سلطة مطلقة، فكانت كلمة تصدر من فمه تكفي لإعدام من يشاء من غير محاكمة ولا بيان للأسباب. على الطريقة التي يتبعها أحد الحكام الطغاة في هذه الأيام. وكان في بعض الأحيان يمنح أمه أو كبيرة زوجاته حق القتل القائم على النزعات والأهواء. وقلما كان أحد من الأهلين، ومن بينهم كبار الأعيان،

(١) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، نشر دار الوراق، بيروت، ط ١، ٢٠٠٩م:

ص ٤٥٠.

(٢) قصة الحضارة، مصدر سابق: ج ٢، ص ٤٩.



المصوّر رقم (٦) أطلس التاريخ القديم: ص ٤٥

**الإمبراطورية الفارسية في أقصى اتساعها**  
 في عهد ملكها داروس و 521-486 ق.م

- المواصلات
- مدن عامة
- حدود الإمبراطورية الفارسية في عهد داروس الأول و 521-486 ق.م
- حدود الإمبراطورية الفارسية في عهد داريوس الثالث و 330-330 ق.م
- حدود الإمبراطورية الفارسية في عهد كوروش و 550-530 ق.م
- الحدود التي استولى عليها الإسكندر المقدوني
- المناطق التي خضعت في عهد قسطنطين الأول

18 500 000 · 1 : 1



يجرؤ على انتقاد الملك أو لومه، كما كان الرأي العام ضعيفاً عاجزاً عجزاً مصدره الحيطة والحذر، فكان ما يفعله الذي يرى الملك يقتل ابنه البريء أمام عينيه رمياً بالسهم، أن يثني على مهارة الملك العظيمة في الرماية. وكان المذنبون الذين تلهب الشياطين أجسادهم بأمر الملك يشكرون له تفضله بأنه لم يغفل عن ذكرهم<sup>(١)</sup>.

لقد اكتسب كورش سلطة معنوية لا حد لها لما أحرزه من انتصارات، ولكن انقرض نسله بموت ابنه. وانتسب داريوس الأول إلى أسرة ثانوية ولم يكن رئيساً لها. وأسدى الملك الجديد خدمات جليلة إذ قمع الثورات التي نشبت في سوزة وبابل وبلاد ماداي، فأحرز تسعة عشر نصراً، وأدب تسعة عصاة، ونظم الإمبراطورية.

هذا وإذا رجعنا إلى الزمن القديم نرى أن هذه المملكة هي غريبة عن الشرق الكلاسيكي. ولم تفت الإسكندر هذه الحقيقة إذ تظهر السياسة التي اتبعها بأنه شعر، وهو في إيران، بأنه أقرب إلى مقدونية مما لو كان في مصر أو بلاد بابل. لكن تأثرت الحضارة الفارسية بمجار كثيرة أخرى، جعلت منها حضارة شرقية، وتعتبر هذه الحضارة، أكثر من كل زميلاتها السابقة، نقطة إلتقاء. ونسبة لما أقام الميديون والفرس من علاقات مع سوسة وبلاد الآشوريين، فإنهم تخطوا الحياة البدوية الصرفة. ثم جعلت الفتوحات من الآخمينيين ورثة أعظم الإمبراطوريات القديمة وسادت أقطار تأصلت فيها أشد الحضارات قدماً. ومع ان هذه الحضارات كانت قد أشرفت على المغيب فإنها تركت تقاليد وآثاراً باهرة، فكيف التهرب إذاً من إشعاعها؟ وبرز تأثير الشرق قوياً جداً، خاصة نفوذ بلاد

(١) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٤١٦ وما بعدها.

الرافدين، وهي أقرب الى وسط الامبراطورية وأشدّ تنظيماً من مصر البعيدة<sup>(١)</sup>.

وفي الفترة التي توفي فيها الملك قمبيز ٥٢٢ ق.م ابن الملك كورش وهو في طريق عودته من مصر، أعقب ذلك إضطرابات عمت أرجاء الإمبراطورية وشملت بلاد بابل أيضاً، وبرز أبان هذه الإضطرابات أمير من الأسرة المالكة الأخمينية اسمه (دارا) فجمع حوله الأتباع، وحارب الحكام المنشقين بحيث انه اضطر الى اعادة فتح معظم ولايات الامبراطورية، ومن بينها بلاد بابل، حيث اغتتم بعض الوطنيين من أهلها ظروف تلك الإضطرابات فأعلنوا استقلال البلاد بزعامة الثائر المسمى (ندنتوبيل) وأدعى أنه من نسل (نبو نيدس) وسمى نفسه نبوخذ نصر الثالث، وتطلبت ثورة بابل أن يتوجه (دارا) بنفسه لإخمادها، وبعد فترة وجيزة من إخماد هذه الثورة وبينما كان دارا يحارب في بلاد ماذي لتصفية الثوار، ثارت بابل مرة أخرى في شهر آب ٥٢١ ق.م ولكن تم القضاء على الثورة ونكل بالثائرين<sup>(٢)</sup>.

استقامت بعدها الأمور لدارا في مطلع عام ٥٢٠ ق.م بعد أن قضى على جميع الثوار في أرجاء الإمبراطورية المختلفة، وقد علّمته تلك الثورات دروساً مهمة في اسلوب الحكم والإدارة.

خلف دارا الأول على عرش فارس ابنه (احشو يرش الأول) ٤٨٦ - ٤٦٥ ق.م بتعيين أبيه له، وهو في حياته. وبدأ اولى اعماله بإخماد الثورة التي نشبت في مصر في عهد أبيه. وحدثت في بلاد بابل في عام حكمه الرابع ٤٨١ ق.م ثورة

(١) تاريخ الحضارات العام: أندريه إيمار وجانين أوبوايه، نقله الى العربية فريدم داغر، نشر

دار عويدات، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م: ج١، ص٢١٨.

(٢) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، مصدر سابق: ص ٦٣٥ بتصرف.

ولكنه سحق الثورة بعنف وقسوة بالغين، ونكل بالثوار تعذيباً وتقتيلاً.

وأما بالنسبة إلى الإمبراطورية بوجه عام فإن بوادر التدهور بدأت تظهر منذ عهد (أحشو يرش) الذي حصر اهتمامه وهمه في بلاد فارس، وأصبحت الولايات مجرد رعايا تابعة لها، ومما زاد الطين بلة إنهاك موارد الدولة في الحرب التي استأنفها (أحشو يرش) على بلاد اليونان، إذ جرد حملة ضخمة، وبعد عبور البسفور انحدر على اليونان الشمالية وقضى على تلك المقاومة البطولية التي أبدتها المدافعون الإسبارطيون القلائل على مجاز (ثرمو بيلي) الشهير، ثم أخذ مدينة أثينا، بيد أن هذه الانتصارات البرية لم تجده نفعاً ولم تقض على مقاومة اليونان، إذ حطم أسطولهم الأسطول الفارسي، في معركة سلاميس الشهيرة ٤٨٠ ق.م. فانهارت معنويات الملك وانسحب بجيوشه البرية تاركاً بلاد اليونان تتمتع بحريتها من بعد نصرها العجيب على أضخم إمبراطورية عرفها العالم القديم<sup>(١)</sup>.

وقام (أحشو يرش) - كسر كسيس - على مدار هذه الرحلة بإستعراض مدى قوته وقوة الإمبراطورية، وكان راكباً في عربة تجرها الجياد النسائية. ولقد استمر هذا الأمر سارياً إلى ما بعد عبور جسر القوارب، وقد توافدت الشعوب والقبائل على القافلة الملكية لتبايع أحشو يرش - كسر كسيس - ولتقدم له فروض الولاء والطاعة والهدايا. وفي أثناء زحفه بإتجاه اليونان، قام بإجراء مسح للشعوب والأراضي الخاضعة له، ولقد كان يهدف من قيادته لجيشه هذا أن يمجّد ويعظم من سلطته وقوته، وأن يسعى إلى زيادتها عن طريق القيام بفتوحات جديدة.

(١) المصدر نفسه: ص ٦٣٤.

ولذلك نقل المؤرخ هيرودوت خطاباً على لسان ماردو ينوس والذي يقول مخاطباً أحشو يرش: لقد قمت بترويض غطرسة المصريين، وعليك الآن أن تقود جيشاً لمحاربة أثينا، افعل ذلك وسوف يذكر اسمك في عزة وشرف في جميع أرجاء الدنيا، وسوف يفكر أي شخص مرتين قبل أن يقوم بغزو أراضيك<sup>(١)</sup>.

وأعقب هذه الأحداث الخطيرة تزايد الإنحلال في جسم الدولة وحكامها ملوكاً وأتباعاً واغتيل أحشو يرش على يد حجاب قصره ٤٦٥ ق.م واصبحت مؤامرات القصر من الوسائل المألوفة في تولي الحكم. وخلف احشو يرش جملة ملوك كانوا ضعفاء فازداد في عهودهم تدهور المملكة، وأولهم (أرتحششتا الأول) ٤٦٥ - ٤٢٤ ق.م الذي قتل جميع اخوته، وساءت احوال المملكة في عهد خلف (أرتحششتا) المسمى (احشو يرش الثاني) ٤٢٤ ق.م وقد اغتاله أخوه بعد فترة قصيرة من اعتلائه العرش، وجاء الى الحكم دارا الثاني ٤٢٤ - ٤٠٤ ق.م الذي شغل عهده بالمؤامرات والثورات وعم الفساد. واستمر الحال على هذا المنوال حتى قضى الاسكندر الكبير على دارا الثالث الملقب (كودوما نوس) وهو آخر ملوك السلالة الأخمينية<sup>(٢)</sup>.

(١) ينظر: موسوعة تاريخ الإمبراطورية الفارسية: بيري بريانت، ترجمة بيتري دانيلز، نشر الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط ١، ٢٠١٢م - ١٤٣٣هـ: ج ٤، ص ١١٠٥ وما بعدها.

(٢) ينظر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص ٦٣٤ وما بعدها.

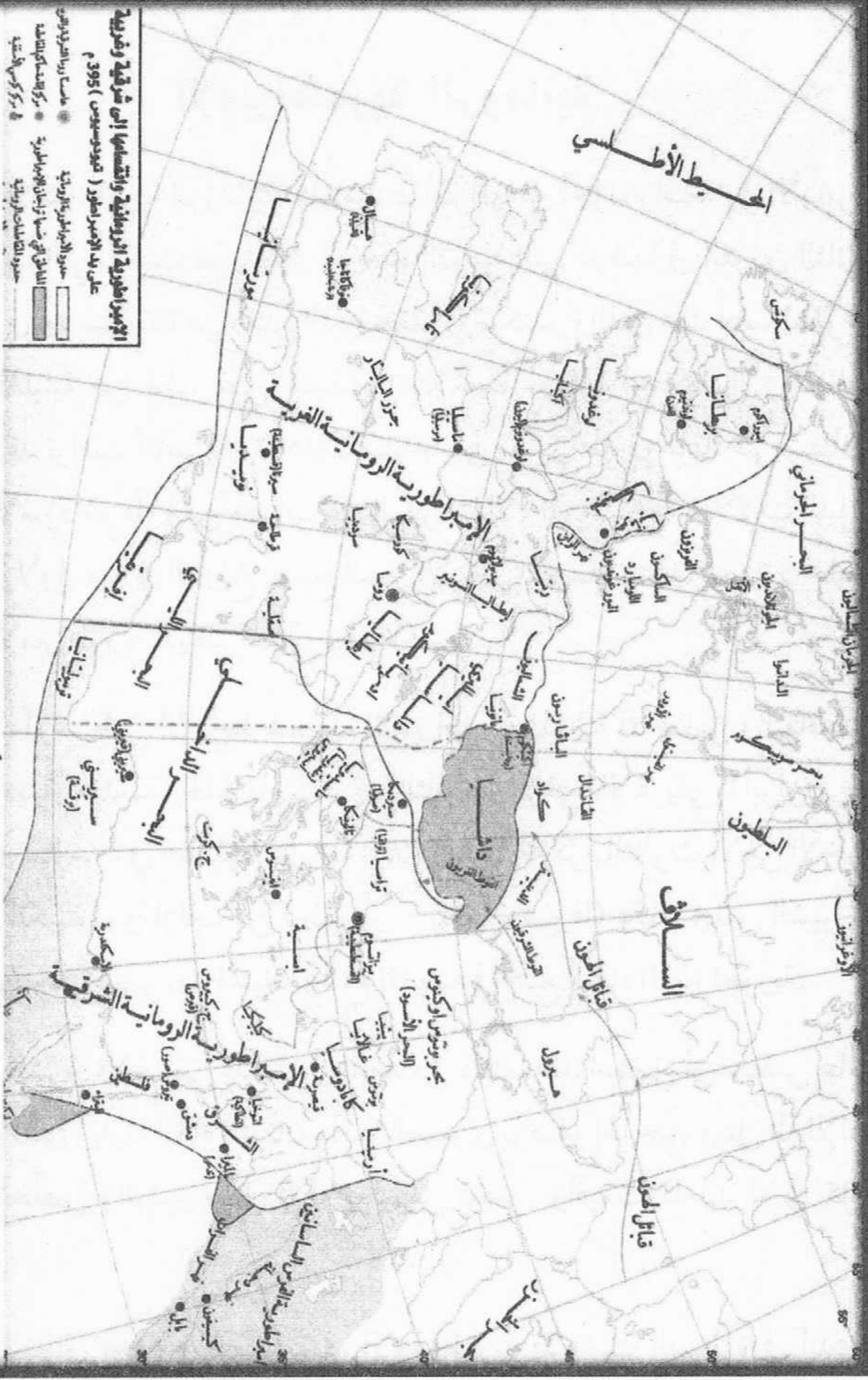
## الإمبراطورية الرومانية

أما الامبراطورية الرومانية فقد امتدت أطرافها الى أجزاء واسعة من الأرض والبحار، والتي تمكنت من تحقيق الوحدة القومية التي عرفتها في القرنين الثاني والأول ق.م، مستفيدة من الفتح الذي حققه الإسكندر والذي مهد أيضاً لطلوع المدينة الهلينية من قبل. فهي عندما كانت تحت سيطرة أوغسطس وإشرافه المباشر، قد ترامت أقاصيها وتباعدت نهاياتها من مضيق طارق غرباً حتى شطآن البحر الأسود شرقاً، ومن مصاب نهر الراين شمالاً، الى مشارف شلالات النيل جنوباً، ولأول مرة في التاريخ يصبح البحر الأبيض المتوسط برمته، بحيرة داخلية ضمن الإمبراطورية. (ينظر المصوّر رقم ٧).

أراد أوغسطس أن يربط شعوب الإمبراطورية المتباينة الأجناس والثقافات برابطة دينية مقدسة، لهذا قام بتكريم الثالوث الإلهي الإغريقي (أبولون - فينوس - مارس) في هياكلهم على تلة البلاتين، كما أنه كرم الثالوث الإلهي الآخر على تلة الكيبتول والمؤلف من (جوبيتير - يونو - منيرفا) وكان مجلس الشيوخ قد أله يوليوس قيصر بعد اغتياله وشاع تقديسه في جميع أنحاء الامبراطورية.

أما الشرق الإغريقي فذهب الى أبعد من ذلك، فقد استقبل أوغسطس عام ٣١ ق.م لدى زيارته لبلاد اليونان وآسيا الصغرى بوصفه إلهاً حياً، وعلى أنه الإله المنقذ المخلص والبشير وابن الإله يوليوس قيصر. وأقيمت المعابد له في كل مكان.

وفي نطاق الحياة الإقتصادية في الإمبراطورية قد بقيت السيطرة في أيدي الرأسماليين الكبار من العصر الجمهوري، وكان بعضهم من طبقة الأشراف



المصوّر رقم (٧) أطلس التاريخ القديم

والبعض الآخر كان ينتمي الى طبقة الفرسان. علماً أن الإمبراطور نفسه كان أحد هؤلاء الرأسماليين ولكنه كان أعظم شأنًا على الإطلاق، ولم يستطع الفصل بصورة تامة بين ثروته العامة وبين تلك الأموال والثروات التي كان يملكها بوصفه أعظم موظف في الدولة الرومانية ووالياً على أكبر الولايات وأغناها، وحاكماً على مصر وخليفة عليها بعد البطالسة. وهكذا نشأت أوضاع في الإمبراطورية تشبه الى حد كبير تلك التي سادت الملكيات الهلنستية. فأصبح يتصرف في موارد الدولة كما لو أنها كانت تشكل موارده الخاصة. وكان الأغنياء من الناس من الإستقرارية الرومانية تربطهم بالإمبراطور أو غسطس أقوى الروابط وكثير منهم كان من أعضاء أسرته واصدقائه المقربين.

وبالرغم من انتهاء الحروب الأهلية لم يطرأ أي تغيير جوهري على أسس السياسة العقارية والملكية. فالضياع الكبيرة كانت في إزدياد مطرد على حساب المزارعين بوجه خاص. وكانت الأملاك الواسعة والمتوسطة تدار على أسس رأسمالية. هذا مضافاً الى تزايد نسبة العبيد والموالي<sup>(١)</sup>.

وقد لمست روما وجوب توسيع نطاقها الحيوي وتأسيس مستعمراتها الأولى لأهدافها العسكرية قبل أن يكون معالجة لمعضلة تزايد السكان، وليس كذلك طيلة القسم الأكبر من هذه القرون الخمسة من معضلة اقتصادية أو معضلة إجتماعية من شأنها أن تحمل روما على البحث عن حلها بواسطة الفتح، فلم تبرز مثل هذه الأسباب إلا بعد ذلك بزمن، أي بعد أن أثارها الحروب السابقة. بيد أن هذا الإستعمار لا ينجو بالكلية من الاسباب العامة التي خلقت قبله أو بعده

(١) ينظر: دراسات في تاريخ الرومان: د. محمد محفل و د. محمد الزين، نشر جامعة دمشق،

اسباباً أخرى عديدة، كان الطمع من بينها، فمن حيث أن الشعب الروماني شعب فلاحين فإنه قد طمع في أراضي جيرانه، لاسيما حينما تكون أكثر خصباً أو أفضل استشاراً.

ومن حيث انه استوطن إقليماً ثمر فيه بعض الطرق، فإنه قد صمم على الإحتفاظ بمكاسب حركة التجارة عليها، وعلى زيادة هذه المكاسب، وقد صمم أيضاً الحصول بسهولة على بعض مواد الخام. كما إننا نلمس في روما شعوراً متزايداً وحاداً وهو من إن سلامة الدولة تتعرض للخطر بمجرد قيام دولة أخرى مجاورة إذا ما بدت قواها متعادلة أو بمجرد إحتمال تحالف لا تكون هي أحد أطرافه، إذ أن حرصها على المحافظة على استقلالها يدعوها الى القضاء على استقلال غيرها. فالحروب من ثم الفتوحات إذا أمنت النصر يستند بعضها الى بعض، وذلك لأن توسيع ممتلكاتها يضاعف الواجبات الدفاعية وظروف الصراع، فيجد الاستعمار في مكاسبه نفسها مبررات لا تقهر لنقل مطامعه، بإطراد الى آفاق أبعد، بحيث لا يكون له حدود بالتالي سوى حدود الأرض المأهولة<sup>(١)</sup>.

وهناك أيضاً شهوة الذهب والبؤس، وكلاهما قد زادهما أو أوجدهما الفتح الذي قلب الإقتصاد والمجتمع. فإن رجال الأعمال الجشعين يبتغون استثمار نطاقات جديدة، والجنود غالباً ما يبتغون حروباً جديدة تؤمن لهم الغنائم والمكافآت. وبفعل مصادرة ثروات العدو وتعويضات الحرب المفروضة على المغلوبين وأعطيات الحلفاء المتملقين الى القوة والجزى السنوية التي تدفعها المقاطعات، بلغت أرباح الإستعمار درجة حصلت معها عامة الشعب على قسطها

(١) تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق: ج ٢، ص ١٠٩ وما بعدها بتصرف.



من سماء الدولة، وساندت بحماس سياسة تؤمن لها مثل هذا الكسب. وقد تجاوز بعض رجال الدولة أنفسهم من ذوي الشأن هذه الأنانية، فارتأوا أحياناً أن الحرب والفتح قد يساعدان على معالجة صعوبات داخلية، أما بخلق عملية إلهاء وإما بزيادة الموارد المالية<sup>(١)</sup>.

وفي فترة ٣١ ق.م - ٢٣٥ م، كان التوسع في منح المواطنة في الإمبراطورية الرومانية تصاحبه ثغرة بين الأغنياء والفقراء كانت تتسع باستمرار، فقد زاد عدد الحالات التي لم يكن فيها مساواة أمام القانون، إضافة إلى انعدام المساواة في الأملاك والدخل وفي مستوى المعيشة، الروحي منها والمادي على حد سواء<sup>(٢)</sup>.

هذا وبالرغم من وجود المركزية السياسية والعسكرية للسلطة في الإمبراطورية الرومانية، نجد إختلافات كبرى في المواقف القضائية، فالقانون المعمول به لم يكن نفسه في روما وفي المستعمرات، وكذلك النظام الإداري كان يختلف باختلاف القوانين<sup>(٣)</sup>.

والآن سنكتفي بذكر هذه الدول والإمبراطوريات، ولا حاجة بعد للتعرض إلى الحضارات الأخرى، أو بيان حال الدول والمجتمعات في العصور الوسطى والحديثة، لأن سيطول بنا المقام، ولها ذكر خارج هذا الكتاب فيما لو أراد القارئ الرجوع إليها، فضلاً على أنها تسير في نفس الخط والمنحى من الظلم والجور والحروب والدمار، إلا أنه في كل مرة تتغير الرؤيا، وتزحف أسباب وتثبت

(١) المصدر نفسه: ج ٢، ص ١١٠.

(٢) تاريخ البشرية، أرنولد توينبي، مصدر سابق: ج ١، ص ٢٧٧.

(٣) معجم العلوم الإنسانية: اشراف جان فرنسوا دورتيه، ترجمة د. جورج كتورة، نشر دار

مجد، بيروت، ط ١، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م: ص ٣٩٧.

أخرى، مع الارتباط بعلة قد تكون ظاهراً مغايرة للعلة والأسباب التي حركت الدول في السابق لفرض سيطرتها ونفوذها على البلدان الخارجية أو داخل شعوبها، وهكذا يستمر التسلط والاستحواذ، وتضييع الهوية والقيم الأخلاقية للشعوب، من قبل دول الإستكبار العالمي.

فإذا كان هذا هو حال الوجود الإنساني، منذ الطلائع الأولى للبشرية وهي في مهدها، وأنا أقصد وجوده في مرحلة العصور التاريخية أو عصور ما بعد التاريخ، كما يسميها علماء الأركيولوجيا Archaeology، ولا يعني الآن البحث في عصور ما قبل التاريخ، وإن كانت نسبة العصور التاريخية ٢٪ إذا ما قورنت مع عصور ما قبل التاريخ والتي تبلغ ٩٨٪.

وقد يكون سبب نشوء هذا التسلط، وحب القيادة، وظهور بدايات إخضاع الآخر، قد بدأ لوجود نوازع أولية ظهرت نتيجة سوء استخدام الموقع القيادي، بدءاً من التكوين الأولي للأسرة، وإلى تكون القبيلة ونشوء المجتمعات الكبيرة، ومن ثم ظهور المدينة والدولة. فيبدأ الفرد ممارسة التسلط ونزعة الإستحواذ على القيادة، وما يستتبع ذلك من الخضوع الذي ينشأ في بداياته نتيجة الطاعة والإحترام والمحبة، مضافاً إلى العاطفة التي تنشأ مع احتياج الفرد إلى التربية المركزة في مرحلة الطفولة، والتي ستبقى تسير نموه، وهو يتقلب بأحضان والديه وتحت غطاء الرعاية الأبوية، وحتى مراحل الصبا المتقدمة.

فإذا ما كبرت الأسرة وتوالدت، وأصبح للأبناء أولاد، فإنها ستوسع، وحينها سيكبر حجم القيادة، لأن سيكون هناك أبناء وآباء وأجداد وبنات وأمهات وجدات. هذا فضلاً إذا ما تكثرت وتعددت الأسر، وأصبح هناك أسر كثيرة، وحينئذ ستتولد الإختلافات وتتعدد الآراء، وستظهر الإختلافات في

الرؤى والطموح مهما كانت بسيطة أو ساذجة، وخصوصاً إذا ما التفتنا الى ما يحيط بهم من المخاطر نتيجة الظواهر الطبيعية كالفيضانات والزلازل والحرائق، أو نتيجة وجود الحيوانات المفترسة، أو مشاكل الحصول على الغذاء أو السكن الآمن والى غيرها من الأمور التي تحتاج الى تكاتف وتجمع.

إذن متى ما تكون هناك مخاطر محددة وظروف طارئة، إحتاجت تلك المجتمعات الى القرار الصائب والى توجيهات تستمد قوتها من الطاعة، ونتيجة الإحتياج الى الأمان والحماية نشأت القبيلة والجماعات الكبيرة التي شكلت بدورها بدايات ظهور القرى والمدن ومن ثم الدول. وهذا بدوره سيحتاج الى قيادة تؤدي دور التنظيم وبسط قانون وعادات تلك الجماعات، وبالتأكيد سوف يتولد نتيجة هذا الأمر التحاسد والأطماع، الذي يؤدي الى التصارع والمواجهة بين الأفراد للوصول الى القيادة، مما سيؤدي الى الخسائر في الأنفس والخراب المادي بكل صورته التي وجدت في تلك الأزمنة.

والحقيقة إن أمر التطور والنمو هو من الأمور التي بني عليها هذا الوجود وقامت عليه الأسباب والنواميس الطبيعية، ولا يمكن بحال أن تتعطل، وإن تعطلت لسبب ما، فذلك سيؤدي الى الدمار والخراب، وذلك لأنه لا يوجد شيء يقف أمام قوانين الطبيعة وسنن التاريخ، التي تبلورت من خلال مفردات هذا الكون والخبرات المكتسبة من التجارب المتتابة، مضافاً الى التشريعات والبنى الأخلاقية التي تستمد قيمها من السماء. وهكذا بدأت المجتمعات البشرية بالتتابع في المعرفة والتطور وعدم الثبات على حالة تمثل الركود والسكون بمعناه المطلق.

وهذا الإنتقال من حال الى حال، يعبر عن حركة السيرورة والصيرورة التي

ترافق النواة الأولى لوجود أول فرد بشري في هذه الدنيا، والذي تطور وانتقل الى الأسرة والى القبيلة لتصبح أمة، وحينها تنتقل لتكوين المدينة والدولة، بعدها السياسي المعهود، التي لها شعبها وأرضها، لتنظيم أمورها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لتبين بالتالي موقفها وعلاقتها مع العالم الخارجي والدول المحيطة بها.

إذن نصل من خلال ذلك الى ضرورة وجود الدولة ووجود القائد معاً. ولكن هذا الوجود الضروري، بأي من الصور والتشكيلات التي يظهر بها يكون مقبولاً وله القدرة على حل المشاكل التي تواجه البشرية، ومن ثم إرساء مبدأ العدالة والمساواة بين أفراد الدولة.

والحقيقة بالرغم من أن غالبية الدول التي تشكلت، والحكومات التي حكمت فيها كان للسياسة دوراً مباشراً في التأثير على سلوكها، داخل مجتمعها وخارجه، وبما أن السياسة دائماً مستغرقة في المنافع وفي مشاغل الساعة، لم يكن يسعها أن تسمو الى المبادئ، كما يقول المفكر الفرنسي بارتملي سانتهيلير. ولما أنها لا تفكر إلا في النتائج وعلى الخصوص في التطبيقات، فلم تكن لتلقي بالها دائماً في معترك الفكر الصادق والبحث الجاد فيما يسعد شعبها، وإرساء القوانين العادلة فيه، وإيقاع النظرة الأبوية على جميع أفرادها بالتساوي.

فإذا كانت ثمة حقوق ثابتة للإنسان بما هو فرد، فعليه أن لا يفقدها البتة مع الجماعة، وهي تحت عنوان الدولة. وهذا الأمر يحتاج الى مفكرين وفلاسفة تنظر لهذا الأمر وتبديه واضحاً لمن يتولى تطبيق المنهج، ضمن سياق يراعى فيه جميع الجوانب الإنسانية داخل البلاد وخارجها. مع مراعاة عادات وطبائع الشعوب الأخرى، دون النظرة الجزئية الأحادية الجانب، والتي غالباً ما تنحاز الى الظواهر

التي ألفت بظلالها وآرائها ظناً منها بأنها بمثابة نفخ الروح في جسد المجتمع.

وهنا يقول بارتملي سانتهيلير: ومع ذلك فالفيلسوف أو المفكر على استقلاله لا يخلص البتة تماماً من تأثير القرن الذي يعيش فيه. وعبثاً يحاول التجرد، فإنه يتصل دائماً بزمانه. وإن الدولة المثالية التي رسمها أفلاطون لا يزال يتنسم فيها ريح السياسة الإغريقية، كما أن حكومة الفرد التي كان يحلم بها متسكيو هي نسخة من حكومة الفرد الوحيدة المقيدة في كل أوروبا، فأعمال الفلاسفة مهما ظهر عليها أنها شخصية فإنها أيضاً مظاهر إجتماعية. وما دراسة الأمم إلا دراسة الرجال العظام الذين يشرفونها ويمثلونها<sup>(١)</sup>.

فكم أجهد الفلاسفة أنفسهم في إيجاد مفاهيم ومباني للدولة العادلة، فهل تبنى ضمن مناشئ أخلاقية فقط لتتحول الى مثالية وخيال مجرد كما هو الحال عند أفلاطون أم في نظرة علمية فقط والتي تنبع من الواقع التجريبي الذي ينطلق من المنطق بمرافقة التحليل العقلي كما عند أرسطو. وأما ماكيا فلي (١٤٦٩-١٥٢٧م) ففي مؤلفه "الأمير"، لم يكن بحثاً في الفلسفة السياسية، ولم يتساءل فيه عن ما هو الحكم الأفضل، ولا ما هو الحكم المشروع، ولا ما هي السلطة أو الدولة عموماً، بل اكتفى، مفكراً في الوضع الإيطالي، بالتساؤل كيف نجعل النظام يسود، وكيف نقيم دولة مستقرة؟ ولكن بالرغم من ذلك نرى كيف يمدحه "فرنسيس باكون" بقوله: (ينبغي أن نشكر ماكيا فيلي وأمثاله من الكتاب الذين يقولون صراحة، وبدون تمويه ما اعتاد الناس أن يفعلوا، لا ما يجب أن يعملوا). وبالتالي هو قد فصل المتيازات عن السياسة، وكذلك فصل

(١) مقدمة كتاب "السياسة": أرسطو طاليس، ترجمة أحمد لطفي السيد، نشر دار التنوع

فصلاً جذرياً بين "مدينة الله" و "مدينة البشر"، فهو يجعل "مدينة البشر" من إختصاص العقل البشري وحده. وبما أن ماكيا فيلي رفض عن عمد كمية كبيرة من المفاهيم الوسيطة التي ما زالت حينذاك حية لدى الكثير من معاصريه، فإنه مهّد التربة، إن صح القول لبناء صيغ وإحداثيات جديدة<sup>(١)</sup>. وهذا واقعاً ما أثر بشكل فاعل في الأنماط السياسية الحاكمة الى وقتنا الحاضر.

والى غيرهم من الفلاسفة والمنظرين بمختلف مشاربهم وتوجهاتهم الذين سعوا الى ايجاد الدولة التي توفر للناس سبل السعادة. وبغض النظر عن كون تلك الفلسفات قد تحققت في الخارج أم لا، لتساءل هل بإمكان تلك الفلسفات التي سعت الى إنشاء الدولة أو حتى تلك الدول التي كانت تقام ضمن اجواء الواقع الراهن والمبني على نزعات وتشخيصات فردية خالصة، هل تمكنوا من إيجاد الدولة العادلة، بمفهومها الإنساني العام؟ والحقيقة أننا لا يمكن أن ننكر ذلك بشكل مطلق، فهناك مناطق نشأت فيها دول على هذا الأساس، ولكنها كانت في الغالب دول مرحلية، ولم يكتب لها البقاء والاستمرار أو الإتساع، فأما أن تمر بمرحلة الإنهيار والإختفاء، أو مرت بحالة من الضعف والإنزواء.

وهذا ناتج عن عدم وجود التوازن بين القيادة والقاعدة، لأن أمر إيجاد دولة عادلة مرهون بوجود عدّة عوامل منها القاعدة الواعية والقائد المخلص، ومن ثم نحتاج الى الآلية والنظام الذي تدار به الدولة. ولكن للأسف فإن هذه الأمور لا

(١) ينظر: تاريخ الأفكار السياسية: مارسيل بريلو وجورج ليسكييه، نشر الدار الأهلية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م. ص٥٢ وما بعدها، وينظر، تاريخ الأفكار السياسية: جان توشار، ترجمة د. ناجي الدراوشة، نشر دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠١٠م: ج٢، ص٣٥٣ وما بعدها.

تلتقي مجتمعة، لوجود عدّة موانع تتقصد وتسعى الى عدم تهيئة ظروف إجتماعهم. ولكن قد يجتمع منها إثنان دون الثالث، وستبقى هكذا تدار الأمور ما دام الإنسان لا يريد أن يرضخ لمن يريد له المصلحة الحقيقية، بل يريد أن يفعل ما يراه هو مناسباً لمصلحته الذاتية والتي قد تسبب هلاكه دون أن يشعر بذلك، تاركاً وراءه المصلحة العامة غير مبال بها. وهذا بدوره سيولد التعددية بإعتبار كثرة الأنظمة الإجتماعية والسياسية، التي ستزيد من عبء الإنسانية، بتوليد مشاكل لم تكن لتوجد لولا الرؤى البشرية المختلفة التي كلما زادت أرهقت كاهلها وكثر تجزؤها وصراعها. وبالتالي ستفاقم جدلية الخير والشر، وستبقى حاضرة في هذه الدنيا الى مصير مجهول.

ولذلك فإننا بحاجة ماسة الى إيجاد مساحة في هذه الدنيا لأن تولد فيها هذه الدولة التي تضم كل أطراف الأرض تحت رايتها، بلا إضطهاد ولا فقر ولا جهل. وهذا في الواقع ليس بشيء مستغرب ولا هو أمر محال، بل الأصل يجب أن يكون على هذا المنوال. فما خلق الله تعالى الإنسان وأوجده في هذه الأرض إلا من أجل إقامة العدل والمساواة، ليتكامل من خلالها. وبالتالي ليصل الى الأمر الواقعي من خلقه وإيجاده، وهذا هو الشيء الذي من المفروض أن يكون وهو الناتج الطبيعي من وجوده، بل الأمر المستغرب هو لماذا هذا التأخير في عدم الوصول الى إيجاد الدولة العادلة التي ينضوي تحتها كل أفراد البشرية. فقد أرسل الله تعالى ١٢٤ ألف نبي كلهم مصلحون وجادون في الإصلاح وترسيخ أثره في الأرض، ثم نصب قادة أئمة بعد الرسول صلى الله عليه وآله، فهل سيفشل كل اولئك المصلحون، أم سيأتي اليوم الذي سترى فيه البشرية هذا العدل والمساواة، لتتحول أحلامها وأمانيتها الى تجربة فعلية على أرض الواقع.

وهل أن البشرية واقفة مكتوفة الأيدي أمام هذا الظلم وهي تتعد عن الوصول الى هدفها كلما دارت الأيام، بحيث يصبح كل ما هو آت أشد وقعاً من سابقه، أم أن هناك حلقات لا بد من أن تتكامل، ومراحل لا بد من أن تطوى، يشترك الكل في إيجادها، وبالتالي يكون أمر تحقيق العدل العالمي، مرهوناً بالفرد نفسه وكيفية الاستفادة من التجارب الطويلة التي مرت بها البشرية، وكذلك اليأس الكامل من كل الأنظمة السياسية التي عاصرت وجود الإنسان وأثبتت فشلها في إيجاد الحلول المناسبة لإزالة المشاكل التي يعاني منها العالم بأجمعه.

ولكن في الحقيقة بالرغم من الإبتعاد الواضح عن عدم تحقق أمر العدل العالمي تحت حكومة إلهية واحدة، إلا أن هذا الوجود الدنيوي لم يخل من عدّة تجارب قد مارس فيها قادة من الأنبياء أو المصلحين الذين هم دون مستوى النبوة، قد هياً الله تعالى لهم الظروف التي تبدو ظاهراً هي معدّة وكاملة لتحقيق هذا الحلم البشري، وسنختار منهم في هذا الكتاب ثلاثة شخصيات ستكون هي محل البحث في كتابنا هذا، ولنرى مدى الاستفادة من تلك الحوادث التاريخية المهمة في هذه الدنيا في خلق المقدمات الضرورية للتمهيد لدولة العدل العالمي.



الفصل الثالث

# البشرية وتحقيق الحكم العادل

## هل مرّت البشرية خلال تاريخها الطويل بحكم عالمي قد حقق سعادتها المنشودة

مرّ تاريخ طويل لوجود الإنسان على الأرض، كثرت التجارب وتبدلت أدوار القيادة فيه وعاش كل مجتمع مع تحركات قائده، حيث ما مال مالوا معه، وهكذا توالى الحكومات وسلطاتها على الأفراد والجماعات منذ نشوء المدينة/الدولة والإمبراطوريات والممالك.

ولكن يا ترى هل استطاعت واحدة من هذه القيادات أن تسيطر على الأرض، أو على جزء كبير منها، لتحقيق العدالة والرفاهية والسعادة المنشودة في هذه الحياة. بحيث ينعم كل الأفراد بتلك العدالة والسعادة بلا تمايز، ليفتخر بالتالي الوجود الإنساني بما حققه من تحدّ قائم لمبدأ الصراع من أجل البقاء، أو البقاء للأقوى، حيث الأمان الخارجي وطمأنية الداخل، فلا دولة معتدية تظن بأن لها قوّة تعطيها طموحاً بالسيطرة على المجتمعات الأخرى، ولا حتى وجود خيانات داخلية تنبع من نفوس مواطنيها.

### ثلاثة أسماء يمكن أن تطرح بهذا الإتجاه:

ضمن هذا الطرح يمكن أن تبرز ثلاثة أسماء يكون تداولها على أساس ما وجد بين أيديها من مقومات إنشاء وتحقيق مفهوم السلطة أو القيادة العادلة التي تهيأت معها سبل الانقياد والطاعة. وهم بحسب المعطيات التاريخية والدينية:

- ١- نوح عليه السلام.
- ٢- سليمان عليه السلام.
- ٣- ذو القرنين عليه السلام.

والآن يمكن أن يطرح سؤال وهو لماذا هذا الإختيار لتلك الأسماء دون غيرها من الانبياء والقادة العظام؟.

وجواب ذلك: فأما نوح عليه السلام بإعتبار أن الله عز وجل بواسطة الطوفان وما حصل من فيضان عارم، بحيث غطى الماء سطح الأرض كلها، ولم ينج من البشرية إلا المؤمنون بنوح، وبذلك قد مهد الله تعالى الأرضية الخصبة بعد توقف الطوفان لأن يطبق حكم الله فيها، لا وجود للكافرين عليها (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) نوح: ٢٦. وبذلك رفعت الموانع عن سريان الخط الإيماني. مع ملاحظة قلة عدد المؤمنين الناجين، وبهذا المورد سيكون من السهل على نوح عليه السلام تطبيق الحكم الإلهي، ونشر العدالة بين الناجين ومن سيأتي من ذراريهم.

أما سليمان عليه السلام فإعتبار أن الله تعالى قد سخر له ما لم يسخره لغيره من الأنبياء والمصلحين، وهو سلام الله عليه كان شاعراً بذلك وكما عبر عنه القرآن الكريم: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) ص: ٣٥. وبهذا التسخير قد إمتلك القوتين المعنوية والمادية، التي يحتاجها القائد للسيطرة على الموارد والأمور التي لا يمكن لها أن تؤتى بالسياق الطبيعي.

إذن ما دام الأمر كذلك فإن سليمان عليه السلام قد إمتلك الأدوات التي يتمكن من خلالها بالضغط على الكافرين وإجبارهم على الرضوخ لحكمه، والذي يمثل بالتالي حكم الله في أرضه، ومن ثم سيتم تسهيل وتذليل الأمور لنصب العدل والمساواة في الأرض.

أما ذو القرنين عليه السلام فقد أعطاه الله تعالى هبة تمكن الأرض له، وهياً له الأسباب حتى أوتي من كل شيء سبباً، فتمكن من خلال ذلك أن يجوب الأرض غربها وشرقها. ولم يكن يمر بمنطقة إلا وكانت له الأسباب مهياً، لفعل ما يريد فيها، بل لقد أوتي أكثر من ذلك، بحيث أعطي له التخيير بالفعل أو عدمه، ونستشعر ذلك من خلال قوله تعالى: (إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) الكهف: ٨٦.

وحيث إن الأسباب كانت جاهرة لذي القرنين ليؤدي دور القائد العالمي، الذي يتمكن من نشر العدل والمساواة في ربوع الأرض، لتسعد بذلك البشرية وتتهنأ بسعادتها الموعودة.

والآن سنأتي ونبين أمر كل واحد من أولئك القادة الرساليين، وبيان الأسباب والدواعي التي أحيطت بكل واحد منهم، مع عرض الظروف التي عاشوها، وهل كانت مهياً وناضجة فعلاً، لأن تكون علة تامة لإستيعاب إطلاقيه المصدر، المتمثل بالوعي الإلهي النازل على البشرية، لتكون له خصوصية العمل في المجال البشري، وعلى نحو عموم الناس.

والأوراق القادمة ستكون كفيلاً لبيان ذلك الأمر.

**نوح عليه السلام**

ذكر نوح عليه السلام في ٢٩ سورة وجاء بشيء من التفصيل في سورة الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء والقمر ونوح، وأما اسمه فقد ورد ٤٣ مرة، وهذا يدل على أهمية دعوته وعظم الدور الذي أنيط به، وكان له ثلاثة أولاد (حام وسام ويافث) ويعتقد المؤرخون بأن إنتساب البشر يرجع الى هؤلاء الثلاثة، فمن يتنسب الى حام يقطن في القارة الأفريقية، والمتسبون لسام يقطنون الأوسط والأقصى، وأما المتسبون الى يافث فهم يقطنون الصين<sup>(١)</sup>.

ويبرز إسم النبي نوح هنا بإعتباره الأب الثاني للبشرية بعد آدم عليه السلام، وهو الناج الوحيد مع من إختارهم ليكونوا معه في السفينة، ليكون الطوفان الكبير هو العقاب المناسب نتيجة المعاصي التي إرتكبها قومه. بعد عدة إنذارات قد وجهها لهم، مع طول فترة محاولة هدايتهم، قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) العنكبوت: ١٤.

وكانت مدة هذا المكث مجالاً للدلالة المركزية في لفظ (لبث) واللفظ مركزياً يعني الإقامة والإستقرار بين ظهرانيهم، وهي أنصع دلالة وأشرف معنى من مكث في غير القرآن، إذ لا تعطي كلمة "مكث" دلالة الترصُّد والترقُّب والتمهُّل مضافاً إليها جميعاً طول المدة وشدة المحنة، وتوالي السنين.

وفي الآية دلالة ضمنية (لأن الله أنتقم منهم بالطوفان) على عدم مبالاة قوم نوح بمواعظ نوح وإرشاداته وحرصه على إيمانهم مع صدق الدعوة، وتوالي

(١) قصص القرآن: الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، نشر مكتبة أبو أيوب الأنصاري، بيروت، ط ١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م: ص ٣٢.

الإندار، وحب الهداية، حتى أصابه اليأس المبطن منهم، فدعا بها حكاة الله تعالى:  
 (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا\* إِنَّكَ إِن تَذَرْنَاهُمْ يَضِلُّوا  
 عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاَجِرًا كَفَّارًا) نوح: ٢٦-٢٧<sup>(١)</sup>.

وإذا ما نظرنا في هيكل المنظومة القصصية للقرآن فإن قصة نوح عليه السلام تأتي بعد قصة إبراهيم عليه السلام، ولكن بالرغم من أن قصة إبراهيم إمتازت بالتوسع والتفصيل بعض الشيء، فإن قصة نوح ومعالم تحركه إمتازت بالإختزال والإيجاز، ولكنه إيجاز محكم فيه من الدلالات الشيء الكثير سواء في البعد العقدي أو غيره.

ونرى في مسألة التعرض القرآني لمسألة دعوة نوح لقومه، إنها تركز على نقطة مهمة، وهي بؤرة التوتر والضييق الذي وصل إليه نوح عليه السلام من خلال ما جاء في القرآن الكريم: (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرُ) القمر: ١٠.

فجاءت الإستجابة، بواسطة الطوفان وما أحدثه من عزّ ورفعة لنوح وللذين آمنوا معه، كونهم الناجين الوحيدين من هذا الطوفان، ومن ثم ليكونوا البذرة الأولى لنشأة حياة إنسانية جديدة، تحيا ضمن ضوابط وأسس قد إتكأت على تلبية دعوة نوح الإيمانية، لتلبس الإنسانية حلّة جديدة، بعد أن غسلت مياه الطوفان أرض الخطيئة والعناد.

ولكن من المهم أن نعرف بأن الناس بعد آدم عليه السلام كانوا يعيشون أمة واحدة، وكانت حياتهم بسيطة ولا وجود لما هو كائن اليوم من تعقيدات

(١) دلالة الألفاظ في القرآن العظيم، د. محمد حسين علي الصغير، نشر الأمانة العامة للعتبة

ومشاكل، ولا زالت الفطرة الإنسانية هي التي تتحكم وتسير كثيراً من أمورهم اليومية.

وهنا بهذا الصدد يقول السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره:

(وحيثما بدأ الوعي يدبّ في الجماعة البشرية، أصبحوا قادرين على التفكير، ومن ثم على تطوير حياتهم بشكل مهم وكبير. فوجدت اللغة والمجتمع وبدأت التقاليد والعادات تأخذ طريقها إلى الناس.

وبدأ الناس يشعرون بأهمية مصالحهم الخاصة وما يجوزونه من أموال على وجه الخصوص، وبأهمية الأسرة بشكل أكيد، وأعتبروا الإعتداء على هذه الأمور شيئاً غير صحيح يستحق القتال دونه، ومن هنا حصلت الإختلافات الدموية والحروب الجماعية الصغيرة.

وبدأ الإنسان يلتفت بالتدريج إلى التجارب الزراعية والصناعية البدائية، فأشعل النار ومارس الزراعة والصيد وصنع السلاح<sup>(١)</sup>.

وبالتدريج فشت فيهم روح الإستكبار، وآل الأمر إلى استعلاء بعضهم على بعض وإتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً وهذه هي النواة الأصلية التي لو نشأت وأخضرت وأينعت لم تثمر إلا دين الوثنية والإختلاف الشديد بين الطبقات الإجتماعية بإستخدام القوي للضعيف، وإسترقاق العزيز وإستدراره للذليل، وحدوث المنازعات والمشاجرات بين الناس فشاع في زمن نوح عليه السلام الفساد في الأرض، وأعرض الناس عن دين التوحيد وعن سنة العدل

(١) اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني: السيد الشهيد محمد الصدر، نشر دار المعارف،



الإجتماعي، وأقبلوا على عبادة الأصنام، وقد سمى الله سبحانه منها وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسرا. وتباعدت الطبقات فصار الأقوياء بالأموال والأولاد، يضيعون حقوق الضعفاء، والجبابرة يستضعفون من هو دونهم، ويحكمون عليهم بما تهواه أنفسهم.

فبعث الله نوحاً عليه السلام وأرسله إليهم بالكتاب والشرية، يدعوهم الى توحيد الله سبحانه وخلع الأنداد والمساواة فيما بينهم بالتبشير والإنذار.

وكان نوح عليه السلام يدعوهم الى توحيد الله سبحانه ورفض الشركاء والإسلام لله. وهو أول أولي العزم، سادة الأنبياء، أرسله الله الى عامة البشر، بكتاب وشرية فكتابه أول الكتب السماوية المشتملة على شرائع الله، وشريعته أول الشرائع الإلهية. وهو الأب الثاني للنسل الحاضر من الإنسان، إليه ينتهي أنسابهم والجميع ذريته لقوله تعالى: (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ) الصافات: ٧٧، وهو أبو الأنبياء المذكورين في القرآن ما عدا آدم وإدريس عليهما السلام، قال تعالى: (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ) الصافات: ٧٨. وهو أول من فتح باب التشريع وأتى بكتاب وشرية وكلم الناس بمنطق العقل وطريق الاحتجاج مضافاً إلى طريق الوحي، فهو الأصل الذي ينتهي إليه دين التوحيد في العالم، فله المنة على جميع الموحدين إلى يوم القيامة. ولذلك خصه الله تعالى بسلام عام لم يشاركه فيه أحد غيره، فقال عز من قائل: (سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ) الصافات: ٧٩.<sup>(١)</sup>

وكانت دعوة نوح عليه السلام مؤسسة على ثلاثة أركان كما جاء في قوله تعالى: (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا) نوح: ٣، الركن الأول: ترك عبادة

(١) الميزان في تفسير القرآن: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، نشر مؤسسة الاعلمي،

بيروت، ط ٢، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م: ج ١٠، ص ٢٥١ وما بعدها بتصرف.

الأصنام (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا) التي كان يعبدها أهل ذلك الزمان من دون الله، فكان نوح يأمرهم بخلعها، وعبادة الله وحده، وهذا معنى قوله تعالى: (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ)، الركن الثاني: تقوى الله واجتناب المعاصي... وهذا معنى قوله تعالى: (وَاتَّقُوا)، والركن الثالث: إطاعة ولي الأمر فيهم - وهو نوح عليه السلام نفسه - وهذا معنى قوله تعالى: (وَأَطِيعُوا).<sup>(١)</sup>

(١) دراسات تاريخية من القرآن الكريم: د. محمد بيومي مهران، نشر دار النهضة العربية، بيروت، ط ٢، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م: ج ٤، ص ١٦ نقلاً عن تفسير جزء تبارك لعبد القادر المغربي: ص ١٢٢.

## مكان سكن نوح عليه السلام

من الضروري معرفة المنطقة التي كان يعيش فيها النبي نوح عليه السلام، لأنها تمثل بالتالي المستوى الفكري الذي وصلت إليه البشرية في ذلك الحين، باعتبار أن البشرية في بداياتها، إذ لم تزل أعدادها قليلة نسبياً فيما لو قيست بالعصور التالية لها، فضلاً عما إذا قيست بها وصلت إليه الآن.

وبنفس هذا الاعتبار يكون من الواضح أن من يخاطب كرسول، يكون قد أرسل لأنضج منطقة تحمل مؤهلات إجتماعية وفكرية، حتى وإن كانت بسيطة، بحيث تكون مؤهلة لتلقي الخطاب دون أية منطقة أخرى، وعلى أقل التقادير تكون هي المركز لتلقي الخطاب الإلهي، وتأتي المناطق الأخرى بالتبع.

وبما أن نوح عليه السلام يعتبر أول رسول قد أرسل في هذه الدنيا، فستكون المنطقة التي تواجد وأرسل فيها، هي المنطقة التي عاشت سيرورة التطور الحضاري في بداياته الأولى. وبالتالي فهي مركز ونقطة الانطلاق نحو العالم.

يقول ابن بطوطة: أن بالكوفة مسجداً صغيراً محلقاً عليه أيضاً بأعواد الساج، يذكر أنه الموضع الذي فار منه التنور، إيذاناً بطوفان نوح عليه السلام، وفي ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح عليه السلام، وإزاءه بيت يزعمون أنه متعبد إدريس عليه السلام، ويتصل بذلك فضاء متصل بالجدار القبلي يقال إنه موضع إنشاء سفينة نوح عليه السلام<sup>(١)</sup>.

هذا ويذكر (ستون لويد) - وهو من كبار علماء الآثار الاشورية - أنه

(١) المصدر نفسه: ج ٤، ص ٧٨.

بالجامع الكبير بالكوفة مقصورة في باطن الأرض تعرف بإسم السفينة حيث يعتقد المسلمون أن الفلك قد استقر بها، ويرى أن موقعها على صخرة مطلة على ساحل البحر القديم أفضل مكان بلا شك لرسو السفينة من قمة جبل (أرارات).

ويرى الدكتور محمد عبد القادر، أننا إذا نظرنا الى خريطة العراق، لوجدنا أن الكوفة تتوسط المنطقة التي حدث بها الطوفان، والممتدة تقريباً من أبو حبة (سيبار) المذكورة في القصة السومرية والتي كانت يوماً ما على الفرات، فالقصة المتواترة في الكوفة والتي رواها ابن بطوطة وغيره من الرحالة - وكانوا لا يعلمون عندما كتبوا بالقصص السومري والأكدي القديم - كان لها أساس قوي من الصحة.<sup>(١)</sup>

والكوفة عربية في تأريخها القديم، وفي عصر ما قبل التاريخ، والنجف الأشرف كذلك، وهما والحيرة متداخلان متجاوران، ودولة المناذرة وما قبلها من الدول العربية في ملوكها وسلاطينها في المنطقة وتحيط بها قبل الإسلام بقرون قبائل: تنوخ، وعك، ولخم، وجذام، وحمير، وهمدان، وكندة، وسواها، وجاء الإسلام فدخلت فيه. وكانت الحيرة مسيحية الديانة بعد جاهليتها الأولى، والنجف الأشرف مقراً للنسطورية من المسيحية، كما تدل على ذلك الصوامع والكهوف والغارات الباقية حتى اليوم، قرب النواويس وبحر النجف.<sup>(٢)</sup>

(١) المصدر نفسه: ج ٤، ص ٧٨، نقلاً عن محمد عبد القادر ص ٩٧ وكذلك

Seton Lloyd, Foundations in the Rust (pelican) 1955, p.30.

(٢) دلالة الألفاظ في القرآن العظيم: مصدر سابق: ص ٢٧٧ نقلاً عن فلسطين في الشعر

وفي هذا الصدد يقول الشيخ جعفر آل محبوبة: كانت النجف مأهولة وعامرة وكانت الحضارة قائمة بها على أسس عربية لقربها من الحيرة، ومجاورتها لها<sup>(١)</sup>.

والحقيقة التي يؤكدتها إجماع المؤرخين العرب والأجانب، إن نوحاً عليه السلام كان عراقياً يسكن ظهر الكوفة، وظهر الكوفة هو النجف الأشرف استقرائياً وجغرافياً، وهو ما تؤيده روايات الأئمة من أهل البيت عليهم السلام وسواهم من الصحابة والتابعين وعلماء الري والخرائط والحفريات، و(ملحمة جلدجامش).

فعن الإمام الصادق عليه السلام أن مسكن نوح هو النجف، وأن عمله في الكوفة، وهما متقاربان ولعل النجف آنذاك كانت حياً عامراً تابعة للكوفة، أو الكوفة تابعة لها، إذ لا يصح أن يكون نوح في معزل عن قومه، بل المترجح عقلياً ومنطقياً أن يكون في مقر دعوته الإلهية، وفي عمقها ذاتياً، وذلك لتبليغ رسالة ربّه سبحانه وتعالى<sup>(٢)</sup>.

ويقول الدكتور محمد حسين علي الصغير: ليس من الصدفة اللغوية أن تكون أسماء الأصنام (ودّاء، وسواعاً، ويغووث، ويعوق، ونسرا) التي كان يعبدها قوم نوح جميعاً عربية في أصولها، ولها في العربية جذورها ومشتقاتها، ولها اعرابها الخاص فيما ينصرف وما لا ينصرف طبق قواعد العرب في استعمال اللغة وتأصيلها مادة وإعراباً. ولا دليل من القرآن أن قوم نوح ليسوا عرباً، ولما كانت مسميات الأصنام عربية فلا مانع من عروبتهم في ظاهر الحال، ودلالة المقال.

(١) ماضي النجف وحاضرها: العلامة الشيخ جعفر باقر آل محبوبة، نشر دار الأضواء،

بيروت، ط ٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م: ج ١، ص ١٤.

(٢) دلالة الألفاظ في القرآن العظيم: مصدر سابق: ص ٢٧٦.

وقد يدعى بأن هذا الرأي قد يتعد عن الحقيقة قليلاً أو كثيراً!!، في إثبات عروبية قوم نوح عليه السلام، وقد يجاب عن ذلك بأن هذا الرأي أدق في كل أبعاده من القول بسريانية نوح وقوم نوح استناداً الى التكهّنات في سلالة البشر، قد تصدق وقد لا تصدق<sup>(١)</sup>.

وفي ضوء ما تقدم يبدو قرآنياً وتاريخياً أنّ انحصار البشرية كان في بقعة النجف الأشرف والكوفة الغراء، فالقرآن يقول: (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ) (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) الصافات. فلا ذرية على وجه الأرض بعد الطوفان إلا ذرية نوح ومن معه من المؤمنين: (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) هود: ٤٠.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور أحمد سوسة: إن سكان وادي الرافدين الأوائل ظلوا في صراع مستمر ضد الطبيعة القاسية حتى جاءت ثورتها العارمة فطغت مياه الوادي وغمرت أرض الدلتا وما عليها من حضارة ونفوس، ذلك هو الطوفان (طوفان نوح) الذي تناقلته الألسن آلاف السنين ولا تزال ذكراه حية فيما خلفه مفكرو تلك العصور السحيقة من التراث الأدبي الفلسفي.

وكان الإعتقاد السائد عند أهل العراق الأوائل أن الطوفان منبعث من غضب الآلهة بسبب فساد البشر وآثام الإنسان وخطاياهم فعزمت الآلهة على محوه من الوجود بإرسال طوفان كبير على الأرض وهذا هو الطوفان نفسه الذي نقلت

(١) المصدر نفسه، ص ٢٧٨ بتصرف.

أخباره المدونات السومرية والبابلية القديمة والكتب الدينية<sup>(١)</sup>.

وقد جاء في إثبات الملوك السومرية ما يشير الى أن الطوفان قد حدث في خلال حكم آخر ملك من ملوك مدينة "شروباك" وهي آخر مدينة من المدن التي حكمت قبل الطوفان، وهو الملك (زيسودرا) الشروباكي حكيم مدينة شروباك وكاهنها حكم في عاصمة شروباك ٣٦٠٠٠ سنة<sup>(٢)</sup> وانتقل إسم هذا الملك الى المآثر الاغريقية بإسم (Xisuthros) و(زيسودرا) هو ابن (أوبار - توتو) الذي حكم ١٨٠٠٠ سنة قبله كما ورد في الاثبات السومرية. والأرجح أن الملك (زيسودرا) آخر ملوك شروباك الذين حكموا في زمن ما قبل الطوفان، هو نفسه (نوح التوراة) الذي بلغ بقرار الآلهة باحداثها الطوفان وأوعز إليه أن يبني فلکاً وينتقل إليه هو وأهل بيته والوحوش والطيور والبهائم لإنقاذهم جميعاً من الغرق. وقد ورد إسمه في النسخة البابلية الأكديّة من ملحمة جلجامش (أتو - نبشتم) وهو جد جلجامش كما تذكر الروايات السومرية. وقد ورد في الملحمة ما يشير الى وصف (أتو - نبشتم) بأنه ابن (أوبار - توتو) وهذا يجعل (زيسودرا) و (أتو - نبشتم) بصفتهما الشخص نفسه الذي أريد انقاذه بالإيعاز إليه أن يبني الفلك.

وقد ورد في قصص عن خبر الطوفان في ملحمة بابلية بأن بطل قصة الطوفان هو (اترا حاسيس) ومعناه بالبابلية المفرط في الحس والفهم أي الحكمة،

(١) تاريخ حضارة وادي الرافدين: د. أحمد سوسة، نشر دار الحرية، بغداد، ط ١، ١٩٨٣ م:

ج ١، ص ٢٠٣.

(٢) سنناقش مسألة هذه الأرقام الكبيرة بالنسبة للأعمار في الصفحات القادمة إن شاء الله

وهي صفة أو اسم آخر لبطل القصة، وقد جاء في هذه القصة أن الآلهة سلطت على البشر لمعاقبتهم وافنائهم عدة آفات من بينها القحط والوباء وأخيراً الطوفان، وفي مكان آخر من الملحمة أن الإله (شمش) هو الذي نقل الخبر إليه.

وهكذا يتضح بأن أول إشارة كتابية يرد فيها ذكر الطوفان ترجع الى زمن جمع الروايات السومرية وتسجيل إثبات الملوك السومرية التي جعلت حداً فاصلاً بين عهدين متميزين في تاريخ البلاد. عهد ما قبل الطوفان وعهد ما بعد الطوفان، شأن ذلك شأن تقسيم التاريخ البشري العام الى عصور قديمة وحديثة. ولا شك في أن حادثة الطوفان وقعت في العراق وفي القسم الجنوبي منه، أي السهل الرسوبي<sup>(١)</sup>.

وفي هذا السياق أيضاً قال صاحب تفسير التحرير والتنوير: إن قوم نوح يسكنون الجزيرة والعراق<sup>(٢)</sup>.

وذهب الى ذلك الشيخ ناصر مكارم الشيرازي حيث أكد مسألة سكن نوح الكوفة عليه السلام، ثم قال بأن كثير من المفسرين بأنهم قد ذهبوا الى أن الجودي الذي استقرت عليه السفينة جبل معروف قرب الموصل، وقال آخرون هو جبل في حدود الشام أو شمال العراق أو قرب (آمد). وفي كتاب الراغب الأصفهاني (المفردات) أنه جبل بين الموصل والجزيرة، وهي جزيرة ابن عمر في شمال الموصل.

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٥.

(٢) تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، نشر مؤسسة التاريخ، بيروت، ط ١، بدون سنة طبع: ج ٨، ص ١٤٥.



ولا يبعد أن تكون جميعها بمعنى واحد (فالموصل) و (الجزيرة) و (آمد) جميعها في الجزء الشمالي من العراق وقرب الشام<sup>(١)</sup>.

## هل أن الطوفان شمل العالم كله أم إنحسر في منطقة قوم نوح؟

هل عم طوفان نوح كل الأرض أم هو مجرد فيضان طبيعي قد حدث نتيجة فيضان أحد المحيطات وقسم من الأنهار والبحيرات؟ وهذا السؤال مهم جداً على أقل التقادير من ناحية تعلقه فيما نحن بصدده بهذا البحث، لأنه إن لم يشمل كل الأرض فهذا يعني نجاة عدّة أقوام أخرى، هي بعيدة واقعاً عن مكان تواجد نوح عليه السلام. فيكونوا قد شاركوا الناجين من الذين آمنوا مع نوح عليه السلام في الحياة بهذه الأرض، وعندئذ يتتفي أصل التساؤل من إمكانية تشكيل مجتمع أو دولة عالمية يسودها العدل والرفاه والمساواة، وذلك لأن نوح لم يستطع السيطرة على تلك الأقوام، أو على أقل التقادير لا يستطيع إيصال صوته إليهم وجذبهم إلى الإيمان برسالته.

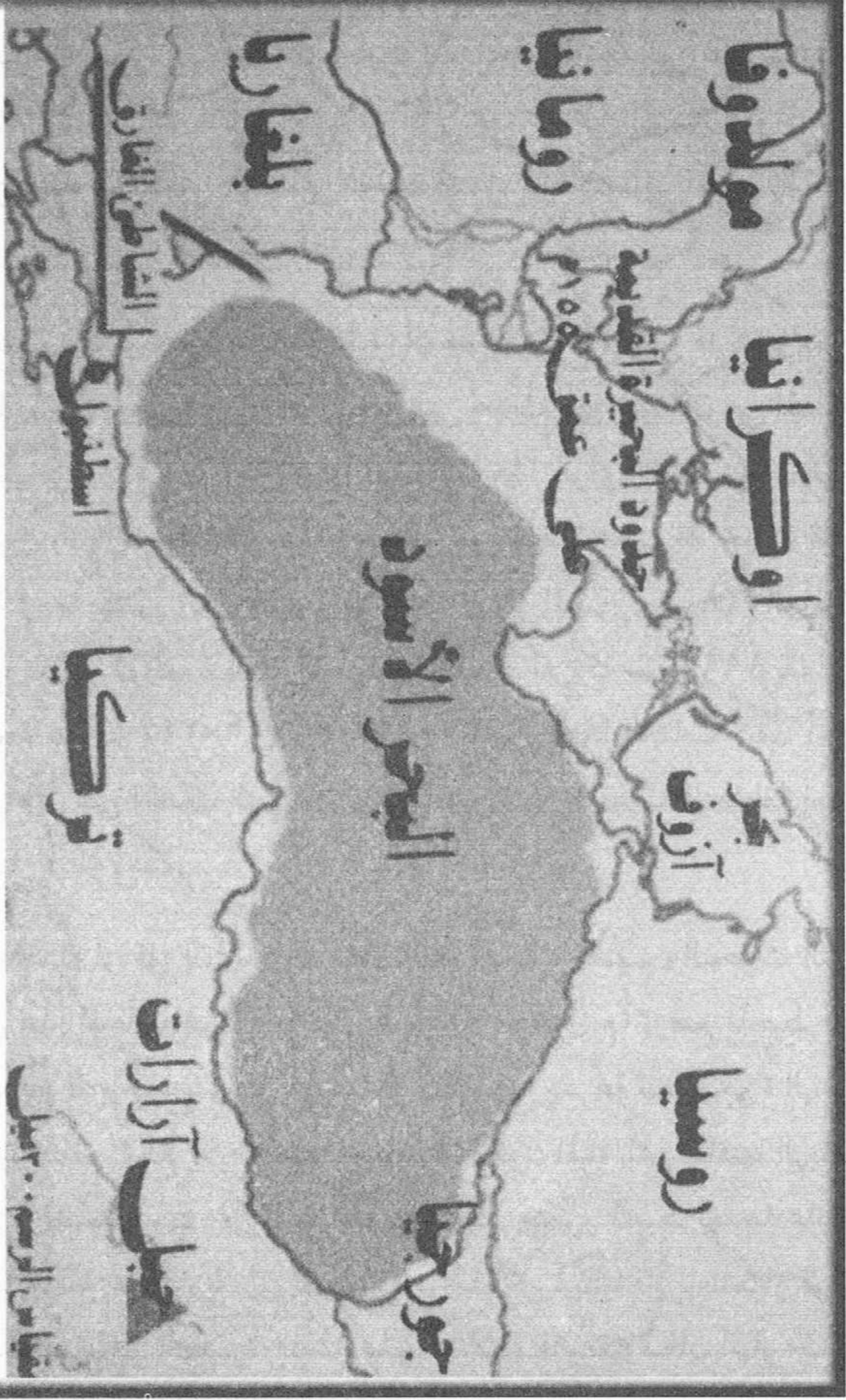
أما إذا كان أمر الفيضان والطوفان الكبير قد عمّ وشمل جميع الأرض،

(١) قصص القرآن: الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، نشر مكتبة أبي أيوب الأنصاري،

فسيكون عندها التساؤل مناسباً باعتبار تهيئة المقدمات المناسبة التي ظفر بها نوح عليه السلام بسبب الطوفان، وحصوله على مجموعة من المؤمنين، وتخلصه بالمباشر من جميع الكافرين والمعاندين بحيث شمل هذا التخلص حتى زوجته وإبنه.

في الحقيقة ذهب بعض من العلماء الى أن طوفان نوح لم يكن قد شمل كل الأرض، بل ذهب بعض آخر الى أن المنطقة التي حدث فيها الفيضان هي المنطقة المجاورة للبحر الأسود. ومن أبرز أصحاب هذا الرأي اثنان من العلماء الجيوفيزيائيين البارزين إكتشفا مؤخراً حدثاً وهو طوفاناً عظيماً قد حدث قبل ٧٦٠٠ سنة في ما يسمى الآن "البحر الأسود" (ينظر المصور رقم ٨) والعالمان هما (وليام ريان) و (والتر بتمان) وقد أصدرتا كتاباً في امريكا سنة ١٩٩٩ يقع في ٣٣٠ صفحة بحجم (١٦×٢٤) وقد قصا العالمان في هذا الكتاب كيف أنها إكتشفا البراهين على الحدث الذي غير وجه التاريخ، وخصوصاً في منطقة آسيا الصغرى قبل ٧٥٠٠ سنة.

فهما اعتقدا، أو قل إن الذي توصلا إليه، نتيجة رحلتهم والبحوث التي أجروها في هذا المجال، هو أنه بحلول العام (٥٦٠٠ ق.م) إرتفع المحيط الى مستوى يسمح له بإجتياح وادي البوسفور والإندفاع بسرعة نحو بحيرة البحر الأسود وبتناخضاض يبلغ (٥٠٠ قدم). ولا بد أن تكون المياه التي ساقتها الرياح والمد والجزر قد تلاطمت على قمة الحاجز بشكل متكرر لتهبط بعدها عائداً ومخلقة بقعا غامقة على التربة، الى أن بدأت موجة أخيرة بالتدفق باستمرار فوق وأسفل المنحدر نحو البحيرة، لتعثر على أخاديد قديمة وقيعان أنهار جافة في الأرض الصلبة بين الأشجار وحول نثار الجلاميد المبعثرة. وبوصولها للرف



المصور رقم (٨)  
طوفان نوح، وليم ريان ووتر بتمان

الصخري القديم الذي يقع في الأسفل هامت المياه فوق سطحه المستوي، وسالت بشكل هزيل نحو القنوات القديمة الجافة منذ وقت طويل، وكونت بحيرات ضحلة صغيرة، لتقوم بشكل تدريجي بتكوين مسارها الخاص بها، ولتتدفق في آخر الأمر فوق الحافة وأسفل المنحدر الرقيق بإتجاه البحيرة التي في الأسفل. وتحول النهر الصغير الى جدول رقيق ليتدفق بسرعة أكبر، وليتحرك بقوة أشد عند قاع وجدران قنواته. وفي غضون أيام قلائل كان خريبه الناعم سيتحول الى زئير حينما أصبح الجدول نهراً مضطرباً بشكل كبير، وفاض على ضفافه، مقتلعاً الأشجار ومقادير دائرة من اليابسة الى داخل هذا الإضطراب العظيم.

أما التربة وكتل الحجارة الصخرية التي كانت في وقت ما تشكل سداً للوادي فقد جرفت بعيداً وبسرعة، وأصبحت المياه التي كان عمقها الآن يبلغ عدّة عشرات من الأقدام قناةً ضخمة جداً تلتوي بعنف وتزبد بينما كانت تتلاطم بالجدران الصخرية الرقيقة التي كانت تنهار بين حين وآخر. وهبطت المياه المحملة بكتل الحجارة الصخرية نحو القاع، متوجهة بصوتها الخشن عميقاً نحو صخور الأديم نفسها. وكلما انخفضت المياه الى أعماق أكبر، إزدادت سرعة تدفقها، وكلما إزدادت سرعة تدفقها، تضاعفت سرعة انخفاضها الى الحد الذي فيه حفرت قناة لا يقل عمقها عن (٢٨٠) قدماً ووصلت الى عمق بلغ (٤٧٥) قدماً. وفي كل يوم تدفق ما مقداره عشرة أميال مكعبة من المياه، وهي كمية تبلغ (٢٠٠) ضعف الكمية المتدفقة من شلالات نياكارا، وهي كافية لتغطية جزيرة مانهاتن كل يوم الى عمق يفوق نصف ميل.

وماتت أغلب أشكال الحياة السمكية في البحيرة، إن لم يكن كلّها، في المياه

الغريبة المألوفة، والحياة الجديدة، التي إندفعت من البحر الأبيض المتوسط في بادئ الأمر، هلكت في هذا الإضطراب العظيم، ولكن بعد أيام قلائل، حينما خفت حدة السيل الجارف، شقت طريقها وسرعان ما تولت أمرها!.

بدأ مستوى البحيرة بالإرتفاع (٦) بوصات في اليوم، وأغرقت في الحال مناطق الدلتا وإجتاحت أودية النهر المستوية متحركة نحو أعلى التيار بسرعة تبلغ ميلاً واحداً كل يوم، بدون توقف ساعة إثر ساعة، ويوماً بعد يوم، غامرة كل ما هو بطيء الحركة، ومجبرة كل ما عداه للتوجه الى أعالي النهر أو نحو الهضبة الشبه صحراوية التي من خلالها كان الوادي قد قُطع.

إنه من العسير تخيل رعب أولئك المزارعين الذين أرغموا على مبارحة حقولهم بسبب حدث لم يكن في إمكانهم فهمه، وأن قوة هذا العنف الذي لا يصدق، كانت كما لو أن غضب جميع الآلهة مجتمعين قد صبّ عليهم. فهربوا مع عوائلهم - كبيرهم وصغيرهم - حاملين كل ما يمكن حمله، وبرفقتهم مفردات من لغات اسلافهم، وهم قوم العبيد.

لقد إستمر الطوفان لفترة طويلة بعد هروب الساكنين من البشر، وتدفقت المياه من خلال البوسفور يوماً بعد آخر بعنف مرعب ليس له حدود، فملأت المياه المتعاطمة الأودية النهرية والقنوات الجافة للعديد من الأنهار والجداول القديمة العائدة للرف الصخري القديم الواقع شمالاً، مؤلفة شبكة متألقة من القنوات. واستمر إندفاع المياه الصاخب لمدة إثني عشر شهراً بدون توقف حتى إرتفع مستوى البحيرة الى (١٨٠) قدماً، ليصل الى السطح الأوطأ من القناة.

ومع استمرار الإرتفاع في مستوى البحيرة، بدأ معدل التدفق يضعف ببطء.

ومع ذلك، فقد إرتفعت البحيرة خلال الاثني عشر شهراً التي تلت لمئة قدم أخرى، وبلغت قمة حافة الرف الصخري القديم وبدأت تقدمها نحو الخط الساحلي الحالي، دافعة كل أشكال الحياة أمامها. وبتدحرجها فوق الأدغال الخفيضة، وحشائش الصحراء، والأشجار الصغيرة، أغرقت الحياة النباتية المتفرقة، والرمال، والأوحال، وأجزاء صغيرة من الأصداف التي خلفتها وراءها لدهور من الزمن قبل أن تسعفها الشمس.

وفي كل مكان كان تجاوز مياه الفيضان سريعاً جداً الى حد أن مناطق بأكملها كانت جافة غطاها ما مقداره عشرة أقدام أو أكثر من المياه في غضون أيام قلائل. ولم يكن هناك إندفاع مستمر للأمواج لتكوين الشواطئ الرملية، ولكن في هذه المياه التي أصبحت فجأة عميقة وهادئة طافت الرواسب، والأصداف والتراكيب الهيكلية لمخلوقات وجسيمات بحرية صغيرة جداً والتي كانت عالقة بالمياه كالغبار، مغطية كل شيء بطبقة موحدة ومتماثلة بدون أي إعتبار للسمات السطحية الساسية للأرض (الطوبوغرافية) ...

وبعد مرور ستان، وعندما ارتفع مستوى البحيرة ليصل الى (٣٣٠) قدماً، دخلت المياه الى مضيق "كيرج" وبعد ذلك بوقت قصير وصلت الى سهل (آزوف) الذي كان قد هُجر قبل وقت طويل من قبل الإنسان. وتطلب الأمر مرور سنوات عديدة أخرى قبل أن يمتلئ الحوض بالكامل، ويصنع ما يسمى بحر آزوف، ولذلك فإن سطحه، وعلى غرار سطح البحر الأسود، كان مستواه مساوياً لمستوى بحر إيجه والبحر الأبيض المتوسط. وبعد حين تغير التدفق خلال البوسفور بصورة بطيئة الى حالته الحالية والمتمثلة بتدفق مياه البحر الأسود الأكثر عذوبة وخفة عند السطح وتدفق مياه البحر الأبيض المتوسط الأثقل

بموازاة القعر...

وبالنسبة الى أولئك الذين هربوا الى بلاد ما بين النهرين على وجه الخصوص، إن التقاليد الاسطورية والشفهية للحدث كانت ستعزز من خلال الفيضانات المتكررة إن كانت تحدث هناك غير منتظمة. بقيت الاسطورة حيّة، وغناها وأنشدها - في الحفلات وحوالي تجمعات القوافل التي كانت تصطلي قرب النار- أجيال من عازفي الغوسل ورواة القصص. وكانت من المحتمل أن يكون كل عام تحدث فيه الفيضانات مناسبة لإعادة سرد قصة ذلك الزمن القديم حينما أفنى الطوفان العظيم جميع البشر ما عدا عائلة واحدة فقط، ومنها إنحدر الجميع. وكانت هذه الرواية، التي تم توسيعها وتحويرها لتتطابق مع جغرافية بلاد ما بين النهرين الأكثر إلفة، ما تزال تحتفظ بفكرتها الأساسية وهي: التحذير، الطوفان، العنيف، نجاه عائلة، الفرق الواضح للعالم بأسره، التراجع الواضح لهذه المياه، ثم نزول هؤلاء البشر الى اليابسة وخلصهم من الموت<sup>(١)</sup>.

ثم بعد ذلك تحدث الباحثان عن أسباب خمول الرواة في البحر الأسود، ونمو الرواية في بلاد ما بين النهرين. حيث قالوا:

تشير جميع روايات التحذيرات والأوامر المبصرة لبناء وتحميل الفلك المتعلقة بإسطورة الطوفان الى أن هناك الطوفان سيكون دائماً. قم بتفكيك منزلك، واصنع قارباً، أترك الممتلكات، وأنقذ الأشياء الحية، ولقد قمت بتحميله بكل شيء هناك... حملته بجميع بذور الأشياء الحية جميعها. وحينما امتدت الأيام لتصبح أسابيعاً وأشهرأ، واستمرت مياه الفيضان بالارتفاع، لا بد أن يكون

(١) ينظر: طوفان نوح: وليم ريان ووالتر بتمان، ترجمة فارس بطرس، نشر دار سايمون وسجستر، ط١، ٢٠٠٥م: ص٣١٢ وما بعدها.

سكان البحر الأسود قد أدركوا بأن هذا الفيضان سيكون دائماً، وما كانوا مطلقاً سيرون منازلهم ثانية. كان عليهم أن يهجروا أرض أسلافهم، وأن لا يعودوا أبداً إليها.

لكن فيضانات السهول الرسوبية نادراً ما تكون دائمية، هذا إذا ما فاضت. فكان الناس يهربون، ويتظنون انحسار المياه، ويعودون لتجديد منازلهم وحقولهم، إن مثل هذه التجارب والخبرات في بلاد ما بين النهرين لا بد أن تكون قد أفادت في تعزيز ذاكرة أسطورة فيضان دائم، وإن إنعدام مثل هذا التعزيز قد يعلل الغياب المحير لأسطورة طوفان أوربا. فهناك العديد من الأنهار الكبيرة التي تفيض بشكل مأساوي ومفجع، ولكن هذه الأحداث قلما تبعث على نشوء أساطير<sup>(١)</sup>.

ثم قالوا في مكان آخر: وخلال آلاف السنين التي تلت بعد ذلك الحين، مع حروب، وغزوات، وهجرات، إضافة إلى نكبات أخرى، اختفت الأسطورة من ذاكرة الكثيرين، ولكن أولئك الذين هربوا إلى بلاد ما بين النهرين، والذين ما زالت ذريتهم هناك، عاش الطوفان لآلاف السنين، وتعززت عملية سرده، وذكره بصورة مثيرة من خلال فيضانات نهري دجلة والفرات، ملقبة بعضاً من عناصر الرواية في بلاد ما بين النهرين كمسرح للحادثة، وهي الأرض الأكثر ألفة بالنسبة إلى المستمعين<sup>(٢)</sup>.

ولكن هذا الرأي ينهض مع الوقائع التاريخية، فضلاً عن العلمية، فإن البحوث والإكتشافات الأثرية تقول بأن مركز القيادة والتطور الحضاري

(١) المصدر نفسه: ص ٣٣٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٣٩.



والزراعي كان يتجسم في الجزء الشمالي من بلاد ما بين النهرين. وخلال حقبة العصر الحجري المعدني الوسيط والأخير تحرك الجنوب في هذه البلاد ليحاذي الشمال في كل خطوة يخطوها.

هذا وقد إرتأى علماء الآثار تقسيم العصر الحجري المعدني الذي يمتد في الفترة ما بين الألف الخامسة والألف الثالثة قبل الميلاد الى أربعة أدوار هي دور حلف، ودور العبيد، ودور الوركاء، ودور جمدة نصر<sup>(١)</sup>.

فإذن ما دامت أرض ما بين النهرين متواجد فيها شعبيها، ولها حضارتها، فكيف أتى الشعب أو الشعوب القاطنة حول البحر الأسود بعد أن هجرته مياه الطوفان وليؤسسوا لوجود حضاري جديد في بلاد ما بين النهرين، وكأن المنطقة خالية من السكان، فكان الأجدد بالشعوب القاطنة حول حوض البحر الأسود أن تجد أرضاً غير أرض بلاد ما بين النهرين ليعيشوا فيها مرحلة جديدة من مراحل ما بعد الطوفان. كما ذهب الآخرون الى سهول بلغاريا والى بعض الجزر مثل جزيرة (ساموتراس) أو كما ذهب آخرون الى شمالي أوربا، وآخرون الى جنوب شرقي أوربا الى بحر قزوين والى غيرها من الأماكن التي ذكرها الباحثان.

هذا من جانب، وأما من جانب البعد التاريخي والأنثروبولوجي الديني فإن ما جاءت به النصوص بهذا الخصوص، تتفق بأن الطوفان الكبير قد حدث في بلاد ما بين النهرين على قوم بسبب غضب الآلهة عليهم، وهي التي أحدثت الطوفان الكبير نتيجة لفسادهم وآثامهم، كما تنقله الرواية السومرية والأكدية البابلية.

(١) تاريخ حضارة وادي الرافدين: مصدر سابق: ج ١، ص ١٣٦.

ولكن الإختلاف قد وقع في إسم الرجل الصالح والحكيم الذي كان ينذر قومه من وقوع العقاب عليهم. فمرة ورد إسمه بأنه الملك (زيبودرا) وهو حكيم مدينة شروباك وكاهنها، ومرة ورد إسمه في النسخة البابلية الأكديّة من ملحمة كلكامش (أتو - نبشتم) وهو جد جلجامش كما تذكر الرواية السومرية، وكذلك ورد في ملحمة بابلية بأن بطل قصة الطوفان هو (اتراحاسيس) ومعنى هذا الإسم بالبابلية المفرط في الحس والفهم.

إذن سيكون من المنطقي جداً أن المكان الذي كان يسكن فيه نوح عليه السلام هو المكان الذي حدث فيه الطوفان الكبير، ولا يمكن أن يكون في منطقة أخرى هي بعيدة عن محل سكنى نوح. وما دام أن نوحاً يسكن في بلاد ما بين النهرين، وتحديداً في الكوفة أو النجف، فحينئذ لا مجال لإبعاد حدوث الطوفان عن بلاد ما بين النهرين، والخوض في إحتمالات وتفسيرات ما أفرزته بعض التنقيبات الأثرية، تكون هي أقرب للتخمين من إصابة الواقع المدعوم بوفرة القرائن، من أجل إيجاد تصور يبعد من خلاله حدوث الطوفان الكبير عن مكانه الواقعي، وجعله في منطقة أخرى.

ونحن لا ننكر تلك الجهود في كشف تلك الآثار الخاصة بتلك المنطقة، ولكن ليس من المحتوم أن تكون الدلائل التي توصل لها الباحثان هي الوحيدة في الحدوث، إذ ربما يكون فعلاً هناك فيضاناً كبيراً قد حدث في حوض البحر الأسود، وقد تسبب في هجرة الأقوام التي تسكن حوله، ولكن ليس من الضروري أن يكون هو عينه طوفان نوح عليه السلام.

هذا فضلاً أن الدراسات الأركيولوجية ترى بأن الفيضان كان قد حدث في سهول العراق الجنوبية ذات الراسبات الغرينية، وكان سيلاً عرماً طغى على

وادي دجلة والفرات وأغرق كل المنطقة المأهولة في تلك الأنحاء. ومن المحتمل أن يكون الطوفان قد حدث في زمن كانت فيه البلاد في غمرة موجة أو دورة سني مطيرة، وهي الدورات التي ثبت لدى الخبراء وقوع أمثالها في العصور الجيئولوجية القديمة<sup>(١)</sup>.

## تلخيص ما توصل إليه العالمان (وليام ريان) و(والتر بتمان) حول الطوفان

ويمكن تلخيص ما توصل إليه العالمان (وليام ريان) و (والتر بتمان) خلال دراستهما وبحثهما حول طوفان نوح بما يلي:

أولاً: إرتفاع مستوى المياه في المحيط الأطلسي، بحيث إجتاح وادي البسفور والإندفاع بسرعة الى بحيرة البحر الأسود، آذناً بدء الطوفان الكبير.

ثانياً: إعتبار البحر الأسود هو النقطة المركزية التي فيها بدأ الطوفان الذي تسبب بهجرة الناس الى أماكن أخرى من الأرض.

ثالثاً: ان أمر الطوفان لم يكن دفعياً ومفاجئاً ولفترة قصيرة من الزمن، بل إستمر لفترة طويلة بعد هروب الساكنين من البشر، بحيث استمر تدفق المياه من خلال البسفور يوماً بعد آخر بعنف مرعب ليس له حدود، حتى إستمر تدفق المياه الصاخب لمدة إثني عشر شهراً بدون توقف.

رابعاً: إن شعب تلك المنطقة لم يهلك كله، بل هاجر المزارعون مع عوائلهم

(١) ينظر: تاريخ حضارة وادي الرافدين، مصدر سابق: ج ١، ص ٢٠٤.

حاملين ما يستطيعون حمله، فذهب قسم منهم الى سهول بلغاريا بموازاة نهر الدانوب، وعبر آخرون من البحر الأسود الى بحر إيجه للإستقرار في بعض الجزر مثل جزيرة (ساموتراس). وهرب آخرون الى الغرب عبر شمالي أوربا، وبلغوا حوض باريس. أما الذين رحلوا شمالاً وصولاً الى الأودية النهرية لكل من (الدينير) و (الدون) و (الفولكا) فقد إنتشروا بشكل قوس يمتد من جنوب شرقي أوربا الى بحر قزوين. وتسلق متحدثوا اللغات السامية التلال متوجهين الى الجنوب، وانتشروا حول الأناضول، واستقر آخرون في مصر على دلتا النيل، وظهر آخرون بموازاة الحافات الشمالية لبلاد ما بين النهرين، ثم توجهوا جنوباً نحو وديانها الجافة، وكذلك في وسط البلاد، والذين يدعون (بالعبيد) الذين تحدثوا بلغة عرفت فيما بعد بالسومرية، وسرعان ما برزت واحدة من أعظم الحضارات في العالم، التي عرفت بالحضارة السومرية<sup>(١)</sup>.

(١) السومريون: يتفق المؤرخون على أن السومريين جنس غير سامي، وان لغتهم غريبة لا تشبه اللغات السامية، ولا يعلم زمن مجيئهم الى وادي الرافدين، وإن رأى البعض ذلك، ربما كان في فترة مبكرة من الألف الرابعة قبل الميلاد. وقد اختلفت الآراء في تعيين موطنهم الأصلي.

ذهب رأي الى أنهم مهاجرون من منطقة ما تقع في ما بين شمال الهند وبين افغانستان وبلوخستان عن طريق الخليج العربي وجزيرة البحرين بعد أن استقروا في غربي إيران فترة ما، وذهب رأي ثان بإعتبارهم بدوا مما وراء القوقاز أو بحر قزوين، ويرى آخرون أنهم جاؤا من آسيا الصغرى بينما ذهب رأي ثالث الى أنهم جاؤا من السند، بل لقد اتجه فريق رابع الى انهم من الأقوام التي قطنت العراق في عصور ما قبل التاريخ، وإن حضارتهم أصلية في العراق، بل ويمكن تسمية أهل حضارة العبيد بالسومريين على الرغم من عدم معرفتنا للغة حضارة أهل العبيد. (حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين ص ١٤١).

خامساً: أوعزا سبب نمو وبقاء التقاليد الاسطورية والشفهية للحدث في بلاد ما بين النهرين دون غيرها، الى الفيضانات المتكررة، التي كانت تعزز هذا الأمر، بحيث كان من المحتمل بأنها تحدث كل عام من خلال نهري دجلة والفرات، ولذلك بقيت الاسطورة حية وغنيت وأنشدت في الحفلات

وذهب بعض الباحثين الى أن السومريين عندما جاؤا الى وادي الرافدين كانوا في مبدأ أمرهم يجاورون اصحاب حضارة أرقى ومنها اقتبسوا عناصر ثقافتهم، بدليل ما نشأ عندهم من أدب بطولي أو ملاحمي (Heroic Age) وهو نوع من الأدب يظهر عادة عند الأقوام غير المتحضرة بتأثير جوارها الى حضارات ارقى، مثل عصر البطولة اليوناني (الممثل بالإلياذة والأوديسة) حينما اتصل اليونان بحضارة الأقوام الإيجية (ومركزها في جزيرة كريت) ومثل عصر البطولة الذي نشأ عند برابرة أوربا إبان جوارهم للحضارة الرومانية. (مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج ١ ص ٨١).

ويقول الدكتور طه باقر: (إن أصل السومريين ومهدهم هو من القضايا التي لم تستطع حلها الدراسات اللغوية، وأن كل ما قيل ويقال بنشأتها مجرد تخمين وافتراضات لا يمكن البرهنة عليها ولا رفضها بوجه قاطع.

ثم يبدي رأيه بهذا الموضوع فيقول: أن السومريين هم إحدى الجماعات المنحدرة من بعض الأقوام المحلية في وادي الرافدين في عصور ما قبل التاريخ البعيدة، وأنهم عرفوا بإسمهم الخاص، أي السومريين، نسبة الى إقليم الذي استوطنوا فيه أخيراً في القسم الجنوبي من العراق، أي أن التسمية لاحقة للاستيطان ومشتقة من إسم موضع جغرافي، ولا تحمل مدلولاً قومياً، يؤيد هذا أن كثيراً من الأقوام التاريخية التي اشتهرت في وادي الرافدين وأسهمت في تكوين حضارة وأحداث تاريخية سميت بإسم المواضع التي حلت فيها مثل الأكديين نسبة الى مدينة (أكد) أو (أكادة)، العاصمة التي أسسها سرجون الأكدي، والبابليين نسبة الى مدينة بابل والآشوريين نسبة الى مدينة آشور على ما يرجح. كما يمكن تتبع أصول الحضارة السومرية الى جذورها الأولى في عصور ما قبل التاريخ مما نوهنا به مراراً. (مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة) ج ١، ص ٨٢.

والتجمعات، وكان سرد قصة الطوفان حاضراً بينهم ولم يغيب عن أذهانهم.

ونحن في الحقيقة لا نتعارض مع هذا الجهد العلمي الذي بذله الباحثان ولعله يكون صحيحاً من وجهة النظر العلمية، وله قيمته البحثية المحترمة، إلا أننا نقول:

إن حدث هذا الأمر وكما حلّله وفسره الباحثان، فهما بكل تأكيد يتكلمان عن مرحلة من مراحل التاريخ قد حدث فيها فعلاً هذا الفيضان، ولكنها ليست المرحلة الزمنية التي حدث فيها طوفان نوح، ولا حتى المكان، وخصوصاً أن الأرض قد مرّت بها مراحل كثيرة من الفيضانات وفي مختلف بقاعها، ولم تنحصر الفيضانات بمنطقة واحدة وزمن واحد، حتى نقرر بأن هذا الذي حدث في بحيرة البحر الأسود هو طوفان نوح.

والأوضح من هذا، بأن ما يتكلم به الباحثان، من أنه هنالك مساحة تمكنت من خلالها شعوب المنطقة من النجاة من هذا الفيضان العارم، بحيث إنتشر الناجون وتوزعوا على مناطق كثيرة من سطح الأرض، وهذا واضح من كلامهما وطرحهما، بأنهم قد هياؤا أمرهم واستعدوا له، ولم يكونوا في غفلة منه أو عناد. بينما نحن نتكلم عن طوفان عظيم لم ينج منه إلا القليل من الذين آمنوا بنوح عليه السلام ورسالته، وأما الباقون فقد غرقوا جميعاً حتى إمرأته وإبنه.

وهذا الأمر - أي هلاك قوم نوح - فقد تم حتى وفق ما طرحه الباحثان من فكرة أن طوفان نوح لم يستوعب كل الأرض، وإنما كان في منطقة ومساحة محدودة، لأن ما هو ثابت وفق المعطيات الأركيولوجية والمعطيات الدينية، بأنهم قد هلكوا على كل حال، سواء كان الطوفان عالمياً أم إقليمياً وهذا بخلاف ما

طرحه الباحثان.

إذن فهما بالتالي يتكلمان عن طوفان قد حدث في منطقة ما وهي غير منطقة سكن نوح عليه السلام، وله ميزاته وصفاته وآثاره الخاصة به، ولذلك فلن يفيدنا الإعتناء بهذا البحث فهو بعيد عن مرادنا.

إذن فهناك حياة جديدة انبثقت من بين الأمواج التي أغرقت كل شيء إلا نوحاً ومن معه. بحيث أصبح هو راعي البشرية الأول بعد الطوفان، وكان ينظرهم ويتولى أمرهم ساعياً للبدء بحياة جديدة، إفتتحها مجموعة مختارة من تلك الحاضرة البشرية التي مثلت بحياتها بداية تشكيل الهرم الإيماني الذي أفرزته تلك المرحلة من التاريخ. والذي كان يركز على أمر مهم وهو التأكيد على الإيمان بالله تعالى وحده، ونبتذ كل مسميات الصنمية التي كانت علامة فارقة في ذلك العمق من الزمن.

وأما مسألة هل أن الطوفان قد شمل كل الأرض أو بعضاً منها، فهي مسألة فيها إختلاف في الآراء، سواء عند أهل الأديان أو أهل النظر والتخصص في علم الجيولوجيا، أو حتى عند أهل التاريخ. فهناك نصوص تقول: إن الماء قد إرتفع حتى على الجبال بمسافة كبيرة<sup>(١)</sup>. وجاء في مجمع البيان عند تفسير قوله تعالى: (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ) معناه أن السفينة كانت تجري بنوح ومن معه على الماء في أمواج كالجبال، في عظمها وإرتفاعها ودلّ تشبيهها بالجبال على أن ذلك لم يكن موجاً واحداً، بل كان كثيراً. ثم يقول وروي عن الحسن أن الماء إرتفع فوق كل شيء، وفوق كل جبل ثلاثين ذراعاً وقال غيره خمسة عشر ذراعاً،

(١) قصص القرآن الكريم، د. محمود البستاني، نشر مؤسسة السبطين، قم، ط ٢، ١٤٢٨هـ:

وقيل إن سفينة نوح سارت ستة اشهر حتى طافت الأرض كلها<sup>(١)</sup>.

ويقول صاحب تفسير الميزان: وقد كان عليه السلام رسولاً أحد الأنبياء أولي العزم عالماً بالله عارفاً بمقام ربه بصيراً بموقف نفسه في العبودية، والظرف ظهرت فيه آية الربوبية والقهر الإلهي أكمل ظهورها فأغرقت الدنيا وأهلها<sup>(٢)</sup>.

وهناك إلتفاتة رائعة لصاحب تفسير الميزان في هذا الصدد، وذلك حينما شبه هبوط نوح عليه السلام في قوله تعالى: (يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ) بهبوط آدم عليه السلام (وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ). حيث يقول في تفسير قوله تعالى (يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ...): بالنظر الى ظرف صدوره وليس وقتئذ متنفس على وجه الأرض من انسان أو حيوان وقد أغرقوا جميعاً ولم يبق منهم إلا جماعة قليلة في السفينة وقد رست واستوت على الجودي، وقد قضى أن ينزلوا إلى الأرض فيعمروها ويعيشوا فيها إلى حين.

وهو خطاب عام وشامل للبشر من لدن خروجهم منها إلى يوم القيامة نظير ما صدر من الخطاب الإلهي يوم أهبط آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض وقد حكاه الله تعالى في موضع بقوله: (وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ - إلى أن قال - قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تحقيق السيد هاشم الموسوي، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م: ج ٥، ص ٢١٠.

(٢) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج ١٠، ص ٢٣٣.



مَنْ هَدَى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ\* وَالَّذِينَ كَفَرُوا  
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) البقرة: ٣٩ وفي موضع  
آخر بقوله: (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) الأعراف: ٢٥.

وهذا الخطاب خطاب ثانٍ مشابه لذلك الخطاب الأول موجه إلى نوح عليه  
السلام ومن معه من المؤمنين - وإليهم ينتهي نسل البشر - متعلق بهم وبمن  
يلحق بهم من ذريتهم إلى يوم القيامة، وهو يتضمن تقدير حياتهم الأرضية  
والإذن في نزولهم إليها واستقرارهم فيها وإيوائهم إياها.

وقد قسم الله هؤلاء المأذون لهم قسمين فعبر عن إذنه لطائفة منهم بالسلام  
والبركات وهم نوح عليه السلام وأمم ممن معه، ولطائفة أخرى بالتمتع، وعقب  
التمتع بمس العذاب لهم كما أن كلمتي السلام والبركات لا تخلوان من بشرى  
الخير والسعادة بالنسبة إلى من تعلقتا به.

فقد بان من ذلك أن الخطاب بالهبوط في هذه الآية مع ما يرتبط به من سلام  
وبركات وتمتع موجه إلى عامة البشر من حين هبوط أصحاب السفينة إلى يوم  
القيامة، ووزانه وزان خطاب الهبوط الموجه إلى آدم وزوجته عليهما السلام، وفي  
هذا الخطاب إذن في الحياة الأرضية ووعد لمن أطاع الله سبحانه ووعد لمن عصاه  
كما أن في ذلك الخطاب ذلك طابق النعل بالنعل<sup>(١)</sup>.

أما الذين ذهبوا إلى أن الطوفان لم يكن شاملاً لكل الأرض، وإنما خص  
منطقة قوم نوح، فكانت آراءهم تتلخص فيما يلي، وسنذكر المهم منها:

(١) المصدر نفسه: ج ١٠، ص ٢٣٩ وما بعدها.

يقدم الدكتور محمد بيومي مهران ثمانية عشر دليلاً على عدم شمول الطوفان لكل الأرض، ونحن الآن لا نريد أن نذكرها كلها، لأن بعضها متداخل وتعود بالأصل الى دليل واحد، والبعض الآخر هو دليل يرد بنظرة بسيطة ولا يحتاج الى تدبر. ولذلك سنكتفي بذكر أهمها وأبرزها، ثم نجيب عنها لرفع الاشتباه، يقول: ان كل آيات القرآن الكريم تنص على أن نوحاً إنما أرسل الى قومه خاصة. ومن ذلك قوله تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ، قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ).

ثم يذكر غيرها من الآيات التي هي من نفس السياق. ثم يقول: إن دعوة نوح إنما كانت لقومه خاصة. شأنه في ذلك شأن غيره من المصطفين الأخيار.

ثم يقول: ان النبي الوحيد من بين الأنبياء جميعاً الذي أرسله الله الى الناس كافة هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وقد دلّ على عالمية الدعوة المحمدية بأساليب متعددة ونصوص واضحة، بل إن هناك أكثر من أربعين آية في القرآن الكريم يذكر فيها الله سبحانه وتعالى بإسم رب العالمين، هذا عدا الآيات التي ذكر فيها بالنص الواضح أنه صلى الله عليه وآله، قد أرسل الى الناس كافة كقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) سبأ: ٢٨، (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) الأعراف: ١٥٨. والى غيرها من الآيات التي ذكرها بهذا الخصوص.

ثم يقول: إن القاعدة الشرعية التي جاء بها القرآن هي ألا يعذب الله قوماً إلا إذا أرسل اليهم رسولاً يهديهم سواء السبيل، تصديقاً لقوله تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) الاسراء: ١٥. فإذا افترضنا أن نوحاً عليه السلام -

كان في جنوب العراق - كما هو المتواتر، أو الذي يميل إليه أغلب الباحثين على الأقل فكيف يعذب الله - وهو أعدل العادلين - المصريين أو السوريين أو سكان الجزيرة العربية، على سبيل المثال، بسبب كفر العراقيين بنوح وبدينه القويم بخاصة وأن القرآن الكريم يقول: (مَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا) نوح: ٢٥.

ثم أخيراً يقول: ان الآثار تثبت دونها ريب، أن هناك طوفاناً - بل طوفانات - حدثت في العراق القديم، ومن ثم فإن الأثرين يكادون يتفقون - وعلى رأسهم سير وليم ويلكوكس، وسير ليوناردو ولي - على أن الطوفان لم يشمل الكرة الأرضية كلها، وإنما كان طوفاناً كبيراً على وادي دجلة والفرات أغرق كل الأرض الصالحة للسكنى في هذه المنطقة بين الجبال والصحراء، والتي هي في نظر سكان المنطقة - وبخاصة تلك الفترة المبكرة - بمثابة العالم كله<sup>(١)</sup>.

## رفع إشكالات صاحب كتاب

### دراسات تاريخية في القرآن الكريم

ورفع هذه الإشكالات يكون إجمالاً كالاتي:

أولاً: إن في قول نوح عليه السلام: (رَبِّ لَا تَذَرُ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَّارًا) يدل على عموم الكافرين في الأرض، وهذا القول لا يصدر منه عليه السلام إن لم تكن رسالته قد شملت كل الأرض، بحسب قوله تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) الاسراء: ١٥. ثم في قوله تعالى: (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ

(١) دراسات تاريخية في القرآن الكريم، مصدر سابق: ج ٤ ص ٨٤ وما بعدها.

بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّمٍ مِّمَّن مَّعَكَ) هود: ٤٨. لدليل آخر على أن من الذين صعدوا السفينة مع نوح عليه السلام كانوا من أقوام غير قومه، وما كان هذا ليحدث لولا أن رسالة نوح قد وصلت إليهم عن طريق وكلاء له، أو قد يكون هو بنفسه عليه السلام قد ذهب إليهم وعرض رسالته لهم. خصوصاً إذا ما التفتنا الى عمره الطويل الذي مكث فيه بالأرض، فإنه يكون من المناسب أن قضى شطراً منه في تبليغ وإيصال رسالته الى أماكن بعيدة عن مقر سكناه، حيثئذ تكون (من) في قوله تعالى (ممن معك) بيانية لا ابتدائية، لا كما ذهب السيد الطباطبائي في تفسيره على أنها ابتدائية. هذا ولا يمنع أن يصف الله تعالى اولئك الأفراد القلائل بالأمم، فإن إيمانهم الراسخ وتصديقهم بنوح عليه السلام وصبرهم معه ذلك الصبر الجميل أهلهم لأن يطلق على كل فرد منهم بـ (الأمّة) وهذا ليس بغريب فإن الله تعالى قد نعت إبراهيم عليه السلام بالأمّة لقوة إيمانه وشدة عقيدته وفنائه في الله، حيث قال تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) النحل: ١٢٠.

ثانياً: لا يبعد أن يكون تمركز وثقل البشرية والنمو الحضاري والمدني في ذلك العهد، في المنطقة التي يسكنها نوح عليه السلام. وأما البشرية الأخرى الموزعة على باقي الأرض، فلم يكن لها من الشأن والخطورة، حتى تصل الى مستوى الخطاب الإلهي المباشر، ولذلك اكتفى تعالى بذكر المهم، وإن كان جميع البشر مشمولين بهذا الخطاب. وهذا الأمر من الأمور العرفية والعقلانية الشائعة وليست هي بالأمر الغريب.

وبهذا الصدد يقول السيد الطباطبائي في تفسيره: من الواجب في العناية أن ينزل الله على المجتمع الانساني ديناً يدينون به وشريعة يأخذون بها في حياتهم

الإجتماعية دون ان يخص بها قوماً ويترك الآخرين سدى لا عناية بهم، ولازمه الضروري أن يكون أول شريعة نزلت عليهم شريعة عامة.

وقد أخبر الله سبحانه عن هذه الشريعة بقوله عز من قائل: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) البقرة: ٢١٣، فبين أن الناس كانوا أول ما نشأوا وتكاثروا على فطرة ساذجة لا يظهر فيهم أثر الاختلافات والمنازعات الحيوية ثم ظهر فيهم الاختلافات فبعث الله الأنبياء بشريعة وكتاب يحكم بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه، ويحسم مادة الخصومة والنزاع.

ثم قال تعالى فيما أمتن به على محمد صلى الله عليه وآله: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى) الشورى: ١٣. ومقام الإمتنان يقضي بأن الشرائع الإلهية المنزلة على البشر هي هذه التي ذكرت لا غير، وأول ما ذكر من الشريعة هي شريعة نوح، ولو لم يكن عامة للبشر كلهم وخاصة في زمنه عليه السلام لكان هناك إيمان نبي آخر ذو شريعة أخرى لغير قوم نوح ولم يذكر في الآية ولا في موضع آخر من كلامه تعالى، وإمّا إهمال سائر الناس غير قومه عليه السلام في زمنه وبعده إلى حين.

فقد بان أن نبوة نوح عليه السلام كانت عامة، وأن له كتاباً وهو المشتمل على شريعته الرافعة للاختلاف، وأن كتابه أول الكتب السماوية المشتملة على الشريعة، وأن قوله تعالى في الآية السابقة (وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) هو كتابه أو كتابه وكتاب غيره من أولى العزم: إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله<sup>(١)</sup>.

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج ١، ص ٢٦٣ وما بعدها.

وإن قضية الرسالة العالمية لنوح عليه السلام هي شمول دعوته كل سكنة الأرض طيلة دعوته كما وظاهر القرآن، كالنص يؤيد شمولية هذه الدعوة والغرق، فقد انتشلت البشرية بعد الطوفان - فقط - ممن حمل مع نوح في الفلك: (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا) الاسراء: ٣. ودعى نوح على سكنة الأرض إلا الذين آمنوا معه: (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) نوح: ٢٦. وقد استجاب الله كما دعي: (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قُدْرٍ) القمر: ١١، ١٢. ولا تغني الدعوة الرسولية أن يدعو الرسول بنفسه كافة المرسل إليهم، بل وبحملة رسالته الذين يوحى إليهم، أم هم الربانيون من امته، ثم الأرض التي كانوا يسكنونها كانت هي المعمورة ووقتذاك، وعلها رقعة صغيرة منها شملتها دعوة نوح عليه السلام بنفسه أم بحملة رسالته، فقد عمّ الطوفان وطمّ هذه الرقعة بسائر الأرض، وقضي على كافة المتخلفين عن رسالته في الأرض كلها. ذلك وقد يكفينا هذا التخمين الأمين لتصديق ذلك الحدث الكوني الهائل الذي جاءنا نبأه من مصدر الوحي الوثيق عن ذلك العهد السحيق الذي لا يعرف عنه التاريخ شيئاً حيث يلحقه ولا يقارنه أو يسبقه حتى نخبرنا عنه، وهنا وفي سواه أصدق تاريخ لمصدق الوحي هو الوحي وسائر التاريخ أياً كان ومن أي كان وأيان ليس يعتمد عليه كوثيقة قطعية. ثم لو لم يشمل الطوفان الأرض كلها فما هو الداعي أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، إذ كانت تكفيه حيوان سائر الأرض لو أنها غير مشمولة. ثم كلمة "الأرض" في (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) دليل باهر لا مرد له على أن المعني منها هو كل الأرض، حيث الأرض تعنيها كلها إلا إذا قامت قرينة على تحديدها، وهنا (ديارا) قرينة على

إطلاقها، ثم (لن يلدوا) ليس يختص بكفار خصوص في أرض خاص<sup>(١)</sup>.

ثالثاً: أما مسألة الآثاريين ومسألة كونهم يكادون يتفقون على أن الطوفان لم يشمل الكرة الأرضية، وإنما كان الطوفان في وادي دجلة والفرات، فهذا أمر وإن كان قد تحقق فعلاً، لكنه ليس بالضرورة أن يكون هو الطوفان أو الفيضان المعني في قصة نوح عليه السلام، وقد يكون فيضانا آخر قد تعرض له وادي دجلة والفرات وكان أيضاً له أثراً في اغراق الأراضي الصالحة للسكنى في تلك المنطقة، وخصوصاً إذا ما عرفنا بأن بلاد ما بين النهرين كانت كثيراً ما تتعرض الى الفيضانات.

وفي هذا يقول الدكتور أحمد سوسة: ما من دور من الأدوار التاريخية القديمة التي مرت على العراق إلا وكانت فيضانات الأنهر فيه من أبرز المسائل التي شغلت تفكير سكانه الأولين في سبيل دفع أخطاره، لذلك كانت أولى الجهود التي بذلها بناء الحضارة العراقية القديمة تتناول مسألة السيطرة على الأنهار وتنظيم شؤون الإرواء ودرء أخطار الفيضان. لذلك ان سكان وادي الرافدين الأوائل ظلوا في صراع مستمر ضد الطبيعة القاسية.

وليس بالأمر الغريب أن يحدث طوفانا في وادي الرافدين الذي كانت منذ القديم ولا تزال ظاهرة الفيضان فيه ظاهرة طبيعية مألوفة. فالأحواض تمون دجلة والفرات وتوابعها بالمياه هي من السعة بحيث يمكنها ان تحدث في بعض الحالات الطبيعية فيضانات هائلة تنذر بالويل والثبور. خاصة إذا صادف أمطار غزيرة في مناطق الأحواض المذكورة كلها وطغيان كل الأنهر والتوابع في وقت

(١) الفرقان في تفسير القرآن: الشيخ الدكتور محمد الصادقي، نشر دار الأميرة، بيروت،

واحد ثم إنضمام المياه التي تنحدر من قمم الجبال اليها بعد ذوبان كميات كبيرة من الثلوج. وقد ظهر فعلاً من التنقيبات العديدة التي أجريت في عدّة مواقع أثرية في السهل الرسوبي جنوبي العراق ان هناك طبقات من الراسبات الغرينية التي تركتها الفيضانات اختلف بعضها عن البعض الآخر في الدور التاريخي الذي يمثله كل منها، ومثل هذا الإختلاف وجد في سمك الراسبات مما يدل على حدوث عدة فيضانات مختلفة الاحجام في مختلف الأدوار التاريخية التي مرت بالعراق<sup>(١)</sup>.

وهناك أيضاً من أعطى أسباب أخرى يستدل بها على محدودية الطوفان حيث قال: لا يحتمل أن يكون مستوى الماء مرتفعاً جداً ليغطي الجبال، بل ربما غطت بعض الجبال ولكن بما أن ذلك الفيضان قد حدث نتيجة إرتفاع درجات الحرارة، فإن سيول الجليد الذي يغطي عادة اعالي الجبال قد جرفت كل شيء في طريقها. وهذه الحقيقة قد أعطت الانطباع الخاطيء بأن الماء قد إرتفع وغطى كل الأرض إذ ربما كان العكس صحيحاً، ذلك أن الماء قد انحدر فغطى المنطقة.

ثم يقول: لقد ذكر العهد القديم الشهر الثاني اليوم ١٧، وكانت السنة عندهم ولا تزال حسب التقويم الشرقي تبدأ من ٢١ / آذار واستمر ٤٠ يوماً - أي إستمر حتى نهاية شهر نيسان - وهذا هو موسم الأمطار في منطقة الشرق الأدنى حيث تنتهي بإنصهار الثلوج من على قمم الجبال ويحصل فيضان الأنهار عادة في المنطقة. ودام الطوفان ١٥٠ يوماً أي خمسة أشهر، أي حتى نهاية الشهر السابع (تموز) وهو أوج موجة الجفاف في المنطقة.

ثم يقول: ودليل آخر هو أن الأوثان التي كان يعبدها قوم نوح ظلت عبادتها

(١) تاريخ حضارة وادي الرافدين، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٠٤.



سارية حتى زمن الجاهلية. ولو كان شاملاً لما استمرت لهذا الوقت<sup>(١)</sup>.

## رفع إشكالات صاحب كتاب التحليل العلمي في تفسير القرآن الكريم

وجواب هذين الإشكالين:

من المهم النظر الى أمر، وهو أن الطوفان الذي حدث في زمن النبي نوح عليه السلام كان طوفاناً قد حدث نتيجة عقوبة إلهية، ولم يكن وليداً نتيجة الظروف الطبيعية وهي تسير سيرها المعتاد والتي تمتاز بها المنطقة. وهنا نظر صاحب الإشكال لهذا الطوفان ولأسباب حدوثه نظرة مادية فقط، وعزل المنظر الغيبي والتدخل الإلهي الذي خرم بواسطته كثير من الأسباب الطبيعية الظاهرة، بإيجاد أسباب وعلل فوقها بكثير، كان الغرض منها إحداث هذا الطوفان الكبير غير المسبوق بمثله، ليكون عبرة وأثراً خالداً تتناقله الأجيال البشرية جيلاً بعد جيل. ولذلك لم يكن لذوبان الثلوج بسبب إرتفاع درجة الحرارة المؤثر الرئيسي لهذا الفيضان، ولم يكن كذلك سقوط الأمطار التي بدأت من شهر آذار وانتهت بشهر نيسان في منطقة الشرق الأدنى، هو السبب الرئيسي في حدوث الطوفان، بل إننا لو طالعنا القرآن الكريم وما بيّنه من أسباب لحدوث ذلك الطوفان الذي شمل كل الأرض، لوجدناه يبتعد عن تأثير الأسباب المادية الظاهرية فقط، وإنما سخر له الله تعالى أسباباً أخرى أشد وأقوى تأثيراً لكي توجد هكذا طوفان عارم.

(١) ينظر التحليل العلمي والمنقول في تفسير القرآن الكريم: ضياء الدين العاملي، نشر دار

الجواهري، بغداد، ط ١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م: ص ٣٨٧ وما بعدها.

ولذلك نجد وصف القرآن في كيفية فتح أبواب السماء وتفجير عيون الأرض كلها لإحداث هذا الأمر: (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ \* وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) القمر: ١١، ١٢. ثم قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ ...) هود: ٤٤. بيان لعظمة هذا الفيضان الكبير، وفتح اسباب حدوثه وبيان بأنها لم تكن مألوفة من قبل من حيث الشدة والتأثر.

وفي هذا الصدد يقول صاحب تفسير الفرقان عند تفسير قوله تعالى: (يا أرض ابلعي ماءك): مما يدل على أن الأرض أظهرت ماءها كله على ظهرها، وكما تدل (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا) فإنه التفجير الطليق للأرض كلها عيوناً جارية على وجهها. ثم (وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي) دليل على أن نصيباً من ذلك الماء كان يخص السماء وكما تدل (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ) فقد غرقت الأرض كلها بكل مائها وبعض من ماء السماء<sup>(١)</sup>.

وأما قوله في مسألة الأوثان التي كان يعبدها قوم نوح وأن عبادتها ظلت سارية حتى زمن الجاهلية. ولو كان الطوفان شاملاً لما استمرت لهذا الوقت. فهذا يرفع بأقل تدبر، وذلك لسبيين:

الأول: أن الأوثان أيضاً لم تكن موجودة حين نزول آدم عليه السلام، فالسبب الذي أوجد تلك الأوثان، بعد أن لم يكن لها وجود، سيكون بالتالي هو نفسه لكي يفعل فعله ويوجد هذه الأوثان لكي تعبد مرة أخرى، وخصوصاً إذا ما نظرنا إلى طول فترة الابتعاد للزمن الجاهلي عن نوح عليه السلام، وما سيتولد

(١) الفرقان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج ١٤، ص ١٦١ وينظر الميزان في تفسير القرآن:

ج ١٠، ص ٢٣٠ وما بعدها ومجمع البيان في تفسير القرآن: ج ٥، ص ٢٠٥ وما بعدها

في تلك الفترة الطويلة من تضاد وإختلاف وتنازع في البناء الإجتماعي والعقائدي والأمر التي تولدها العلاقات الانسانية الأخرى.

الثاني: إن مسألة ذكر الأوثان وحتى أسمائها، لم تمت ولم تنقضي بعد الطوفان، إذ كان من الطبيعي بل من المؤكد أنها تذكر في مجالس المؤمنين وفي ندواتهم وتجمعاتهم للعبارة والتذكير، وهذا ما سيجعلها تتناقل بين الأجيال وتتوسع الى مناطق أخرى، وحينها ستتولد التساؤلات والاستفسارات حولها، وبالتالي فإن الشيطان موجود، فيمكن له أن يعيد الكرة مرة أخرى ويحيي أمر الأوثان بعد أن يستغل الظروف المناسبة لذلك.

## رد إشكال صاحب كتاب مفاهيم القرآن حول عالمية رسالة نوح عليه السلام

وفي هذا السياق اعترض الشيخ جعفر سبحاني على عالمية رسالة نوح بقوله:  
(ان عمومية الرسالة تتطلب وجود امكانيات تمكن الرسول من إيصال نداء رسالته وصوت دعوته الى جميع أنحاء العالم، وذلك لم يكن متوفراً في عهد نوح)<sup>(١)</sup>.

والحقيقة ان هذا الاعتراض لا ينهض مع حجم المهمة الرسالية والالطفي الإلهي في عباده، ويمكن الرد عليه بمايلي:

(١) مفاهيم القرآن: الشيخ جعفر سبحاني، نشر مؤسسة الإمام الصادق، قم، ط٤، ١٤١٣هـ: ج٣، ص٧٤.

أولاً: إن مسألة ضعف الإمكانيات التي تمنع من إيصال نداء الرسالة وصوت الدعوة الى العالم هي نفسها تبقى قائمة وناهضة مع إبراهيم وموسى وعيسى وحتى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، لعلمنا اليقيني بأنه الى حد آخر رسالة سماوية، ووضوح الدعوة الصريحة على عالميتها، والتي تشهد لذلك نصوص قرآنية منها:

\* (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) الاحزاب، ٤٠.

\* (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) الفرقان، ١.

\* (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) سبأ، ٢٨.

فإنه لم تكن هناك وسائل نقل ومواصلات متطورة كالتى حصلت بعد حين. ففي تلك العهود الغابرة بقيت الحيوانات كالجمل والحصان أو الحمير هي الوسائل الرئيسية في التنقل لا غير. فكيف تسنى لغيره من الرسل وخصوصاً للخاتم محمد صلى الله عليه وآله العمل بنشر عالمية رسالاتهم ولم يتسن لنوح هذا الأمر!؟.

ثانياً: لقد عرفنا بأن بعض الأنبياء والرسل من أولي العزم، قد استمرت شرائعهم وقد عمل بها من بعدهم. فقد جاء بالحديث ما يشير الى ذلك بوضوح:

(إنما سمّي أولو العزم، لأنهم كانوا أصحاب العزائم والشرائع وذلك أن كل نبي كان بعد نوح، كان على شريعته ومنهاجه وتابعاً لكتابه، إلى زمن إبراهيم الخليل وكل نبي كان في أيام إبراهيم الخليل وبعده، كان على شريعة إبراهيم

ومنهاجه وتابعا لكتابه إلى زمن موسى عليه السلام، وكل نبي كان في زمن موسى وبعده، كان على شريعة موسى ومنهاجه وتابعا لكتابه إلى زمن عيسى عليه السلام، وكل نبي كان في أيام عيسى وبعده، كان على منهاج عيسى وشريعته وتابعا لكتابه إلى زمن نبينا محمد صلى الله عليه وآله، فهؤلاء الخمسة أولو العزم، وهم أفضل الأنبياء والرسل وشريعة محمد صلى الله عليه وآله لا تنسخ إلى يوم القيامة ولا نبي بعده<sup>(١)</sup>.

وبما أن هناك أنبياء كانوا موجودين مع أقوامهم في نفس زمن تواجد الأنبياء من أولي العزم، وهم آخذين بشرائعهم ومروجين لها. فقد كان نبي الله لوطاً مبعوثاً إلى قومه، وهو بالأساس يتبع إبراهيم عليه السلام، وكان يعيش في نفس زمن تواجد إبراهيم، (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ \* قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) العنكبوت: ٣١-٣٢. كما بعث شعبياً إلى اصحاب مدين، في نفس زمن الذي بعث فيه موسى عليه السلام. وكذلك بعث الله نبيه هود إلى عاد يعمل بشريعة نوح عليه السلام رغم بساطتها، كما بعث صالحاً إلى ثمود وهو أيضاً يعمل بشريعة نوح عليه السلام. وكذلك بعث يونس إلى مئة ألف أو يزيدون، وهو يعمل بشريعة موسى عليه السلام.

وهذا الأمر يستدعي بالتالي أن مسألة الصعوبة في نشر الرسالة العالمية قد ذلت بوجود الأنبياء المبعوثين في زمن الرسل من أولي العزم، والذي يعتبر نوح

(١) علل الشرائع: الشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه

القمي (ت ٣٨١هـ)، نشر المكتبة الحيدرية، النجف، ط ١، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م: ج ١،

عليه السلام أولهم، فتكون حينئذ نبوة النبي أو الأنبياء الموجودين في زمن نوح في طول نبوة ورسالة نوح، لأنهم يعملون ضمن شريعتها بما فيها من تعاليم وأوامر ونواهي.

أما مسألة الصعوبات في عدم وجود امكانيات للإتصال وطريقة التواصل بين نوح والآخرين المتواجدين في المناطق البعيدة، فإن كان التنقل والتواصل يصعب فيما بينهم لبعده المسافات ولغيرها من الأسباب والعوامل الطبيعية وعدم وجود إمكانات متاحة تقلل من هذا الأمر. فسيكون حينئذ عن طريق الوحي الإلهي فيما بين الانبياء كخير وسيلة للتواصل وتبليغ تفاصيل الشريعة وتعاليمها، أو إختيار طرق ووسائل غيبية أخرى، وهذا مما ينبغي أن يكون واضحاً بيّناً. وعلينا أن لا نستغرب ذلك، ما دام أن أصل وجود الرسالات السماوية قائم على الإتصال الغيبي وكيف أن الله سبحانه قد ذل سبل الإتصال بين السماء والأرض بعدة وسائل. فلا ينبغي أن يكون غريباً ومستبعداً أمر الإتصال والتواصل فيما بين الانبياء وهم يعيشون مساحة واحدة من الحضور والتواجد في زمن واحد وإن اختلفت اماكن تواجدهم وتباعدت. وحينئذ لن يصعب أمر تبليغ وإيصال رسالاتهم وتشريعاتهم الى العالم كله. وكما قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ) غافر: ٧٨. و(وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ) النساء: ١٦٤. هذا طبعاً إذا ما التفتنا الى قلة التجمعات البشرية ومراكز التمدن والتحضر فيها في ذلك العمق التاريخي، وعندها سيكون أسهل بكثير مما لو كان هناك تجمعات ومراكز بشرية كثيرة ومترامية الأطراف.

## قصة الطوفان في الآثار والتوراة الطوفان في تاريخ العراق القديم

من المعروف منذ زمن طويل أن قصص الطوفان الكبير الذي هلك فيه كل الناس على وجه التقريب، تنتشر إنتشاراً واسعاً في جميع أنحاء العالم، فهناك قصص عن الطوفان، في بعض مجتمعات الشرق الأدنى القديم، وفي الهند ويورما والصين والملايو وأستراليا وجزر المحيط الهادي، وفي مجتمعات الهنود الحمر<sup>(١)</sup>.

ولعل من الأهمية بمكان أن نشير الى أنه رغم كثرة قصص الطوفان وانتشارها، فإنها تختلف فيما بينها اختلافات كثيرة، كما أن قسماً منها أساطير وضعت وضعاً لتفسير بعض العوارض الأرضية، كالمنخفضات الواسعة في البلاد التي وضعت فيها تلك الأساطير<sup>(٢)</sup>.

وإن أول من إكتشف خبر الطوفان في النصوص القديمة الخبير البريطاني "جورج سميث" الذي أعلن سنة ١٧٨٢ نبأ إكتشافه في لوح عثر عليه في نينوى فأثار ذلك ضجة وحماساً بالغين مما حدا بجريدة ديلي تلغراف أن تتبرع بألف جنيه ينفقها في مواصلة التنقيب في خرائب نينوى وقد نجح فعلاً في العثور على أجزاء أخرى مكتملة ونشر بحوثه قبل وفاته المبكرة. ومن المهم ذكره في هذا الصدد هو أن قصة الطوفان السومرية الأصل نقلت بأشكال متعددة فيما بعد

(١) دراسات تاريخية من القرآن الكريم: د. محمد بيومي مهران، نشر دار النهضة، بيروت،

ط٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م: ج٤، ص٢٩ نقلاً عن:

Sollberger.E.The Flood, London, 1962,, o.11

(٢) المصدر نفسه: ج٤، ص٢٩.

العصر السومري، ومن هذه النقول الرواية الأكديّة البابليّة ورواية التوراة التي تتفق تماماً مع النص السومري الأصلي وبخاصة ما يتعلق بالاعتقاد بأن الآلهة هي التي أحدثت الطوفان نتيجة لفساد البشر وآثام الإنسان وخطاياهم مع الفارق بين الشرك السومري والوحدانية العبرانية<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور طه باقر: والطوفان كان حدثاً بلغ من عظم الأثر والجسامة عند سكان وادي الرافدين بحيث ان جامعي إثبات السلالات ومؤلفي القصص والأساطير جعلوه حداً فاصلاً بين عهدين متميزين في تاريخ البلاد، عهد ما قبل الطوفان وعهد ما بعد الطوفان، أي لعله يضاهي ما تواضع عليه المؤرخون المحدثون من تقسيم التاريخ البشري العام إلى العصور القديمة والعصور الحديثة. وهنا تتوارد إلى الذهن تساؤلات كثيرة: ترى هل كان هذا الطوفان المذكور في أثبات الملوك وفي القصص والأساطير حدثاً تاريخياً واقعياً ومتى وقع؟ وهل كان طوفاناً واحداً أو عدة طوفانات تكرر حدوثها فأختبر أشدها وأعنفها ليكون حداً فاصلاً بين عهدين من تاريخ البلاد؟ وهل ان الطوفان المذكور في أثبات الملوك هو نفسه الوارد في ملحمة جلجامش والقصص الأخرى المماثلة؟ ثم هل وجدت في أثناء التحريات التي أجريت في مدن العراق القديمة آثار أو إمارات على طوفان أو طوفانات؟ وهل أن هذا الطوفان الذي اشتهر في حضارة وادي الرافدين هو الطوفان المذكور في الكتب المقدسة ولا سيما التوراة؟<sup>(٢)</sup>.

(١) تاريخ حضارة وادي الرافدين، مصدر سابق: ج ١، ص ٢٠٢.

(٢) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، نشر دار الوراق، بيروت ط ١، ٢٠٠٩م:



ثم يقول: إن مثل هذه التساؤلات وغيرها لا يمكن الإجابة عليها إجابة واحدة قاطعة، بل هناك عدة احتمالات قد يكون أحدها أقرب إلى الحقيقة. على أننا نستطيع أن نقول بشيء من التأكيد إن الطوفان المذكور في أثبات الملوك السومرية وفي ملحمة جلجامش وغيرها من قصص الطوفان السومرية والبابلية كان طوفاناً واحداً، وإنه كان حدثاً تاريخياً واقعياً حدث في طيات الماضي البعيد، وكان كما قلنا قد بلغ من عظم الأثر بحيث إنه جعل موضوع تلك القصص لما خلقه من آثار بليغة في ذاكرة الاجيال المتعاقبة، وإنه اختير من بين الطوفانات الكثيرة التي تعرض إليها السهل الرسوبي وما زال يتعرض إليها منذ أبعاد العصور<sup>(١)</sup>.

## قصة الطوفان السومرية

جاء في كتاب (من ألواح سومر) : نشر (آرنوبوبل) في عام ١٩١٤ قطعة هي الثلث الأسفل من لوح سومري ذي ستة حقول وجدته من بين مجموعة ألواح (نُفّر) المحفوظة في متحف الجامعة. وكانت محتوياتها تتعلق على الأغلب بقصة الطوفان وظلت هذه القطعة حتى الآن وحيدة فريدة لم يعثر على ما يطابقها أو يضاهيها. فإنه على الرغم من أن الباحثين ظلوا وهم (كلهم عيون وأذان) يبحثون عن ألواح جديدة عن الطوفان إلا أنهم لم يعثروا ولو على قطعة واحدة أخرى في أي متحف من المتاحف، أو بين المجموعات الخاصة أو أثناء التنقيبات. فظلت القطعة التي نشرها (بوبل) مصدرنا الوحيد عن رواية الطوفان عند السومريين كما أن الترجمة التي قدمها (بوبل) لاتزال الأساس المعتمد لدى جميع الباحثين :

ومحتويات هذا اللوح الفريد كبيرة الأهمية لا من أجل حادثة الطوفان وحسب، بالرغم من أن هذا الموضوع هو موضوعها الأساسي، بل من أجل العبارات التي تأتي في مقدمة قصة الطوفان كتمهيد لها. وبالرغم مما في النص من كسر ونقص، فإن ما ورد فيه من العبارات ذات شأن كبير في إيضاح العقائد السومرية عن أصل الكون وأصل الآلهة. فهي تتضمن مواطن مهمة تلقي ضوءاً كاشفاً على خلق الإنسان، وأصل الملكية، ووجود ما لا يقل عن خمس مدن في عصر ما قبل الطوفان.

ولما كان القسم الأسفل هو الذي بقي سالماً من اللوح فإنها تبدأ بعد أن يكون قد مرّ جزء من القصة كان يملأ 37 سطراً، وما من سبيل لمعرفة كيف تبدأ الأسطورة. وبعد الكسر نقرأ في النص كيف يخاطب أحد الآلهة غيره من الآلهة،

ولعله يقول لهم إنه سيخلص البشر من الهلاك والدمار، وإن الإنسان سيستطيع بعد ذلك أن يبني المدن ويشيد معابد الآلهة. ويعقب هذا الخطاب ثلاثة أسطر تصعب معرفة علاقتها بسياق النص، ومن المرجح أنها تصف ما قام به ذلك الإله ليخرج قوله الى حيز العمل. ثم تأتي أربعة أسطر تصف خلق الإنسان والحيوانات والنباتات. ثم يعقبها نقص في النص مقداره نحو 37 سطراً وبعد ذلك نخبرنا الأسطورة أن "الملكية" نزلت من السماء وأسست خمس مدن. ثم يلي كسر آخر مقداره نحو 37 سطراً آخر خصصت لذكر قرار الآلهة بإحداث الطوفان وإفناء البشر، وقد أحزنهم ذلك القرار القاسي. ثم يأتي خبر (زيو سدرا) وهو نظير "نوح" التوراة، وقد وصف في الأسطورة بكونه ملكاً صالحاً، تقياً، يخشى الآلهة. وكان يتلهف شوقاً الى الاتصال بالوحي الإلهي في الأحلام وفي تلاوة التعاويذ والأدعية، ويبدوا (زيو سدرا) هذا وقد جلس بجانب حائط يستمع الى صوت أحد الآلهة وهو يبلغه أمر القرار الذي اتخذ الآلهة في مجتمعهم بأن يسلطوا طوفاناً (ليهلكو ذرية البشر). ونورد فيما يأتي أطول الفقرات في نص الأسورة:

(( الطوفان ..

...

هكذا حلّ ب...)

ثم انتحبت ((نتو)) وبكت مثل ...

((إنانا)) الطاهرة ناحت من أجل أناسها،

فتدبر ((أنكي)) الأمر بنفسه،

والآلهة ((آن)) و ((أنليل)) و ((ننخر ساج)) ...  
 آلهة السماء والأرض نطقت بإسم ((آن)) و ((أنليل))،  
 ثم عمد ((زيو سدرا)) الملك، الذي هو ((باشيشو)) ال...،  
 صنع ... ضخماً،

وبكل خضوع وطاعة وتبجيل صار يتردد دوماً الى ال...،  
 حاملاً معه أخبار جميع أصناف الأحلام،  
 وأخذ ينطق بإسم السماء والأرض...  
 ... الآلهة ... حائط ...،

كان ((زيو سدرا)) قائماً بجانبه وهو يصغي،  
 قف عند الحائط الى جانبي الأيسر...،  
 وعند الحائط سأبلغك بكلمة، فخذ كلمتي،  
 استمع لإرشادي ووصاياي:

في (مجتمعنا) (؟) ... إن طوفاناً سيدمر مراكز العبادة،  
 وتهلك ذرية البشر ...،

إنّ هذا هو القرار الذي أصدره الآلهة في مجتمعهم.  
 وبالكلمة التي أمر بها ((آن)) و ((أنليل))،

(سيؤتى) على ملو كيتها ونظام حكمها.

سجد أمام ((أوتو))

وقتل الملك ثوراً وذبح كبشاً)).

ويعقب هذا الموطن أيضاً نقص في النص قوامه نحو 39 سطراً. ثم تصف لنا الأسطر الأخيرة من النص كيف أهوا ((زيو سدر)). فإنه بعد أن سجد للإلهة ((آن)) و ((أنليل)) وهبت له الحياة (الخالدة) مثل إله، وزود بالنفس الخالد ونقل الى "دلمون"<sup>(١)</sup> حيث مطلع الفجر:

(١) لما شرع كهنة سومر في اعمال الفكر في الخليقة والتكوين أوصلهم البحث الى وضع أساطير عديدة، كان من جملتها كيفية ظهور الإنسان فوق سطح الأرض. وقد عجزوا عن التوصل الى حل لهذه المشكلة. ولما كانت اساطيرهم تنص على أن للآلهة كافة اباً واحداً هو (ابسو)، عنصر الماء المذكر، وأماً واحدة هي (تيومة) عنصر الماء المؤنث، ومنها تناسلت الآلهة، فساقهم الخيال الى فرض أب واحد للنسل الإنساني كله، وهو لولو (آدم) وأم واحدة. وفي اسطورة سومرية قديمة أخرى هو (أدبا). ولعل هذا الإسم انقلب بعد ذلك الى اداما وأدم وآدم. وفي الأساطير الآشورية والبابلية أوليكرا وزيلكرا واعتبار تفرع الأنسال البشرية كافة من ذلك الأب والأم. فمن يكن هذا الأب البشري؟ وكيف يجب خلقه؟

لم يعجز الخيال عن حل لهذا الأس البشري المجهول، ولهذا السر الغامض. فجعلوا الآلهة خالقة لأبي البشر (لولو) من دم (كنكو) الإله الاسطوري المقتول ومن تراب الأرض. فكان (لولو) شخصاً سماوياً أرضياً وأسكنوه في جنة عدن ليعمل فيها ويحفظها ويعبد الآلهة التي خلقتة جزاءً أبدياً له، ويهيء لها الطعام والشراب والخمر ويجررها من الحاجة الى العمل للعيش.

وإن لم يعثر المنقبون حتى الآن على رقيم يؤيد وجود جنة عدن عند السومريين بأوصافها المعلومة كما وردت في سفر التكوين العبري، إلا أن هناك اسطورة سومرية تسمى اسطورة (دلمون) أشبه شيء بجنة عدن أو الفردوس الأرضي، خلاصتها:

إن الإله أنكي - أيا إله الماء السومري يذهب مع نن خرساك وتسمى أيضاً ننتو، وهي أم الآلهة العظام الى موقع يسمى في الاسطورة (دلمون) فيحل ضيفاً على نن سكل إلهة (دلمون)، ثم تقول الاسطورة:

صار ذلك الموضع نظيفاً وصار نيراً.  
ولم تصرخ الحدأة بصوتها.  
ولم يفترس الأسد.  
ولم يختطف الذئب الحمل.  
ولم يعرف الكلب عاقر الجدي.  
ولم يعرف الخنزير مخرب الغلة.  
ومريض العين لم يقل أنا مريض العين.  
ولم تقل عجوز (دلمون) أنا عجوز.  
ولم يقل شيخ (دلمون) أنا شيخ عجوز.  
ولم ... عذراء دنسة في المدينة.  
ولم ينح نائح برثاء..  
ولم يندب أحد في المدينة<sup>(\*)</sup>

(\*) (تاريخ الأديان، الألوهية وتاريخ الآلهة، ص ٢٣٤ وما بعدها).

والعلماء مختلفون في موقع (دلمون) السومرية هذه، فذهب بعضهم الى أنها في الجهة الجنوبية الغربية من بلاد فارس (الجزء الشرقي من ساحل الخليج العربي) ومنهم من رأى أنها منطقة وادي السند، ومنهم من رأى أنها سهول العراق الكائنة الى جنوب غرب بابل، وهناك رأي أنها تقع في القسم الشرقي من جزيرة العرب بين مجان وبيت نسانو، إلا أن غالبية العلماء يكادون يتفقون على أن موقع (دلمون) إنما هو جزيرة البحرين الحالية، أو جزيرة البحرين والساحل المقابل لها<sup>(\*)</sup>

(\*) دراسات تاريخية من القرآن الكريم: ج ٤، ص ٣٦.

((فاه ((آن)) و ((أنليل)) بنفس السماء ونفس الأرض.

فانتشرب...

وظهر النبات والزرع وارتفع،

الملك ((زيو سدر))،

سجد أمام ((آن)) و ((أنليل))،

واصطفى ((آن)) و ((أنليل)) زيو سدر،

ووهباه الحياة مثل إله.

لقد أدخلوا فيه النفس الخالد مثل إله.

((زيو سدر))،

الملك الذي حافظ على الزرع والذي صان ذرية البشر،

((وفي أرض العبور)) في أرض ((دلون))، الموضع الذي تشرق منه

الشمس،

أسكناه هناك)).

---

ويذهب صاحب كتاب (العراق القديم) الى أن (دلون) هنا يمكن أن تعني أي مكان

خيالي بعيد وليس جزيرة البحرين بالضرورة<sup>(\*)</sup>. وهذا الرأي أقرب للصواب من

تحديدنا بمنطقة ما.

(\*) العراق القديم، جورج رو: ص ١٥١.

أما باقي اللوح، وكان يحتوي على 39 سطراً من النص، فهو مكسور ولهذا لا نعرف شيئاً عما عساه أن يكون قد حدث لزيو سدر الذي انتقل من البشر الى إله في عالم الخالدين<sup>(١)</sup>.

---

(١) من ألواح سومر: صمويل كريم، ترجمة طه باقر، نشر دار الوراق، بيروت، ط ١، ٢٠١٠م: ص ٢٦٥ وما بعدها بتصرف، وينظر تاريخ حضارة وادي الرافدين: ج ١ ص ٢٠٣ وما بعدها وكذلك مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: ص ٣٢٩ وما بعدها. ودراسات من القرآن الكريم: ج ١ ص ٣١ وما بعدها. وجلجامش ملحمة الرافدين الخالدة، ص ٧٥ وما بعدها.



## قصة الطوفان البابلية

### نصوص ملحمة جلجامش الخاصة بالطوفان

لقد ظلّ العالم لا يعرف شيئاً عن قصة الطوفان البابلية إلا من خلال رواية ((بيروسوس)) التي كتبت باللغة اليونانية، الى أن عشر ((هـ . رسام (H.Rassam)) في عام ١٨٥٣ م على نسخة من رواية الطوفان البابلية في مكتبة ((آشور بانيبال)) ((٦٦٨-٦٢٦ ق.م)) الشهيرة في العاصمة الآشورية ((نينوى)) ترجع الى القرن السابع ق.م)).

وفي الثالث من ديسمبر ١٨٧٢ أعلن ((سيدني سميث)) نجاحه في جمع القطع المتناثرة من ملحمة جلجامش بعضها على بعض<sup>(١)</sup>.

وتألف ملحمة جلجامش من اثني عشر رقياً يحتوي كل منها على زهاء ٣٠٠ سطر بإستثناء الرقيم الثاني عشر الذي يحتوي على ١٥٠ سطراً لذلك هي أطول قصيدة من الأشعار كتبت باللغة السامية (الأكديّة) وقد اختص الرقيم الحادي عشر بموضوع الطوفان وهو أطول وأكمل خبر عن الطوفان وصل إلينا من سكان العراق القديم. والرقيم الثاني عشر يكون قصة لا علاقة لها بسياق حوادث الملحمة يدور حول وصف العالم الأسفل أو عالم الأرواح كما شاهده (أنكيدو) صاحب جلجامش. ويعتقد أن الملحمة أقرب ما تكون الى جمع أدبي مؤلف من قطع مختلفة جمعت بعضها الى بعض جمعاً أدبياً لتكون وحدة على هيئة ملحمة، وبذلك يمكن اعتبار موضوع الطوفان مستقلاً قد أدخل ضمن الملحمة المذكورة، والدليل على ذلك انه عشر على عدة روايات من آثار السومريين ينطبق

(١) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، مصدر سابق: ج ٤ ص ٤١.

فحواها على ما ورد في ملحمة جلجامش عن أخبار الطوفان<sup>(١)</sup>.

والبيانات الأركيولوجية الراهنة تدل على أن أوروك كانت أكبر المدن السومرية في مطلع عصر الأسرات، وأنها بلغت مرحلة المدينة الحقيقية قبل غيرها من المراكز الحضرية في وادي الرافدين الجنوبي. وتأتي البيانات الكتابية والأخبار المتناقلة عن ذلك العصر في إتفاق مع البيانات الأركيولوجية. فإذا أراد المؤرخ أن يقدم مثلاً على أعرق مدينة في أعرق حضارة مدنية، فإن مدينة أوروك ستكون له النموذج والمثال المناسب.

وصلت أوروك قمة ازدهارها خلال أواسط عصر الأسرات الأولى، حوالي عام 2600 ق.م ويرجح علماء الآثار أن سورها العظيم قد بني حوالي ذلك التاريخ وأنه قد أحاط بمساحة تقدر بأربعمئة هكتار. أما عدد سكانها فقد وصل إلى 50.000 نسمة. فإذا عرفنا أن عدد سكان مدينة روما في أوائل العصر القيصري لم يتجاوز 150.000 نسمة. لأدركنا أية عظمة بلغتها مدينة أوروك في ذلك الوقت المبكر من مطالع التاريخ المكتوب. أوروك أواسط عصر الأسرات هذه هي مدينة جلجامش، الملك الذي تعزو إليه الأساطير والنصوص الإخبارية بناء السور الكبير من حولها وأهم الأوابد المعمارية فيها. وهي مركز أحداث ملحمتنا البابلية<sup>(٢)</sup>.

وهل كان جلجامش رجلاً من لحم ودم، أم كان شخصية خيالية خلفتها الأساطير والملاحم البطولية؟ هناك نصوص أدبية سومرية تتحدث عن

(١) تاريخ وادي الرافدين، مصدر سابق: ج ١ ص ٢٠٧.

(٢) جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط ١،

جلجامش ولكن هذه النصوص قد دونت على ما يبدو خلال فترة أسرة أور الثالثة، أي بعد عدة قرون من التاريخ المفترض لحياة جلجامش. ولا يوجد بين أيدينا حتى الآن نص من عصر جلجامش يذكره، سواء من أوروك نفسها أم من غيرها من المدن السومرية. غير أن ما يعوض النقص في هذه المصادر المباشرة أن الشخصيات التي تذكر النصوص السومرية علاقتها بالملك جلجامش، قد أمكن التثبت من وجودها التاريخي من خلال وثائق كتابية ترجع إلى عصرها وعصر جلجامش. من هذه الشخصيات الملك (إن - مماغيزي) ملك كيش، وإبنة (أجا) الذي نازع جلجامش في النص المعروف بـ (جلجامش وأجا). وهناك أيضاً الملك (ميسا نبيدا) ملك أور وولداه. يضاف إلى ذلك الوثيقة السومرية المعروفة بثبت ملوك سومر، والتي أعطتنا أسماء العديد من ملوك عصر السلالات الأولى الذين ثبت وجودهم تاريخياً، قد جعلت من جلجامش الملك الخامس في أسرة أوروك الأولى التي حكمت بعد الطوفان، أي خلال أواسط عصر السلالات الأولى. فإذا قاطعنا وثيقة ثبت ملوك سومر والأخبار المتفرقة التي تعزو إلى جلجامش بناء سور أوروك مع نتائج علم الآثار التي تُرجع بناء هذا السور إلى أواسط عصر الأسرات الأولى، لخرجنا بمحصلة أخيرة تؤيد وجود ملك تاريخي اسمه جلجامش حكم مدينة أوروك في زمن ما خلال النصف الثاني من القرن السابع والعشرين قبل الميلاد<sup>(١)</sup>.

وإلى جانب النصوص الأدبية والإخبارية، لدينا من القرن الخامس والعشرين على الأقل شواهد نصية طقسية تدل على أن جلجامش قد تم تأليهه في أكثر من منطقة سومرية. ويجب أن لا نفهم من (التأليه) هنا أن جلجامش قد

(١) المصدر نفسه، ص ٣٦.

دخل مجمع الآلهة السومرية، لأن مفهوم (الإنسان المؤله) بعد موته، في الحضارات القديمة، ذو علاقة بمؤسسة عبادة الأسلاف، فجلجامش قد غدا بعد موته أحد الأسلاف المؤلهين الذين تنتشر عبادتهم على النطاق الشعبي بعد موتهم، بسبب الأعمال الجليلة التي قاموا بها في حياتهم والنعف العام الذي جلبوه لجماعتهم<sup>(١)</sup>.

وإليك الآن أهم النصوص الخاصة بالطوفان كما رواها (أوتو - نبشتم) الى جلجامش:

((ركب جلجامش)) و ((أور - شنابي)) في السفينة

أنزلا السفينة في الأمواج وهما على ظهرها

وفي اليوم الثالث قطعاً في سفرهما ما يعادل شهراً وخمسة عشر يوماً

من السفر العادي

وبلغ ((أور - شنابي)) مياه الموت

وعندئذ نادى ((أور - شنابي)) جلجامش وقال له :

((هيا يا جلجامش أسرع وخذ ((مرديا)) وادفع به

وحذار أن تمس يدك مياه الموت

اسرع يا جلجامش وتناول ((مرديا)) ثانياً وثالثاً ورابعاً

(١) المصدر نفسه، ص ٣٦.

يا جلعامش خذ ((مرديا)) خامساً وسادساً وسابعاً

خذ يا جلعامش ((مرديا)) ثامناً وتاسعاً وعاشراً

خذ مردياً حادي عشر واثاني عشر

وبمائة وعشرين دفعة ((مردي)) استعمل جلعامش كل ((المرادي))<sup>(١)</sup>

ثم نزع جلعامش ثيابه

ونشرها بيديه كأنها الشراع

وكان ((أوتو - نبشتم)) قد أبصر السفينة من بعيد

فأخذ يخاطب قلبه ويناجي نفسه ويقول:

علام دمرت ((صور الحجر)) الخاصة بالسفينة؟

ولم يركب عليها شخص غير ملاحها؟

فان الآخر الآتي فيها ليس من إتباعي

.....

(بقية النص من العمود الرابع وبداية الخامس مخرومة ولكن يتضح من

(١) لانها كانا يمخران في ((مياه الموت)) فإن جلعامش لم يستعمل المردي الواحد الآ  
لدفعة واحدة، اذ أنه بعد أن يغطس معظم طوله في الماء يرميه مخافة أن تلمس يده مياه  
الموت. و((المردي)) وجمعه ((مرادي)) أو ((مراريد)) لا يزال يستعمل في العراق في  
دفع السفن النهرية.

السياق إن جلجامش يلتقي بجده ((أوتو - نبشتم)) فيسأله عن سبب مجيئه، وهي نفس الأسئلة التي وجهتها إليه صاحبة الحانة والملاح، كما أن جلجامش يجيبه بالأجوبة نفسها تقريباً):-

((أجاب جلجامش ((أوتو - نبشتم)) وقال له :

يا ((أوتو - نبشتم))، كيف لا تذبل وجنتاي ويمتقع وجهي ويغمر الحزن قلبي وتتبدل هيئتي ويصير وجهي أشعث كمن أنهكه السفر الطويل ويلفح وجهي الحر والقر

وأهيم على وجهي في البراري، وان خلي وأخي الأصغر

الذي طارد الوحش في البرية وأصطاد النمر في الصحارى. أنه ((انكيدو)) الذي تغلب على جميع الصعاب وارتقى أعالي الجبال الذي أمسك بثور السماء وقتله، وغلب ((خبابا)) الذي يسكن غابة الأرز

صاحبي وخلي الذي أحبته حباً جماً

الذي رافقني في جميع الصعاب قد أدركه مصير البشرية

فبكيته ستة أيام وسبع ليال ولم أسلمه للقبر

حتى خرج الدود من أنفه

لقد أفزعني الموت فهمت على وجهي في الصحارى

فالنازلة التي حلت بصاحبي قد جثمت بثقلها على صدري

وأقضت مضجعي حتى همت مطوفا في الصحارى

إذ كيف اهدأ ويقر لي قرار وأن صاحبي الذي أحبيت صار ترابا

وأنا ألا سأكون مثله فأهجع هجعة لا أقوم من بعدها أبد الدهر؟

ثم أردف جلعامش وخاطب ((أوتو - نبشتم)) قائلا:-

ولذا تراني قد جئت لأرى ((أوتو - نبشتم)) الذي يدعونه القاصي

لقد طوفت في كل البلاد واجتزت الجبال الوعرة

وعبرت كل البحار

لم يغمض لي جفن ولم أذق طعم النوم

أنهكني السير والترحال وحل بجسمي الضنى والتعب

ولم أكد أبلغ بيت ((صاحبة الحانة)) حتى خلقت ثيابي وتمزقت،

قتلت الدب والضبع والأسد والفهد والنمر والظبي والأيل والوعل وكل

حيوان البر ودوابه

أكلت لحومها واكتسيت بفروها

.....

(يأتي نقص يبلغ نحو ٤٢ سطرا)

.....

قال ((أوتو - نيشتم)) لجلجامش:

أن الموت قاس لا يرحم

هل بنينا بيتا يقوم إلى الأبد؟

وهل ختمنا عقداً يدوم إلى الأبد؟

وهل يقسم الأخوة ميراثهم ليبقى إلى آخر الدهر؟

وهل تبقى البغضاء في الأرض إلى الأبد

وهل يرتفع النهر وتأتي بالفيضان على الدوام؟

والفراشة لا تكاد تخرج من شرنقتها فتبصر وجه الشمس حتى يجل أجلها

ولم يكن دوام وخلود منذ القدم

ويا ما أعظم الشبه بين النائم والميت

ألا تبدو عليها هيئة الموت؟

ومن ذا الذي يستطيع أن يميز بين العبد والسيد إذا وافاهما الأجل؟

إن ((الأنوناكي))<sup>(١)</sup> الآلهة العظام تجتمع مسبقا

ومعهم ((ما ميتم)) صانعة الأقدار تقدر معهم المصائر

(١) ال ((انوناكي)) اسم جنس عام يطلق على مجموع الآلهة، ويوجه خاص آلهة العالم الأسفل بوصفها قضاة ذلك العالم.



قسموا الحياة والموت

ولكن الموت لم يكشفوا عن يومه

- اللوح الحادي عشر -

فقال جلجامش لـ ((أوتو - نبشتم)) القاصي

كلما نظرت إليك يا ((أوتو - نبشتم))

وجدت هيئتك غير مختلفة، فأنت مثلي لا تختلف عني

أجل! أنت لم تتبدل بل أنك تشبهني

لقد تصورك لبي كاملاً كالبطل على أهبة القتال

فإذا بي أجذك ضعيفا مضطجعا على ظهرك

فقل لي كيف دخلت في مجمع الآلهة ونلت الحياة (الخالدة)؟

فأجاب ((أوتو - نبشتم)) جلجامش وقال له :

((يا جلجامش سأفتح لك عن سرّ خفي محبوب

سأطلعك على سر من أسرار الآلهة :

((شروباك))<sup>(١)</sup> ، المدينة التي تعرفها أنت

(١) ((شروباك)) وتعرف اطلالها الآن بإسم ((تل فاره))، بالقرب من مدينة الوركاء (على

بعد نحو ١٨ ميلا، أي نحو ٣٥ كم الى الجهة الشمالية الغربية)، وكانت من المدن

السومرية الشهيرة، وموطن بطل الطوفان البابلي ((أوتو - نبشتم))، وجاء ذكرها في

الواقعة على شاطئ نهر الفرات

أن تلك المدينة قد تقادم العهد عليها وكان الآلهة فيها.

أن الآلهة العظام قد حملتهم قلوبهم آنذاك على أحداث الطوفان

تساوروا فيما بينهم وكان معهم أبوهم ((أنو))

و((انليل))، البطل مستشارهم

و((ننورتا))، مساعدهم ووزيرهم

و((انوغى))، حاجبهم ورسولهم

وكان حاضرا معهم ((نن - ايكي - كو)) أي ((ايا))

فنقل هذا كلامهم إلى كوخ القصب وخاطبه :

((يا كوخ ! يا كوخ القصب ! يا جدار ! يا جدار !

اثبات الملوك السومرية من بين المدن الخمس التي حكمت فيها سلالات ما قبل الطوفان. أما هذه المدن فهي بالترتيب: ((أريدو)) ((أبو شهرين)) ثم ((باد تيرا))، و((لواك))، ((سپار))، ثم ((شورباك))، وتعطى أثبات الملوك السالفة الذكر لحكم سلالات هذه المدن ٢٤١٢٠٠ عام. وستأتي الإشارة في الملحمة الى أن الآلهة كانوا يحكمون في شروباك في ازمان ما قبل الطوفان حيث كانت الملوكية بيد الآلهة، وبعد حدوث الطوفان صعدت الملوكية الى السماء ثم عادت الى الأرض من بعد الطوفان، وكانت اول سلالة حكمت بعد الطوفان سلالة ((كيش)) الأولى.

اسمع يا كوخ القصب وأفهم يا حائط<sup>(١)</sup>  
 أيها الرجل ((الشروپاكي)) يا ابن ((اوبار - توتو))<sup>(٢)</sup>  
 قوض البيت وابن لك فلكا (سفينة)  
 تخل عن مالك وانشد النجاة  
 انبذ الملك وخلص حياتك  
 وأحمل في السفينة بذرة كل ذي حياة  
 والسفينة التي ستبني  
 عليك أن تضبط مقاسها  
 ليكن عرضها مساويا لطولها  
 واختمها جاعلاً اياها مثل مياه ال ((ابسو)) (مياه العمق)  
 ولما وعيت ذلك قلت لربي، ((ايا)) : (ينظر المصور رقم ٩)  
 سمع يا سيدي ! إن ما أمرت به سأصدع به وأعمل به  
 ولكن ما عسى أن أقول للمدينة؟  
 وبم سأجيب الناس والشيوخ؟

(١) الخطاب، كما هو واضح من النص، موجه بطريق التورية الى صاحب الكوخ أي ((اوتو - نبشتم)) (من قبيل: (واسال القرية) أي (أهل القرية)).  
 (٢) (اوبار - توتو) كان أيضاً أحد الملوك القدامى وانه حكم في شورباك مدى طويلاً.



المصوّر رقم (٩)  
(إيا) إله المياه الجوفية والبحار

ففتح ((ايا)) فاه، وقال لي، مخاطباً إياي، أنا عبده :

((قل لهم هكذا: ((إني علمت أن انليل يبغضني

فلا استطيع العيش في مدينتكم بعد الآن

ولن أوجه وجهي الى ارض انليل واسكن فيها

بل سأرد (أنزل) الى ال ((أبسو))<sup>(١)</sup>

وأعيش مع ((ايا))،

وأنتم سيمطركم بالوفرة والفيض

ومن مجاميع الطير، وعجائب الأسماك

وستملأ البلاد بالغلال والخيرات

وفي المساء سيمطركم الموكل بالزوابع بمطر من قمح<sup>(٢)</sup>

ولما نورت أولى بشائر الصباح تجمع البلد حولي

(١) مياه العمق ال (ابسو)، وكانت في اعتقاد العراقيين القدماء، المياه الجوفية السفلى، حيث

موطن اله الماء ((ايا))، وقد يعنون بـ ((ابسو))، مياه المحيط الأسفل، حيث اعتقدوا ان الأنهار والأهوار تخرج من تلك المياه.

(٢) استعمل الكاتب هنا تورية من الكلمتين البابليتين (Kibati) و (Kukku) اللتين

تعنيان معنى مزدوجاً، اما الطعام أو الهلاك. وقد قصد الإله ((ايا)) من هذه التورية أن يفهم عامة الناس ان هذه بشرى بالخير. اما بالنسبة الى ((اوتو - نبشتم)) فيعني وقوع الطوفان الذي كان على وشك الحدوث.

حملوا إلى أصحابي من ماشية مراعي البراري

..... (انخرام من أربعة أسطر)

جلب الى الصغار منهم القير

وحمل الكبار كل الحاجات الأخرى

وفي اليوم الخامس أقيمت بنيتها (هيكلها)<sup>(١)</sup>

وكان سطح أرضها ((إيكر)) واحداً وعلو جدرانها مائة وعشرين

ذراعاً<sup>(٢)</sup>

وطول كل جانب من جوانب سطحها الأربعة مائة وعشرون ذراعاً

حددت شكلها الخارجي وبنيتها هكذا :

جعلت فيها ستة طوابق (تحتانية)

وبهذا فرزتها (قسمتها) إلى سبعة طوابق

وفرزت (قسمت) أرضيتها إلى تسعة أقسام<sup>(٣)</sup>

(١) أي هيكل السفينة.

(٢) ال (إيكر) البابلي مساحة سطحية تعادل نحو ٣٦٠٠ متراً مربعاً أي نحو ((إيكر)) واحد

(يساوي الايكر نحو ٢٤٠٠٠ م<sup>٢</sup>). أما الذراع البابلية فتساوي نحو نصف متر (أي بقدر

الذراع العربية تقريباً)، وبما ان ارتفاعها ٦٠ م (١٢٠ ذراعاً) فيكون شكل سفينة (اوتو

- نبشتم) مكعباً منتظماً وسعتها نحو ٢١٦٠٠٠ متر مكعب. قارن بهذا الصدد أبعاد

سفينة نوح كما وردت في سفر التكوين ٦ : ٥.

(٣) أي ان كل طابق من الطوابق السبعة قسمه ((اوتو - نبشتم)) الى تسعة أقسام أو

مقاصير.

وحشوتها<sup>(١)</sup> وغرزت فيها أوتاد الماء<sup>(٢)</sup>  
 ووضعت فيها ((المرادي)) وجهازها بالمؤن  
 سكبت ستة ((شارات)) من القار في الكورة<sup>(٣)</sup>  
 وسكبت أيضا ثلاثة ((شارات)) من القطران  
 وجلب حاملو السلال ثلاثة ((شارات)) من السمن  
 بالإضافة إلى ((شار)) واحد من السمن لحشو أوتاد الماء  
 و((شارين)) من السمن اخترنهما الملاح  
 (ثم) نحرت البقر وطبختها للناس<sup>(٤)</sup>  
 ونحرت الأغنام كل يوم  
 وقدمت عصير الكرم والخمر الأحمر والأبيض والسمن  
 إلى الصناعات ليشربوها بكثرة كماه النهر

(١) في كتاب تاريخ حضارة وادي الرافدين لـ (د. أحمد سوسة) جاءت الترجمة بـ (حشدتها).

ج ١، ص ٢١٣

(٢) قارن سفر التكوين (٦ : ١٦). ومصطلح ((أوتاد الماء)) واضح، وهذا ما يستعمل في

بناء السفن بغير حشوات خشبية في الفواصل ما بين الألواح لمنع الماء من النفاذ إليها

وفي الأصل البابلي ((سكك)) أو ((سكات)) بالجمع.

(٣) الـ (شار) البابلي كيل أو قياس حجم بالإضافة إلى أنه مساحة سطحية.

(٤) قارن سفر التكوين ٦ : ٢١.

ليقيموا الأعياد كما في أيام رأس السنة  
ومسحت يدي بسمن الزيت  
وتم بناء السفينة في اليوم السابع  
وكان إنزالها (إلى الماء) أمرا صعبا  
فكان عليهم أن يبدلوا ألواح القاع في الأعلى وفي الأسفل  
إلى إن غطس في الماء ثلثاها  
وحملت فيه كل ما أملك  
وكل ما عندي من فضة حملته فيها  
وحملت فيها كل ما أملك من ذهب  
وحملت فيها كل ما كان عندي من المخلوقات الحية<sup>(١)</sup>  
أركبت في السفينة جميع أهلي وذوي قرابي  
أركبت فيها حيوان الحقل وحيوان البر  
وجميع الصناع أركبتهم فيها<sup>(٢)</sup>

(١) سفر التكوين ٦ : ٢١ .

(٢) سفر التكوين ٧ : ٧-٨ .



وضرب لي الإله ((شمش))<sup>(١)</sup> موعداً معيناً بقوله :  
 ((حينما ينزل الموكل بالعواصف في المساء مطر الهلاك  
 فادخل في السفينة وأغلق بابك)). (ينظر المصور رقم ١٠)

وحل أجل الموعد المعين

وفي الليل أنزل الموكل بالعاصفة مطراً مهلكاً  
 وتطلعت إلى حالة الجو فكان مكفهرًا ومخيفاً للنظر  
 فوجدت في السفينة وأغلقت بابي

وأسلمت قياد السفينة إلى الملاح ((بوزر - أموري))

أعطيته ((البناء العظيم))<sup>(٢)</sup> وما يحويه من متاع

ولما ظهرت أنوار السحر

وفي داخلها أرعد الإله ((أدد))<sup>(٣)</sup>

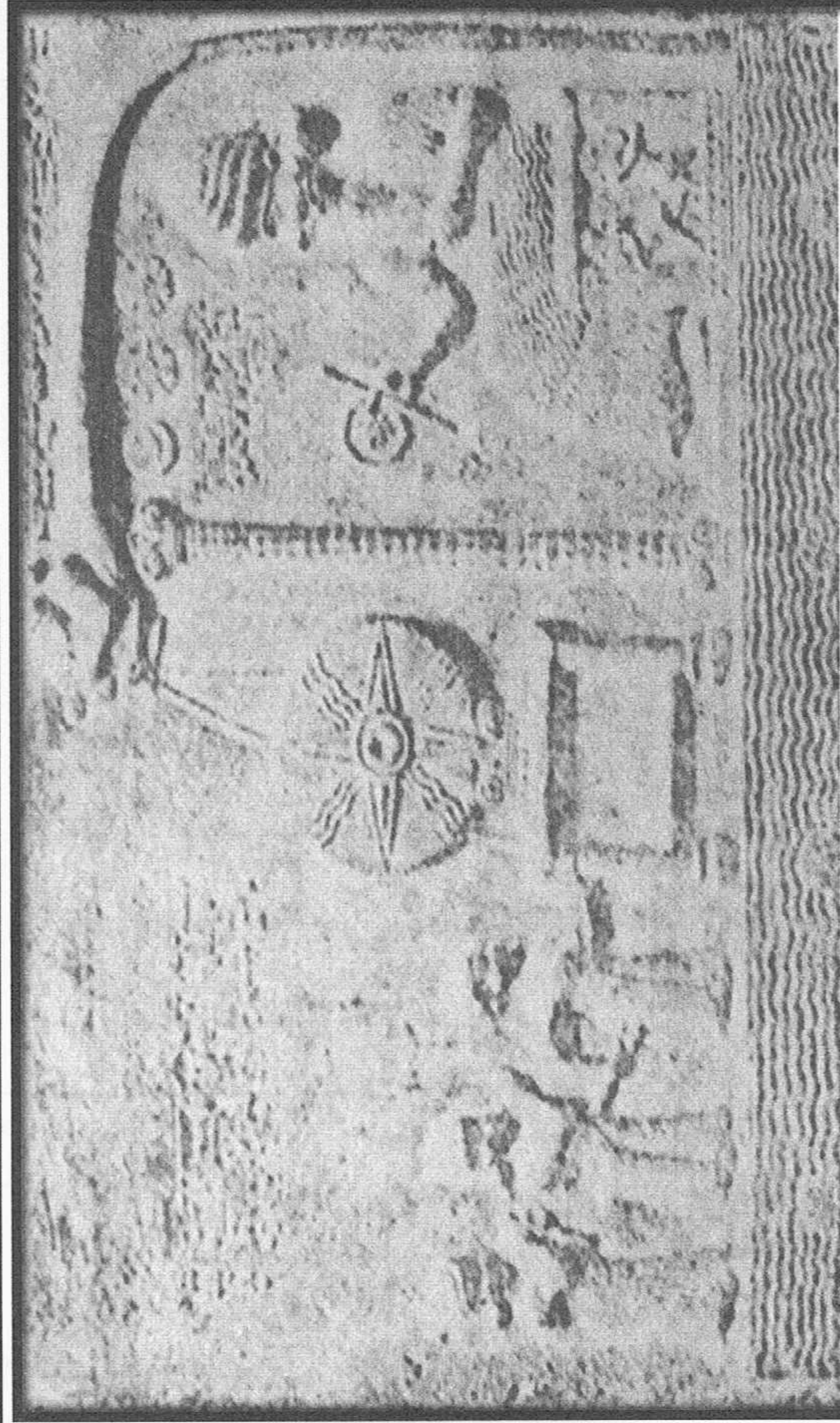
علت من الأفق البعيد (من أسس السماء) غمامة ظلماً<sup>(٤)</sup>

(١) في الموارد السابقة كان ((ايا)) هو الإله الذي أنذر ((أوتو - نبشتم)) بموعد حدوث الطوفان، فهل يعني إدخال الإله ((شمش)) بدله في هذا السطر وجود نص ثان للملحمة.

(٢) في الأصل ((القصر)) أي ((الهيكل))، أي ((السفينة)).

(٣) الإله ((أدد)) هو إله الزوابع والرعود والبروق.

(٤) سفر التكوين ٧ : ١١.



المصوّر رقم (١٠)  
عبادة الاله الشمس ((شمش)) في معبد سبار

وكان يسير أمامه ((شُلَّات)) و((خانيش))<sup>(١)</sup>

وهما ينذران أمامه في الجبال والسهول

ونزع الإله ((إيرا كال)) الأعمدة<sup>(٢)</sup>

ثم أعقبه الإله ((نورتا)) الذي فتق السدود

ورفع الـ ((انوناكي)) المشاعل

وجعلوا الأرض تلتهب بوهج أنوارها

وبلغت رعود الآلهة ((أدد)) عنان السماء (ينظر المصوّر رقم ١١)

فأحالت كل نور إلى ظلمة

وتحطمت الأرض الفسيحة كما تتحطم الجرة

وظلت زوابع الريح الجنوبية<sup>(٣)</sup> تهب يوماً كاملاً

وازدادت شدة في مهبتها حتى غطت الجبال<sup>(٤)</sup>

(١) من رسل الإله ((أدد)).

(٢) ((إيرا كال)) من آلهة العالم الأسفل، وأحد أسماء الإله ((نرجال)) (نرجول في التوراة)، إله العالم الأسفل، ولعل المقصود بالأعمدة هنا ((دعائم سد العالم الأسفل))، الذي يجس المياه الجوفية السفلى.

(٣) الريح الجنوبية في العراق أو بالأحرى الجنوبية الشرقية التي تسمى ((شرجي)) {شرقي} هي الرياح الممطرة عادة، وهي الرياح التي تهب من جهة الخليج ومنطقة الأهوار.

(٤) سفر التكوين ٧: ٢٠ - ٢٣.



المصوّر رقمه (١١)  
أدد - إله البرق والرعد والعواصف

وفتكت بالناس كأنها الحرب العوان

وصار الأخ لا يبصر أخاه

ولا الناس يميزون في السماء

وحتى الآلهة ذعروا من عباب الطوفان

فهربوا وعرجوا الى سماء ((أنو))<sup>(١)</sup>

لقد استكان الآلهة وربضوا كالكلاب خارج الجدار

وصرخت ((عشتار)) (كما تصرخ) المرأة في الولادة

انتحبت سيدة الآلهة وناحت بصوتها الشجي نادبة :

((وحسرتاه ! لقد عادت الأيام الأولى إلى الطين<sup>(٢)</sup>

لأنني نطقت بالشر في مجمع الآلهة

فماذا دهاني إذ نطقت بالشر

لقد سلطت الدمار على أناسي (خلقي)<sup>(٣)</sup>

وأنا التي ولدت أناسي هؤلاء

(١) ((أنو)) إله السماء أو الإله السماء. وكانت سماء ((أنو)) بحسب تصوير العراقيين

القدماء أعلى سماء من السماوات السبع.

(٢) سفر التكوين ٧ : ٢٣.

(٣) سفر التكوين ٨ : ٢١.

لقد ملأوا اليم كبيض السمك  
وبكى معها آلهة ال ((اوناكي))  
أجل ! جلس الآلهة منكسي الرؤوس يندبون  
وقد يست شفاهم  
ومضت ستة أيام وسبع امسيات  
ولم تنزل زوابع الطوفان تعصف وقد غطت الزوابع الجنوبية البلاد  
ولما حل اليوم السابع خفت وطأة زوابع الطوفان في شدتها  
وقد كانت تفتك كالجيش في الحرب العوان  
ثم هدأ البحر وسكنت العاصفة وغيض عباب الطوفان<sup>(١)</sup>  
وتطلعت إلى الجوى، فوجدت السكون عاما  
ورأيت البشر وقد عادوا جميعا الى طين  
وكالسقف كانت مياه الغدران مستوية  
فتحت كوة طاقتي فسقط النور على وجهي<sup>(٢)</sup>  
سجدت وجلست ابكي

(١) سفر التكوين ٨ : ١ - ٢.

(٢) سفر التكوين ٨ : ٦.

فانهمرت الدموع على وجهي

وتطلعت إلى حدود سواحل (البحر)

فرايت جزيرة وهي تعلو مائة وأربعة وأربعين ذراعاً<sup>(١)</sup>

واستقر الفلك على جبل ((نصير))<sup>(٢)</sup>

لقد ضبط (مسك) جبل نصير السفينة ولم يدعها تجري

ومضى يوم ويوم ثان وجبل ((نصير)) ممسك بالسفينة ولم تجر

ومضى يوم ثالث ورابع وجبل ((نصير)) ممسك بالسفينة فلم يدعها تجري

(١) وفي إحدى الترجمات: (وظهر جبل في كل من الاثنتي عشرة ناحية.

(٢) قارن رواية سفر التكوين (٨ : ٤) حيث الجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح جبال

((اراراط))، واراناراط اسم ارمينية القديم ((اورارطو)) واذا صحت قراءة اسم الجبل

في الملحمة ((نصير)) فلعل معناه ((جبل الخلاص)). وورد اسم جبل نصير في أخبار

الملك الآشوري ((آشور ناصر بال)) الثاني (٨٨٣ - ٨٥٩ ق.م)، وأنه يقع بموجب

هذه الأخبار الى جنوبي وادي الزاب الصغير، وقد ذكر مصحوباً باسم ((الكوتين))،

وقد عينه بعض الباحثين بجبل (بيره مكرون)، الجبل الشهير القريب من السليمانية،

الذي يرتفع نحو ٩ آلاف قدم، ويبعد عن ((شروباك)) موطن ((اوتو - نبشتم)) بنحو

٤٥٠ كم الى الجهة الشمالية الشرقية، وكان يعرف الى عهد قريب أيضاً باسم ((بير عمر

كودرون))، وجاء اسم الجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح البابلي، بحسب رواية

((بيرو سوس)) (برعوشا، الكاتب البابلي، القرن الثالث ق.م) باسم جبل ال

((كوردين)) أي جبل الأكراد، وفي المآثر العربية (القرآن الكريم) والمآثر السريانية كان

الجبل الذي استقرت عليه سفينة نوح جبل الجودي. (طه باقر ((ملحمة كلكامش))

وزارة الاعلام ٧٨، ص ١٤١)

وكان يوم خامس وسادس وجبل ((نصير)) ممسك بالسفينة

ولما حل اليوم السابع أخرجت حمامة وأطلقتها (تطير)

طارت الحمامة ولكنها عادت<sup>(١)</sup>

رجعت لأنها لم تجد موضعاً تحط فيه

وأخرجت السنونو وأطلقته

ذهب السنونو وعاد لأنه لم يجد موضعاً يحط فيه

ثم أخرجت غراباً وأطلقته<sup>(٢)</sup>

فذهب الغراب، ولما رأى المياه قد قرت وانحسرت

أكل وحام وحط ولم يعد

وعند ذاك أخرجت كل ما في السفينة إلى الرياح الأربع

وقربت قربانا

(١) سفر التكوين ٨ : ٨ - ١٠ .

(٢) في سفر التكوين ٨ : ٧ وصف حدث اطلاق الطيور في التوراة بإسهاب، فبعد اربعين

يوماً من بدء الطوفان وعند ظهور قمم الجبال اطلق نوح غراباً، فظل هذا الطائر يحوم

حتى انحسار الطوفان ولم يعد الى السفينة، وبعد سبعة أيام اطلق نوح حمامة، وهذه لم

تجد موضعاً تحط فيه فعادت (٨ : ٨ - ٩)، وبعد سبعة أيام أخرى اطلق نوح حمامة

أخرى فوجدت هذه طعاماً وبعض المواضع اليابسة ولكنها عادت حاملة معها غصن

زيتون أخضر (٨ : ١٠ - ١١). وبعد سبعة أيام أيضاً اطلق حمامة ثالثة (٨ : ١١) لم

ترجع إليه، فتأكد من انحسار المياه حتى من الأجزاء الواطئة من الأرض.



وسكبت الماء المقدس على زقورة (قمة) الجبل<sup>(١)</sup>  
 ونصبت سبعة وسبعة قدور للقرايين<sup>(٢)</sup>  
 وكدست أسفلها القصب وخشب الأرز والآس  
 فتنسم الآلهة شذاها  
 أجل تشم الآلهة عرفها الطيب  
 فتجمع الآلهة على صاحب القربان كأنهم ذباب  
 ولما حضرت الآلهة العظيمة (عشتار)  
 رفعت عقد الجواهر الذي صاغه لها ((أنو))، وفق هواها، وقالت:  
 أنتم أيها الآلهة الحاضرون: كما انني لا أنسى عقد اللازورد هذا الذي  
 في جيدي

سأظل أتحمس (أذكر) هذه الأيام ولن أنساها أبدا<sup>(٣)</sup>

(١) سفر التكوين (٨: ١٩ - ٢٠).

(٢) التعبير سبعة وسبعة لرقم ١٤ ذو مغزى حضاري فإن التعبير نفسه نجده مستعملاً في لغة الطقوس الدينية عند اليونان. (DIS HEPTA) وهذا من جملة الأدلة الكثيرة على مواطن الشبه والاتصال بين ملحمة جلجامش وأساطير اليونان وآدابها. (طه باقر ((ملحمة كلكامش)) وزارة الاعلام، ٧٨، ص ١٤٢.

(٣) يقارن بعضهم هذا العمل من جانب الآلهة ((عشتار)) بقوس قزح الوارد ذكره في التوراة والذي كان ((آيا)) عهد الله الى نوح وذريته بعدم تكرار حدوث الطوفان (سفر التكوين ٩: ٨ - ١٧). (طه باقر ((ملحمة جلجامش)) وزارة الاعلام، ٧٨، ص ١٤٣.

ليتقدم الآلهة إلى القرابين

أما ((انليل)) فحذار أن يقترب من القرابين

لأنه لم يتروّ فأحدث عباب الطوفان

وأسلم أناسي (خلقي) إلى الهلاك

ولما أن جاء انليل وأبصر الفلك غضب

وامتلاً حنقاً على الآلهة الـ ((أيكيكي))<sup>(١)</sup> وقال:

((عجباً كيف نجت نفس واحدة،

وكان المقدر الا ينجو بشر من الهلاك؟

ففتح الإله ((ننورتا))<sup>(٢)</sup> فاه وقال مخاطباً البطل ((انليل)):

من ذا الذي يستطيع إن يدبر مثل هذا الأمر غير (إيا)؟

أجل أن ((إيا)) هو الذي يعرف خفايا الأمور

وعند ذاك فتح ((إيا)) فاه وقال مخاطباً ((انليل)) البطل:

((أيها البطل ! أنت أحكم الآلهة

فكيف لم تترو فأحدثت عباب الطوفان؟

(١) (ايكيكي) اسم جنس عام يطلق على جميع آلهة السماء.

(٢) (ننورتا) ابن الإله ((انليل))، ورسول الآلهة وإله الحرب.

حمل المخطيء وزر خطيئته

وحمل المعتدي إثم اعتدائه

ولكن ارحم (في العقاب) لئلا يهلك،

وتشدد لئلا يمعن في الشر

ولو أنك بدلا من إحداثك الطوفان

سلطت السباع على الناس فقللت من عددهم<sup>(١)</sup>

ولو انك بدل امن إحداثك الطوفان

سلطت الذئاب فقللت من عدد الناس

وبدلاً من الطوفان لو انك أحللت القحط في البلاد

وبدلاً من الطوفان لو ان ((إيرا))<sup>(٢)</sup>، فتك بالناس

أما إنا فلم افش سر الآلهة العظام

ولكنني جعلت ((أترا - حاسس))<sup>(٣)</sup> يرى رؤيا

(١) قارن سفر الجامعة ١٤ : ١٣ - ٢١.

(٢) ((إيرا))، إله الوباء والطاعون.

(٣) ((أترا - حاسس)): ومعناه بالبابلية المفرط في الحس والفهم أي الحكمة، وهي صفة أو

إسم آخر لبطل الطوفان ((اوتو - نبشتم)). وتوجد قصة بابلية أخرى عن الطوفان

تدور على (أترا - حاسس) وقد جاء فيها أن الآلهة سلطت على البشر لمعاقبتهم وافنائهم

عدة افات من بينها القحط والوباء واخيراً الطوفان. (طه باقر، ملحمة جلجامش).

فأدرك سر الآلهة

والآن تدبر أمره وقرر مصيره

ثم علا (صعد) ((انليل)) فوق السفينة

وأمسك بيدي وأركبني معه في السفينة

وأركب معي أيضاً زوجي وجعلها تسجد بجانبني<sup>(١)</sup>.

وزارة الاعلام ٧٨، ص ١٤٤ وينظر تاريخ حضارة وادي الرافدين للدكتور أحمد سوسة، ج ١، ص ٢٢٢.

(١) أوردنا قصة الطوفان كما يرويها (اوتو - نبشتم) لـ (جلجامش) هي وتعليقاتها من كتاب (ملحمة كلكامش) لـ (طه باقر)، نشر وزارة الاعلام العراقية، ط ١، ١٩٧٥: ص ١٢٥ وما بعدها. مع إضافة بعض التعليقات منّا. وينظر تاريخ حضارة وادي الرافدين للدكتور أحمد سوسة: ج ١، ص ٢١٢ وما بعدها. و (جلجامش) لفراس السواح: ص ٢١٨ وما بعدها. و (دراسات تاريخية من القرآن الكريم) د. محمد بيومي مهران، ج ٤، ص ٤٢ وما بعدها. و (من ألواح سومر) لـ (صمويل كريم)، نشر دار الوراق، ص ٣٥٨ وما بعدها.

## متى حدث الطوفان؟

مما لا شك فيه أن حادثة الطوفان وقعت في العراق وفي القسم الجنوبي منه، أي السهل الرسوبي، ويرى البعض أن زمنها يرجع في أغلب الاحتمالات الى أواخر العصر الحجري في أوائل عصر فجر السلالات (أواخر الألف الرابعة ق.م)، وربما مما له صلة بهذا الطوفان آثار الترسبات الغرينية التي وجدت في جملة مواضع أثرية جرى التنقيب فيها مثل كيش والوركاء وشروباك، وهي تفصل ما بين الطبقات العائدة الى دور ((جمدة نصر)) وبين طبقات عصر فجر السلالات الأول. وشروباك هي المدينة الأخيرة من المدن التي حكمت قبل الطوفان<sup>(١)</sup>.

ويشير الدكتور رالف ليفيتون في كتابه (شجرة الحضارة) ترجمة الدكتور أحمد فخري (٤ : ٢١٥) أن هناك فيضانا عظيماً حدث حوالي عام ٣٥٠٠ ق.م. وربما كان الأساس الذي قامت عليه اسطورة طوفان نوح وسفينة التي وردت في التوراة<sup>(٢)</sup>.

وقد حدد بعض من علماء الآثار زمن حدوث الطوفان بالآلف الثالثة قبل الميلاد، أي قبل حوالي خمسة آلاف سنة، حتى صار هذا التاريخ يرمز الى الحد الفاصل بين تأريخ أحداث ما قبل الطوفان وبين أحداث ما بعده، ومن البديهي أن هذا التحديد لا يتعدى كونه مجرد تخمين، إلا أن الشيء الأكيد هو وجود هذا الحد الفاصل بدلالة تردد الاشارة إليه في المدونات القديمة الى وقائع وأحداث يرجع بعضها الى ما سبق الطوفان وأحداث أخرى الى ما بعده، وذلك جرياً على

(١) تاريخ حضارة وادي الرافدين، مصدر سابق: ج ١، ص ٢٠٥.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٦.

العادة القديمة في تحديد التواريخ بحسب الوقائع والأحداث المهمة في مجرى حياة المجتمع<sup>(١)</sup>.

وقد جاء في إثبات الملوك السومرية ما يشير الى ان الطوفان قد حدث خلال حكم آخر ملك من ملوك مدينة شروباك وهي آخر مدينة من المدن التي حكمت قبل الطوفان. وهو الملك (زيسودرا) الشروباكي حكيم مدينة شروباك وكاهنها، حكم في عاصمة شروباك ٣٦٠٠٠ سنة وانتقل إسم هذا الملك الى المآثر الإغريقية بإسم (xisuthros) و (زيسودرا) هو ابن (اوبار - توتو) الذي حكم ١٨٠٠٠ سنة قبله، كما ورد في الاثبات السومرية<sup>(٢)</sup>.

ويقول الدكتور أحمد سوسة: والأرجح ان الملك (زيسودرا) آخر ملوك شروباك الذين حكموا في زمن ما قبل الطوفان، هو نفسه (نوح التوراة) الذي بلغ بقرار الآلهة باحداثها الطوفان وأوعز إليه أن يبني فلکاً وينتقل إليه هو وأهل بيته والوحوش والطيور والبهائم لإنقاذهم جميعاً من الغرق. وقد ورد إسمه في النسخة البابلية الأكديّة من ملحمة جلجامش (اوتو - نبشتم) وهو جد جلجامش كما تذكر الروايات السومرية. وقد ورد في الملحمة ما يشير الى وصف (اوتو - نبشتم) بانه ابن (اوبار - توتو) وهذا يجعل (زيسودرا) و (اوتو - نبشتم) بصفتهما الشخص نفسه الذي أريد انقاذه بالإيعاز إليه ان يبني الفلك. وقد ورد في قصص عن خبر الطوفان في ملحمة بابلية بان بطل قصة الطوفان هو (اترا حاسيس) ومعناه بالبابلية المفرط في الحس والفهم أي الحكمة، وهي صفة أو اسم آخر لبطل القصة، وقد جاء في هذه القصة أن الآلهة سلطت على البشر

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٥.

لمعاقبتهم وافنائهم عدة آفات من بينها القحط والوباء وأخيراً الطوفان، وفي مكان آخر من الملحمة أن الإله (شمش) هو الذي نقل الخبر إليه<sup>(١)</sup>.

ويقول العلامة طه باقر في كتابه ((مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة)): أما زمن هذا الطوفان ولا سيما الطوفان الوارد في اثبات الملوك وفي ملحمة جلجامش والذي رجحنا أن يكون طوفاناً واحداً فلا يمكن تحديده بالنسبة إلى الأدوار التاريخية المعروفة في حضارة وادي الرافدين، ولكننا إذا أخذنا بالافتراض القائل إن سلالة كيش الأولى التي حكمت من بعد الطوفان مباشرة يقع زمنها في عصر فجر السلالات الثاني ولا سيما الأطوار الأولى منه وإن زمن جلجامش في بداية الطور الثالث من هذا العصر فأقرب الاحتمالات أن ذلك الطوفان حدث ما بين دور (جمدة نصر) وبين عصر فجر السلالات الأول، ولعل من آثار هذا الطوفان ما وجد من ترسبات غرينية في جملة مواضع أثرية جرى التنقيب فيها مثل كيش والوركاء وشروباك (تل فارة) ولجش، وهي تفصل ما بين الطبقات العائدة إلى دور (جمدة نصر) وبين عصر فجر السلالات الأول. وذهب الباحث المعروف المرحوم "وولي" (Woolley)، الذي نقب في أور، إلى أن الطوفان المأثور وقع في زمن ما من الدور العبيد (في حدود 4000 ق.م)، أي قبل الزمن الذي افترضناه بأكثر من ألف عام، مستنداً في رايه هذا إلى ما وجدته من آثار ترسبات عرينية في أور من دور العبيد، بلغ ثخنها زهاء (11) قدماً، وقد عثر عليها في موضع قريب من المقبرة الملكية، ولكن لم يعثر على بقايا مماثلة من هذا الدور في المواضع الأخرى مثل (أريدو) القريبة من أور<sup>(٢)</sup>.

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٥.

(٢) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، مصدر سابق: ج ١، ص ٣٣٣.

## قصة الطوفان كما جاءت في التوراة

من الجدير بالذكر ان قصة الطوفان السومرية الأصل نقلت بأشكال متعددة فيما بعد العصر السومري، ومن هذه النقول الرواية الأكديّة البابلية ورواية التوراة التي تتفق تماماً مع النص السومري الأصلي وبخاصة ما يتعلق بالإعتقاد بأن الآلهة هي التي أحدثت الطوفان نتيجة لفساد البشر وأثام الإنسان وخطاياهم مع الفارق بين الشرك السومري والوحدانية العبرانية<sup>(١)</sup>.

وكان الناس يعتقدون حتى أواخر القرن الماضي أن التوراة هي أقدم مصدر لقصة الطوفان، ولكن الاكتشافات الحديثة أثبتت أن ذلك مجرد وهم، حيث عثر في عام ١٨٥٣ م على نسخة من رواية الطوفان البابلية، وفي الفترة ما بين عامي ١٨٨٩ م - ١٩٠٠ م، اكتشفت أول بعثة أمريكية قامت بالحفر في العراق اللوح الطيني الذي يحتوي على القصة السومرية للطوفان في مدينة ((نيبور)) (نفر)، وكان ((أرنو بوبل)) أول من قام بنشره في عام ١٩١٤ م، ثم تبعه آخرون، وإن كانت ترجمة (بوبل) هي الأساس الذي ما يزال يعتمد عليه الباحثون<sup>(٢)</sup>.

ويجمع نقاد التوراة (العهد القديم)، على أن أسطورة الطوفان العبرية كما هي

(١) تاريخ حضارة وادي الرافدين، مصدر سابق: ج ١، ص ٢٠٤.

(٢) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، مصدر سابق: ج ٤ ص ٣١ نقلاً عن:

Arno poebel, in PBS, 1r, pt. I, p. 9-70

L.W.King, Legends of Babylon and Egypt in Relation to Hebrew

S.N.Kramer, Sumerian mythology, Philadelphia, 1944, p. 97-98



مدونة في سفر التكوين تجمع بين قصتين متميزتين في أصلهما، ومتناقضتين تناقضاً جزئياً، وقد مزج المؤلف بين القصتين لكي يكون منها قصة واحدة متجانسة من ناحية الشكل، ومع ذلك فقد مزج المؤلف بينهما بطريقة فجأة للغاية، بحيث لا يفوت القارئ ما فيها من تكرار وتناقض، حتى وإن كان القارئ غير مدقق في قراءته<sup>(١)</sup>.

وأما هذان المصدران اللذان أخذ سفر التكوين قصة الطوفان عنها، فأولهما: المصدر اليهودي (Jahvistie Document) ويرمز له بالحرف "J"، وربما ألف حوالي عام ٨٥٠ ق.م في يهوذا، وسمي كذلك لأنه يستعمل اسم العلم ((يهوه))، وأما ثانيهما فهو المصدر الكهنوتي (Priety Document) ويرمز له بالحرف "P"، وهو حواشي الكهنة التي أضافوها الى نص التوراة على عهد عزرا ونحميا، وقد أدمج في مصادر التوراة الأخرى حوالي نهاية القرن الخامس، وربما الرابع ق.م. وليس من شك أن كلا المصدرين يختلف عن الآخر اختلافاً بيناً في أسلوبه وصيغته، كما أنها ينتميان الى عصور مختلفة، كما رأينا، هذا الى جانب أن الرواية (اليهودية) تنبض بحيوية وخيال، بينما النص (الكهنوتي)، وإن كان جافاً بالقياس، فهو يتميز بدقة وتدبر<sup>(٢)</sup>.

والآن لنأتي الى النص التوراتي حول طوفان نوح عليه السلام حسب ما جاء في (سفر التكوين: الإصحاح السادس - التاسع).

(١) المصدر السابق، ص ٥٣، نقلاً عن، سيرجيمس فريزر: الفلكلور في العهد القديم -

ترجمة نبيلة ابراهيم، ج ١، ص ١٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٤، نقلاً عن:

## الإصحاح السادس:

((وحدث لما ابتدأ الناس يتكاثرون على سطح الأرض وولد لهم بنات، انجذبت انظار أبناء الله الى بنات الناس فرأوا أنهن جميلات فاتخذوا لأنفسهم منهن زوجات حسب ما طاب لهم. فقال الرب: (لن يمكث روحي مجاهداً في الإنسان الى الأبد. هو بشريّ زائع، لذلك لن تطول أيامه أكثر من مئة وعشرين سنة فقط). وفي تلك الحقب. كان في الأرض جبابرة، وبعد أن دخل أبناء الله على بنات الناس وولدن لهم أبناءً، صار هؤلاء الأبناء أنفسهم الجبابرة المشهورين منذ القدم.

ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور فكر قلبه يتسم دائماً بالإثم، فملاً قلبه الأسف والحزن لأنه خلق الإنسان. وقال الرب: (أحسو الإنسان الذي خلقتة عن وجه الأرض مع سائر الناس والحيوانات والزواحف وطيور السماء، لأني حزنت أني خلقتة). أما نوح فقد حظي برضى الرب.

وهذا سجل مواليد نوح: كان نوح صالحاً كاملاً في زمانه، وسار نوح مع الله. وأنجب نوح ثلاثة أبناء هم سام وحام ويافت. وإذا ساد الشرّ الأرض أمام الله وعمّها الظلم، نظر الله وإذا بها فاسدة لأنّ كل بشر على الأرض قد سلك في طريق الإثم. فقال الله لنوح: (قد أذفت نهاية البشر جميعاً أمامي، لأنهم ملأوا الأرض ظلماً. لذلك سأبيدهم مع الأرض. ابن لك فلکاً من خشب السرو، واجعل فيه غرفاً تطليها بالزّفت من الداخل والخارج. اصنعه على هذا المثال: ليكن طوله ثلاث مئة ذراع - نحو مئة وخمسة وثلاثين متراً - وعرضه خمسين ذراعاً - نحو اثنين وعشرين متراً ونصف المتر - وارتفاعه ثلاثين ذراعاً - نحو

ثلاثة عشر متراً ونصف المتر - واجعل له نافذة على انخفاض ذراع - نحو خمسة وأربعين سنتماً - من السقف، وباباً تقيمه في جانبه. وليكن للفلك طوابق سفلية ومتوسطة وعلوية. فها أنا أغرق الأرض بطوفان من المياه لأبيد كل كائن حيّ فيها عن تحت السماء. كلّ ما على الأرض لابد أن يموت. ولكنني سأقيم معك عهداً، فتدخل أنت مع بنيك وامراتك ونساء بنيك إلى الفلك. وتأخذ معك في الفلك زوجين، ذكراً وأنثى، من كلّ كائن حيّ ذي جسد، لاستبقائها معك. تدخل معك اثنين من كلّ صنف من أصناف الطيور والبهائم والزواحف على الأرض، حفاظاً على استمرار بقائها. وتدّخر لنفسك من كلّ طعام يؤكل وتخزّنه عندك ليكون لك ولها غذاء). وفعل نوح تماماً بمقتضى كلّ ما أمر الرب به.

### الإصحاح السابع:

وقال الرب لنوح: (هيا ادخل أنت وأهل بيتك جميعاً إلى الفلك لأني وجدتكم وهدتكم صالحاً أمامي في هذا الجيل. خذ معك من كلّ نوع من الحيوانات الطاهرة سبعة ذكور وسبع إناث، وزوجين ذكراً وأنثى من كلّ نوع من الحيوانات الأخرى غير الطاهرة. وخذ معك أيضاً من كلّ نوع من الطيور السبعة ذكور وسبع إناث لاستبقاء نسلها على وجه كلّ الأرض. فإني بعد سبعة أيام أمطر على الأرض أربعين يوماً، ليلاً ونهاراً، فأمحو عن وجه الأرض كل مخلوق حي).

وفعل نوح بموجب كلّ ما أمره الرب به. وكان عمر نوح ستّ مئة سنة عندما حدث طوفان الماء على الأرض. فدخل نوح إلى الفلك مع زوجته وأبنائه وزوجاتهم (لينجو) من مياه الطوفان. وكذلك الحيوانات الطاهرة وغير الطاهرة،

والطيور والزواحف، دخلت مع نوح إلى الفلك زوجين زوجين، ذكراً وأنثى، كما أمر الله نوحاً.

وما إن انقضت الأيام السبعة حتى فاضت المياه على الأرض ففي سنة ست مئة من عمر نوح، في الشهر الثاني، في اليوم السابع عشر منه، تفجرت المياه من اللجج العميقة في باطن الأرض، وهطلت أمطار السماء الغزيرة، واستمر هذا الطوفان على الأرض ليلاً ونهاراً مدة أربعين يوماً. في ذلك اليوم الذي بدأ فيه الطوفان دخل نوح وزوجته وأبناؤه سام وحام ويافت وزوجاتهم الثلاث إلى الفلك. ودخل معهم أيضاً من الوحوش والبهائم والزواحف والطيور وذوات الأجنحة كل حسب أصنافها، من جميع المخلوقات الحية أقبلت إلى الفلك، ودخلت مع نوح زوجين زوجين، ذكراً وأنثى دخلت، من كل ذي جسد، كما أمره الله. ثم أغلق الرب عليه باب الفلك.

ودام الطوفان أربعين يوماً على الأرض، وطغت المياه ورفعت الفلك فوق الأرض، وتكاثرت المياه على الأرض وطغت جداً، فكان الفلك يطفو فوق المياه. وتعاضمت المياه جداً فوق الأرض حتى أغرقت جميع الجبال العالية التي تحت السماء كلها. وبلغ ارتفاعها خمس عشرة ذراعاً - نحو سبعة أمتار - عن أعلى الجبال، فمات كل كائن حي يتحرك على الأرض من طيور وبهائم ووحوش وزواحف وكل بشر مات كل ما يحيا ويتنفس على اليابسة. وباد من على سطح الأرض كل كائن حي سواء من الناس أم البهائم أم الزواحف أم الطيور، كلها أبيدت من الأرض، ولم يبق سوى نوح ومن معه في الفلك. وظلت المياه طامية على الأرض مدة مئة وخمسين يوماً.

## الإصحاح الثامن:

ثم افتقد الله نوحاً وما معه في الفلك من وحوش وبهائم، فأرسل ريحاً على الأرض فتقلّصت المياه وانسدت ينابيع اللجج وميازيب السماء، واحتبس المطر. وتراجعت المياه عن الأرض تدريجياً. وبعد مئة وخمسين يوماً نقصت المياه. واستقر الفلك على جبال أراراط في اليوم السابع عشر من الشهر السابع للطوفان. وظلت المياه تتناقص تدريجياً حتى الشهر العاشر. وفي اليوم الأول من الشهر العاشر بدت قمم الجبال.

وبعد أربعين يوماً أخرى فتح نوح النافذة التي كان قد عملها في الفلك. وأطلق غراباً، فخرج وظلّ يحوم متردداً إلى الفلك حتى جفت المياه عن الأرض. ثم أطلق نوح حمامةً من الفلك ليرى إن كانت المياه قد تقلصت عن وجه الأرض. ولكن الحمامة لم تجد موضعاً تستقر عليه رجلها فرجعت إليه في الفلك، لأن المياه ظلت تغمر سطح الأرض، فمدّ يده وأخذها، وأدخلها عنده إلى الفلك. وانتظر سبعة أيام أخرى ثم عاد فأطلق الحمامة من الفلك، فرجعت إليه عند المساء تحمل في منقارها ورقة زيتون خضراء، فأدرك نوح أن المياه قد تناقصت عن الأرض. فمكث سبعة أيام أخرى ثم أطلق الحمامة فلم ترجع إليه هذه المرة.

وفي اليوم الأول من الشهر الأول من السنة الواحدة والست مئة من عمر نوح، جفّت المياه عن الأرض، فرفع نوح سقف الفلك وتطلع حوله، فرأى أن سطح الأرض قد أخذ في الجفاف. ولكن الأرض لم تجف تماماً إلا في اليوم السابع والعشرين من الشهر الثاني.

وخاطب الله نوحاً قائلاً: ((اخرج من الفلك أنت وامراتك وبنوك ونساء بنيك معك، وأخرج كل ما معك من الكائنات الحية، من طيور وبهائم وكل ما يزحف على الأرض لتتوالد وتتكاثر على الأرض)). وخرج نوح وبنوه وامراته وزوجات بنيه معه. وكذلك خرجت معه كل الحيوانات، والزواحف والطيور، وكل ما يدب على الأرض، كل منها كجنسها.

وبنى نوح مذبحاً للرب ثم اختار بعضاً من جميع البهائم والطيور الطاهرة وقربها محرقات على المذبح. فتقبلها الرب برضى، وقال في نفسه: ((لن ألعن الأرض مرة أخرى من أجل الإنسان، لأن أهواء قلب الإنسان شريرة منذ حداثة، ولن أقدم على إهلاك كل حي كما فعلت. وتكون كل أيام الأرض مواسم زرع وحصاد وبرد وحرّ وصيف وشتاء ونهار وليل، لن تبطل أبدا)).

الإصحاح التاسع: ١ : ١٨ :

وبارك الله نوحاً وأبنائه قائلاً لهم: ((أثمروا وتكاثروا واملأوا الأرض، لتطع الخشية منكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وطيور السماء، وكل ما يتحرك على الأرض، وعلى سمك البحر، فإنها كلها قد أصبحت خاضعة لكم. وليكن كل حي متحرك طعاماً لكم، فتأكلون كل شيء كما تأكلون البقول الخضراء التي أعطيتكم. ولكن لا تأكلوا لحماً بدمه. وأطالب أنا بدمكم لأنفسكم. من يد كل حيوان أطالب به، ومن يد الإنسان أيضاً أطالب الأخ بنفس أخيه الإنسان. فسافك دم الإنسان يحكم عليه بسفك دمه لأن الله خلق الإنسان على صورته. أما أنتم فأثمروا وتكاثروا وتوالدوا في الأرض.

وخاطب الرب نوح وأبنائه معه قائلاً: ((ها أنا أبرم ميثاقي معكم ومع

ذريتكم، ومع جميع المخلوقات الحية التي معكم، من طيور وبهائم، ومن كل حيوانات الأرض التي خرجت معكم من الفلك، مع كل المخلوقات الحية على الأرض. أبرم ميثاقي معكم بأن لا يبىد الطوفان كل ذي جسد ثانية، وأن لا يكون هناك طوفان ليقضي على الحياة في الأرض)). وقال الرب: ((وهذه هي علامة الميثاق الأبدي الذي أقيمه بيني وبينكم وبين المخلوقات الحية التي معكم: أضع قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض. فيكون عندما أخيم بالسحاب فوق الأرض، وتظهر القوس، أني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل المخلوقات الحية من ذوات الجسد، فلا تتحول المياه إلى طوفان يبىد كل حياة. وتكون القوس في السحاب، فأبصرها، وأذكر الميثاق الأبدي المبرم بيني وبين جميع المخلوقات الحية على الأرض)). وقال الله لنوح: ((هذه هي علامة الميثاق الذي أبرمته بيني وبين كل حي على الأرض)).

أما أبناء نوح الذين خرجوا معه من الفلك فكانوا: ساماً وحاماً وياث. وحام هو أبو الكنعانيين. هؤلاء كانوا أبناء نوح الثلاثة الذين تفرعت منهم شعوب الأرض كلها. ثم تذكر التوراة بأن عمر نوح هو تسع مئة وخمسون سنة، وقد عاش بعد الطوفان ثلاث مئة وخمسين سنة<sup>(١)</sup>.

(١) سفر التكوين: الإصحاح ٩: ٢٨.

## التشابه والتقارب في نصوص طوفان جلجامش وطوفان التوراة

بعد مراجعة النصين يمكن لنا أن نخرج بعدة نقاط نذكر منها مايلي ولو  
إجمالاً:

أولاً: الله واحد في التوراة وهو وحده الذي قرر أن يبيد البشر بالطوفان لما  
عملوه من شر وآثام. بينما في نص ملحمة جلجامش، كان هناك عدة آلهة قد  
اجتمعت وقررت إحداث الطوفان ولم يكن إلهاً واحداً.

ثانياً: ذكرت التوراة أن سبب حدوث الطوفان هو غضب الرب، لكثرة  
الشر الذي عمله البشر. وهو نفس السبب الذي ذكر في ملحمة جلجامش.

ثالثاً: تظهر التوراة بأن الله قد ندم على خلقه للإنسان، بينما الآلهة في ملحمة  
جلجامش كان حزنها وندمها على إحداثها للطوفان.

رابعاً: ذكرت التوراة إن الناج من الطوفان هو نبي الله نوح، ويعتبر هو بطل  
الحادثة، أما البطل الناج من الطوفان في ملحمة جلجامش هو (أوتو - نبشتم).

خامساً: ذكرت التوراة أن الناجين مع نوح فقط امرأته وبنيه الثلاث  
ونسائهم. بينما الناجون في ملحمة جلجامش جميع أهل (أوتو - نبشتم) وذوي  
قرباه، وكذلك جميع الصنّاع.

سادساً: الطوفان في التوراة قد شمل كل الأرض، وظلت المياه طامية على  
الأرض مدة مئة وخمسين يوماً. وكذلك الطوفان في الملحمة قد شمل كل الأرض  
وظلت سفينة (أوتو - نبشتم) على جبل نصير مدة سبعة أيام.



سابعاً: استقرت سفينة نوح على جبل أراراط، بينما تذكر ملحمة جلجامش بأن السفينة قد استقرت على جبل نصير.

ثامناً: طول عمر نوح الذي ذكرته التوراة هو تسع مئة وخمسون سنة، وقد عاش بعد الطوفان ثلاث مئة وخمسون سنة. بينما (اوتو - نبشتم) قالت عنه الملحمة بأن الآلهة قد وهبته الحياة الخالدة.

تاسعاً: في التوراة قد استمر المطر وتدفق المياه من الأرض مدة أربعين يوماً ليلاً ونهاراً، بينما استمرت المياه في ملحمة جلجامش لمدة سبعة أيام.

عاشراً: ابعاد السفينة التي ذكرت في التوراة هي:

الطول: ثلاث مئة ذراع - نحو مئة وخمسة وثلاثين متراً - .

والعرض: خمسين ذراعاً - نحو اثنين وعشرين متراً ونصف المتر - .

والارتفاع: ثلاثين ذراعاً - نحو ثلاثة عشر متراً ونصف المتر - .

والسفينة كانت عبارة عن ثلاثة طوابق سفلي ومتوسط وعلوي.

وأما وصف السفينة الذي جاء بالملحمة فهو:

علو جدرانها مائة وعشرين ذراعاً، وطول كل جانب من جوانب سطحها الأربعة مائة وعشرون ذراعاً، وبما أن سطح أرضها (أيكر) واحد، والأيكربابلي مساحة سطحية تعادل نحو ٢م<sup>٣</sup>٦٠٠، والذراع البابلية تساوي نصف متر، فيكون شكل السفينة مكعباً منتظماً.

وسفينة (اوتو - نبشتم) كانت من ستة طوابق تحتانية، فأصبحت سبع

طوابق مع العلوي.

## دلالات التشابه والتقارب بين النصين

وهذا التشابه والتقارب فيما بين الحادثتين له عدّة دلالات منها:

### الدلالة الأولى:

إن هذا الإعتناء بسرد تفاصيل قصة الطوفان فيه دلالة واضحة على أن الطوفان الكبير الذي شمل العالم، قد حدث فعلاً، ولا يمكن اعتباره مجرد أسطورة، أو إنه فيضاناً عابراً. هذا مضافاً إلى ما تذكره قصص و أساطير أخرى في أنحاء مختلفة من العالم كالهند وبورما والصين وأستراليا وجزر المحيط الهادي وفي مجتمعات الهنود الحمر وفي أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية وغيرها.

وان هذا النظم في توارد تلك الحادثة، بحيث يتناقل من سومر إلى بابل ومن ثم إلى التوراة، ليشكل أثراً معرفياً بشرياً، لا يمكن إنتزاعه من فكر وذهن الإنسانية، إلا لمكابر قد أغمض عينيه عن رؤية تلك الحقائق التي عاشت على توارثها البشرية، بمختلف طبائعها وأعراقها وأديانها. وهذا الأمر مما لم يحدث لأي حادثة أخرى، نسجت خيوطها على هذه الأرض. بل ترانا نتمسك في كثير من الأحيان على إثبات بعض الحوادث التي ليس لها قرائن تعينها بهذا الإتجاه، ولا تمتلك رصيماً برهانياً يدل على وقوعها، كما تمتلك حادثة الطوفان الكبير.

وعن ذلك التشابه الكبير بين الملحمة السومرية والبابلية وبين قصة الطوفان التي اوردتها التوراة يقول العالم (ه.ج. ويلز): لو تأملت قصص خلق العالم وآدم وحواء والطوفان، التي تبدأ بها التوراة لوجدتها وثيقة المماثلة لأساطير بابلية

تشبهها، والظاهر أنها كانت من المعتقدات الشائعة لدى الشعوب السامية كافة، وكذلك قصص موسى وشمشون فإن لها نظائر سومرية وبابلية. ولكن بداية أمر الشعب اليهودي بوجه أخص لا تبدأ حقاً إلا بقصة إبراهيم فما تلاها<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من وجود إختلافات في تفاصيل قصة الطوفان، إلا أن موضوع هذه الأساطير الرئيسي كان على الدوام نفسه، إذ يدور حول طوفان مريع يغطي كل الأرض فانياً كل البشر عدا بعض الأشخاص. وإن تأكيد القصص السومرية، البابلية، علاوة على تلك التي ترد في الكتاب المقدس على أن الطوفان قد حصل بفعل هطول أمطار غزيرة جداً، أي أن الطوفان لم ينتج من فيضان نهري دجلة والفرات. مضافاً إلى أن أسطورة الفيضان لا تعود إلى منطقة الشرق الأدنى فحسب، بل إنها شائعة أيضاً لدى شعوب العديد من البلدان في كل أرجاء العالم.

ويؤشر الطوفان في هذه الأساطير إنعطافاً واضحاً في تاريخ البشرية الطويل، وحلولاً لجنس بشري محل جنس آخر. وهناك احتمال كبير في كون العبرانيين قد استعاروا هذه الأسطورة، التي كانت تشكل تراثاً ثابتاً لدى سكان وادي الرافدين، من العراق فضمنوها كتابهم المقدس، خصوصاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن التشابه بينهما جد كبير<sup>(٢)</sup>.

(١) موجز تاريخ العالم: ه.ج. ويلز، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، نشر دار أقلام عربية، القاهرة، ط ١، ١٧، ٢٠١٧ م: ص ١٠٠.

(٢) العراق القديم: جورج رو، ترجمة حسين علوان حسين، نشر وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ط ١، ١٩٨٤، ص ١٦١. وما بعدها بتصرف.

## الدلالة الثانية:

إن حدوث ذلك الطوفان الكبير في منطقة الشرق الأدنى القديم، وخصوصاً بلاد وادي الرافدين، حيث بدأ منه، ومن ثم عمّ العالم، ولتعود سفينة نوح لتستقر فيه بعد أن غيض الماء وقضي الأمر. يدل على أهمية تلك المنطقة وتأثيرها على العالم. وخصوصاً من ناحية استقراره من عدمه، فكما أن العالم قد غرق بعد أن غرقت تلك المنطقة، وعادت إليه الحياة بعد أن استقرت سفينة نوح في أراضيه، وعلى أحد جباله أو مرتفعاته. هذا فضلاً إذا ما عرفنا بأن هذه المنطقة ما خلت يوماً من وجود للنبوة والرسالة، أو آثارها من الأولياء والقادة الصالحين.

وحتى المدينة والحضارة التي إرتقت في تلك المنطقة كحضارة العبيد والسومريين والبابليين، لا يبعد أنها قامت على أكتاف أولئك الأنبياء الذين لم يقصصهم علينا القرآن الكريم، أو يذكروا في الكتب السماوية الأخرى. وقد تكون بعض الأسماء التي يعرضها لنا علماء التاريخ وأثرهم في تكوين أمجاد ذلك العمق الحضاري والمدني، هم من الأنبياء، وقد يكون للنقل دور كبير في تغيير الحقائق.

هذا فضلاً إذا ما عرفنا بأن الإنسانية لا زالت في بداياتها، وإنها كانت مفتقرة الى الأطر والأسس الرئيسية لإيجاد أبعاد إجتماعية وحضارية تسد احتياجات البشرية في تلك الحقبة التاريخية، وعلى أقل التقادير إعطاء البشرية الأحرف الأولى، التي تعينها بالتالي للسير الحثيث لإكتشاف الأمور المدنية ومن ثم الإبداع فيها.

وهذا الأمر يبدو واضحاً، ومن الصعوبة أن يتم تجاوزه الى أمر آخر قد يبدو دخيلاً وغريباً عن أصل بدء الحضارة وإزدهارها ونموها التدريجي، وفي إثبات سمة الإحتياج البشري الى معونة السماء، لإكمال وسد النواقص التي تبرزها الإحتياجات السريعة، والتي قد تكون مفاجئة للإنسان وهو يسير في هذه الدنيا.

وخير مثال على ذلك الإحتياج، وكيف للنبوة والرسالة من تأثير كبير على التغيير وخلق الإبداع والتطور، وتأصيل الحضارة، هو ما أحدثه محمد صلى الله عليه وآله في شبه جزيرة العرب. إذ ظل العرب في تلك المنطقة سنيناً طوال وهم في حالة ضياع وإبتعاد عن ركب الحضارة، ولا يكادون يفقهون شيئاً عن حاضرهم، فضلاً عن ماضيهم. ولكن بمجرد أن حضرت رسالة السماء بين أيديهم، وتشرفت تلك البقعة بصوت الوحي، نشأ جو إجتماعي ومدني وثقافي وعلمي جديد، تمكن بواسطته المسلمون من تشييد حضارة هيمنت ثقافتها وعلومها على أغلب العالم في بضع سنين.

والآن يمكن لنا القول بأن أية حضارة أنشأت في اية بقعة من بقاع الأرض لا بد أن يكون مبتدعها وموجدتها هو رسول أو نبي أو أثر من آثارهما. وهذا الأمر أيضاً يمكن جرّه الى بدء الخليقة ونزول آدم، إذ من الضروري واللازم أن يكون آدم متصلاً بالسماء، لكي يتمكن من تدبير أمر معيشتة هو وزوجته حواء. لأن هنالك كثير من الأمور الضرورية في بدء ذلك النزول الى أرض الدنيا والبلاء والإختبار، لا يمكن أن تترك للتجربة وتكرارها، لأنها أمور آنية وتحتاج الى فعل وإجراء فوري، لا يمكن للتجربة أن تسد ذلك الإحتياج. لأنها أمور لا تتحمل الإنتظار، ولذلك فإنها بحاجة الى حلول سريعة وفورية. وهذا مما لا يمكن حدوثه وإيقاعه من دون معونة السماء. وهكذا تدور أحداث الدنيا، فكلما إحتاج

ركب البشرية الى ملامح حضارية جديدة تثيرها مشاكل وإحتياجات تلك المرحلة، أرسل الله رسولاً أو مصلحاً يؤدي ذلك الدور.

### الدالة الثالثة:

لو لم يكن الطوفان مهماً ويشكل أثراً فاعلاً في مسير البعد الإيماني في هذه الدنيا، لما رسخ في ذاكرة الشعوب، كواقعة قد دونتها ذاكرة البشرية على شكل قصص وأساطير، وأثبتتها الكتب السماوية كغضب إلهي والى تشكيل واقع جديد. فكم من حادثة مهمة قد وجدت على هذه الأرض، راحت وهلكت بسببها أقوام وشعوب بكاملها لم يكن لها ذاك الذكر، أو من الأهمية بحيث تتناقلها الأجيال، وحتى إذا ما تناقلت بين الناس فيكون لفترة قليلة من الزمن ومن ثم يتم تناسيها.

وهذه الحقيقة نعيشها حاضرة بيننا، إذ أن حوادث مثل هلاك قوم ثمود بالرجفة، وقوم عاد وهلاكهم بريح صرصر عاتية، وغيرها من الأحداث لو لم نجبرنا عنها القرآن الكريم لثم نسيانها ولمحيت من ذاكرة التاريخ.

ولكن هنا أراد الله تعالى أن يكون الطوفان عالمياً، ليكون حداً فاصلاً بين وجودين للتاريخ البشري، وجود ما قبل الطوفان، ووجود بعد الطوفان، تنظفت من خلاله البشرية من أدران الخطايا والآثام. لكي تبدأ مرحلة جديدة من ترسيخ الجانب الإيماني لدى الأجيال الجديدة، وعليها أن تعيش معه، وينمو وجودها من خلال تذكّر حادثة الطوفان، وكيف كان أثرها، بحيث شكلت أول عقوبة إلهية كونية قد أغرق من خلالها كل البشرية.

ولكي يبقى هذا الأثر خالداً في ذاكرة الأجيال، هياً له الله تعالى سبل بقاءه وإنتشاره في كل المعمورة، وأصبح صدى وقوعه يرن بأذان كل البشرية بلا إستثناء -عند المؤمن والكافر- ليكون للمؤمنين عوناً في زيادة الإيانه، وللكافرين حسرة لا يمكن أن تنتزع من صدورهم. وليبقى حادث الطوفان سوطاً يقرع ضمائرهم، كلما إلتفتوا إليه والى أسباب حدوثه. فهذا هو السرد التاريخي والآثاري يقدمه حاضراً بين أيديهم، وأمام أعينهم بثوابته ومنطلقاته العلمية، ليكون حجة عليهم، حتى وإن لم يؤمنوا بالكتب السماوية.

ولذلك فإن حدوث هذا الطوفان الكبير في بلاد ما بين النهرين كان له تأثيره الإيقاعي على الكون المطلق عند الفلاسفة وعلى الكون التاريخي عند متخصصي التأريخ، وعلى الكون الكلامي عند اللغويين بإعتبار إيجاد مفاهيم وصور واقعية وخيالية عند حدوث الطوفان وبعده تحتاج الى صياغات لغوية جديدة. والى غيرها من المسميات الإعتبارية الأخرى.

### الدالة الرابعة:

إن حدوث الطوفان وبداية حياة جديدة للبشرية بعد إنتهائه، يعطي دلالة على أن البشرية لا يمكن لها أن تنهض بنفسها عند ساعة ولادتها، إلا بوجود إرتباط مع السماء عن طريق النبوة والرسالة، ليكون له الدور الأول في بث الحياة على سطح الأرض. هذا وإن كان هناك من يذهب الى عدم إحتياج البشرية في بداية نزول آدم الى النبوة بإعتبار عدم وجود ذلك الكم الإنساني الذي يشارك آدم عليه السلام في وجوده الدنيوي، فعلى الرغم من عدم نهوض هذا القول، وأثبتنا

في بعض طيات هذا الكتاب ما هو خلاف ذلك. يكون وجود نوح كنبى مرسل وهو يقود أول تحرك لعجلة الإنسانية بعد الطوفان، لخير دليل على أن أية بداية لوجود إنساني، لا بد أن تكون قائمة بوجود شخص الرسالة أو من ينوب عنه.

ولذلك كانت عملية حدوث الطوفان تعتبر من الضروريات لإثبات هذا المعنى، وتركيزه في أذهان الناس، حتى لا يتم تناسيه أو غض النظر عن هذا الأمر المهم.

وبما أن بداية الوجود الإنساني قد تحركت من خلال مرحلتين؛ الأولى مرحلة قد بدأها نبي الله آدم عليه السلام، والمرحلة الثانية قد إفتتحها نبي الله نوح عليه السلام. ولا توجد مرحلة أخرى لبداية هذا الوجود غير هاتين المرحلتين يمكن أن يستدل بها على عدم وجود الأنبياء والرسل فيها. فقد دللتنا صراحة على أنه لا يمكن أن ينهض أي وجود إنساني من دون نبوة أو رسالة.

أما ذلك الوجود البشري أو المشابه له، والذي سبق آدمنا عليه السلام بآلاف وملايين السنين في حياته على هذه الأرض سواء (العاقل الروديسي) أو (العاقل النياندرتالي) أو (العاقل أدالتو) أو (العاقل الأثري كرومانيون) أو حتى جميع الأصناف المتبقية من جنس البشر الثمانية عشر التي ذكرها علماء حضارات ما قبل التاريخ، وهم يصنفون الجنس البشري الذي سكن لأول مرة على وجه الأرض قبل حوالي 2.5 مليون سنة. ما عدا جنس العاقل العاقل وهو الإنسان الحالي الذي ظهر في حدود ما يقارب 10000 سنة قبل الميلاد.

فكان وجوده في تلك الأزمنة البعيدة من التاريخ بسيطاً للغاية، وهو بعد لا يمتلك مقومات الإنسان الذي ذكر في القرآن (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ



تَقْوِيم) التين: ٤، فهذا الإنسان في أحسن تقويم كان من حصة أبونا آدم عليه السلام، ولم يكن ليشمل من كان قبل آدمنا. ولذلك فهم ظاهراً لم يكونوا ليحتاجوا ذلك البعث الرسالي فيهم، وأكتفوا فقط بإعطائهم نوع بسيط من الفهم يناسب ذلك الوجود، فكان فهماً غرائزياً أكثر مما هو عقلياً عالياً، وكانت تحركهم الفطرة البسيطة، لكنها كانت بكل تأكيد أقوى وأشد مما عليه في باقي الحيوانات، بحيث بقي هو الأذكى من بين تلك المخلوقات وهذا التفوق هو الذي مكّنه من أن يتحرك ويسكن الكهوف ويصنع الأسلحة لصيد الحيوانات وكذلك وصوله الى معرفة استخدام النار وغيرها من وسائل المعيشة البسيطة.

وما دام لم يكن لهم دوراً مهماً في وجود آدم أبو الإنسانية العاقلة، فقد انقرضوا تماماً عن هذه الأرض. ليحل محلهم وجوداً جديداً للإنسان يمتلك كل مواصفات التأهيل لتلقي رسالات السماء.

## هل كان بناء الكعبة المشرفة موجوداً في زمن الطوفان؟

وهنا تبقى مسألة تخص الكعبة المشرفة في زمن الطوفان، وقد تعرضت تساؤل وهو: هل أن الطوفان قد غطى كل بقاع الأرض بما فيها الكعبة المشرفة، أم أنها سلمت من الطوفان ولم يصل الماء إليها ليغرقها، وكما جاء في بعض الروايات أنها لم تبق على الأرض وإنما رفعت الى السماء الرابعة. أو أن الماء لم يصلها بل دار عليها.

والحقيقة أننا لا نحتاج الى المبالغة في هذه الأمور، لأننا نمتلك من الأسباب ما يكفينا لفهم أمر وجود وبناء الكعبة المشرفة، وما هو شأنها أيام حدوث الطوفان، فلدينا كثير من المصادر والدلائل على أن بيت الله الحرام لم يكن مبنياً زمن الطوفان وإنما تم بناءه في زمن إبراهيم عليه السلام، وهذا ما تبينه الآية المباركة: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) البقرة: ١٢٧.

وفي هذا الصدد يقول السيد عبد الأعلى السبزواري في تفسيره: وفي الآية تلميح الى أن رفع البيت وبناءه كان من إبراهيم عليه السلام لنسبة الرفع إليه وحده، وأن اسماعيل كان يساعده ويعمل له<sup>(١)</sup>.

وجاء في تفسير الميزان: إن الله أمر إبراهيم ببناء الكعبة، وأن يرفع قواعدها

(١) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: آية الله العظمى السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري، نشر دار الديواني، بغداد، ط ٣، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م: ج ٢، ص ٣٥.

ويرى الناس مناسكهم، فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت كل يوم سافاً، حتى انتهى الى موضع الحجر الأسود، وقال أبو جعفر عليه السلام: فنادى أبو قيس: ان لك عندي وديعة، فأعطاه الحجر، فوضعه موضعه<sup>(١)</sup>.

ويقول العلامة الشيخ عبد الله جوادي الأملي: إن معمار الكعبة ومصمم خارطتها ومعين مكانها هو الله عز وجل: (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ) الحج: ٢٦. ولقد نهض بأعباء تشييدها وتنفيذ عمرانها نبيان عظيمان من أنبياء الله تعالى: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) البقرة: ١٢٧<sup>(٢)</sup>.

وقد كان موضع البيت خاليا الى زمن إبراهيم عليه السلام، ثم أن الله أمر إبراهيم ببناء البيت، فسأل الله أن يبين له موضعه، فبعث الله جبرئيل فخط له موضع البيت، فرفع البيت إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام<sup>(٣)</sup>.

والقواعد جمع القاعدة، وهي الأساس والأصل لما فوقه، وهي صفة غالبية، ومعناها: الثابتة، ورفع الأساس البناء عليها، لأنها إذا بني عليها نقلت عن هيئة الإنخفاض الى هيئة الإرتفاع وتناولت بعد التقاصر<sup>(٤)</sup>.

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٨٥.

(٢) تسنيم في تفسير القرآن: العلامة الشيخ عبد الله الجوادي الطبري الأملي، نشر دار الإسرائ، بيروت، ط ٢، ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م: ج ٦، ص ٦١٤.

(٣) تفسير مقتنيات الدرر، العلامة السيد علي الحائري الطهراني، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط ١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م: ج ١، ص ٣١٠.

(٤) تفسير الكشاف: ابي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تعليق خليل مأمون شيخا، نشر دار المعرفة، بيروت، ط ٣، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م: ص ٩٦.

وينقل صاحب كتاب دراسات تاريخية من القرآن رواية عن النبي ﷺ: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس تقول: إن إبراهيم جاء فوجد إسماعيل يصلح نبلاً له من وراء زمزم، فقال إبراهيم: يا إسماعيل إن ربك قد أمرني أن أبني له بيتاً، فقال له إسماعيل: فأطع ربك فيما أمرك، فقال إبراهيم: قد أمرك أن تعيني عليه، قال: إذا أفعل، فقام معه، فجعل إبراهيم بينه وإسماعيل يناوله الحجارة، ويقولان: (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)، فلما ارتفع البنيان وضعف الشيخ عن رفع الحجارة، قام على حجر، وهو مقام إبراهيم، فجعل يناوله ويقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، فلما فرغ إبراهيم من بناء البيت الذي أمره الله عز وجل بينائه، أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج، فقال له (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) الحج: ٢٧. وهكذا بنى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام (الكعبة المشرفة) بيتاً لله تعالى ... وإذا كان صحيحاً ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن إسماعيل عليه السلام كان في الثلاثين من عمره يوم أمر الله عز وجل إبراهيم ببناء الكعبة، فإن بناء الكعبة حيثئذ يكون حوالي عام ١٨٢٤ ق.م، على أساس أن إسماعيل قد ولد في عام ١٨٥٤ ق.م، وتوفي عام ١٧١٧ ق.م، على أساس أنه ولد لإبراهيم وهو في السادسة والثمانين من عمره، وأن إبراهيم قد عاش في الفترة (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق.م). وهو تاريخ متأخر جداً عن طوفان نوح عليه السلام<sup>(١)</sup>.

إذن بعد هذا الإستعراض السريع، يتضح بأن بناء بيت الله الحرام، لم يكن قد بني وارتفعت قواعده بعد. نعم يمكن أن يكون كمكان معين ومحدد في تلك البقعة المباركة، كان معروفاً عند آدم ونوح عليهما السلام والأنبياء الذين جاؤا من بعدهما، وقد عرفه لهم الله تعالى، لكنه لم يبنى، ويرتفع إلا على يدي إبراهيم

(١) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، مصدر سابق: ج ٤، ص ٨٠.

وإسماعيل عليها السلام.

## أسباب عدم إنشاء الدولة العالمية الكبرى زمن نوح عليه السلام

هناك بالتأكيد أسباب متعددة أدت بالتالي الى عدم إمكانية تشكيل الدولة العالمية السعيدة في زمن نوح عليه السلام، سواء عندما لبث في قومه ٩٥٠ سنة من أجل ترسيخ رسالته وإرسائها فيهم. وهي كانت كما هو ملحوظ فرصة جيدة ولو ظاهراً، لإحداث تغيير شامل. أو عندما هيا الله تعالى له قاعدة صالحة من المؤمنين الذين كانوا هم خلاصة الوجود الأرضي من البشر بعد الطوفان. ومن هذه الأسباب التي يمكن ذكرها هي:

### السبب الأول:

لم يكن نوح عليه السلام في مرحلة نبوته في مقام تشكيل الدولة العالمية العادلة، وتثبيت أسسها، التي يتحرك من خلالها الفرد في صياغة حياته الدنيا التي تناسب ذلك النظام الراقى. وإنما كانت نبوته ورسالته لترسيخ مبدأ الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، أي أنه عليه السلام أراد أن يشدّهم الى التصديق بالمفاهيم العقائدية الضرورية التي تناسها الناس وغفلوا عنها ولم يكن لها أي

معلم في حياتهم اليومية. وكان هذا الأثر هو من الجوانب السلبية البارزة في تلك المرحلة من التاريخ.

أما مسألة العدالة الإجتماعية والمساواة والتخمة الملكية والإستحواذ على الأراضي وغيرها من الأمور التي يتكالب ويتقاتل عليها الناس، لم يكن لها ذلك الحضور الفاعل الذي يبعث على إدانة مثل هذه الظواهر، ومن ثم معالجتها والتخلص منها.

هذا ما ذكر في القرآن، عندما بيّن أسباب العذاب وهلاكهم بالفيضان والغرق، وأمّا ما ذكر على لسان قومه عندما قالوا له بأن اتباعه ما هم إلا أراذلنا بادي الرأي، فهذا لا يدل على التفاوت الطبقي بحال، وإنما كل ما يقتضيه السياق اللفظي هو بأن هناك إدعاء قد يكون بعيداً عن الحقيقة، لأنه لا يمثل إلا نظرهم وحكمهم الشخصي على من وصفوهم بهذا الوصف.

وقد يكون هناك نقاشات مسبقة قد حصلت فيما بينهم حول مسألة إثبات الألوهية ومسألة التوحيد، ومسألة المعاد والعقاب والثواب، فكانوا يستهزئون بمن يذهب لمثل هذا الاعتقاد والقول، ويصفونهم بأنهم ممن لا رأي لهم ولا يمتلكون القدرة على تشخيص الصالح والطالح من الأمور، كونهم قد خرجوا عما تربوا ونشأوا عليه، وهذا في الواقع هو البعد العملي الذي يعيشه اصحاب الحق مع مجتمعاتهم وقبائلهم، وخصوصاً في خطواتهم الأولى من التحرك.

وهذا الأمر هو الذي يفرضه ربط العناصر الشكلية للمنظومة القصصية التي جاءت حول نوح عليه السلام وقومه، فلا وجود يبين ويهدي الى التفاوت الطبقي، فعندما نركز على مقاصد الحوار فإننا نجد مفاصلة عن البنية الشكلية

التي تحكم من خلالها على ذلك التفاوت.

وهناك أمر في غاية الأهمية قد نكون أحياناً غافلين أو معرضين عنه، وهو ذلك الحوار الذي يطرحه القرآن الكريم ضمن جدلية الحق والباطل الذي ما أن نمعن النظر فيه، والغوص في أعماقه مع ملاحظة الظروف التي أخرجت ذلك الحوار، يمكننا حينئذ الخروج بنتائج جداً مهمة في معرفة الحالة الإجتماعية والبعده الحضاري مع المستوى العقدي الذي يعيشه ذلك المجتمع، وقد يكون عنصراً فاعلاً من العناصر التي تثيرها الآثار البشرية. وبالتالي يمكن لنا النظر بأبعاد أساسية لإستكناه الظواهر التي عاشها الرسل مع أقوامهم.

ففي أحد خطابات نوح عليه السلام التي تعامل بها مع الملأ من قومه، وكما بينها تعالى في قوله: (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) هود: ٣١. والتي بين فيها أمور أربعة هي:

١- لا أقول لكم عندي خزائن الله.

٢- ولا أعلم الغيب.

٣- ولا أقول اني ملك.

٤- ولا أقول للذين تزدري اعينكم لن يؤتيهم الله خيراً.

نلاحظ مدى المستوى الفكري لقوم نوح، وكيف أنه لا يتعدى هذه المفاهيم الدنيوية السطحية، والتي تتعلق بالأبعاد المادية فقط، والتي لا تتناسب إلا مع ذلك الوعي الساذج الذي لا يعرف التعامل إلا بالأبعاد الحسية.

وهذا الجانب واضح، فما كان نوح عليه السلام ليتكلم بهذا النوع من الفهم لولا أنهم طلبوا تلك الأمور منه. فعندما يقولون له سلام الله عليه هل عندك شيء من خزائن الله فتعطينا منها، فهم لم ينظروا إلا من خلال بعد ضيق جدا، لا يعود لهم بأي نفع معنوي أو أخروي. وكأن لا وجود إلا في هذه الدنيا.

وكذلك في قولهم: هل تعلم الغيب، فإنهم بكل تأكيد لم يطلبوا منه إخبارهم بالغيب المتعلق بالآخرة وما ستؤول أمورهم فيها. فهذا أبعد ما يكون منهم، وإلا هو فعلاً قد أخبرهم بالغيب الأخروي، وكيف سيكون عاقبة أمورهم، إن لم يؤمنوا. بل هو عليه السلام قد أخبرهم بأمر غيبي قد حدث في هذه الدنيا، وهو أمر الطوفان والغرق الذي سيحدث على هذه الأرض. ولكنهم لم يؤمنوا بهذا الغيب، لأنهم قصدوا وأرادوا أن يخبرهم بأمر غيبي أخرى، وهي التي تتعلق بالمعطيات المادية التي تعود عليهم بالفائدة، حتى يؤمنوا به سلام الله عليه.

وكذلك في قولهم إنهم يريدون أن يكون الرسول المبعوث إليهم ملكاً، فهو لم يكن على وجه إرادة الهداية فعلاً، بل لأنهم على قناعة تامة واعتقاد جازم، أن هذا الأمر لن يتم، ولذلك هم ما قالوا ذلك إلا على نحو الإعجاز. فيكون حالهم في هذه الصورة وفي هذه الحوارية. كحال الملحددين الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوس. فبسؤالهم وإراداتهم تلك كانوا ماديون مئة بالمئة، ولو أنهم كانوا صادقين في قولهم لدل على وجود القابل لديهم لنيل الهداية والتعلق بها، ولكن هم قالوا قولهم هذا على نحو التحدي لا غير.



## السبب الثاني:

ان طول عمر نوح عليه السلام، بحيث إنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وهو يدعوهم الى عبادة الله تعالى، فلم يزداهم ذلك إلا نفورا وفرارا، ثم أصروا على كفرهم إصرارا، وفي ذلك دلالة على أنهم غير مستعدين لتكوين نظام دولة عادلة كاملة، بالرغم من أن كل ما يحتاج منهم في ذلك الزمن، هو الاعتقاد بالله الواحد الخالق، وان هناك معاد وثواب وعقاب.

وبالرغم من مرور ذلك الزمن الطويل جداً، إلا أنه لم يؤمن بنوح إلا عدداً قليلاً، وهو الذي ركب معه السفينة خوفاً من الغرق.

فإذا كان أمر الاعتقاد بالله تعالى وتوحيده إحتاج الى ٩٥٠ سنة، ولم ينتج إلا ذلك العدد القليل، فكم يا ترى نحتاج حتى يتم تثبيت أمر الدولة العادلة وبتفاصيلها الدقيقة في ذهنية الأفراد وتحريك بعدها الإيماني العالي! بالتأكيد نحتاج الى نقلة رسالية أخرى لإتمام هذا الأمر، وذلك لأن نوح عليه السلام لا يستطيع أن يقدمهم خطوة إيمانية أخرى، أكثر مما جاء به وقدمه لهم، وذلك لأن قابلياتهم وسعتهم الإيمانية هي تلك لا غير.

ثم ان هذا البقاء الطويل من قبل نوح مع قومه، لم يعبر عنه الله تعالى في كتابه الكريم بأنه (مكث) وإنما (لبث)، وهذا اللفظ له دلالة مركزية تعني الإقامة والإستقرار بين ظهرانيتهم، وهي أنصع دلالة وأشرف معنى من مكث في غير القرآن، إذ لا تعطي كلمة (مكث) دلالة الترصد والترقب والتمهل، مضافاً إليها جميعاً طول المدة وشدة المحنة، وتوالي السنين<sup>(١)</sup>.

(١) دلالة الألفاظ في القرآن العظيم، مصدر سابق: ص ١١٧.

وهذا الزمن الطويل بخطواته الكثيرة، التي اتخذها نوح عليه السلام مع قومه من جانب الإسرار والإجهار، مع الاستدلالات العقلية والفطرية، مع استخدام الإنذار، مع بيان أنه لا يريد على هدايتهم أي أجر، مع العلم إنه لم يرد منهم المستويات العليا من الإيمان وما ينبثق منه. وإنما كانت دعوته سلام الله عليه منحصرة بالجانب التوحيدي والتي يبينها لنا القرآن الكريم: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ\* أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ) هود: ٢٥-٢٦. فهنا أصول ثلاثة:

- (إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) وهي بداية الرسائل.

- (أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ) وهي كلمة الإخلاص وأصل التوحيد.

- (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ) وهي الدلالة على المعاد.

فقوم مثل اولئك لهم هذا البعد من العناد والإصرار على الضلالة، بالرغم من اللبث الطويل لنوح بينهم، كيف سيكون لهم قابلية التلبس بالوفرة الهدائية التي يتمكنوا من خلالها بناء المجتمع العالمي السعيد. على الرغم من أن المشاكل البشرية بكل أقسامها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعقائدية والثقافية لم تصل بعد الى ما نحن عليه الآن من تعقيد وعمق. وهذا ما تبينه الأنثروبولوجيا عندما تدرس البشر وسلوك الإنسان، عبر المجتمعات الماضية والحاضرة. إذ من غير الممكن أن يقاس حجم المشاكل ومتطلبات البشرية في عصور ما قبل التاريخ أو بدايات عصر التدوين على ما هي عليه الآن من تعقيدات وتكاثر أعدادها، بحيث لا يمكن حصر الفارق فيما كانت وما هي عليه اليوم.

إذن إذا كانت المشاكل التي تعاني منها البشرية تكاد تكون قليلة الى حد ما،

والحياة لا تزال بسيطة وساذجة، والإنسان لا يزال أقرب الى الفطرة، ولكنه بالرغم من ذلك لم يتقبل خطوة من خطوات الإيثار التي هي من المفروض أن تكون أولية، ألا وهي خطوة التوحيد، وكان يراها خطوة من الصعوبة الإنصياح إليها، والقناعة بها.

فمثل هكذا مستوى فكري يحمله أبناء ذلك الجيل من الزمن لا يمكن لهم بحال تحمل المسؤولية بمستوى عال مثل المستوى الفكري الذي يتطلب إيجاد العدل والمساواة بأكمل أفرادها. بحيث يتمكن من الهيمنة على اعقد المشاكل البشرية التي ستواجهها.

وهناك رأي للسيد الشهيد محمد الصدر قدس سره في قوله تعالى: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ... ) البقرة: ٢١٣. ثم يقول: قد فهم منها سيدنا الأستاذ السيد الصدر<sup>(١)</sup>.

(بأن المجتمع البشري مر بمرحلة فطرة وغريزة، قبل أن يصل الى المرحلة التي يسود فيها العقل والتأمل)<sup>(٢)</sup>.

فيعلق على هذا القول: وهذا الفهم يعني اننا نستفيد من هاتين الآيتين الكريمتين هذا المفهوم: وهو ان المجتمع البشري كان في أول وجوده لا يزيد في مميزاته وصفاته عن مجتمع الحيوان، ثم بدأ - طبقاً لتخطيط التكامل - يتفتح على

(١) يقصد السيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره.

(٢) اقتصادنا: السيد الشهيد محمد باقر الصدر، نشر مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، ط ٤،

الفهم والتفكير.

وكان خلال عصره الفطري فاقداً للإختلاف في المصالح والإختلاف في العقيدة. أما عدم الإختلاف في العقيدة والتشريع فلعدم وجود المستوى الذهني الكافي لفهم ذلك، أو إذا كان عندهم عقيدة بسيطة، فليس لهم المستوى الكافي لفلسفتها ومناقشتها، فهم جميعاً يتسالمون على صحتها.

وأما عدم الإختلاف في المصالح، ذاك الإختلاف المؤدي إلى النزاعات والحروب، فلعدم وجود المستوى الذهني الكافي للتركيز على هذه الجهات. وهذا لا ينافي وجود نزاعات بسيطة بين الأفراد، كما توجد بين الحيوان.

وبمجرد أن وجد المستوى الكافي للتفكير، وجد النزاع بينهم بطبيعة الحال. وهذا هو المستفاد من قوله عز وجل: فاختلفوا... أي أن الإختلاف وجد بعد انتهاء عصر القصور الذهني.

وحين وجد النزاع والإختلاف في البشر، كان مقتضى التخطيط العام لتكاملهم، أن يعرفوا التشريع الكافي لحل هذه المنازعات والعقيدة الكافية لزرع الأخوة فيما بينهم. وبذلك بعثت الأنبياء وأرسلت الرسل<sup>(١)</sup>.

ويقول في مكان آخر: كان أول من باشر تبليغ الأوامر والنواهي الحدية - على ما نعلم -، لكن بشكل محدود، وأعطى فكرة عن الثواب والعقاب على الأعمال، هو النبي نوح عليه السلام، وإن كان أغلب ما وعد به من الثواب هو ثواب دنيوي، كما هو غير خفي لمن راجع كلامه المنقول في القرآن الكريم.

(١) اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني: السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره، نشر دار

ومن هنا يكون من المستطاع القول أن المرحلة الأولى للنبوات انتهت قبل الطوفان، وقد افتتح النبي نوح عليه السلام، المرحلة الثانية قبل الطوفان أيضا. حتى ما إذا ووجه بالتكذيب والمعارضة، كان العقاب الدنيوي العاجل متمثلاً بالطوفان.

ومن الواضح ان الاقتصار على بيان الثواب الدنيوي والتهديد بالعقاب الدنيوي، وعدم التعرض إلى الآخرة إلا بشيء قليل، يرجع إلى عدم قابلية الفكر البشري في ذلك العصر على استيعاب فكرة الآخرة والمعاد.

وكان الطوفان هو الضربة القوية التي يبقى صداها خلال عدد كبير من الأجيال، يرن في آذان من تسول له نفسه الكفر والظلم، وبالتالي التمرد على التكامل وأهدافه. ومن هنا نعرف أثره الضخم في التخطيط والتربية البشرية<sup>(١)</sup>.

## هل نحتاج الى تأويل النص القرآني حتى يكون عمر نوح طبيعياً؟

وهنا لنا تعليقة مهمة ونافعة على ما طرحه د. محمد شحرور في كتابه القصص القرآني حول عمر نوح عليه السلام حيث يقول: (كانت الأعمار في عهد نوح لا تزيد أبداً عن الأعمار في يومنا هذا، بل لعلها كانت أقل. فلقد أثبتت الوثائق التاريخية أن متوسط الأعمار عند الفراعنة لا يزيد عن ٤٠ عاماً. أما الزعم بأن عمر آدم كان ألف عام وأن نوح لبث في قومه تسعمائة وخمسين عاماً يدعوهم إلى الإسلام فهذا ضرب من العبث والتخريف، لا نلوم عليه أصحاب التراث

(١) المصدر نفسه، ص ٧٠٢.

التوراتي، لأن علوم التاريخ والبيولوجيا كانت مجهولة لديهم، لكننا نلوم المعاصرين الذين مازالوا يظنون - ويفرضون علينا ظنهم - أن الإنسان كان يعيش ألف عام أو أكثر، فإن احتج علينا مستنكر بأن عمر نوح مذكور صراحة في قوله تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) العنكبوت ١٤، نقول: هذا احتجاج وجيه يجب الوقوف عنده بالتأمل والتوضيح.

في وثيقة تعود لنهاية الألف الثالث قبل الميلاد وضع الكهنة قائمة للملوك السومريين الذين حكموا مدن الرافدين قبل الطوفان وبعده.

يقدم هذا النص معطيات عن وجود خمس مدن في عصر ما قبل الطوفان حيث نزلت الملوكية من السماء وأسست تلك المدن وهي: اريدو حيث حكمها ملكان استمر حكمها لمدة ٦٤٠٠٠ سنة.

ثم انتقلت الملوكية إلى مدينة باد - تيرا وحكمها ثلاثة ملوك لمدة ١٨٠٠٠ سنة.

وانتقلت فيما بعد إلى مدينة لرك وحكمها ملك واحد لمدة ٢٨٠٠٠ سنة.

ثم سبار حيث حكمها ملك واحد لمدة ٢١٠٠٠ سنة.

وأخيراً مدينة شروباك التي حكمها ملك واحد لمدة ١٨٠٠٠ سنة.

وما نلاحظه هنا هو فترات حكم الملوك الخيالية والمبالغ فيها، أو ربما لا يمكن فهمها إلا ضمن مساقها السومري آنذاك.

ويبدو أن هذه الفترات الخيالية انسحبت بدورها على ما جاء في التوراة من

أعمار خيالية للأنبياء)<sup>(١)</sup>.

ثم يقول: (ومن حيث المبدأ، إذا تعارض ظاهر نص قرآني مع حقيقة علمية ثابتة وجب اللجوء إلى التأويل. وإن تعارض فهمنا لنص قرآني مع حقيقة علمية ثابتة حكمنا بأن فهمنا للنص هو الخطأ وليس النص بذاته، لأن كلام الله تعالى - بدهة - لا يمكن ولا يجوز أن يتعارض مع كلماته أي مع قوانينه ونواميسه) ... وهذا كله يعطينا فسحة تسمح لنا بمرونة تأويلية يتطابق فيها الدليل العلمي مع العدد القرآني، ومع ذلك فقد أعطانا الدليل العلمي أن القرآن يستعمل التقويم الذي كان سائداً في عهد نوح وليس في تقويمنا نحن. فمتوسط الأعمار عند البشر في نمو مستمر وليس العكس، والدليل العلمي أعطانا بأن نقول (صدق الله العظيم) حول زمن دعوة نوح في قومه. حيث نبهنا التنزيل الحكيم قبل الاكتشافات الأثرية بأن التقويم المستعمل في عهد نوح يختلف عن التقويم المستعمل الآن)<sup>(٢)</sup>.

ولنا الآن على ما ذهب إليه د. محمد شحرور عدة تعليقات تصلح لأن تكون رداً على تصوراته والوهم الذي وقع فيه:

أولاً: لو راجعنا الخطاب في القرآن الكريم وهو يتناول مسألة السنة أو السنين، وكيف يتداولها بأسلوب لغوي، يعبر فيه عن إرادة جدية لبيان المقصود، ولا يمكن لأي جهد فردي، أو خواطر ذهنية أن تتعد به عن ذلك المقصود وتصادره إلى غيره. وخصوصاً إذا ما عرفنا أن هناك إبداع لغوي قرآني عندما

(١) القصص القرآني: د. محمد شحرور، نشر دار الساقى، بيروت، ط ٣، ٢٠١٧م: ج ٢ ص ٤٩-٥٠.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٣.

تطرح الكلمة من خلاله، فهي ضمن نسق يشد القارئ أو السامع نتيجة ما يقدمه الخطاب من نواحي معرفية، عليه أن يعدّ العدة لإستقبالها والتفاعل معها.

وهنا جاء الإستعمال اللغوي للسنة، استعمالاً حقيقياً للمعنى الذي وضع هذا اللفظ في عصر المخاطب، لا فيما كان يستخدمه قوم نوح أو السومريون. وذلك لأن الخطاب كان موجهاً الى الرسول صلى الله عليه وآله والناس أجمعين في ذلك العصر، ولم يكن موجهاً حين صدوره لقوم نوح أو للسومريين، ولذلك تجد في عصرنا الحالي نشأة عدّة علوم وخاصة في مجال اللسانيات والبحوث التداولية التي تنظر الى إرتباط المتكلم بالسياق الخارجي إرتباطاً وثيقاً ومؤثراً في تحديد المعنى الذي يقصده المتكلم، لتكون قراءة النصوص قراءة منهجية واضحة.

ثم إن الله جلّ وعلا في مسألة بيان طول مدّة لبث نوح في قومه قد خاطب النزعة الفطرية عند المجتمع الذي نزل عليه القرآن الكريم، وخصوصاً في بعدها اللغوي، وهذه إحدى سمات البلاغة في القرآن.

والآيات القرآنية التي تكلم بها القرآن الكريم حول (السنة) ما كان يفهم منها إلا معناها الدارج والمألوف في ذلك الوقت وفي وقتنا الحالي وفي المستقبل.

وسنختار قسماً من هذه الآيات التي أراد الله تعالى أن يستحضر فيها مفهوم السنين، ولننظر بعين الوعي والإنصاف، هل يفهم منها غير ما نفهمه نحن عن لفظ السنين ومدتها المعروفة. ثم لننظر ونرى هل توجد من بين هذه الآيات لفظ (سنة) نستطيع أن نصرفه الى مدة (الشهر) أو (الأسبوع) بحسب المعنى السومري أو البابلي أو الفرعوني أو ما شئت من مسميات تلك الأقوام التي



تختلف عندهم معاني ألفاظ (السنة)! أم أن كل ألفاظها الواردة في الآيات هي تمثل ذلك الوقت المعلوم والمفهوم عند عامة الناس.

ثم إننا لو نظرنا وتمعنا مرة أخرى في الآيات التي سنذكرها فسوف نتأكد بأن معنى (السنة) لا يستقيم في جميع الآيات إذا ما صرف إلى غير المعنى المتبادر عن (السنة) ومقدارها الزمني المتداول الآن أو في زمن عصر النزول. وذلك لأن النص سوف يفقد كثيراً من قيمته الدلالية وتأثيره على المخاطب. والآن لنعرض بعضاً من الآيات التي جاء فيها لفظ السنة:

- (يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ... ) البقرة : ٩٦ .

- (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ... ) المائدة : ٢٦ .

- (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) الحج : ٤٧ .

- (ثُمَّ يُعْرَجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) السجدة : ٥ .

- (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ... ) الاحقاف : ١٥ .

- (فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) يوسف : ٤٢ .

- (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ) يوسف : ٤٧ .

- (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا) الكهف : ٢٥ .

- (فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَيَّ قَدِيرًا مَوْسَىٰ) طه : ٤٠ .

- (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ... ) المؤمنون : ١١٢ .

- (قَالَ أَلَمْ نُزَيِّنْكَ فِينَا وَلَيْدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) الشعراء : ١٨ .
- (وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ\* فِي بَضْعِ سِنِينَ) الروم : ٣-٤ .
- (وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ... ) يونس : ٥ .

ثانياً: ان الخطاب القرآني كان في مقام بيان حقيقة تاريخية، يريد أن يهتز قلبها الفهم السائد في زمن النزول القرآني، ويزلزل ما قد تسالم عليه الناس، ألا وهو مسألة متوسط أعمار الإنسان على مر العصور، وطرح موضوعه طول عمر نوح كمقدمة طويلة المدى، نبعت من اللطف والرحمة الإلهية للعباد، بحيث لا يعادل أثر تجاوزها وعدم الإستجابة لها إلا الطوفان.

فالقرآن الكريم عندما يتكلم عن طول مدة لبث نوح في قومه، وهو يبلغهم بما أرسل من أجله، يريد أن يعطي صورة عن مرحلة من مراحل النبوة وهي تعيش حالة استثنائية من حالات التبليغ الرسالي، ألا وهي مسألة طول مدة التبليغ، التي تجاوزت المدد الطبيعية للرسول بعشرات المرات أو أكثر. وهنا في هذا المقام عبّر عن تلك المدة من اللبث بمفهوم (السنة)، فإذاً لا بد أن يكون مفهوم (السنة) هو المفهوم الدارج في ذهنية الرسول صلى الله عليه وآله والناس، وهي تلك المدة المعهودة عندهم، لا السنة المعهودة في التقويم السومري الذي استشهد به د. محمد شحرور، فالقرآن لم يخاطب المجتمع السومري، لكي نبحت عن مقدار السنة السومرية، إذا ما قورنت مع مدة (السنة) في زمن النبي صلى الله عليه وآله، وبما انه تعالى يخاطب المجتمع الذي عاصر الرسول فيجب أن يخاطب القوم بعاداتهم وطبائعهم ولغتهم وحساباتهم، فذلك أبلغ وأصوب وأثر في التبليغ، كيف والله تعالى هو القائل: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ

فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ابراهيم: ٤.

ثالثاً: إن الله تعالى عندما قال: (فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) فهو في مقام بيان مائز مهم من حركة ودعوة نبي الله نوح عليه السلام في قومه، لم يكن للأنبياء والرسل الآخرين دوراً مشابهاً لها. فهو من دون الرسل والأنبياء قد إمتاز فعلاً بطول مدة لبثه وبقائه في قومه، وهو يدعوهم جاهداً غير متواني صابراً غير جزع، وبهذه المدة الطويلة من الزمن. ولو كان المقصود من تلك المدة المذكورة من السنين، هي مدة قصيرة فيما إذا حسبت بالتقويم السومري، وما كانت العادة جارية في حسابه، لما كان لهذا الذكر من أثر وميزة يتنزل القرآن بها، وليتسم بها نوح عليه السلام دون غيره من الرسل.

وبعبارة أخرى:

حسب رأي د. محمد شحرور ان ٩٥٠ سنة التي لبثها نوح عليه السلام في قومه هي تمثل بالتقويم السومري القديم مدة قليلة من السنين التي نعيشها الآن، والتي قد تكون مقاربة لعمر إنسان، ٤٠ أو ٥٠ أو حتى ٦٠ فهي حيثئذ تكون مدة طبيعية قد عاشها أغلب أو كل الرسل، وهم يمارسون الوعظ والإرشاد والتبشير والإنذار، وتثبيت أركان رسالاتهم في أقوامهم وبين مجتمعاتهم. وإذا ما كان هذا الأمر طبيعياً، وهو المعتاد عليه، ما الداعي إذن الى ذكره والإشارة إليه ليين مكث نوح عليه السلام، وهو الأمر المفروض تواجدته ومعاشته.

ثم إن الرقم (ألفاً) عندما ذكر في القرآن الكريم، فقد جاء في جميع الآيات للكثرة، والإشارة الى كثرة عدد السنين أو الأيام أو الأشهر أو حتى الملائكة كما جاء في أكثر من آية.

إذن لم يبق لنا إلا أن نستشعر تلك الفترة الطويلة من السنين التي تكاد تقرب من ألف سنة، والتي عاش فيها نوح تجربة إيصال وتبليغ الرسالة السماوية الى قومه الذين ملؤوا عناداً ومكابرة للحق، والإصرار على الكفر، بل وتحدي الغضب الإلهي الذي تسبب في فنائهم. وهي تلك التجربة المريرة والصعبة التي عاشها نوح ليستحق من خلالها أن يكون من رسل أولي العزم بجدارة.

رابعاً: من الراجح جداً أن تكون أعمار قوم نوح عليه السلام اعماراً اعتيادية، وحالتها حال اعمارنا الحالية، أو قد تكون أقل أو أكثر بقليل، وهو المعدل الطبيعي لعمر الإنسان العادي، ولكن كان نوح قد إمتاز بهذا العمر الطويل، بحيث أننا لم نعلم عمره تحديداً، ولكن علمنا فقط مدّة دعوته في قومه التي هي ٩٥٠ سنة. أما عمره الواقعي فلم يذكر لنا القرآن الكريم شيئاً عنه، ولعله أكثر من ذلك بكثير، وهذا الأمر قد يدعم نصوص ملحمة جلجامش السومرية وخصوصاً النصوص الخاصة بالطوفان، والتي تروي وتنسب اعتزال شخص وخلوده بعد الطوفان، علماً ان نص هذه الملحمة، هو الأقرب الى زمن نوح عليه السلام، وهو قد يدل على وجود نوح في زمن القصة، وانه قد نال درجة الخلود النسبي، وهذا يدل على أنه قد مضى على حياته أكثر من ألف سنة بعد حدوث الطوفان.

فتقول الملحمة: أن جلجامش بعد أن مات خله وصديقه (أنكيدو) بكى بكاءً مرّاً، وهام على وجهه في الصحاري وصار يناجي نفسه:

إذا ما مت أفلا يكون مصيري مثل أنكيدو؟

لقد حلّ الحزن والأسى بروحي

خفت من الموت، وها أنا أهيم في البوادي

الى أن يقول (جلجامش): أتيت قاصداً أبي (اوتو - نبشتم)

جئت لاسأله عن (لغز الحياة والموت) - بإعتبار طول العمر الذي إمتاز به -  
وبعد أن وصل الى (اوتو - نبشتم) - وقد يكون هو نوح نفسه - أخذ يخبره  
عن قصة الطوفان وكيف أن الأرض قد غرقت، وذلك بسبب فساد أهلها،  
وكيف إنه قد بنى السفينة وأصعد فيها من حيوان الحقل وحيوان البر وجميع  
الصنّاع الى أن قال: - راجع بقية النص في البحوث السابقة فقد ذكرناه كاملاً -.

خامساً: لا يمنع ان يكون هذا الزمن الطويل لنوح عليه السلام، وهو يلبث  
في قومه من أجل إيصال رسالته وإنقاذ قومه، أن يكون ميزة، لا يشاركه فيها غيره  
من الرسل بإعتبار أن الرسل من أولي العزم، قد إمتاز كل واحد منهم بخصيصة،  
لا يشترك معه الآخرون بها. وهم على كل حال، قد أدوا رسالتهم ضمن زمن لا  
يتجاوز العمر الطبيعي للإنسان. فبعث ابراهيم عليه السلام وقد واجه طواغيت  
عصره، حتى أراد النمروود حرقه بتلك النار التي اوقدها بحطب قد جمعه لها أياماً  
وليلي، ولكن الله تعالى انجاه منها، بعد أن جعلها برداً وسلاماً على إبراهيم،  
وبعث موسى عليه السلام بعصاه لتلقف سحر ذلك العصر الفرعوني، وبعث  
عيسى عليه السلام وهو يشافي المرضى ويحيي الموتى بإذن الله، فكذلك قد يكون  
الزمن الذي بعث فيه نوح عليه السلام، كانت تكثر فيه جدلية خلود الإنسان،  
والحياة الدائمة في الدنيا، ولذلك جاء التحدي الإلهي لهم، ببعث رسول له قابلية  
الخلود وإن كان نسبياً، لإيصال الرسالة من خلال تلك الجزئية. ولكن للأسف  
فقد بقوا على عنادهم، وأصرّوا على ما هم عليه من الكفر والجحود.

## السبب الثالث:

لو تساءلنا عن الدولة العالمية الكبرى التي تنعم كل البشرية تحت رعايتها بالسعادة والعدل والأمان، فهل في زمن ما بعد الطوفان، سيتحقق هذا العنوان الضخم، خصوصاً إذا ما علمنا وحسب ما جاء في بعض الروايات والأحاديث الموثوقة، بأن هذه الدولة لا تتحقق إلا بعد أن تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً لتمتلئ قسطاً وعدلاً<sup>(١)</sup>.

وما حدث هذا الأمر - أي إمتلاء الأرض بالظلم والجور - إلا لإثبات قدرة السماء على إعطاء الحلول المناسبة لرفع تلك المظلومية والجور الذي يحدث بسبب فساد الناس. والحقيقة أن مرحلة ما بعد الطوفان كانت أوضح تجربة في بعدها العملي بأن هناك أناس قد نجو من خطر الطوفان، على رأسهم نوح عليه السلام وقليل من الذين آمنوا معه. فهل كان بإمكانهم تحقيق العدل العالمي والعبادة الحقة في ذلك الزمن؟ وجواب ذلك ينبغي أن يكون واضحاً، ولا يلتبس عليك الأمر وتنتقل بالمباشر لتقول: إنهم يستطيعون فعل ذلك، بإعتبار إيمانهم أولاً، ولأنهم قليلون ثانياً، فحيثئذ سيسهل الأمر عليهم!

إن مثل هذا التصور الأولي خاطئ، ويحتاج الى شيء من التروي. والإجابة الداعمة لعدم قدرتهم هو مايلي:

أولاً: إنهم قد عجزوا عن إصلاح قومهم ومجتمعهم الذي تواجدوا فيه، مع وجود تلك الفسحة الطويلة والتي استمرت وكما حددها القرآن الكريم بـ

(١) ينظر: المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي: علي الكوراني العاملي، نشر دار المرتضى، بيروت، ط ١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م: ص ١٣٠ وما بعدها.

(٩٥٠ سنة)، وهذا يدل على أن الناس في عهد نوح لم يصلوا بعد الى المستوى المطلوب من الوعي لمعرفة ما يضرهم وما ينفعهم، إلا بمقدار بسيط يحافظوا من خلاله على وجودهم الدنيوي وعلى مصالحهم الإجتماعية الضيقة. وكانوا يظنون بأنهم يستطيعون تمشية أمورهم الحياتية لسهولتها وعدم التعقيد فيها. وهذا أيضاً كان واضحاً حتى في تعامل نوح معهم إذ كانت دعوته تتركز في الجانب العقائدي والمرتبط بالبعد التوحيدي ونبذ الأوثان، والتذكير بالمعاد.

ثانياً: إن الإتيان بالطوفان وإغراق جميع الكافرين، كان هو الحل الوحيد المناسب للتخلص من فساد الناس والذي يوازن ذلك الدور الإنساني في تلك المرحلة من التاريخ. وهذا الأمر لم يتوصل إليه نوح عليه السلام ولا الذين آمنوا معه، إذ لم تكن لديهم قدرة الإتيان بمثل هذا الطوفان أو غيره، وإنما كان فعلاً إلهياً مباشراً، وقف المعسكر الإيماني ومعسكر الشيطان قبالة مذهولين، لولا رحمة الله تعالى، التي أنجت نوح والذين معه.

إذن البشرية في ذلك الحين لم تصل بعد الى مقام الاستحقاق للوصول الى الحقائق عن طريق الإستدلال والبرهان، فهذا يحتاج الى بعد زمني طويل جداً، حتى تتربى عليه البشرية وليكون هو الميزان الذي يتم به معرفة الخير من الشر.

ثالثاً: اما لماذا لم يتم تحقيق مطلب العبادة الحقة بإعتبار (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) الذاريات: ٥٦. والسعادة والعدل الإلهي مع نوح عليه السلام والذين آمنوا معه بعد الطوفان. فهذا أيضاً غير ممكن، لان الله تعالى يريد أن يصل بالبشرية الى مستوى فكري عال، ليتحقق الإيمان العالي والراسخ، لا الإيمان السطحي الساذج. وليستمر بالتالي ولا يتعثر في لحظة من اللحظات. وخير دليل على ذلك، هو عدم إستمرار عهد الإيمان الذي أوجده نوح عليه

السلام مع أولئك القلة من المؤمنين، بحيث بعد حين عاد الفساد، وعادت الآثام ترتكب من جديد، ولذلك إستمر بعث الأنبياء والرسل لتساير هذا الطبع البشري، الذي يحتاج الى التذكر والوعيد للإنبابة والعودة.

#### السبب الرابع:

يوجد صراع دائم بين أنصار العقل وإعطائه قدرات مطلقة للوصول الى الحقائق ودقائق الأمور، ومن ثم إيجاد الحلول لأية مشكلة تواجه المجتمعات البشرية، وبالتالي سيتم التغلب على كل العقبات بشكل نهائي. وبين أصحاب محدودية العقل الذين يذهبون الى أن العقل مهما أوتي من قدرات عالية، لإدراك الحقائق، وإيجاد الحلول لكل واقعة تحدث في هذه الدنيا، ولكنه سيبقى بحاجة في ظروف معينة الى من يرشده ويوجهه ويأخذ به الى الحلول المثلى، التي لا عواقب وخيمة بعدها. وهؤلاء هم أتباع الرسل، والمؤمنون إيماناً مطلقاً بالإحتياج الى السماء، ولا يمكن قطع خط الوصال بين العقل وبين السماء عن طريق الرسل والأنبياء. وهذا ينبع من عدة حقائق:

الأولى: لبيان الفرق بين الخالق والمخلوق.

الثانية: إظهار مسحة وسمة الفقر والإحتياج للعباد، والإذعان بعدم قدرة البقاء بهذا الكون دون اللطف الإلهي.

الثالثة: إعطاء فرصة الحكم العملي للطرفين، ومن ثم بيان عجزهم عن الوصول الى مقام السعادة البشرية والعدالة المطلقة.



فأما بالنسبة لأهل العقل، وانه قادر على الوصول لإيجاد الحلول بمفرده، بالإعتماد على الإبداع ولإختراع من جهة، وعلى المخزون المعرفي المتراكم من جهة أخرى. فإنهم سيفشلون لا محال، كونهم لا يستطيعون الخروج من طوق النفس البشرية والميل لأطماعها وتحقيق رغباتها ونزواتها. هذا من جانب ومن جانب آخر، فإن الفرد وإن فرضنا كان عارفاً عالماً بما تريد نفسه، وعرف مصلحتها، فكيف يتسنى له معرفة مصالح الأفراد الآخرين، وخصوصاً أننا نعرف مدى قوة علاقة الارتباط بين الأفراد، وهم يشكلون فيما بينهم وشائج وروابط إجتماعية صغيرة وكبيرة. ولكي تنجح هذه التعاملات الجمعية، فإنها تحتاج الى أن يقفز الفرد من مرحلة التفكير الذاتي والشخصي الى عقبة جديدة من مراحل النظر الموضوعي، والوصول لإيجاد سعادة وتحقيق مصالح ومكتسبات نوعية، تشملته وتشمل غيره ببعده متساوي.

ولكن في هذه الحالة سوف تختلف المواقف وتتغير المطالب والمصالح، لأن كل يرى من زاويته الخاصة، والتي قد تتضارب وتتعاكس مع مصالح الآخرين. ولذلك سوف يكون الفشل هو المصير لمثل هذا التوجه مهما طالت وتعددت محاولاتهم في إيجاد البدائل. وأما أهل الإيمان بالرسول، فإنهم في وجودهم الدنيوي وهم يمارسون دورهم الإيماني لم يكونوا بحال معزولين عن المجتمع العالمي، ولذلك سيكون هناك تصادم، متى ما أرادوا تحقيق دستور الله تعالى في أرضه، فإنهم لن يتمكنوا، حتى وإن حكموا في بعض الاماكن والبلاد، وذلك لسببين:

الأول: لأنهم قد إبتعدوا عن عصر النص، وسوف يعيشون في الغالب مرحلة الأحكام الظنية في الكثير من تصرفاتهم وأفعالهم.

الثاني: هم حتى وإن تمكنوا من السيطرة على الحكم في دولة ما، فإن تأثير

المحيط الخارجي، سوف يكون له أثر في الداخل، ولا يمكن أن يرتاح ويطمئن الى ما سيجري في داخل تلك الدولة، وسيسعى بإسم المجتمع الدولي والعالمي بكل الوسائل لعرقلة ذلك المسعى الإيماني، وإثارة المشاكل حوله بمستويات عديدة. هذا مضافاً الى عدم وجود القدرة والإمكانية للإعتزال عن العالم الخارجي، وخصوصاً بعد ما وصلت إليه البشرية من تقنيات حديثة هائلة وإيجاد وسائل تواصل اجتماعي وعلمي وثقافي عالية.

وبالنتيجة سوف لن نصل الى إيجاد المجتمع السعيد، ولو في بقعة صغيرة من بقاع الأرض. وهذا ما يشير إليه الحديث بوضوح: (ما يكون هذا الأمر حتى لا يبقى ضئف من الناس إلا وقد ولوا على الناس حتى لا يقول قائل إنا لو ولينا لعدلنا، ثم يقوم القائم بالحق والعدل) (١). وهذا الأمر يحدث من أجل إعطاء الفرصة لكلا الطرفين من أجل إظهار قابلياتهم في تحقيق هذا الأمر. ولكن بعد فشلهم - وبغض النظر عن أسباب الفشل - سيقر كل بعجزه، وبالتالي سيسري هذا الشعور الى داخل شعوبهم.

ولذلك ستطلب بلسان حالها أو فعالها الحل الإلهي، لأنها قد ملّت وأرهقت، وأعلنت عجزها وفشلها في حل مشاكلها ضمن وضع قد ملئ بالظلم والجور والإنكسار، بعد أن كلما حاولت حكوماتهم من إيجاد حلولاً لأزماتها، برزت أزمات أخرى تنبثق من نفس الحلول التي وضعت لسابقتها، وهي في الواقع أضعاف الأزمات والمشاكل السابقة.

(١) الغيبة: الشيخ الجليل أبي عبد الله محمد بن ابراهيم المعروف ابن أبي زينب النعماني،

المتوفي حدود سنة ٣٦٠هـ، تحقيق فارس حسون كريم، نشر دار مدين، قم، ط ١،

١٤٢٦هـ: ص ٢٨٢، ح ٥٣.

والآن لنعيد السؤال بصيغة أخرى، هل يا ترى وصلت البشرية في عهد نوح عليه السلام الى هذا المستوى من النضج الفكري ومواجهة هذا التعقيد من المشاكل والأزمات، مضافاً الى هذا المخزون من الخبرات والتجارب المعرفية الهائلة؟ وخصوصاً إذا ما عرفنا بأن الناجين مع نوح هم قلة قليلة، ولعلمهم لم يتجاوزوا الثمانين كأعلى حد ذكر في الروايات.

ولذلك لن يكون مناسباً، ومن غير المعقول أن يكون مع هكذا عدد، ومع هذا الفراغ الأرضي الكبير، وخلوه من البشرية، أن يكون له هذه الحصاة من هذا الحق الكوني، الموعود به الوجود الإنساني بأكمله.

### السبب الخامس:

إن الملائكة قد اعترضت على خلافة الإنسان في الأرض، كونها قد سبق في علمها أن الإنسان قد خلق من مجموعة أشياء متضادة ومتناقضة، وفوق كل هذا فهو له نحو إختيار في وجوده الدنيوي. فقالت على نحو الإستغراب وكما جاء في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) البقرة: ٣٠.

وفي هذا الصدد يقول صاحب تفسير الميزان: ان ملخص قولهم يعود إلى أن جعل الخلافة إنما هو لأجل أن يحكي الخليفة مستخلفه بتسبيحه بحمده وتقديسه له بوجوده، والأرضية لا تدعه يفعل ذلك بل تجره إلى الفساد والشر، والغاية من هذا الجعل وهي التسبيح والتقديس بالمعنى الذي مر من الحكاية حاصلة

بتسبيحنا بحمدك وتقديسنا لك، فنحن خلفائك أو فاجعلنا خلفاء لك، فما فائدة جعل هذه الخلافة الأرضية لك؟ فرد الله سبحانه ذلك عليهم بقوله: (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (١).

وحيث بعد حدوث الطوفان كعقاب جماعي للذين كفروا برسالة نوح عليه السلام، يكون استغراب الملائكة وتعجبهم في محله، لأن ها هي البشرية من أولاد آدم أمامنا عاثت في الأرض فساداً كما قلنا ولم تستطيع أن تحقق ما وجدت من أجله - وتحديداً استحقاق خلافة الله في أرضه - ولذلك لكثرة إفسادهم في الأرض كانت عقوبة الطوفان كعقوبة استئصالية لم تبق ولا تذر إلا تلك القلة من المؤمنين بنوح عليه السلام.

أما بعد نجاة نوح والمؤمنين القلائل معه، فهنا لا يمكن أن نحقق مجتمع عالمي سعيد ينعم بالعدالة والمساواة ويعيش في ظل تشريع سماوي كبير قادر على استيعاب خطوط الحياة البشرية، وفي أدق تفاصيلها. بإعتبار إثبات قدرة الله تعالى على أن يكون تشريعه متى ما طبق في أرضه كفيلاً في إيجاد توازن إنساني يتساوق مع الكون القذة بالقذة، في ملامحه وظواهره الخارجية، وفي ابعاده الباطنية، لأن البشرية هي الآن - أي بعد الطوفان - في حالة ولادة جديدة، ولم تنضج بعد الى مرحلة من مراحل العمر التي تكون فيها على أتم استعداد لمواجهة مشاكل وأزمات الحياة، التي كلما تقدم الزمن كثرت وكبرت وتعددت. بل على العكس، لم يستطع البعد الإيماني المتمثل بنوح عليه السلام والذين آمنوا معه، أن يؤثر على الأفراد الكافرين من أجل هدايتهم، ولم تكن له القدرة على التخلص منهم أيضاً. بل تدخل الله تعالى، وأحدث الطوفان الكبير، وتم إهلاك الكافرين.

(١) الميزان في تفسير القرآن: مصدر سابق، ج ١، ص ١١٥.

وفي هذه الحالة لن يكون هناك أي دليل عملي على قدرة الإنسان في إثبات استحقاقه في استخلاف الأرض وإعمارها، ومدّها بعناصر القوة التي يحرز بها إثبات جدارته لهذا الإستخلاف. ولذلك فالبشرية تحتاج الى زمن طويل جداً، لكي تمر بحالة التعايش مع التجارب الإجتماعية بمختلف مستوياتها، وما تفرزه من جوانب اقتصادية متنوعة، نتيجة الحراك والإحتياج الفطري الذي وجد مع الإنسان. الى أن يصل الى أعلى مراحل الصراع بين الحكومات والدول ذات القوى النوعية، من أجل مصالحها الخاصة، والتي غالباً ما تعاكس الرسائل السماوية بإعتبارها المراقب الوحيد الذي يجد من تحركاتهم ونزواتهم الشيطانية.

وإذا ما عرض تساؤل: لماذا إذن حصل هذا العقاب الإلهي الذي تمثل بالطوفان وتم به القضاء على كل الكافرين؟ أليس ذلك دليل عملي على عدم قدرة القوة الإيمانية من التغلب على قوى الشر والطغيان، من أجل إقرار الهداية على سطح البسيطة لتنعم كل الإنسانية بعطائها.

وجواب ذلك يكون من خلال ما يلي:

أولاً: إن البشرية لم تصل بعد الى أقصى حد في الطغيان، وكذلك لم تصل بعد الى تكامل إيماني عالي، لأن كلا المعسكرين - الإيماني والكفر - يتكاملان، وكل يلتذ بتكامله. فالإيمان يصعد ويتكامل في علوه النوراني، ومعسكر الكفر يتكامل نحو التسافل الظلماني. وبما أن البشرية لا زالت قريبة عهد في وجودها على هذه الأرض، ولا يزال آدم عليه السلام قريب عهد بالنسبة لنوح، فلا زالت هي لم تعرف، أو لم تصل الى المشاكل التي تعيشها البشرية الآن. والتي بدورها تحتاج الى بعد إيماني عال جداً لمواجهة الإنحرافات التي أوجدتها تلك المشاكل والمظالم.

إذن لم تكن المرحلة التي بعث فيها نوح عليه السلام، هي المرحلة المعدّة لظهور الحق المطلق وتشكيل تلك الدولة العالمية التي وعدت بها الإنسانية.

ثانياً: ان نفس حدوث الطوفان الكبير يعتبر حلقة من الحلقات التكاملية التي تحتاجها البشرية قبل تحقيق دولة العدل العالمي، بل لعله يعتبر من الحلقات المهمة التي تسبق هذا الأمر. والذي تم من خلاله معرفة إشارة من إشارات الغضب الإلهي على منكري الرسالات السماوية، وليعرفوا بأن الله تعالى قادر على ما يريد، حتى وإن طال حلمه وأناته، بحيث كانت تجربة الطوفان تجربة جداً مؤثرة في الضمير الإنساني، ولذلك فهي عاشت في الوجدان البشري لأجيال طويلة، ولم تمحى من الذهن البشرية. بل طاف سرد هذا الطوفان على اغلب الحضارات، وكل واحدة منها كتبه وقصته بحسب ما تمتلكه من بعد ديني حاضر لديها. بل أصبح لفترة طويلة كعصى بيد الأنبياء والرسول يلوحون بها على كل من يحاول التمرد على الله تعالى ورساله.

**النبي سليمان عليه السلام**

والآن لنأتي الى النبي سليمان عليه السلام، لنرى هل أن المعطيات التي بيّتها الآيات القرآنية المختصة بسليمان، أو المعطيات الأثرية التي خلفها التاريخ، أو ما جاء في التوراة، قد مكنته من تشييد وبناء الدولة العالمية العادلة، كونه إمتلك الوسائل لحل المشاكل الكثيرة، بواسطة تسخير أشياء ليست من جنس البشر، لم يكن لغيره نصيب واضح يّين منها.

أو لنقل على أقل التقادير: هل وجدت في عهد سليمان عليه السلام دولة مصغرة كانت تنعم بالعدالة والمساواة والرفاهية والأمان؟

وقبل أن نين هذا الأمر نتكلم بشيء ولو إجمالاً عن شخصية هذا النبي الذي لم يُنصف والذي أثرت عليه إشكالات لدى الكثير، بسبب ما حرّفه اليهود في توراتهم والتلفيق عبر كتاباتهم، كما طعنوا في أحوال الأنبياء كإبراهيم ولوط ويعقوب وداود، والأوهام والخرافات التي أحاطوها بهم، والتي شوّوها من خلالها سيرة اولئك الأنبياء العظام.

والآن لنأتي ونرى ما هي نظرة الإسلام واليهود والدراسات التاريخية عن سليمان عليه السلام، ومن ثم نتطرق الى مطلبنا الرئيس عن وجود الدولة العادلة في عهده.

## سليمان عليه السلام بنظرة قرآنية

ذكر سليمان عليه السلام في القرآن الكريم ست عشرة مرّة في سور (البقرة - النساء - الأنعام - الأنبياء - النمل - سبأ - ص). ليكون أحد الأنبياء الخمسة



والعشرين الذين كان لهم شأن يستحق الذكر، لما يطويه ذلك الذكر من اشارات وإرشادات، وقيم خلقية وعبادية لا تستغني البشرية عنها، وهي تطوي مراحل سيرها في هذه الدنيا، لتبني مستقبلها الموعود بأحسن البناء وأكمل صورة.

والآن لتصفح بعضاً من هذه الآيات لنرى مقام سليمان ومكانته في القرآن الكريم:

الآية الأولى: قال تعالى: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ\* وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) الأنعام: ٨٣-٨٤.

وهنا في هذا النص قد بين لنا بأن داود وسليمان هما من ذرية إبراهيم عليه السلام، وأن هناك اصطفاءً لهما يأتي من خلال السلسلة النبوية الممتدة الى إبراهيم، وهذا لا يعني الإنتهاء الدموي والعرقى فقط، لأن هناك المئات من ابناء يعقوب وأحفاده ليسوا انبياء، وقد يكون قسماً منهم فاسقين وغير صالحين. وفي ذلك تأكيد على مسألة نبوة سليمان عليه السلام، وسيره على النهج الإبراهيمي الصحيح، ولم يخالف عقيدته التوحيدية الخالصة. وهنا قد بينت هذه الآية، أن صلة النبوة أقوى من أية صلة أخرى، ومن ضمنها صلة النسب التي يعول عليها اليهود كثيراً<sup>(١)</sup>.

الآية الثانية: قال تعالى: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن

(١) ينظر: سليمان صرخة النبوة في وجه الخرافة التوراتية: د. حسن الباش، دمشق، ط ١،

بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ  
وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا) النساء: ١٦٣.

وفي هذه الآية دلالة واضحة على أن سليمان قد أوحى إليه كما أوحى للنبيين  
من قبله، ولعله أول خطوات الوحي هو ما حدث له، وهو يشترك مع أبيه في  
القضاء بين الناس، والتي ذكرت في القرآن الكريم: (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ  
فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ \* فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ  
وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا) الأنبياء: ٧٨-٧٩.

اشتهر على ألسن الرواة أن رجلين تخاصما الى داود، أحدهما صاحب زرع،  
والثاني صاحب غنم، قال صاحب الزرع: إن غنم هذا رعت زرعي في الليل،  
وبعد أن ثبت ذلك عند داود قضى بالغنم لصاحب الزرع، ولما علم سليمان، قال  
لأبيه: الأرفق بالرجلين أن يأخذ صاحب الأرض الغنم لينتفع بها، لا على سبيل  
الملك، وأن يأخذ صاحب الغنم الأرض ليصلحها حتى يعود الزرع كما كان،  
وعندها يترادان، فيأخذ هذا غنمه، وذاك زرعه. فاستحسن داود حكم ولده  
ورجع إليه.

وقال جماعة: إن الحكم كان على ما قال داود، ثم نسخ بما قال سليمان. وهذا  
أرجح الأقوال بدلالة قوله تعالى: (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا)  
حيث شهد الله لكل منهما بأنه عالم بالحكم، وعلى هذا يكون قوله: فَفَهَّمْنَاهَا  
سُلَيْمَانَ أنه أوحى إليه بنسخ الحكومة دون أبيه<sup>(١)</sup>.

(١) التفسير الكاشف، العلامة الشيخ محمد جواد مغنية، نشر دار التيار، بيروت، ط ١،

ويبدو أن داود عليه السلام - لأنه كان الملك النبي والحاكم المطلق في بني إسرائيل، وقد جعله الله خليفته في الأرض: (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ) ص: ٢٦، يبدو أنه لذلك كان هو المسؤول في تلك المنازلة. (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ) فأبدى ما فهمه ربه، وطبعاً بإذن من داود، إظهاراً للقصور الذاتي للمرسلين لولا الوحي، ولأهلية سليمان للخلافة بعده<sup>(١)</sup>.\*

(١) الفرقان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج ١٩، ص ٢١٧.

(\* جاء في البحار ج ١٤، ص ١٣٢ عن الكافي بسند عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الإمامة عهد من الله عز وجل معهود لرجال مسمين، ليس للإمام أن يزويها عن الذي يكون من بعده، إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى داود عليه السلام أن اتخذ وصياً من أهلك، فإنه قد سبق في علمي أن لا أبعث نبياً إلا وله وصي من أهله وكان لداود عليه السلام أولاد عدة وفيهم غلام كانت أمه عند داود عليه السلام وكان لها محباً، فدخل داود عليها حين أتاه الوحي فقال لها: إن الله عز وجل أوحى إليّ يا أمري أن أتخذ وصياً من أهلي، فقالت له امرأته: فليكن ابني، قال: ذاك أريد، وكان السابق في علم الله المحتوم عنده أنه سليمان، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى داود أن أجمع ولدك فمن قضى بهذه القضية فأصاب فهو وصيك من بعدك، فجمع داود ولده فلما أن اقتضى الخصمان، قال سليمان: يا صاحب الكرم متى دخلت غنم هذا الرجل كرمك؟ قال: دخلته ليلاً، قال: قد قضيت عليك يا صاحب الغنم بأولاد غنمك وأصوافها في عامك هذا، ثم قال له داود فكيف لم تقض برقاب الغنم، وقد قوم ذلك علماء بني إسرائيل، فكان ثمن الكرم قيمة الغنم؟ فقال سليمان: إن الكرم لم يجتث من أصله، وإنما أكل حملة، وهو عائد في قابل. فأوحى الله عز وجل إلى داود أن القضاء في هذه القضية ما قضى سليمان به، يا داود أردت أمراً وأردنا أمراً غيره. فدخل داود على امرأته قال: أردنا أمراً وأراد الله غيره. ولم يكن إلا ما أراد الله عز وجل فقد رضينا بأمر الله عز وجل وسلمنا، وكذلك الأوصياء ليس لهم أن يتعدوا بهذا الأمر فيجاوزون صاحبه إلى غيره.

الآية الثالثة: قال تعالى: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ \* وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُم حَافِظِينَ) الأنبياء: ٨١-٨٢.

وهنا بينت الآيات تسخير الريح لسليمان عليه السلام، في شدتها وسرعة حركتها وقوة اندفاعها، فيوجهها في أغراضه حيث يشاء، ولعل التأكيد على الريح العاصفة، التي لا تختلف في تسخيرها له عن الريح الهادئة، يعود الى تسخير العاصفة أكثر دلالة على القدرة من الهادئة.

وأما غوص الشياطين فهم ليستخرجون له من البحر ما يشاء من اللآلئ وغيرها، ويعملون له دون ذلك، ما يشاء من محاريب وتمائيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، بحيث يحفظ دورهم في خدمته، فلا يهربون منه، ولا يمتنعون عنه، ولا يفسدون أمره وعمله<sup>(١)</sup>.

ويقول صاحب تفسير الكاشف: هذه الآية ظاهرة الدلالة على أن الريح كانت تحمل سليمان بأمر الله، ولا داعي للتأويل، ما دام العقل لا يأبى هذا الظاهر، وأوضح من هذه الآية قوله تعالى: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوًّا شَهْرًا وَرَوْاحُهَا شَهْرًا) سبأ: ١٢، فهي تقطع بالغداة مسيرة شهر على الجمال، وبالعشي كذلك... وتساءل: قال سبحانه هنا: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً). مع أنه قال في الآية ٣٦ من ص: (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً) والعاصفة هي الشديدة، والرخاء هو اللين، فما هو وجه الجمع؟

(١) ينظر: تفسير من وحي القرآن: ج ١٥، ص ٢٥٢ والفرقان في تفسير القرآن: ج ١٩، ص ٢٢٢ وما بعدها، والأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج ١٠، ص ١٥٢ وما بعدها.

والجواب: إنها تجري تارة شديدة، وأخرى لينة حسبها يأمرها تماماً كسائق السيارة والطائرة<sup>(١)</sup>.

عموماً فإن الله تعالى قد بينّ تسخير الريح لسليمان عليه السلام، سواء كانت شديدة عاصفة أو لينة برفق، فإنه من الطبيعي سوف يستخدم الأصلح، بحسب إختلاف المواقف والظروف، بحيث تؤدي الفعل المطلوب على أكمل وجه.

أما مسألة حملها لسليمان والتنقل به من مكان الى آخر، فهذا الأمر لا يستبعد، ولكن الظاهر أنه عليه السلام لم يكن يستخدمها في حركة جنوده من الجن والإنس والمخلوقات الأخرى التي كانت معه، والتنقل بهم من موضع الى موضع آخر، سواء في اعماله العسكرية أو لأمر غيرها. وإنما قد استخدمها لتنقلاته الخاصة به وحده أو لبعض الأفراد، وفي ظروف خاصة ومحدودة، وهذا ما سنبينه بشكل أكثر تفصيلاً في مستقبل البحث إن شاء الله فانتظر، وستتضح لك الصورة أكثر.

الآية الرابعة: قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) النمل: ١٥.

وهنا بدأ القرآن بمسألة موهبة العلم التي هي أساس الحكومة الصالحة القوية، وبالرغم من أن كثيرا من المفسرين أجهدوا أنفسهم وأتعبوها ليعرفوا هذا العلم الذي أوتيته سليمان وداود، بإعتبار إنه جاء في الآية بصورة مغلقة، فقال بعضهم هو علم القضاء، وقال بعضهم هو صنعة الدروع، بقريئة (صَنَعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ) إلا أن من الواضح أن العلم هنا له مفهوم واسع،

(١) التفسير الكاشف، مصدر سابق: ج ٥، ص ٢٧٩.

بحيث يحمل في نفسه علم التوحيد والاعتقادات المذهبية والقوانين الدينية، وكذلك علم القضاء، وجميع العلوم التي ينبغي توفرها لمثل هذه الحكومة الواسعة القوية، لأن تأسيس حكومة إلهية على أساس العدل وحضارة عامرة حرة دون الإفادة من علم واسع غير ممكن، وهكذا فإن القرآن يعدّ مقام العلم لتشكيل حكومة صالحة أول حجر أساس لها<sup>(١)</sup>.

ويمكن القول أن العلم الذي آتاه الله تعالى لسليمان هو العلم الذي يناسب شأنه ومقامه، مضافاً إلى العلم الذي يتوقف أمر مملكته عليه، وأمر الهداية التي سوف يكلف بها سليمان عليه السلام. وحيث لا داعي لحصر العلم بجهة واحدة، أو بالجهات الأخرى التي ذكرها المفسرون. وإنما نستطيع القول، بأن العلم الذي آتاه الله تعالى لسليمان هو يشمل كل العلوم صغرت أم كبرت، عظمت في نتائجها أم كانت بسيطة، وسواء كانت خارقة لقوانين الطبيعة أم لم تكن. فهي كلها قد تيسرت له، ما دامت تقع في دائرة ما أريد من سليمان تنفيذه.

ولكن في الحقيقة، لا يمكن أن نذهب إلى أنه سلام الله عليه قد نال كل العلوم على الإطلاق، وإنما هو مذخور لسيد الأنبياء وخاتمهم محمد صلى الله عليه وآله، وهذا ما بيته الآية نفسها حيث قالوا: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ) ولم يقولوا: الحمد لله الذي فضلنا على كل المؤمنين. ليشيرا بذلك على أنها قد فضّلا على كثير من المؤمنين، ولكن بقي هناك مؤمنون، هم أفضل منهما، وستبقى مراتب العلوم وكثرتها وشدتها مرهونة ومحصورة بهم. وهذا ما تشير له الآية المباركة: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ... البقرة: ٢٥٣).

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: الفقيه الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، نشر دار احياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م: ج ١٢، ص ٢٠ بتصرف.

الآية الخامسة: قال تعالى: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) النمل: ١٦.

وهنا إختلاف بين المفسرين في المراد من الإرث الذي ورد في الآية:

ف قيل: ان في هذا دلالة على أن الأنبياء يورثون المال كتوريث غيرهم<sup>(١)</sup>.

وقيل: الإرث هنا جاء كما يرث الإبن أباه، في ملكه وماله، وكما يرث الأشخاص الموقع والدرجة، وكما يرث الأنبياء الرسالة ممن تقدمهم، لا بمعنى الإرث المادي، لأن الله هو الذي يعطي الرسالة والموقع والدرجة العليا، للمتأخر من الأنبياء، وليس هو النبي المتقدم، بل هو بمعنى الإمتداد الذي يجعل من كل واحد مرحلة متصلة بالمراحل السابقة في ما هو امتداد حركة النبوة في الحياة<sup>(٢)</sup>.

وقيل: وورث هنا لا تعني إرث النبوة، بل هو هنا المال، فالنبوة ليست لتوريث لأنها وهبة إلهية كما هنا (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا) فالله هو الذي علم سليمان كما علم داود، فلا مجال لإرثه عنه بعد ما آتاه الله، إلا تحصيلاً لحاصل ومن غير مصدره. فالمال يورث بما فرضه الله كضابطة لا تستثنى: (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ... إرثاً دون تحصيل، ثم العلم غير الرسالي قد يورث ولكنه بتحصيل كما (العلماء ورثة الأنبياء) تعلماً منهم، ولكننا النبوة لا تورث، إذ لا تحصل بتحصيل، وإنما هي وهبة إلهية لا تنتقل من نبي الى نبي، بل هي عطية

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن: الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، حققه وعلق عليه السيد هاشم المحللاتي، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م: ج ٨، ص ٢٧٨.

(٢) تفسير من وحي القرآن: آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله، نشر دار الملاك، بيروت، ط ٢، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م: ج ١٧، ص ١٩٤.

ربانية لمن يشاء (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) فطالما العلم مصداق مجازي هامشي للإرث فالنبوة غير داخلية في ميراث ولا مجازياً<sup>(١)</sup>.

وقال صاحب تفسير الأمثل: ولكن مع الإلتفات الى أن الآية مطلقة، وقد جاء في الجمل التالية الكلام على العلم، وعن جميع المواهب (وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) فلا دليل على حصر مفهوم الآية وجعله محدوداً، فبناءً على ذلك فإن سليمان ورث كل شيء عن أبيه<sup>(٢)</sup>.

وقال صاحب تفسير روح المعاني: أي قام مقامه في النبوة والملك وصار نبياً ملكاً بعد موت أبيه داود عليها السلام، فوراثة إياه مجاز عن قيامه مقامه فيما ذكر بعد موته. وقيل وراثة النبوة فقط... ثم استدل على أن هذه الوراثة ليست وراثة المال، لأنها لا تختص بسليمان عليه السلام فإنه كان لداود عدة أولاد غيره، وقد ذكروا بأنه عليه السلام توفي عن تسعة عشر ابناً، فالإخبار بها عن سليمان ليس فيه كثير نفع<sup>(٣)</sup>.

وقيل: فخلفه سليمان فهو وارث ملكه والقائم في مقامه في سياسة الأمة وظهور الحكمة ونبوءة بني إسرائيل والسمعة العظيمة بينهم. فالإرث هنا مستعمل في معناه المجازي وهو تشبيه الأحوال الجلية بالمال وتشبيه الخلفة بانتقال ملك الأموال لظهور أن ليس غرض الآية إفادة من انتقلت إليه أموال

(١) الفرقان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج ٢١، ص ٢٠١.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مصدر سابق: ج ١٢، ص ٢٢.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم: العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، علق عليها محمد أحمد وآخرون، نشر دار احياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م: ج ١٩، ص ٢٢٥.



داود بعد قوله (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا) فتعين أن إرث المال غير مقصود فإنه غرض تافه<sup>(١)</sup>.

وقد ذهب الى أن المقصود من الوراثة هنا هي وراثة النبوة، وليس المال. الفخر الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب وغيره<sup>(٢)</sup>.

أما بخصوص تعلم منطق الطير، فإن ظاهر الآية الكريمة يعلمنا أن الله سبحانه منح سليمان فهماً للغة الطير. والآية تعني أن سليمان عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها. وتلك إحدى المعجزات التي أجراها الله سبحانه لبعض أنبيائه ... وقد أورد القرآن الكريم دليلاً على فهم النبي سليمان لمنطق الطير وهو حوار مع الهدد الذي جاءه نبأ ملكة سبأ<sup>(٣)</sup>.

وبالرغم من إدعاء بعضهم أن تعبير النطق والكلام في شأن غير الناس لا يمكن إلا على نحو المجاز، إلا أنه إذا أظهر غير الإنسان أصواتاً من فمه كاشفاً عن مطلب ما، فلا دليل على عدم تسميته نطقاً، لأن النطق كل لفظ مبين للحقيقة

(١) تفسير التحرير والتنوير، مصدر سابق: ج ١٩، ص ٢٣٤.

(٢) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي (٥٤٤-٦٠٤هـ)، حققه وعلق عليه عماد زكي البارودي، نشر المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط ١، بدون سنة الطبع: ج ٢٤، ص ١٧١.

(٣) سليمان صرخة النبوة في وجه الخرافة التوراتية: د. حسن الباش، نشر دار قتيبة، دمشق، ط ١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م: ص ٤٨.

والمفهوم<sup>(١)</sup>.

جاء في لسان العرب: نطق الناطق: تكلم، والمنطق: الكلام. وكتاب ناطق  
بين كأنه ينطق. ثم يقول: وكلام كل شيء منطوقه، وعنه قوله تعالى: (عُلِّمْنَا مَنطِقَ  
الطَّيْرِ). ثم ينقل كلاماً عن ابن سيده: وقد يستعمل المنطق في غير الإنسان<sup>(٢)</sup>.

وهنا يقول صاحب تفسير الفرقان: وينبغي الالتفات إلى أن الفلاسفة  
وعلماء المنطق أطلقوا النطق على القدرة على التفكير الذي يعطي الإنسان التمكن  
من الكلام. وهنا نعرف أن للطير منطوقاً، فليس الإنسان هو الحيوان الناطق بين  
الحيوان، ولكن كيف تنطق الطير وماذا؟ إن علمه بحاجة إلى تعليم رباني يختص  
بأمثال سليمان ممن آتاهم الله علماً<sup>(٣)</sup>.

ثم يقول: (وعُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ) تشمل النطق بلغتها بجانب تفهمها لغته، بل  
لا فكاك بين أن يفهم منطوقها وبين أن ينطق به. وكما (عُلِّمْنَا ...) تشمل العلمين  
سماعاً وتكليماً، كذلك (الطَّيْرِ) تشمل سائر الطير دونها استثناءً، مهما برزت الهدهد  
في ذلك المسرح<sup>(٤)</sup>.

ثم يبين الفرق بين (عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ) و (وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) حيث  
الأول تلمح أنه علم منطوق الطير ككل، والثانية لمكان "من" التبويض تختص

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: الفقيه الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، نشر دار احياء  
التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ج ١٢، ص ٢٢.

(٢) لسان العرب: العلامة ابن منظور، نشر دار الحديث، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣هـ -  
٢٠٠٣م.

(٣) الفرقان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج ٢١، ص ٢٠٦.

(٤) نفس المصدر، ج ٢١، ص ٢٠٦.

علمه وقدرته بالبعض، فقد علم - إذاً - بعض المنطق من سائر الحيوان وسواها، كما أوتي البعض غير العلم كما العلم، وليس منطق الطير كل ما يسمع منها، فقد يكون صوتاً دون معنى، كما قد يكون منا، وقد لا يكون صوتاً نسمعه كما في النمل وأضرابها، فما يناله الإنسان من الصوت إنما هو عدد محدود من الإرتعاش الصوتي، وهو كما يقال ما بين ستة عشر ألفاً الى اثنين وثلاثين ألفاً في الثانية، والخارج منها في الجانبين خارج عن حدود سمعه، وقد تنطق الطير أو سائر الحيوان دون صوت، وإنما بإشارات تلغرافية أو الرادار، كما نراها من النمل وسائر الحيوان، فلا يختص المنطق بما لا صوت، بل يعمه مسموعاً لنا وسواه، أم رمزاً لا يسمع، والنطق هو إبراز ما في الباطن بألة ظاهرة لساناً وسواه، (وعلمنا منطق الطير، تعم مثلث النطق. أجل وللطير منطق كما لكل حيوان حيث الكل أمم كما نحن: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) (١) الأنعام: ٣٨.

ثم جاء في الآية المباركة على لسان سليمان عليه السلام (وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) وهنا تفضيل وكرامة أخرى تضاف لسليمان، فقد جاء في تفسير مجمع البيان (وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) أي من كل شيء يؤتى الأنبياء والملوك، وقيل من كل ما يطلبه طالب لحاجته إليه وإنتفاعه به. وقيل من كل شيء علماً وتسخييراً في كل ما يصلح أن يكون معلوماً لنا أو مسخراً لنا غير أن مخرجه مخرج العموم فيكون أبلغ وأحسن<sup>(٢)</sup>.

وقال صاحب تفسير الأمثل: (وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) فهي على خلاف ما

(١) نفس المصدر، ج ٢١، ص ٢٠٧، وينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص ٢٧٨.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج ٧، ص ٢٧٨.

حدده جماعة من المفسرين، لها مفهوم واسع وشامل، فهي تشمل جميع الأسباب اللازمة لإقامة حكومة الله في ذلك الحين، وأساساً فإن الكلام سيقع ناقصاً بدونها، ولا يكون له إرتباط واضح بما سبق<sup>(١)</sup>.

الآية السادسة: قال تعالى: (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) النمل: ١٧.

الحشر هو الإحضار والجمع من الأماكن المختلفة، والمعنى أنه جعل الله تعالى كل هذه الأصناف جنوده، ولا يكون كذلك إلا بأن يتصرف على مراده، ولا يكون كذلك إلا مع العقل الذي يصح معه التكليف، أو يكون بمنزلة المراهق الذي قد قارب حد التكليف، فلذلك قلنا إن الله تعالى جعل الطير في أيامه مما له عقل، وليس كذلك حال الطيور في أيامنا وإن كان فيها ما قد ألهمه الله تعالى الدقائق التي خصت بالحاجة إليها أو خصها الله بها لمنافع العباد كالنحل وغيره<sup>(٢)</sup>.

وهذا الحشر لا يلزم منه أن يكون الجنود المحشورون له عليه السلام جميع الجن وجميع الإنس وجميع الطير، إذ يأبى ذلك مع قطع النظر عن العقل قصة بلقيس، وكذا قصة الهدهد. ونقل عن بعضهم أنه عليه السلام كان يأتيه من كل صنف من الطير واحد، وهو نص في أن المحشور ليس جميع الطير. ولا يكاد يصح إرادة الجميع في الجميع، وهو أن المعنى أنه جعل الله تعالى كل هذه الأصناف جنوده لأنه وإن لم يستدع الحضور والاجتماع في موضع واحد، بل يكفي فيه مجرد الانقياد والدخول في حيلة تصرفه والاتباع له. حيث كانوا الإباء

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مصدر سابق: ج ١٢، ص ٢٣.

(٢) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، مصدر سابق: ج ٢٤، ص ١٧١.

قصة بلقيس أيضاً عنه، فإن المناسب الإخبار بهذا الجعل بعد الإخبار بدخولها ومن معها في حيلة تصرفه.

والظاهر أن هذا الحشر ليس إلا جمع العساكر ليذهب بهم إلى محاربة من لم يدخل في ربة طاعته عليه السلام... وتقديم الجن للمسارعة إلى الإيذان بكمال قوة ملكه عليه السلام وعزة سلطانه من أول الأمر لما أن الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة بعيدة من الحشر والتسخير. ولم يقدم الطير على الإنس مع أن تسخيرها أشق أيضاً وأدل على قوة الملك وعزة السلطان لئلا يفصل بين الجن والإنس المتقابلين والمشاركين في كثير من الأحكام<sup>(١)</sup>.

وقال صاحب تفسير التحرير والتنوير قولاً في هذا الشأن جاء فيه: وهب الله سليمان قوة من قوى النبوة يدرك بها من أحوال الأرواح والمجردات، كما يدرك منطق الطير ودلالة النمل ونحوها.

ويزع تلك الموجودات بها فيوزعون تسخيراً كما سخر بعض العناصر لبعض في الكيمياء والكهربائية. وقد وهب الله هذه القوة محمداً صلى الله عليه وآله فصرف إليه نفرأ من الجن يستمعون القرآن، ويخاطبونه. وإنما أمسك رسول الله عن أن يتصرف فيها ويزعها كرامة لأخيه سليمان، إذ سأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعد فلم يتصرف فيها النبي صلى الله عليه وآله مع المكنة من ذلك، لأن الله محضه لما هو أهم وأعلى، فقال بذلك فضلاً مثل فضل سليمان، ورجح بإعراضه عن التصرف تبريراً لدعوة أخيه في النبوة لأن جانب النبوة في رسول الله أقوى من جانب الملك<sup>(٢)</sup>.

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق: ج ٢٠، ص ٢٢٩.

(٢) تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، مصدر سابق: ج ١٩، ص ٢٣٧.

## هل تحقق طلب سليمان عليه السلام بعد إعطاء الملك لغيره؟

والآن لنا تعليق على ما ذهب إليه الشيخ ابن عاشور في تفسيره:

إن مسألة عدم إستخدام الرسول صلى الله عليه وآله تسخيره للجن والطيور والإنس، إذ عدّ العلة الرئيسية هي لطلب النبي سليمان عليه السلام ذلك من الله تعالى، ولذلك إلتم الرسول بهذا الطلب مع القدرة على تسخير تلك المخلوقات. وترد على هذا القول عدّة ملاحظات منها:

أولاً: ان ما ذكر في الآية المباركة: (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) سورة ص: ٣٥، هو طلب وقول سليمان عليه السلام، وقد أخبرت الآية المباركة بذلك، ولم تبين الآية أو الآيات التي بعدها بأن طلبه هذا أو دعاءه قد تحقق ونفذه الله تعالى له، وبقي بالتالي هو مجرد دعاء وإن كان قد صدر من نبي من الأنبياء، يحوم في مساحة القبول أو الرفض.

ثانياً: ان النبي محمد صلى الله عليه وآله، قد ثبت من خلال الآيات القرآنية وبما تواترت الأخبار بأنه قد أتى بأمور تدل على تسخير الأشياء له، بل وزيادة في أمر المعجزات والكرامات التي جرت بين يديه، وكما حدث معه صلى الله عليه وآله في مسألة:

أ- الإسراء والمعراج، قال تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) الإسراء: ١، وما حصل فيها وما شاهده الرسول صلى الله عليه وآله

وآله في السماوات العلى، كلها كانت أعلى مما أوتي سليمان عليه السلام، في مسألة التسخير والملك، وبمراتب لا يمكن أن تدرك.

ب- تسخير الملائكة للرسول صلى الله عليه وآله، وكما حدث في معركة بدر وأحد.

- (فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ) الأنفال: ٩.

- (أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ) آل عمران: ١٢٤.

- (يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ...) آل عمران: ١٢٥.

علماً أن القرآن الكريم لم يخبرنا بأن الملائكة قد سخرت لسليمان، كما سخرت له الجن والطيور وغيرها. هذا مع العلم أن الملائكة أفضل من الجن والطيور. هذا ولا نريد الخوض بمسألة معاجز النبي صلى الله عليه وآله وكراماته أكثر من ذلك، لأننا سنخرج عن أصل الموضوع، ومن أحب التفصيل، فإن المصادر في هذا الباب كثيرة جداً ومتوفرة.

ثالثاً: للسيد الشهيد محمد الصدر قدس سره جواب في هذا الموضوع المتعلق بالملك الذي لا ينبغي لأحد من بعد النبي سليمان عليه السلام حيث يقول قدس سره:

هذا الجانب فيه شبهتان وليست شبهة واحدة:

الأولى: انه طلب ذلك طمعاً بالدنيا والمال ونحوه وجوابه: تنزيهه عن ذلك

باعتبار عصمته، وإنما طلبه لكي يتسبب الى أن لا يعطي الله أحداً من خلقه من الجيل المعاصر له على الأقل.

الثانية: البخل لأنه قال لا ينبغي لأحد من بعدي.

وجوابه: إنه لم يقل لا تعطه لأحد من بعدي، وإنما المراد إن الملك يكون من السعة والأهمية بحيث لا يتحملة الآخرون ويفشلون في قيادته. والله تعالى لا يعطي أحداً أكثر من استحقاقه وما يوجب فشله.

إذن فهذا لا ينبغي لأحد من بعده. إلا أن الله لم يستجب له هذا الدعاء، لأنه سوف يعطي المهدي عليه السلام أكثر مما أعطى سليمان عليه السلام<sup>(١)</sup>.

والآن سنجيب عن هذا الموضوع برؤية أخرى، وبشيء من التركيز أكثر ليتضح الأمر بصورة أدق، من خلال عدة وجوه نذكر منها:

### الوجه الأول: التفاوت في مسألة الطلب والإرادة

ان مسألة الطلب والإرادة، ومدى تحققها من عدمه، يوجد في مساحتها فارق كبير ومتباين بين افراد البشر بشكل عام، ويتعمق عنصر التحقق والإيجاد لهما، بحسب قابلياته ومؤهلاته، ولذلك فهي ترتفع وتتسع عند المعصومين أكثر من غيرهم، وخصوصاً الرسول محمد وآله صلوات الله عليهم أجمعين.

ولكن هذه المسألة مهما ارتفعت ونقت عند المعصومين، فهي لا يمكن لها أن تقارن مع الإرادة الإلهية لعظم الفارق بين الخالق والمخلوق، فإذا أراد الله تعالى

(١) رفع الشبهات عن الأنبياء: السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره، ص ٦٠.



شيئاً تحقق، ولا يمكن له أن يتخلف. وأما المعصوم بشكل عام، فيمكن أن تتحقق أمنيته أو لا تتحقق. بالرغم من أن طلب المعصوم وأمنيته خير محض، ولا تحيط به أية شائبة من شوائب الشيطان والنفس.

فأنظر الى قوله تعالى وهو يخاطب رسوله الأعظم صلى الله عليه وآله: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) القصص: ٥٦، فهو يدل على أن الرسول صلى الله عليه وآله كان يجب الهداية للجميع، وهي أمنية حقيقية من قلبه صلى الله عليه وآله، وكان يريد العجلة لهذا الأمر، لكن الله تعالى لم يحقق له هذا الطلب والأمنية. على الرغم من أن رسول الله صلى الله عليه وآله كادت نفسه تذهب على العاصين لأمره حسرات، كما ذكر الله تعالى في كتابه الكريم: (فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ) فاطر: ٨.

أما في قوله تعالى: (وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا...) مريم: ٩٢، فمعنى ذلك القطع بأن الله تعالى لن يتخذ ولداً أبداً.

وعندما يقول تعالى في آية أخرى: (وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ\* وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) الشعراء: ٢١٠-٢١١، فمعنى ذلك أن هذا القرآن النازل على قلب محمد صلى الله عليه وآله قد نزل به الروح الأمين، بلسان عربي مبين، وليس للشيطان فيه أي نصيب، فهو واتباعه عن مثل هكذا مراتب معزولين ومحرومين، ولا يمكن لهم بأي حال من الأحوال أن يشموها فضلاً عن معاشرتها.

وفي آية ثالثة قال تعالى: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ) يس: ٦٩، فمعنى ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله لا يمكن له أن يأتي يوماً ويقول الشعر، كما يريد أن يصفه بذلك مشركي قريش، ومن ثم

يُدعى انه كلام من الله عز وجل.

إذن فطلب النبي سليمان من هذه الناحية لم يتحقق، بالرغم من أن طلبه كان من أجل الصلاح، لأنه سلام الله عليه كان يرى، وكما بين السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره: (أنه لم يقل - أي سليمان عليه السلام - لا تعطه لأحد من بعدي. وإنما المراد أن الملك يكون من السعة والأهمية بحيث لا يتحملة الآخرون ويفشلون في قيادته).

### الوجه الثاني: قول المعصوم حجة

إن نبي الله سليمان معصوم، وهو يعلم أنه معصوم، إذن إذا كان الأمر كذلك، فقوله حجة، وعلى أقل التقادير فهو من باب النصيحة والكلام الحسن، وكل أقوال المعصوم وأفعاله محل عبرة واعتبار، وعلم وتعلم، بل قل أن أقواله تمثل المنهج القويم للإستمرار في هذه الدنيا، وبما يريد الله تعالى، وبغض النظر على أن لكل نبي شريعة ومنهاجاً خاصاً بأمته. وذلك لأن الأخلاق وقيمها ومعاييرها واحدة - حتى وإن اختلفت في بعض الجزئيات التي تورثها العادات الإجتماعية، لكنها كمنظومة إنسانية فهي تركز على ثوابت اخلاقية - فلا يضر حينها إتباع قول نبي قد سبق نبينا صلى الله عليه وآله في وجوده الدنيوي، فكل كلام الأنبياء نور ومنطقهم الحكمة، وحكمهم العدل، لا بل ليس الأنبياء فقط، وإنما أقوال الحكماء الإلهيين والاولياء الصالحين كذلك.

فأنظر الى قول لقمان الحكيم فهو قد سبق نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله في وجوده الدنيوي، ولكن أليس وصيته لإبنته لا تزال تمثل دستوراً أخلاقياً عالي المضامين الى وقتنا الحاضر!.

فقد قال تعالى في كتابه الكريم حكاية عنه (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ \* وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ \* وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ \* يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ \* يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ \* وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ \* وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) لقمان: ١٣ - ١٩، وعلى هذا السياق يمكن أن يكون معنى طلب نبي الله سليمان: (وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) أنه كان في مقام تعليم وبيان درس تربوي عميق المعنى، لكل المؤمنين الذين يأتون من بعده، وعليهم أن يتبعوا وصيته، وأن لا يطلبوا ملك الدنيا، كونه سلام الله عليه معصوم ويرى المصالح أين تقع، ولا بأس عندما يكون قوله في محل (وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) الذاريات: ٥٥.

وسليمان عليه السلام في هذا المقام، أراد من المؤمنين أن يهذبوا أنفسهم ويرتقوا بها الى مسبات الكمال، والتي من أهمها الابتعاد عن طلب الدنيا وحياسة أملاكها، التي تبعد الإنسان عن المطلوب الحقيقي من وجوده وخلقته، بحيث أن سليمان كان يعلم، بأن التوجه نحو الملك وإدارة أموره، يؤدي بالإنسان الى التدني والتقصير في توجهه نحو الله تبارك وتعالى، بأحسن حالاته. أما في حالات السوء والعياذ بالله فإنه يؤدي الى الظلم لا محال.

ويمكن أن نصيغ هذا الوجه بشكل آخر:

أن سليمان عليه السلام، وبما أنه معصوم، وطلب هذا المطلب من الله تعالى وهو يعلم أن قوله عين الحكمة والصواب، إذن سوف يكون فيه منهج تربوي واضح يلزم المؤمنين بإتباعه، وذلك لأن حب الدنيا والتعلق بملذاتها ومادياتها، هو رأس كل خطيئة. وهو يعلم سلام الله عليه بأن المؤمنين الذين سوف يأتون من بعده يعرفون أنه نبي معصوم، وأنه ما قال قوله هذا إلا من أجل تربيتهم وتكاملهم، ولذلك فإنهم سيحملون قوله على محمل الجد، فيقوموا بتنفيذه وسيقتلون في أنفسهم أي طلب للدنيا، لأنهم فهموا توجيه ومرام سليمان عليه السلام، فهم لأمره فاعلون ولقصدوده وغايته ملتفتون.

وهذا الأمر من الإلتفاتات اللطيفة التي يفرسها الله تعالى على لسان أنبيائه، ليبقى حبل التواصل بين الأنبياء السابقين والمؤمنين عامراً على طول خط الوجود.

### الوجه الثالث: تحقق طلب النبي سليمان عليه السلام

يمكن القول، ولو على سبيل الأطروحة، أن طلب سليمان عليه السلام بقوله: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) قد تحقق، وذلك لأنه سلام الله عليه لم يقصد بجملة - لا ينبغي لأحد من بعدي - المعصومين الذين يأتون من بعده في تاريخ الدنيا، لأنه يعلم بأن السبب القائم فيه، والذي يجعله يحسن التصرف عندما يعطى الملك، وإنه سوف يسير به لمرضاة الله تعالى، هو نفسه يكون موجوداً عند المعصومين الذي يأتون من بعده، ولذلك فإنهم بالتأكيد سوف يحسنون التصرف بهبة الملك لهم وتسخيره بين الناس لما

ينفعهم. هذا فضلاً على أن بعضهم أفضل من سليمان عليه السلام نفسه.

إذن طلبه بأن يعطى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، أي لا ينبغي لمن هم دون العصمة، وذلك لأن ملكه عظيم بالنسبة للأفراد الذين هم دونه، وسوف يكون عليهم حملاً ثقيلاً يسبب هلاكهم، وهم لا طاقة لأنفسهم به.

وقد تحقق طلبه فعلاً في الأفراد الذين أتوا من بعده، من مؤمنين وغيرهم، فنحن الى وقتنا الحالي لم نسمع بأن أحداً قد امتلك ما أمثلكه سليمان عليه السلام، وكذلك لا توجد بين أيدينا روايات أو أحاديث تدل بأن هناك فرداً غير معصوم سوف يأتي في آخر الزمان، ويملك مثل ما ملكه سليمان عليه السلام.

إذن لا يمكن أن يشمل نبي الله سليمان في طلبه ودعائه المعصومين الذين يأتون من بعده، وكما قلنا لأن السبب الذي دعاه لطلب الملك، وأن يحسن التصرف به الهداية البشرية، وتسييره لصالحهم، هو نفسه قائم في ذوات جميع المعصومين الذين هم قبله والذين يأتون من بعده.

ولو فهمنا غير هذا الفهم من طلب سليمان عليه السلام لظلمناه، وظلمنا درجة العصمة التي هو فيها، مضافاً الى أن الإمام المهدي عليه السلام، هو حلم وأمنية جميع الأنبياء والمرسلين، كونه هو الذي يحقق ما بذلوا ارواحهم ودماءهم من أجله، فكلهم يعلمون بأن الإمام الثاني عشر من ولد فاطمة عليها السلام، هو المذخور لتحقيق الفتح الإلهي الكبير، وهو الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً، وهو الذي قوته وملكه أوسع من كل قوة وكل ملك، ولولا ذلك لما ظهر دين الحق على الأديان كلها، قال تعالى في كتابه العزيز: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ

المُشْرِكُونَ) التوبة: ٣٣.

ولنلتفت الى قول نبي الله لوط عليه السلام، كما جاء في القرآن الكريم: (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ) هود: ٨٠، فقد جاء في تفسير العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ) قال: القائم والركن الشديد: الثلاث مئة وثلاثة عشر أصحابه.

وكذلك جاء في كمال الدين عن أبي بصير: قال أبو عبد الله عليه السلام ما كان قول لوط عليه السلام لقومه: (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ) إلا تمنيا لقوة القائم عليه السلام، ولا ذكر إلا شدة أصحابه .... إلى آخر الحديث.

والحقيقة لو كانت القوة والقدرة الموجودة عند سليمان أكبر مما هي موجودة عند الإمام المهدي، لكان تمني لوط للقوة والركن الشديد عند سليمان عليه السلام، لا للتي موجودة عند الإمام المهدي عليه السلام، فهذا من باب أولى، ولكنه تمني القوة والركن الشديد الموجود عند الإمام لأنه أوسع وأشمل وأشد بأساً في سبيل الله.

فإذا كان لوط عليه السلام هذا قوله في تمنيه لقوة الإمام المهدي، فيلزم من ذلك علم جميع الأنبياء والمرسلين بسعة قوة وملك الإمام، فكيف والحال هذه يكون نبي الله سليمان لا يعلم بوجود الإمام المهدي في آخر الزمان، وليكون له ما يكون من الشرف والعزة الذي لا مثل له في هذا الوجود الدنيوي على الإطلاق.

إذن لم يبق لنا إلا أن نقول: بأن سليمان عليه السلام في طلبه ذلك كان يقصد عدم إتيان الملك لمن هم دون العصمة، وقد تحقق ذلك الطلب فعلاً<sup>(١)</sup>.

(١) ينظر: أسئلة معاصرة حول الإمام المهدي، للمؤلف: ص ٢٥٢ وما بعدها.

## كيف سخرت الريح لسليمان عليه السلام؟

جاء تسخير الريح لسليمان عليه السلام بالآيات الآتية:

- (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ) الأنبياء: ٨١.

- (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) سبأ: ١٢.

- (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ) سورة ص: ٣٩.

ويمكن أن نعرف الرياح بأنها حركة الهواء الأفقية سواء قرب سطح الأرض أو في طبقات الجو العليا، وللرياح دور كبير في حياة الإنسان، فهي تؤثر عليه بشكل مباشر وغير مباشر من خلال تأثيرها على البيئة المحيطة به.

ويعتمد تأثير الرياح على الإنسان على ثلاثة عناصر أساسية هي: سرعة الرياح، وإتجاهها، وما تجلبه هذه الرياح من مؤثرات طقسية أخرى، مثل السحب والرطوبة والحرارة وغيرها.

والرياح في سرعتها ليست ثابتة فهي أحياناً تكون هادئة وادعة، وأحياناً أخرى متوسطة، وقد تصل الى حد العاصفة، بل قد تزيد عن هذا الحد وتصل الى حالة الأعاصير حيث تكون عاتية تقتلع الأشجار وتحطم المباني وتؤدي الى دمار هائل، ولكل سرعة من سرعات الرياح السابقة أثر معين على

الإنسان وبيئته<sup>(١)</sup>.

وقد وضع السير فرانسيس بيفورت (Francis Beaufort) في عام ١٨٠٥، مقياساً نسبياً لقياس سرعة الرياح، إعتياداً على قوة تأثيرها في الأشكال العامة الموجودة فوق سطح الأرض، ولقد قسم بيفورت الرياح في مقياسه الى ١٣ نوعاً، تبدأ بحالة الهدوء (الدرجة صفر) وتنتهي بحالة الإعصار (الدرجة ١٣)، ينظر جدول رقم (١).

وقد تمسك الناس فيما سبق من التاريخ بمعتقدات خرافية عن الرياح وكان الظن أن آلهة عديدة للعواصف والرياح مسئولة عن الطقس، في المعتقدات الاغريقية، ولدى سكان استراليا الأصليين والصينيين والمغوليين والهنود، وقبائل المكسيك القديمة، وآخرين يصعب حصرهم.

وفي قوله تعالى: (وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) البقرة: ١٦٤. وقوله تعالى: (وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) الجاثية: ٥. وتبين هاتان الآيتان ما يلي:

١- أن هناك توزيعاً تاماً للرياح.

٢- أن هناك قوانين تحكم حركة الرياح.

وهذه الرياح لا يدركها الرجل العادي بسهولة، وفي الأزمنة الحديثة يعرفها

(١) مجلة العلوم والتقنية، العدد التاسع والأربعون، السعودية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.



مدى استجابة الأشياء للرياح	السرعة (عقدة / ساعة)	السرعة (كم / ساعة)	نوع الرياح	درجة الرياح
إرتفاع الدخان الى أعلى	١	أقل من ١	calm هواء هادئ	صفر
يتحرك الدخان أفقياً	٣-١	٥-١	light air هواء خفيف	١
تتحرك أوراق الأشجار ودوارة الرياح	٦-٤	١١-٦	light breeze نسيم طفيف	٢
تتحرك رايات الأعلام	١٠-٧	١٩-١٢	Gentle breeze نسيم هادئ	٣
يثير الأتربة وتتطاير أوراق الأشجار	١٦-١١	٢٨-٢٠	moderate breeze نسيم معتدل	٤
تتحرك أغصان الأشجار الكبيرة	٢١-١٧	٣٨-٢٩	Fresh breeze نسيم عليل	٥
تتحرك أغصان الأشجار الكبيرة والأمواج	٢٧-٢٢	٤٩-٣٩	strong breeze نسيم قوي	٦
يصعب السير في الإتجاه المضاد للرياح	٣٣-٢٨	٦١-٥٠	moderate gale رياح عالية	٧
تكسر بعض أغصان الأشجار	٤٠-٣٤	٧٤-٦٢	Fresh gale هوجاء	٨
تكسر السيارات وتقع المداخن	٤٧-٤١	٨٨-٧٥	strong gale هوجاء شديد	٩
يقتلع الأشجار ويسبب الدمار	٥٥-٤٨	١٠٢-٨٩	whole gale هوجاء عاصف	١٠
تدمير شديد وتتطاير أسقف المنازل	٦٥-٥٦	١١٧-١٠٣	Storm عاصفة	١١
تخريب عام شديد، قد تسقط الطائرات وتغرق السفن	أكثر من ٦٥	أكثر من ١١٧	Hurricane إعصار هريكين	١٢

جدول (١) مقياس بيفورت (Beaufort Scale) النسبي لقياس سرعة الرياح

الذين يتلقون تعليماً خاصاً، ولديهم إدراك أو تفكير معمق<sup>(١)</sup>.

وتعتبر الرياح من عناصر المناخ التي تحدد الحياة على سطح الأرض، وهي لها دور فاعل في المحافظة على إتران هذا الكون وحماية الوجود الإنساني.

ومن فوائد الرياح يمكن ذكر مايلي:

١- المحافظة على درجة حرارة سطح الأرض، وذلك عندما يسخن الهواء القريب من سطح الأرض، فمن المعروف فإنه سوف ينخف وزنه ويرتفع الى الأعلى، فيحلّ محله هواء بارد يخفف من حرارتها، ولولا هذه الحركة لزادت درجة حرارة الأرض، ولأصبحت بمرور الوقت محرقة، وهذا الأمر إن حدث يؤدي الى إنعدام الحياة فيها.

٢- نقل مادة اللقاح بين النباتات.

٣- تحريك السفن في البحار والمحيطات.

٤- تسبب نزول الأمطار، فعندما ترتفع الرياح الدافئة الى طبقات الجو العليا الباردة فإنها تتكاثف ويتساقط المطر.

٥- نقل الغبار والأترية وتفتيت الصخور، وترسيبها في أماكن اصطدامها بها، مما يؤدي الى تشكيل الرسوبيات التي تعتبر مظهراً جالياً نتيجة الأشكال الهندسية الجميلة التي تتكون بسببها، وكذلك لهذه الرياح دور في عمليات حتّ

(١) اعجاز القرآن الكريم: من بحوث المؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، لمجموعة من الباحثين، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط٢، ١٤٢١هـ:

الصخور التي تكون في طريقها، فتشكل أيضاً المناظر الجميلة.

وقد ذكر القرآن الكريم عدّة أنواع من الرياح منها:

أ- الريح الطيبة: (حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينِ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) يونس: ١٢.

ب- الريح العاصفة: (وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ) الأنبياء: ٨١.

ج- الريح القاصفة: (فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ) الإسراء: ٦٩.

د- الريح الصرصر: (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ) الحاقة: ٦.

هـ- الريح العقيم: (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ) الذاريات: ٤١.

مضافاً الى أننا نجد في القرآن الكريم إشارات الى دور الرياح الفاعل في كثير من الوقائع التي حدثت في التاريخ، وكانت عاملاً من عوامل النصر الرئيسية للمؤمنين، بحيث غيرت موازين القوى بشكل كامل، كما حدث في معركة الأحزاب، وكما أخبرنا تعالى في سورة الأحزاب: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) الأحزاب: ٩، فقد جاء في تفسير هذه الآية، عن حذيفة بن اليمان: والله لقد رأيتنا يوم الخندق وبنا من الجهد والجوع والخوف ما لا يعلمه إلا الله، وقام رسول الله صلى الله عليه وآله يصلي ما شاء الله من الليل ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم يجعله الله رفيقي في الجنة، قال حذيفة: فوالله ما قام منا

أحد مما بنا من الخوف والجهد والجوع، فلما لم يقم أحد دعاني فلم أجد بداً من اجابته. قلت: لبيك، قال: اذهب فجيء بخبر القوم، ولا تحدثن شيئاً حتى ترجع.

قال: وأتيت القوم فإذا ريح الله وجنوده تفعل بهم ما تفعل، ما يستمسك لهم بناء ولا تثبت لهم نار ولا يطمئن لهم قدر، فإني لكذلك إذ خرج أبو سفيان من رحله، ثم قال: يا معشر قريش لينظر أحدكم من جلسه؟

قال حذيفة: فبدأت بالذي عن يميني فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان.

ثم عاد أبو سفيان براحلته فقال: يا معشر قريش والله ما أنتم بدار مقام هلك الخف والحافر وأخلفتنا بنو قريظة، وهذه الريح لا يستمسك لنا معها شيء، ثم عجل فركب راحلته وإنما لمعقولة، ما حل عقالها إلا بعد ما ركبها<sup>(١)</sup>.

وقال ابن عاشور عند تفسير قوله تعالى: (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا) لأن ذلك هو محل المنة. والريح المذكورة هنا هي ريح الصّبا، وكانت باردة وقلعت الأوتاد والأطناب وسفت التراب في عيونهم وماجت الخيل بعضها في بعض، وهلك كثير من خيلهم وإبلهم وشائهم.

وفيها قال النبي صلى الله عليه وآله: (نصرت بالصّبا وأهلكت عاد بالدّبور)<sup>(٢)</sup>.

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج ١٦، ص ٣٠٠، وينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم للعلامة الألوسي: ج ٢١، ص ٢٠٩.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، مصدر سابق: ج ٢١، ص ٢٠٣. وينظر تفسير مقتنيات الدرر، للعلامة السيد علي الحائري، ج ٨، ص ٢٨٧.

مضافاً الى تحرك الريح في إهلاك وتدمير قوم عاد، إذ قال تعالى: (وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ) الحاقة: ٦.

وبعد بيان بعض فوائد الرياح وكيفية تأثيرها على الإنسان سواء في جلب المنفعة أو إحداث الضرر، نستطيع بعد ذلك أن ننظر الى مسألة تسخير الريح لسليمان عليه السلام، من زاوية أخرى، أو قل بشكل غير نمطي أو تقليدي، كما هو المتعارف عليه بأن سليمان كان يستخدم الرياح للانتقال بواسطتها من مكان الى آخر، بحيث يكون غدوها شهر ورواحها شهر، أي غدو تلك الريح المسخرة له مسيرة شهر، ورواح تلك الريح مسيرة شهر، والمعنى أنها كانت تسير في اليوم مسيرة شهرين للراكب، قال قتادة كان يغدو مسيرة شهر إلى نصف النهار، ويروح مسيرة شهر إلى آخر النهار. وقيل كان يغدو من دمشق فيقيل بأصطخر من أرض أصفهان، وبينهما مسيرة شهر للمسرع، ويروح من أصطخر فيبيت بكابل وبينهما مسيرة شهر تحمله الريح مع جنوده أعطاه الله الريح بدلاً من الصافنات الجياد<sup>(١)</sup>.

وقال ابن كثير: لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله، عوضه الله منها الريح التي هي أسرع سيراً وأقوى وأعظم، ولا كلفة عليه لها (تجري بأمره رخاء حيث أصاب) أي: حيث أراد من أي البلاد. كان له بساط مركب من أخشاب، بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان، وغير ذلك من الحيوانات والطيور فإذا أراد سفراً أو مستنزهاً، أو قتال ملك أو أعداء من أي بلاد الله شاء. فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت تحته فرفعته فإذا استقل بين

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج ٨، ص ٤٩٤ بتصرف.

السماء والأرض أمر الرخاء فسارت به، فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون، فوضعتة في أي مكان شاء، بحيث إنه كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس، فتغذو به الريح فتضعه باصطخر مسيرة شهر فيقيم هناك إلى آخر النهار، ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس<sup>(١)</sup>.

ويمكن القول بأن مسألة تسخير الريح كانت للفوائد التي ذكرناها سابقاً، كتلقيح النباتات والإتيان بالسحب الممطرة، وجريان السفن وتلطيف الجو بحيث كانت تسخر كيفما يريد سليمان عليه السلام، لا كما تدار بالنواميس الطبيعية. وخصوصاً إذا ما عرفنا بأن سليمان قد توجه بمشاريعه نحو التجارة والصناعة واستخراج المعادن. وبني بمساعدة صديقه (احيرام) ملك صور اسطولاً من السفن للتجارة في البحر الأحمر، وكانت قاعدة هذا الاسطول، مدينة (عصيون غابر) أو جابر التي سميت إيلات فيما بعد<sup>(٢)</sup>.

فتصور كم ستكون تلك الفوائد التي ستجلب بسبب حكمة ونبوة سليمان عليه السلام. وجاء في بعض كتب التفسير بأن معنى تسخيره: خلق ريح ثلاثم سير سفائنه للغزو أو التجارة، فجعل الله لمراسيه في شطوط فلسطين رياحاً موسمية تهبّ شهراً مشرقة لتذهب في ذلك الموسم سفنه، وتهب شهراً مغرّبة لترجع سفنه إلى شواطئ فلسطين كما قال تعالى (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا) فأطلق الغدوّ على الإنصراف والإنطلاق من

(١) قصص الأنبياء: أبي الفداء اسماعيل بن كثير (٧٠١-٧٧٤هـ)، تحقيق عبد المجيد طعمة

حلبى، نشر دار المعرفة، بيروت، ط ١٣، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م: ص ٣٩٩.

(٢) التاريخ الحقيقي لليهود: نجيب زيب، نشر دار الهادي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٨هـ -

٢٠٠٧م: ص ١٢٢، نقلاً عن تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، لفيليب حتي، ص ٢٠٦.

المكان تشبيهاً بخروج الماشية للرعي في الصباح وهو وقت خروجها، أو تشبيهاً  
بغدو الناس في الصباح.

وأطلق الرواح على الرجوع من النهمة التي يخرج لها كقول ابن أبي ربيعة:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكرٌ \* \* \* غداة غدٍ أم رائح فمؤخرٌ

لأن عرفهم أن رواح الماشية يكون في المساء، فهو مشتق من راح إذا رجع إلى  
مقره<sup>(١)</sup>.

ويمكن ترجيح هذا البعد بعدة أدلة نذكر منها ما يلي:

الدليل الأول:

من خلال قراءة الآية المباركة: (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ  
وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ\* حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ  
ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) النمل: ١٧ -  
١٨.

ومن خلال التدبر في هذه الآيات يظهر لنا بأن سليمان كان يسير بجنوده  
وتنتقل مواكبه وجحافلهم من مكان إلى آخر بواسطة السير على الأرض، ولذلك  
هم عندما وصلوا إلى وادي النمل مشياً أو ركوباً على خيولهم، حسّت  
واستشعرت تلك النملة بخطرهم، فحذرت باقي النمل منهم. ولو كان سليمان  
عليه السلام يستخدم الريح في تنقله وحمل جنوده لما خافت النملة وحذرت  
النمل من تحطيم سليمان وجنوده لهم.

(١) تفسير التحرير والتنوير، مصدر سابق: ج ٢٢، ص ٢٧.

ولكن قد يعترض على هذا الدليل بالقول: أنه قد يكون وصول سليمان الى وادي النمل سيراً على الأقدام قبل أن يسخر الله عز وجل له الريح، إذ كانت الخيل هي وسيلة التنقل له عليه السلام، وهي المستخدمة في الحروب، ولكن بعد أن وضحت الآية المباركة أمر عرض الخيول على سليمان عليه السلام وهي المهياة للحرب: (وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ\* إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ\* فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ\* رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ) سورة ص: ٣٠-٣٣، فاشتغل بعرض تلك الخيول حتى خرج وقت العصر وغربت الشمس، فلما فاتته صلاة العصر، قال إني أحببت حب الخير - بإعتبار ان حبه للخيل كان بسبب ما تؤديه من دور بارز في الحروب التي يواجه بها أعداء الله - عن ذكر ربي ولذلك قام بضرب عراقيبها واعناقها بالسيوف. فلما ترك الخيل لله عوضه الله عنها بما هو خير منها، وهو الريح التي كانت غدوها شهر ورواحها شهر<sup>(١)</sup>.

ولكن في الحقيقة أن هذا الفعل ينافي العصمة، بل ينافي العدل بأبسط تصوراته، إذ ما هو ذنب الخيول حتى تقتل بهذه الطريقة، ثم الأدهى من ذلك كيف يقدم سليمان عليه السلام على القضاء على ما سماه هو بنفسه خيراً، بقوله: (أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي) فكان لا بد له من أن يجد بديلاً حتى يعوض فيه أمر صلاة العصر الذي عبر عنه بـ (ذِكْرِ رَبِّي) فكان هذا الأمر هو إرجاع الشمس إليه بعد أن توارت بالحجاب لكي يؤدي صلاة العصر أداءً. وخصوصاً إذا ما عرفنا بأن عدد تلك الخيول لم يكن قليلاً، وإنما قدرت بعض الروايات بأن أعدادها كانت عظيمة، فقد قيل: عشرة آلاف فرس. وقيل: كانت عشرين ألف

(١) ينظر: قصص الأنبياء لابن كثير، مصدر سابق، ص ٣٩٦.



فرس<sup>(١)</sup>.

ولتوضيح مسألة استعراض قوات سليمان القتالية، جاءت الروايات المعتمدة بالصورة التالية: في أحد الأيام وعند العصر إستعرض سليمان عليه السلام خيوله الأصيلة التي كان قد أعدّها لجهاد أعدائه، إذ مرّت تلك الخيول مع فرسانها أمام سليمان عليه السلام في استعراض منسق ومرتب. وبما أن الملك العادل وصاحب النفوذ عليه أن يمتلك جيشاً قوياً، والخيول السريعة إحدى الوسائل المهمة التي يجب أن تتوفر لدى ذلك الجيش، فقد جاء هذا الوصف في القرآن بعد ذكر مقام سليمان بإعتباره نموذجاً من أعماله.

إذ يقول: (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ). ولكي يطرد سليمان التصوّر عن أذهان الآخرين في أنّ حبه لهذه الخيول القوية ناتج من حبه للدنيا، جاء في قوله تعالى: (فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي) اني أحبّ هذه الخيل من أجل الله وتنفيذ أمره، وأريد الاستفادة منها في جهاد الأعداء.

واستمر سليمان عليه السلام ينظر إلى خيله الأصيلة المستعدة لجهاد أعداء الله، وهو يعيش حالة من السرور، حتى توارت عن أنظاره (حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ).

كان هذا المشهد جميلاً ولطيفاً لقائد كبير مثل سليمان، بحيث أمر بإعادة عرض الخيل مرّة أخرى (رُدُّوْهَا عَلَيَّ). وعندما نفذت أوامره بإعادة الخيل، عمد سليمان عليه السلام إلى مسح سوقها وأعناقها (فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ). وبهذا الشكل أشاد بجهود مدربي تلك الخيول، وأعرب لهم عن تقديره لها،

لأن من الطبيعي لمن أراد أن يعرب عن تقديره للجواد أن يمسح رأس ذلك الجواد ووجهه ورقبته وشعر رقبته، أو يمسح على ساقه، وأبرز في نفس الوقت تعلقه الشديد بخيله التي تساعده في تحقيق أهدافه العليا السامية، وتعلق سليمان الشديد بخيله ليس بأمر يبعث على العجب<sup>(١)</sup>.

### الدليل الثاني:

لو كان سليمان عليه السلام يتنقل بجنوده وحاشيته وما يحتاج إليه لأغراض الحروب أو فيما كان للتنزه والتجوال، تحمله الريح طائراً في جو السماء، لأثار هذا المنظر الرعب في نفوس جميع أعدائه، بل حتى الشعب اليهودي نفسه، لأنه اعتبر الأعمال العمرانية التي قام بها سليمان عليه السلام وبالأعلى عليهم، لما دفعوه من ضرائب، اعتبروها باهظة مرهقة لهم، وهم الذين اعتادوا أن يعيشوا على الربا وأكل حقوق الناس.

ولم تكن تلك الضرائب في حقيقتها سوى عشور كان يجبيها عن الأراضي التي كانوا يستثمرونها، ولكن بني اسرائيل فاجأتهم تلك الضرائب فتأففوا منها وتدمروا لأنهم لم يعتادوا على دفع شيء مما تطاله أيديهم فغضبوا ونقموا عليه وراحوا يعملون على الخلاص منه وتقويض حكمه من الداخل، ويحكون عليه المؤامرات والدسائس ويختلقون الإدعاءات والأكاذيب سيما بعد أن حملهم سليمان على دين التوحيد وترك عبادة الأوثان التي كانت تعشش في نفوسهم<sup>(٢)</sup>.

(١) قصص القرآن: الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، بيروت، ط ١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م:

ص ٣٢٣، وينظر: التفسير الكبير: للفخر الرازي: ج ٢٦، ص ١٨٩.

(٢) التاريخ الحقيقي لليهود، مصدر سابق: ص ١٢٥.

وفي هذا السياق وقوة تأثير الأمر الخارج عن المألوف والنواميس الطبيعية على الطرف الآخر، ما سيظهره مشي اصحاب الإمام المهدي من تأثير على المجتمع الغربي، عندما يرونهم وهم يمشون على الماء، حيث تذكر الرواية: إذا قام القائم بعث في أقاليم الأرض، في كل إقليم رجلاً يقول له: عهدك في كفك فإذا ورد عليك أمر لا تفهمه ولا تعرف القضاء فيه، فانظر في كفك واعمل بما فيها.

قال: ويبعث جنداً إلى القسطنطينية<sup>(١)</sup>، فإذا بلغوا الخليج كتبوا على أقدامهم شيئاً ومشوا على الماء، فإذا نظر إليهم الروم يمشون على الماء قالوا: هؤلاء أصحابه يمشون على الماء، فكيف هو؟ فعند ذلك يفتحون لهم أبواب المدينة فيدخلونها فيحكمون فيها ما يريدون<sup>(٢)</sup>.

فلاحظ هنا كيف أن حدثاً وفعلاً أقل بكثير من طيران جيش كامل مع أسلحته على بساط في الهواء، قد اثر في الجهة المقابلة، بحيث تفتح أبواب مدنهم مستسلمين لمن مشوا فوق الماء، وخصوصاً اننا كثيراً ما نرى كيف أن الإنسان العاقل يحكم بما يرى وبما هو ماثل وحاضر أمامه، ليبنى على ذلك المواقف والعلاقات التي تبعد عن نفسه الضرر أو تجلب له المنفعة.

(١) إن استخدام إسم (القسطنطينية) هنا للتعبير عن مدينة مهمة من مدن العالم الغربي، باعتبارهم هم الإمتداد الطبيعي للروم. مثلما كانت القسطنطينية عاصمة الروم في زمن صدور الرواية، وليس المقصود منها المصداق التاريخي.

(٢) الغيبة: الشيخ ابي عبد الله محمد بن ابراهيم بن جعفر الكاتب المعروف ب(النعمانى) (ت حدود سنة ٣٦٠هـ)، تحقيق فارس حسون، نشر دار مدين، قم، ط ١، ١٤٢٦هـ:

## الدليل الثالث:

لو أن بساط سليمان عليه السلام كانت الريح تحمله لتسير به غدوها ورواحها شهر لأستطاع أن ينتقل الى أماكن بعيدة جداً، عن مركز حكمه، ولأكتشف العالم بأسره، فكيف كان لا يعلم وغير ملتفت بالكلية الى قوم سبأ وملكتهم، الذين كانوا يسجدون للشمس من دون الله، وخصوصاً إذا ما عرفنا بأن الهدهد ذلك الطائر البسيط قد تمكن برحلة مفاجئة من إكتشاف هذا الأمر وإخبار سليمان عليه السلام به. ولولا هذا الطائر لخفي أمر مملكة سبأ عن سليمان، ولما كان له أي أثر يذكر، وكما أخبرنا الله تعالى: (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ\* لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ\* فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ مَحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ) النمل: ٢٠-٢١.

وهنا قد يثار إشكال بخصوص الهدهد، وعلى حد إطلاعي لم يلتفت إليه أحد من أهل التفسير أو من تعرض وتناول قصص الأنبياء، وهو كيف استطاع الهدهد أن يذهب من فلسطين مركز حكم النبي سليمان الى اليمن، والمسافة تقرب ذهاباً وإياباً ب (٤٠٠٠ كم) ومن ثم يبقى فترة من الزمن غير قطع المسافة من أجل جمع المعلومات عن بعض مواقع السلطة ومراكز القوة التي تحتاج الى المعالجة وإتخاذ الموقف المناسب منها، من حيث الدعوة الى الإيثار، بإعتبار ما كانت تعيشه تلك المملكة من آثار عبادة الشمس والسجود لها من دون الله. فقد طار الى اليمن ودخل عاصمتها سبأ وأطلع على طبيعة الحكم، ومن الذي يقود وما هي عقيدتهم، ولمن ولأهم.

وعموماً فهو قد راقب ورصد ما يلي:

١- وجد إمراة تملكهم.

٢- أوتيت من كل شيء.

٣- وجدها وقومها يسجدون للشمس من دون الله تعالى.

٤- لها عرش عظيم.

٥- راقب أعمال أفراد تلك المملكة ليعرف أنها صالحة أم طالحة، فرأى بأن الشيطان قد زين لهم أعمالهم فصدهم عن السبيل.

فكم تحتاج مثل هذه المراقبة والرصد من الوقت ليستحکم خبرها، ويضبط وقائعها، حتى يدلي بقوله بثقة كاملة ويقين ثابت، ليكون له عذراً عن سبب غيابه أمام سليمان عليه السلام، بحيث قال قول الواصل: (أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَّابٍ بَنِيٍّ يَقِينٍ) فكم كانت يا ترى سرعة الهدهد في الطيران، حتى قطع تلك المسافة الطويلة بين فلسطين واليمن، وكم تحتاج من الوقت لجلب تلك المعلومات، ووضعها بين يدي سليمان عليه السلام، بحيث مجرد أن تفقد الطير ولم ير الهدهد، لم يمض وقت طويل على غيابه، حتى ظهر في مسرح الحدث، ليظهر براءته، ويبيدي ما عرفه من أخبار.

وفي الحقيقة هذا الذي جرى في قضية طائر الهدهد يدل على وجود أمر غير طبيعي، وعلينا البحث لإيجاد إجابة مناسبة له، يمكننا الخروج من هذا الإشكال، وإلا سيبقى هذا الأمر عالقاً، تحيط به التساؤلات. ولذلك سنعرض الآن عدّة احتمالات في هذا الشأن عسى أن ترفع هذا الإشكال.

## الاحتمال الأول:

إن الهدد قد طار من فلسطين الى اليمن قبل فترة طويلة من اليوم الذي تفقد فيه سليمان عليه السلام الطير، ولم يكن غيابه بوقت قريب عن يوم الإستعراض، وكان رجوعه الى فلسطين مقارباً لساعة أو يوم الاستعراض، وحيث سيكون من المناسب جداً حضوره ومثوله بين يدي سليمان، بعد فترة قصيرة من السؤال والاستفسار عنه.

## الاحتمال الثاني:

أن تكون (سبأ) التي ذكرت في القرآن الكريم هي غير سبأ الموجودة في بلاد اليمن، وإنما (سبأ) تقع في منطقة قريبة من فلسطين، بحيث يتمكن الهدد من الوصول إليها، وجلب الأخبار عن أهلها بمدة قصيرة نسبياً. ومن ثم الحضور عند سليمان عليه السلام لإخباره بما رأى. وخصوصاً إذا ما علمنا بأن ملكة سبأ أنها قد ذكرت في التوراة والانجيل والقرآن الكريم.

## - في التوراة:

ذكرت ملكة سبأ في التوراة في سفر الملوك الأول ١٠/١-١٣.

(وعندما بلغت أخبار سليمان وإعلائه لإسم الربّ مسامع ملكة سبأ، قدمت لتلقي عليه أسئلة عسيرة، فوصلت أورشليم في موكب عظيم جداً، وجمال محملة بأطياب وذهب وفير وحجارة كريمة، وأسرت إليه بكل ما في نفسها. فأجاب سليمان عن كلّ أسئلتها، من غير أن يعجز عن شرح شيء.)

ولما رأت ملكة سبأ كلَّ حكمة سليمان، وشاهدت القصر الذي شيده، وما يقدم على مائدته من طعام، ومجلس رجال دولته، وموقف خدامه وملابسهم وسقائه ومحرقاته التي كان يقربها في بيت الرب، اعترافاً بالدهول العميق، فقالت للملك: (إن الأخبار التي بلغتني في أرضي عن أمورك وحكمتك هي حقاً صحيحة. ولم أصدقها في بادئ الأمر حتى جئت وشاهدت، فوجدت أن ما بلغني لا يجاوز نصف الحقيقة، فقد رأيت أن حكمتك وصلاحك يزيدان عما سمعته من أخبارك. فطوبى لرجالك وطوبى لخدامك الماثلين دائماً في حضرتك يسمعون حكمتك. فليبارك الرب إلهك الذي سُرَّ بك، وأجلسك على عرش إسرائيل؛ لأنه بفضل محبته الأبدية لإسرائيل قد أقامك ملكاً لتجري العدل والبر).

وأهدت الملك مئة وعشرين وزنة (نحو أربعة آلاف وثلاث مئة وعشرين كيلو جراماً) من الذهب وأطيباً كثيرة وحجارة كريمة، فكانت التوابل التي أهدتها ملكة سبأ للملك سليمان من الوفرة بحيث لم يجلب مثلها في ما بعد. وجلبت أيضاً سفن حيرام التي حملت الذهب من أوفير، خشب الصندل بكميات وافرة جداً وحجارة كريمة، فصنع سليمان من خشب الصندل درابزيناً لهيكل الرب وللقصر، كما صنع منه أعواداً وقيثارات. ولم يُر ولم يجلب حتى اليوم مثل خشب الصندل ذلك لكثرتة. وأعطى الملك سليمان ملكة سبأ كلَّ ما رغبت فيه، فضلاً عما أهداه إليها وفقاً لكرمه. ثم انصرفت هي وحاشيتها إلى أرضها<sup>(١)</sup>.

(١) التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، التعريب والجمع التصويري والاعمال الفنية شركة

وجاء في سفر أخبار الأيام الثاني ٩ / ١-٩.

(وعندما سمعت ملكة سبأ بشهرة سليمان قدمت إلى أورشليم بموكب حافل، وجمال محملة أطياباً وذهباً وفيراً، وحجارة كريمة، لتطرح عليه أسئلة عسيرة، وأسرت إليه بكل ما في نفسها. فأجابها سليمان عن كل أسئلتها، ولم يخف عنه شيء عجز عن شرحه لها. ولما رأت ملكة سبأ حكمة سليمان وشاهدت القصر الذي شيده وما يقدم على مائدته من طعام، ومجلس رجال دولته، وموقف خدامه وملابسهم، وسقاته وثيابهم، ومحرقاته التي كان يقربها في بيت الرب، اعترأها الدهول العميق، فقالت للملك: (إن الأخبار التي بلغتني في أرضي عن أمورك وحكمتك هي حقاً صحيحة. ولكني لم أصدقها حتى جئت وشاهدت، فوجدت ما سمعته لا يجاوز نصف ما تتمتع به من حكمة، فإن حكمتك تتفوق على ما سمعته من أخبارك. فطوبى لرجالك، وطوبى لخدامك المائتين دائماً في حضرتك السامعين حكمتك. وليتبارك الرب إلهك الذي سربك وأقامك ملكاً له. لأنه بفضل محبة إلهك لبني إسرائيل جعلك ملكاً عليهم ليحفظهم إلى الأبد فتقضي بينهم بالعدل والبر). وأهدته مئة وعشرين وزنة من الذهب وأطياباً كثيرة وحجارة كريمة، ولم يوجد ما يماثل الطيب الذي أهدته ملكة سبأ للملك سليمان)<sup>(١)</sup>.

- أما في الإنجيل.

فقد جاء ذكر ملكة سبأ في إنجيل متي: ١٢ / ٤٢

(وستقوم ملكة الجنوب في الدينونة مع رجال هذا الجيل وتدينه، لأنها

(١) المصدر نفسه.



جاءت من أقصى الأرض لتسمع حكمة سليمان. وها هنا أعظم من سليمان).

- أما في القرآن الكريم:

فقد جاء ذكر ملكة سبأ في سورة النمل الآيات (٢٠-٤٤).

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ \* لَا أَعْدِبْنَاهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ \* فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ مَحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ \* إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ \* وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ \* أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ \* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ \* قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ \* أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ \* قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ \* إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ \* قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ \* قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ \* قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ \* وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ \* فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ \* أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ \* قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِنِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ \* قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنَّ أَنَا أَتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ \* قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ

فَضِّلْ رَبِّي لِيُبَلِّغَنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ\* قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ\* فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ\* وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ\* قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (النمل: ٢٠-٤٤).

والآن وإن اختلفت تفاصيل حضور ملكة سبأ في الكتب الثلاثة، بحسب الهدف الذي ذكرت من أجله القصة فيها، إلا أنها اشتركت في موضوعة حضور ملكة سبأ عند سليمان عليه السلام، وإن حضورها قد امتلأ انبهاراً وإعجاباً بسليمان وحكمته وطريقة ادارة شؤون مملكته.

ولكن كلها لم تذكر إسم الملكة. وأما تلك الدولة التي قامت في الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية فقد ذكرت بالروايات بسبب إسمها المشابه لكلمة سبأ التي ذكرت في القرآن، ولا يوجد دليل قاطع على أنها هي المعنية فعلاً.

على أن هناك فريقاً من الباحثين إنما يذهب الى أن هذه القصة لا يمكن فهمها جيداً، إلا إذا قدرنا أن السبئيين إنما كانوا يقطنون في شمال بلاد العرب، وإن دولتهم الحقيقية لم تبدأ في جنوب بلاد العرب، إلا حوالي عام ٨٠٠ ق.م أي بعد هذه الأحداث بما يقرب من القرن ونصف القرن من الزمان، ومن ثم فإن هذه الملكة التي زارت سليمان عليه السلام، لم تكن ملكة سبأ الشهيرة في اليمن، وإنما كانت ملكة صغيرة في أعالي شبه الجزيرة العربية، كان سكانها من السبئيين

القاطنين في الشمال، أو هي ملكة على الحكومات المحلية في منطقة معان والعلا، والتي ورثها السبئيون عن المعينين<sup>(١)</sup>.

ويقول صاحب كتاب الكافي في تاريخ القدس: إن كتاب قصص الأنبياء والتفاسير اعتقدوا أن سبأ المقصودة هي سبأ اليمن، وأريد أن أصحح ذلك، وأقول إن سبأ المقصودة وملكتها (بلقيس) هي عشيرة سبأ أو شبأ، وكانت مساكنها جنوب البحر الميت (قرية من القدس) وكانت العشيرة تعمل بالتجارة بين اليمن والشام بحكم موقعها<sup>(٢)</sup>.

#### الاحتمال الثالث:

إن الهدهد قد استخدم سرعة عالية، وكانت خارجة عن النواميس الطبيعية، وقد خفيت حتى على النبي سليمان نفسه، وهذا ليس بشيء غريب فقد جاء في بعض الروايات بأن سليمان عليه السلام كان يستعين بالهدهد، حتى يكشف له الماء وهو تحت تخوم الأرض، بإعتبار قدرات الهدهد العالية بهذا الإتجاه<sup>(٣)</sup>.

وأما اننا ننظر، وعلى أقل التقادير في مسألة الريح وغدوها ورواحها في شهر، فكما أنها سخرت لسليمان، فإنها أيضاً كانت مسخرة للهدهد. فإذا كانت الغدوة تقريباً هي ست ساعات، بإعتبار الغدوة هي من خروج الشمس الى

(١) ينظر: دراسات تاريخية من القرآن الكريم، مصدر سابق: ج ٣، ص ١٣٠ وما بعدها.

(٢) الكافي في تاريخ القدس: رجا عبد الحميد عرابي، نشر دار الأوائل، دمشق، ط ١، ٢٠٠٩م: ص ٢٠٠.

(٣) ينظر: قصص القرآن للشيخ مكارم الشيرازي، ص ٣٢٥، وقصص الأنبياء لابن كثير، ص ٣٩١، والدر المنثور، ج ٥، ص ١٠٥، والفرقان في تفسير القرآن، ج ٢١، ص ٢٢٢، وتفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٨٣.

نصف النهار، والرواح هو من نصف النهار الى آخره، وبذلك يكون مسير غدو تلك الريح المسخرة للهدد مسيرة شهر، ومسير رواح تلك الريح مسيرة شهر، وحسب منطوق الآية فإن الريح كانت تسير في اليوم مسيرة شهرين للراكب<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الصدد يقول صاحب تفسير الأمثل: (غدو)، بمعنى وقت الصباح من النهار، يقابله (الرواح) بمعنى وقت الغروب من النهار. ويطلق على الحيوانات عند عودتها الى مساكنها في آخر النهار للإستراحة، ويبدو من القرائن في الآية مورد البحث أن الغدو هنا بمعنى النصف الثاني منه، لذا يحتمل في معنى الآية أن سليمان عليه السلام يقطع في وقت مقداره من الصباح الى الظهر - بمركبه - ما يعادل المسافة التي يقطعها المسافرون في ذلك الزمان بشهر كامل، وكذا نصف النهار الثاني<sup>(٢)</sup>.

والآن لنحاول أن نحدد ولو بشكل تقريبي مسير الركب على المطايا والأفراس والإبل، فقد ورد في الروايات المعتبرة<sup>(٣)</sup>، أن التحديد بمسافة القصر وهي ثمانية فراسخ، والتي تعادل حوالي ثلاث وأربعين كيلو متراً هي المسافة التي يسير بها الركب خلال اليوم، أي من طلوع الشمس الى غروبها وعلى هذا يكون مسير الركب في اليوم ٤٣ كيلو متراً، ومع تسخير الريح فإن الركب يقطع في اليوم الواحد مسيرة شهر، فيكون ما يقطعه خلال اليوم (٤٣ × ٣٠ = ١٢٩٠ كيلو متراً). وبما أن المسافة بين فلسطين واليمن ذهاباً وإياباً ما يقارب (٤٠٠٠ كيلو متر)،

(١) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج ٨، ص ٤٩٤.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مصدر سابق: ج ١٣، ص ٤٠٥.

(٣) ينظر: خطب الجمعة لشهيد صلاة الجمعة، آية الله العظمى السيد الشهيد محمد الصدر،

فحينئذ يكون الهدهد قد ذهب الى اليمن وعاد بثلاثة أيام وجزء من اليوم، فتكون هذه الفترة ليست بالطويلة، وإنما هي فترة معقولة.

وأما عملية معرفة تلك التفاصيل عن سبأ وملكتها وما يعبدون، فيكون من الراجح أنه استخبر كل ذلك من الطيور في تلك المنطقة، أو من أحد أفراد نوعه الذي يتواجد في اليمن، وهذا ليس ببعيد لوجود لغة التخاطب بين الطيور أو الحيوانات الأخرى وخصوصاً ما قرأناه في نفس السياق القرآني من قصة سليمان عليه السلام وكيف رأينا خطاب تلك النملة مع باقي النمل، وطريقة تحذيرها لهم واستجابتهم لذلك التحذير.

وعلى هذا الأساس فإن مسألة الإستخبار والإستعلام لا يحتاج الى وقت طويل وانتظار لإستلام المعلومة، بل ستكون بعجالة على كل حال، خصوصاً بعد أن عرفنا بأنه قد غاب بدون استئذان من سليمان عليه السلام.

هذا ولن نناقش مسألة تسخير الجن والإنس وإسالة عين القطر، فكلها أمور واردة، بإعتبار إحتياج تلك المرحلة من الزمن الى هذا النوع من خروقات الطبيعة واستخدام أفراد معينين في نمط من الأعمال لم يكونوا قد ألفوها أو كلفوا بها، ولعلنا نتطرق بشيء من التفصيل في الأوراق القادمة إن شاء الله تعالى.

## كيفية انتقال عرش ملكة سبأ؟

يبقى موضوع العرش وكيف تبارى اثنان من أجل الإتيان به بين يدي سليمان عليه السلام، وكيف ظهرت قوتان جديدتان في مسرح الواقعة لشخصين أحدهما عفريت من الجن، قد زاد تمرده وعتوه وقويت عضلاته، وله قابلية على طي المسافات البعيدة بسرعة هائلة مع قدرة إستراق السمع<sup>(١)</sup>. وقد قال لسليمان أنا آتيتك به قبل أن تقوم من مقامك هذا، وإني عليه لقوي أمين على ما فيه من الجواهر والأشياء الثمينة الأخرى.

وهنا قد يعرض سؤال، كيف تكون لعفريت من الجن القدرة على أمر خارق للعادة كهذه الحادثة؟

يقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في صدد هذه الإجابة: إن من الناس حتى غير المؤمنين من تكون له قدرة على بعض الأمور الخارقة للعادة (وذلك للرياضة المجهدة ومجاهدة النفس) إلا أن الفرق بين ما يقومون به مما يخرق العادة وبين المعجزة هو أنه لما كانت أعمالهم مستندة إلى قدرة بشرية محدودة... فهي (أعمالهم الخارقة للعادة) محدودة دائماً، في حين أن المعاجز تستند إلى قدرة الله التي لا نهاية لها، وقدرته كسائر صفاته غير محدودة!.

لذلك نرى أن العفريت من الجن يحدد قدرته على فترة بقاء سليمان في مجلس القضاء والتحقيق في أمور البلد، ليأتيه بعرش ملكة سبأ، في حين أن آصف بن برخيا لم يحدد قدرته، وتحديدتها بارتداد الطرف هو في الحقيقة إشارة إلى أدنى فترة

(١) ينظر: جنى الجنان في دلالة كلمات القرآن: علي محمد سلام، نشر دار المكتب العربي

زمنية ممكنة ... ومن المسلم به أن سليمان عليه السلام يشجع الأعمال التي تبين للناس الأشخاص الصالحين ويباركها، لا عمل العفريت الذي قد يوقع العوام والبساط في الوهم، فيعدونه دليلاً على تقواه وطهارته!)<sup>(١)</sup>.

والحقيقة لنا في معرض الإجابة على هذا التساؤل رأياً آخر قد يجانبه بعض الشيء وهو: نعم من الممكن أن تكون هناك بعض الأعمال الخارقة يأتي بها الناس غير المؤمنين وكذلك بعض من الجن غير المؤمن، نتيجة الرياضات الخاصة ومجاهدة النفس، إلا أنها في الواقع تبقى أعمال متدنية ومحدودة، ولا يمكن لها بحال أن ترتقي إلى مستوى إحضار عرش ملكة سبأ، من منطقة اليمن وإحضاره إلى فلسطين بمجرد أن يقوم سليمان عليه السلام من مقامه، مع الحفاظ على جميع ما به من مجوهرات ولآلئ وأمور ثمينة أخرى، من دون أن تسرق أو تتلف. وخصوصاً إذا ما عرفنا بأن الأمر كان تحدياً من أجل إيمان ملكة سبأ وقومها.

إذن لا يبقى أمامنا إلا أن نقرّ بأن ذلك العفريت من الجن كان من المؤمنين الذين تعلموا على يد سليمان عليه السلام، بأن يأتوا بالخوارق، أو كان لإيمانهم وتقواهم أثر فاعل في القدرة على التطلع وإملاك الأسرار والقوى الخفية التي يهبها الله تعالى لعباده المؤمنين سواء من الجن أو الإنس، مع التفاوت فيما بينهما، ولكل حسب قدرته واستعداده الوجودي.

وما يؤيد هذا الأمر:

أولاً: إن سليمان عليه السلام قد خاطب الملأ في مجلسه وحينئذ لا بد أن يكون الحضور هم الملأ المؤمن من القادة في الجانب الديني والسياسي والمؤمنين

(١) قصص القرآن: الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مصدر سابق: ص ٣٣٢.

الآخرين، الذين يساندون سليمان عليه السلام في تثبيت الملك الرسالي، وبالتالي لا بد أن يكون ذلك الحضور في مجلسه هم النخبة من الجن والإنس الذين يشاورهم في شؤون المملكة واعبائها الرسالية، وعندها يكون من غير الممكن أن يكون من ضمن ذلك الحضور المهيب فرد غير مؤمن، وذو نفس خبيثة. وحتى ولو وجد أحد من الأفراد المنافقين في مجلس سليمان عليه السلام، فلن يعطى مثل تلك القدرات الكبيرة، وستبقى قدراته محدودة على كل حال، ولن ترتقي عن سطحها التسافلي. ويبدو أن سليمان عليه السلام أراد في ذلك المجلس بالذات أن يستغل الفرصة وليعرف الملاءم بخلفائه من بعده على الجن والإنس، ويؤيد ذلك ما جاء في بعض التفاسير:

(لم يعجز سليمان عن معرفة آصف، لكنه صلوات الله عليه أحب أن تعرف أمته من الجن والإنس أنه الحجة من بعده، وذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله ففهمه الله ذلك لئلا يختلف في إمامته ودلالته كما فهم سليمان في حياة داود لتعرف إمامته ونبوته من بعده لتأكيد الحجة على الخلق)<sup>(١)</sup>.

ثانياً: إن وصف ذلك الجن الذي كان حاضراً في مجلس سليمان عليه السلام بالعفريت قد يكون بسبب كثرة سجوده على التراب تضرعاً لله تعالى وهو يعفر خديه وجبينه بالتراب خشية وعبادة لله تعالى، ولذلك استحق هذا الوصف، وما يؤيد هذا الأمر ما جاء في كتب اللغة حول هذا اللفظ:

عفر: عَفَرْتَهُ فِي التَّرَابِ أَعْفَرُهُ عَفْرًا، وَهُوَ مَتَعَفَّرَ الْوَجْهَ فِي التَّرَابِ. وَالْعَفْرُ

(١) تفسير نور الثقلين: المحدث الجليل الشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي، تحقيق السيد علي عاشور، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م:



التراب<sup>(١)</sup>.

(العَفْرُ والعَفْرُ: ظاهر التراب، والجمع أَعْفَار. وَعَفْرَه في التراب يَعْفِرُه عَفْرًا وَعَفْرَه تعفيراً. فأنَعَفَرَ. وتَعَفَّرَ: مرَّغَه فيه أو دَسَّه. والعفر: التراب، ويقال: عَفَّرت فلانا في التراب إذا مرَّغته فيه تعفيراً.

وأنَعَفَرَ الشيء: تَرَبَّ، واعتَفَرَ مثله، وهو منعفر الوجه في التراب)<sup>(٢)</sup>.

وفي هذا الصدد يقول صاحب تفسير الفرقان: ثم عفريت لغويًا من عفره في التراب: مرَّغَه ودَسَّه فيه، إشارة إلى قوته، كما التعفير هو المس بالتراب، ومن معاني العفريت النافذ في الأمر مع دهاء، وقد يكون تفسيره بالخبيث المنكر تفسيرياً لا لغوياً، دون استناد إلى أية حجة إلا تناقله بين المفسرين، وكما الذي عنده علم من الكتاب كان أفضل من سواه بين الإنس، فليكن عفريت من الجن أفضل من سواه بين الجن، وعله من مرسلهم، وكيف يؤتى المارد الخبيث من الجن تلك القوة الخارقة ولا يؤتها المؤمن التقي منهم وبينهم رسل الجن<sup>(٣)</sup>.

أما الشخص الآخر فهو من امتلك علم من الكتاب، وقد اختلف في إسمه - بعد أن ذكروا إنه من الإنس - فقيل إنه آصف بن برخيا وزير سليمان ووصيه، وقيل: هو الخضر، وقيل: رجل كان عنده اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أجاب... وقد اختلف المراد بالكتاب الذي يملك هذا الشخص علمه، هل هو

(١) كتاب العين: أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠-١٧٥هـ)، نشر دار

أحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م: ص ٦٥٥.

(٢) ينظر: لسان العرب: للعلامة ابن منظور، نشر دار الحديث، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣هـ -

٢٠٠٣م: ج ٦، ص ٣٢٦.

(٣) الفرقان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج ٢١، ص ٢٤١.

الكتاب المعروف مما جاءت به الرسالات الإلهية، أو اللوح المحفوظ، أو نوع آخر مما يوحي بالعلم الخفي الذي يملك أسرار الأشياء، فيتيح له التصرف بها بطريقة عجيبة لم تألفها القدرة الطبيعية للناس والأسباب المألوفة للأمور؟

وقد لا يكون هناك كبير فائدة في الإستغراق في هذه الإحتتمالات، لأننا لن نصل منها الى نتيجة حاسمة غيباً لا نملك معرفته في طبيعته ومصادره الموثوقة، فلنقتصر منها على ما أجمله القرآن في أمره ولنستوح من ذلك، أن هذا العلم الذي يملكه هذا الشخص، ليس من نوع العلم المألوف لدى الناس، الذي يكتسبونه بالفكر والتعلم، بل هو من نوع العلوم الروحية التي تطل على الغيب من موقع متقدم، وتتيح لصاحبه أن يتصرف في الأمور الكونية بما يشبه المعجزة<sup>(١)</sup>.

أما بالنسبة لعرش ملكة سبأ وكيفية إنتقاله من اليمن أو من مكان آخر، بتلك السرعة الفائقة التي هي كلمح البصر، فهي لا شك من الأمور التي تحققت في الخارج، ولكن الكيفية التي انتقل بها ذلك العرش الى محضر سليمان عليه السلام، فإننا الذي نعلمه علم اليقين، هو أن ذلك الشخص قد تمكن من نقله بسبب حمله علم من الكتاب، واستخدامه للعلم في إحداث تغيير في معالم البيئة التي كانت مألوفة لدى الحضور والعالم آنذاك بشكل عام. ولكننا لا نعلم تلك الكيفية التي حصلت في عملية الإنتقال المشار إليها في القرآن الكريم.

ووجدت روايات قد نقلت في بعض كتب التفاسير والسير، حاولت أن تجد تفسيراً لعملية الإنتقال السريع للعرش، فعن أبي جعفر عليه السلام قال: إن إسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً، وإنما كان عند آصف منها حرف واحد

(١) تفسير من وحي القرآن، مصدر سابق: ج ١٧، ص ٢٠٨.

فتكلم به فخشفت بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس، ثم تناول السرير بيده، ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين، وعندنا نحن من الإسم اثنان وسبعون حرفاً وحرف عند الله استأثر به في علم الغيب عنده ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم<sup>(١)</sup>.

وهناك كلام في هذا الصدد للدكتور محمد الصادقي في تفسيره الفرقان قال: وهذه الحروف المعرفية من الإسم الأعظم يمنحها الله لمن يشاء، فهي الكتاب المعني هنا، فلا يعني الإسم الأعظم مقولة اللفظ، إذ لا إسم لفظياً له ثلاثة وسبعون حرفاً! وحتى لو كان، فلا أثر لما دون كل حروفه وإن نقص حرفاً واحداً فضلاً عن حرف واحد منه! ثم ولا تأثير للعلم بالإسم اللفظي أياً كان، فإسم (الله) (هو) هما أعظم الأسماء الإلهية على الإطلاق، ولا تأثير لهما بمجرد العلم بهما ولقلقة اللسان فيها فضلاً عن أسماء سواهما وهي كلها دونهما!.

وفي الحق إن الإسم وهو الدال على مسمى، هو واقعه بدلالة واقعية، والإسم اللفظ هو المعرفة الكاملة بالله وهي الإسم الأعظم معنوياً، فالذي عنده من الكتاب منحه الله ما يأتي به العرش من مسافة شهر قبل إرتداد الطرف! وطبعاً بدعائه ربه دونما استقلال، فهل أتى به دون تغيير ولا تحوير فيه ولا في مسيره؟ وموانع الجدران والأتلال والأشجار تمنعه! وسرعة السير هكذا تحوله، فإن لكل عنصر قابلية خاصة لسرعة ما، لو تجاوزها لتجاوز عن كيانه الى ما يقبلها!.

قد يقال إن ذلك كله بسيط بجانب القدرة الإلهية، ما لم يكن محالاً ذاتياً، وكما

(١) بصائر الدرجات: أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار (ت ٢٩٠هـ)، نشر

في السرعة المعراجية فوق الضوئية بملايين الأضعاف لإجتياز تلك المسافة الهائلة مرجعاً في سويغات؟ ولكن المركبة الفضائية المعدة للسفرة المعراجية كانت تحافظ على الحياة الروحية والبدنية لصاحب المعراج دونما تحويل.

وعلى اية حال فلا بد لهذه السرعة الهائلة للعرش من خارقة هي مصدقة فلسفياً وعلمياً، وقد أثبت علم الفيزياء إمكانية تحول كل من المادة والطاقة الى الأخرى، وواقع التحويل معروف على ضوء المحاولات الجادة العلمية المتحضرة الحاضرة.

فقد يجوز أن عملية الإتيان بالعرش في هذه السرعة الهائلة كانت بتحويلها الى طاقة وأمواج ثم إستجلابها بسرعة تناسب (قبل أن يرتد عليك طرفك) ثم رجوعها الى ما كانت عرشاً كما هو، إذاً فهو مثلث من خوارق العادات دون محاولة علمية تجريبية، وإنما بما أراد ابن برخيا بقدره الله، دون إرسالية للأمواج المحمولة عن العرش في مكانه، بل هو إسترسال من مسافة شهر بإرادة آصف مزودة بمشيئة الله!.

وقد يعنيه المروي عن أئمتنا عليهم السلام: (ان آصف بن برخيا قال لسليمان عليه السلام: مد عينيك حتى ينتهي طرفك، فمد عينيه فنظر نحو اليمن ودعا آصف فغار العرش في مكانه بمأرب ثم نبع عند مجلس سليمان بالشام بقدره الله قبل ان يرد طرفه)!

فلا يعنى غوره ذهابه في الأرض كما هو مثل الماء الغائر، حيث نبع ولا ينبع العرش بحاله كما لا يغور، بل يلمح غوره إلى تحوُّله إلى غيره من طاقة لطيفة، فكما الماء يغور في جانب من الأرض ثم ينبع من جانب آخر، كذلك غار العرش في

الجو غور الطاقات الموجية، ثم نبع عند مجلس سليمان كما كان.

وقد يعنيه ايضاً انخساف الأرض وانخراقها بينه وبين العرش تأويلاً له بانخراق جو الأرض، إذ لا يكفي في تحطي هذه السرعة الهائلة - فقط - تحويل العرش إلى الأمواج، فلا بد لها من تعبيد المسيرة الجوية خرقاً وخسفاً حتى تتم الخارقة الربانية كما تمت وهذه خارقة رابعة.

والظاهر من إرتداد الطرف هو إلتقاء الجفتين بعد إفتراقهما، فجفن العين هو دائم الإنطباق والإفتتاح كعملية أوتوماتيكية دون إرادة، كما تلمح لها (يرتد) دون (يُرد) وذلك أبلغ ما يوصف به في السرعة، وقد يعنيها (أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) بعد (كَلَمَحِ الْبَصْرِ) ف (قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ) أقل من طرفه إلى أن يبلغ إلى واحد الزمان الأم.

فليكن غور العرش تحولاً له إلى أبسط طاقة موجية كأخفها وزناً وأسرعها قابلية للحركة لكي تجتاز مسيرة شهر في واحد من الزمان أم يزيد لأقل من إرتداد الطرف.

ومهما استطاع العلم في مستقبل ان يحول - حسب المحاولات والمعادلات الفيزاوية - مادة إلى طاقة موجية ولماً، فليس بمستطاعه - وإن بلغ القمة المستطاعة لمن سوى الله - ذلك المربع البارع من خرق العادة بمجرد المشيئة ودون محاولة عملية إلا دعاء فتلك - إذاً - هي من آيات الرسالة الربانية، وهي هنا كحجة ثانية لإهتداء الملكة إلى الله كما اهتدت فأسلمت مع سليمان لله رب العالمين<sup>(١)</sup>.

ومن لطيف ما قرأته في هذا الموضوع ما جاء في كتاب رحلات وزيارات الى

(١) الفرقان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج ٢١، ص ٢٤٧ وما بعدها.

الاعجاز العلمي إذ جاء فيه: (ما طلب نبي الله سليمان من الحضور (الإتيان بالعرش)، إلا لعلمه بإمكانية نقله (في زمنه).

ونتساءل: كيف انتقل العرش؟! من سبأ باليمن، الى محل إقامة نبي الله سليمان عليه السلام في بيت المقدس، والمسافة تقدر بنحو 3000 كم؟! وفي المدة التي حددها الذي (عنده علم من الكتاب).

الذكر الحكيم يقص علينا ردود فعل (الملا)، لطلب نبي الله سليمان عليه السلام حيث كان هناك عرضان: أحدهما لعفريت من الجن، والعرض الثاني ممن عنده علم من الكتاب.

وفيا يلي ندرس العرضين، بالإستعانة بالإشارات التي وردت في الآيتين الكريمتين (39، 40) وبما توصل إليه العلم الحديث.

نفترض أن كتلة العرش: (m)، وزمن انتقاله = (c) فنقول (والله اعلى وهو العالم):

أولاً: الإتيان بالعرش، وبالعرض الذي قدمه الذي (عنده علم من الكتاب):

عندنا مسافة (ف) = 2500 كم ... وزمن = (قبل أن يرتد إليك طرفك)

وأقصى سرعة في عالم المشاهدة هي سرعة الضوء = 300 ألف كم/ ثانية

إذن زمن إنتقال العرش = المسافة ÷ السرعة = 2500 كم ÷

300000 كم/ ثانية = 0.0083 ثانية

وزمن تحرك جفن العين لأسفل، وإرتداده = 0.025 ثانية ..

إذن زمن ارتداد الطرف =  $0.025 \div 2 = 0.0125$  ثانية

وزمن انتقال العرش (0.0083 ثانية) أقل من زمن ارتداد الطرف  
(0.0125 ثانية)

كما أشار إليه (الذي عنده علم من الكتاب) في قوله:

(أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) سورة النمل: من الآية 40

وطبقاً لمعطيات العلم الحديث، فإن كتلة العرش (m) حينئذ ستتحول الى  
طاقة (E)

(في حال انتقالها) بهذه السرعة، وخلال هذا الزمن.

وطبقاً لمعادلة أينشتين الطاقة (E) = الكتلة (m) × مربع السرعة (c)<sup>(١)</sup>.

لذا نقول وبما توصل إليه العلم الحديث:

إن عرش بلقيس تحول الى طاقة، والله عزّ وجلّ اعطى الذي عنده علم من  
الكتاب القدرة على إرجاع الطاقة الى كتلتها، لقول ربنا: (فَلَمَّا رَأَتْهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ)

(١) الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء وعلى سبيل المثال: فالطاقة الناتجة من تحويل (١

جم) من المادة الى طاقة إشعاعية = ١ جم × مربع سرعة الضوء. أي = ١ جم × مربع 3

× (10 أس 10) سم/ثا = 20 مليون سعرا حراريا ... وهذه الطاقة المتولدة من

(١ جم) من المادة طبقاً لهذا القانون تكافئ الطاقة المتولدة من إحراق 3000 طن من

الفحم.

وقول نبي الله سليمان عليه السلام: (قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا) النمل من الآية 41.

أي أن العرش انتقل بكامل كتلته، وهيئته (من سبأ باليمن، الى بيت المقدس في الشام) .. والآيات فيها سبق علمي، وتحدي للبشرية أجمع، للإتيان بمثل هذا الحدث ... (بالصورة التي تم بها)!! ... وما توصلت إليه البشرية في العصر الحديث:

هو ظهور بوادر لإمكانية تحويل الطاقة الى كتلتها مرة أخرى، ولقد تم إكتشاف هذه الظاهرة في عام 1932م من قبل العالم C.D.Anderson حيث تم توليد زوج من (الكترين) و (بوزيترون) من طاقة (جاما) وتعرف بظاهرة إنتاج الأزواج Pair Production ... وفي هذا إشارة توضح بعضاً من الإعجاز القرآني المبهر، للآيات التي نحن بصددتها<sup>(١)</sup>.

ثم يقول صاحب الكتاب نفسه في مكان آخر:

إن دراسة عرض عفريت من الجن بأن يأتي بعرشها، قبل أن يقوم نبي الله سليمان عليه السلام من مقامه، ولو حدث هذا، لكان انتقال العرش سيأخذ وقتاً أكبر من الثانية. وبدراسة هذا العرض نقول: لقد وجد العالم (انيشتاين) أن أي جسم يتحرك في الفضاء، بسرعة فائقة (ولكنها أقل من سرعة الضوء)، تزداد كتلته، كلما زادت سرعته، خاصة إذا إقتربت سرعته من سرعة الضوء، (كما سنبينها).

والعلاقة بين الكتلة وسرعتها حينئذ تعطى بالمعادلة:

(١) رحلات وزيارات الى الإعجاز القرآني، السيد حامد، نشر المكتب العربي للمعارف، القاهرة، ط ١، ٢٠١٨م: ص ٨٦ وما بعدها.



$$M = \frac{m_0}{\sqrt{1 - \frac{v^2}{c^2}}}$$

$m$  كتلة الجسم عند السرعة ( $v$ )،  $m_0$  كتلة الجسم (حال سكونه) و (c) سرعة الضوء. مثال: نفترض أن جسماً ينطلق بسرعة تبلغ ٩٠٪ من سرعة الضوء (300000 كم/ثانية، فإن كتلته ستزيد طبقاً للمعادلة:

$$M = \frac{m_0}{\sqrt{1 - \frac{(270000)^2}{(300000)^2}}}$$

أي

$$M = \frac{m_0}{\sqrt{1 - \frac{v^2}{c^2}}}$$

$$M = \frac{m_0}{\sqrt{0.19}}$$

=

$$M = \frac{m_0}{\sqrt{1 - 0.81}}$$

$$M = 2.2 m_0$$

أي أن

$$M = \frac{m_0}{0.44}$$

أي أن كتلة الجسم ستصل الى أكثر من ضعف كتلته أي: (2.2 كتلته، حال سكونه).

- وفي عرض (عفريت من الجن) لنقل عرش بلقيس قبل أن يقوم نبي الله سليمان عليه السلام من مقامه -

فلو فرضنا أن زمن قيام نبي الله سليمان عليه السلام من مقامه استغرق أقل من ثانية - (وليكن نحو من 0.02 ثانية)

- فإن سرعة انتقال العرش ستصل نحو من 0.5 من سرعة الضوء - عندئذ كتلة العرش ستزيد بمقدار 15.4٪ (من كتلته حال سكونه)، وبذا لن يصل العرش بكامل هيئته، بل بزيادة في كتلته.

ولقد ألمح عفريت الجن بهذا التغير الذي سيحدث في كتلة العرش، حال انتقاله بالعرض الذي قدّمه، وبالزمن الذي حدده وبما تتطلبه هذه الحالة من قوة، تكون لديه للسيطرة على كتلة العرش فلا تتفكك، ولا تتشتت، كذا سيكون أميناً على ما في العرش من كنوز، وغيرها، عندما يزداد حجمها لذا قال: (وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ)<sup>(١)</sup>.

(١) المصدر نفسه، ص ٩٠ وما بعدها.

## سليمان عليه السلام في التوراة والدراسات التاريخية

تكلمنا في الأوراق السابقة عن سليمان عليه السلام من منطلق قرآني وهو في سياقه العام لم يعط حياة تفصيلية عنه، وإنما أعطى بعداً بيانياً يستفاد منه بما أراد الله تعالى إيصاله للمجتمع الإنساني بشكل عام، وللمجتمع الإسلامي بالخصوص، ليبين لهم مدى قدرة الله تعالى في إحداث ما يريد إحداثه، ولو كره الكافرون، ولكن ضمن حكمة محددة يتوفر من خلالها ذلك المعطى القرآني في تلك المرحلة من بدايات الظهور الإسلامي، وليعضد بالتالي، مراحل الوصول الى يوم العدل العالمي.

والآن سنتكلم عن سليمان عليه السلام من وجهة نظر توراتية، والتي لم تخل من مبالغات وخرافات وتجاوزات، قدّمتها بكل جرأة أسفارهم. وكذلك ما تركه لنا التاريخ من بصمات أعطت بعضاً من ملامح سيرة ذلك النبي المبارك.

والشيء المهم والملفت للنظر أن اليهود أنفسهم، لم يكن عندهم سليمان عليه السلام نبياً، وإنما هو ملك وحكيم ليس إلا، مضافاً الى أنه لم يذكر في توراتهم تلك المعاجز وما سخر له من الجن والإنس والطير والرياح وغيرها، فقد انفرد القرآن بذكر هذه الأمور.

وهذا في الحقيقة إن دلّ على شيء فيدل على بعدهم وجهلهم بنبي مهم من أنبيائهم، ولم يكونوا على إطلاع كامل بما أوتي من القوة والملك، بل اكتفوا بذكر الأمور الملفقة عنه، ولو كانوا على إطلاع كامل بخصوصيات وشأنات سليمان

الكبيرة، لما توانوا عن ذكرها، والتفاخر بها كما هو شأنهم بجلب كل ما يميزهم عن الأغيار، والتعالي بإدعاء أمور هي بعيدة كل البعد عنهم.

ولعل هنا يثار إشكال وهو:

إن أفعال مثل تسخير الجن والإنس والطير وتعلم منطقته مع إسالة عين القطر، مضافاً الى نقل عرش ملكة سبأ والتنقل بواسطة الريح، لا يمكن بحال أن تهمل ويغض النظر عنها أو تناسيها وإهمالها ثم لا يتم ذكرها وتناولها من قبل كتبة التوراة. خصوصاً إذا ما عرفنا أن التوراة قد تمت كتابتها بعد السبي البابلي، فتكون الفترة ما بين وفاة سليمان عليه السلام الى كتابة التوراة ما يقارب ٣٠٠ عام، وهي فترة ليست بذلك البعد الذي يتم من خلاله تناسي أو ضياع تلك الخوارق وذلك التسخير العجيب لجنود سليمان عليه السلام.

عموماً يمكن الإجابة عن هذا الإشكال، وبيان أسباب عدم ذكر هذه الأمور بما يلي:

أولاً: إن سليمان قد تعمد بأن لا يظهر هذا التسخير أمام كل اليهود، وإنما كان يجريه بين خواصه والمخلصين من المؤمنين، وقد يكون قد أمرهم بعدم البوح بهذا الأمر أمام بقية بني إسرائيل، لأنهم غير مستحقين لمعرفة مثل هذا النوع من التسخير، وبهذا الشكل ذو الأثر الكبير، هذا فضلاً فنحن نعرف بأن اليهود قد عرفوا بالخيانة وقتل الأنبياء، والتكبر على الشعوب، وليس مستبعداً بأنهم لو عرفوا بهذه الطاقات والقدرات التي منحها الله تعالى لسليمان، لطلبوا منه أن يحتل الممالك، والدول الأخرى التي تجاورهم ليصبحوا اسیاداً على العالم. بينما في الواقع لم يكن الأمر مناسباً لفعل مثل هذا الأمر من قبل سليمان عليه السلام، كما

سنيينه لاحقاً.

ثانياً: في هذه النقطة نعكس المطلب، فقد يكون أحبار اليهود ورؤساؤهم الدينيين هم الذين أخفوا تلك المميزات والقدرات التي وهبها الله تعالى لسليمان، بغضاً بسليمان نفسه، وقد يكونوا ضاقوا ذرعاً من إيمانه وعدله وتقواه، والذي لا يناسب طموحاتهم ونزعاتهم النفسية المحبة للتمرد والتزوح نحو الرذيلة والخيانة. ولذلك تجدهم بدلاً من أن يذكروا هذه الميزات التي تشد الفرد نحو ربه ولتقوي إيمانه، لجأوا الى وضع الإفتراءات والكذب على مقام النبي سليمان، وبأبشع صورته، ومن جملة اباطيلهم ما جاء في سفر الملوك الأول:

(وأولع سليمان بنساء غريبات كثيرات، فضلاً عن إبنة فرعون، فتزوج نساء موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات، ولكنهن من بنات الأمم التي نهى الرب بني إسرائيل عن الزواج منهم قائلاً لهم: (لا تتزوجوا منهم ولا هم منكم، لأنهم يغوون قلوبكم وراء آهتهم). ولكن سليمان التصق بهن لفرط محبته لهن. فكانت له سبع مائة زوجة، وثلاث مئة محظية، فأنحرفن بقلبه عن الرب. فاستطعن في زمن شيخوخته أن يغوين قلبه وراء آلهة أخرى، فلم يكن قلبه مستقيماً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. وما لبث أن عبد عشتاروت آلهة الصيدونيين، وملكوم إله العمونيين البغيض، وارتكب الشر في عيني الرب، ولم يتبع سبيل الرب بكمال كما فعل أبوه داود. وأقام على تل شرقي أورشليم مرتفعاً لكموش إله الموابيين الفاسق، ولمولك إله بني عمّون البغيض، وشيد مرتفعات لجميع نسائه الغريبات، اللواتي رحن يوقدن البخور عليها، ويقربن المحرقات لآلهتهن. فغضب الرب على سليمان لأن قلبه ضلّ عنه، مع أنه تجلّى له مرتين، ونهاه عن الغواية وراء آلهة أخرى، فلم يطع وصيته. لهذا قال الله لسليمان: (لأنك

انحرفت عني ونكثت عهدي، ولم تطع فرائضي التي أوصيتك بها، فإني حتماً  
أمزق أوصال مملكتك، وأعطيها لأحد عبيدك»<sup>(١)</sup>.

نكتفي بهذين السبيين والآن لنعود ونرى كيف وصل النبي سليمان الى  
الحكم:

### كيف وصل النبي سليمان الى الحكم؟

لقد ورث سليمان داود في مملكته (ينظر المصوّر رقم ١٢)، ومن ثم فقد أصبح  
ملكاً في أورشليم (القدس) وحاكماً على مملكة إسرائيل، هذا ويتفق المؤرخون  
على أن سليمان قد حكم في القرن العاشر قبل الميلاد، ولكنهم يختلفون في تحديد  
فترة حكمه من هذا القرن، فهناك من يرى أنها الفترة (٩٧٤ - ٩٣٢ ق. م)، ومن  
يرى أنها في الفترة (٩٧٣ - ٩٣٦ ق. م)، ومن يرى أنها الفترة (٩٧٠ - ٩٣٣ ق.  
م)، ومن يرى أنها في الفترة (٩٦٣ - ٩٢٣ ق. م)، ومن يرى أنها في الفترة  
(٩٦١ - ٩٢٣ ق. م)، ومن يرى أنها في الفترة (٩٧١ - ٩٣١ ق. م)، ومن أنها في  
الفترة (٩٦٣ - ٦٢٩ ق. م) ومن يرى أنها في الفترة (٩٦٠ - ٩٢٢ ق. م)<sup>(٢)</sup>.

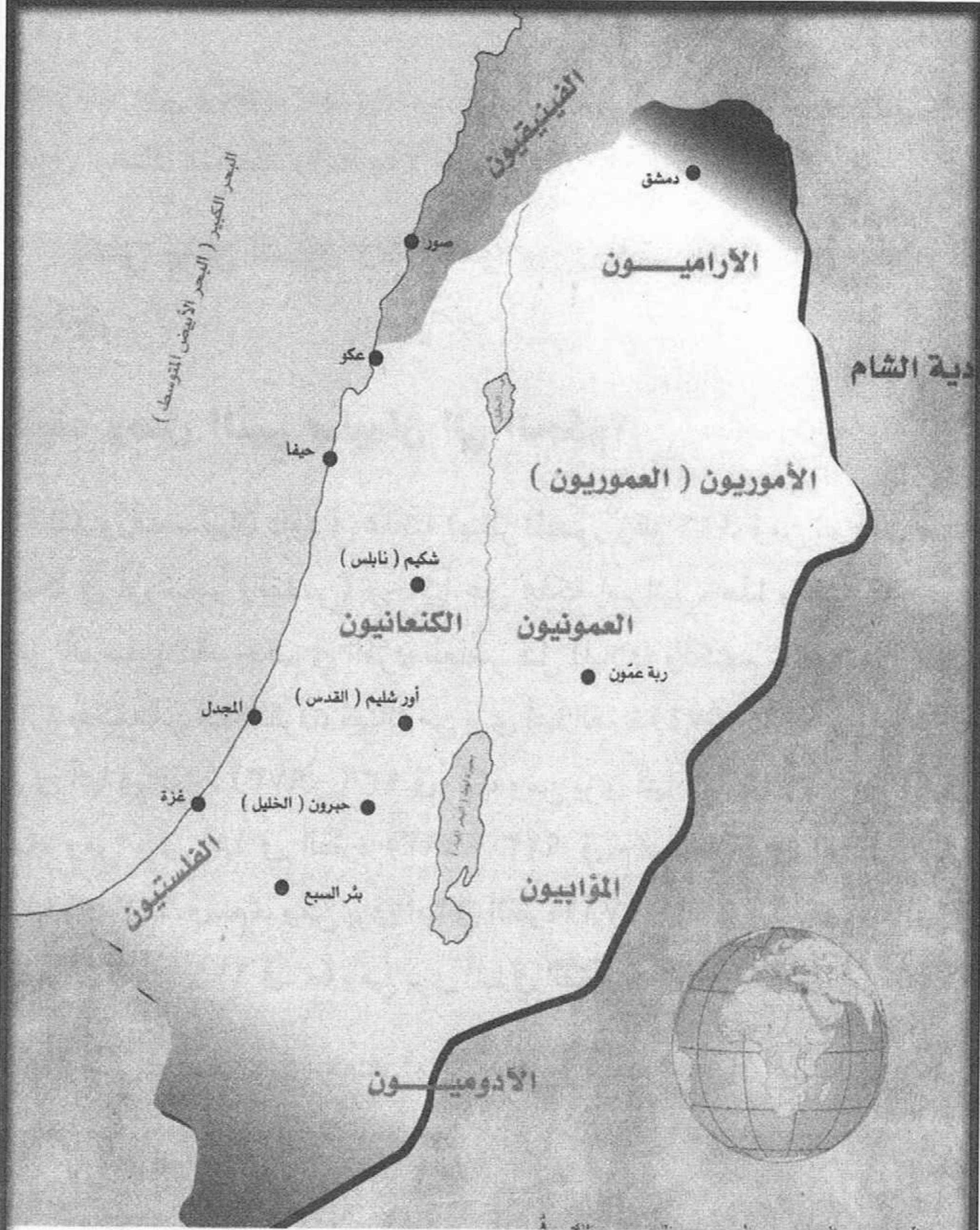
وسليمان إسم عبري معناه (رجل سلام) ويعتبر سليمان عند اليهود ملكاً  
وليس نبياً، وهو ثالث ملوك العبرانيين<sup>(٣)</sup>.

ولكن هناك من يرى أن الإسمين داود وسليمان ليسا من أسماء العبرانيين،

(١) سفر الملوك الأول، ١١: ١، ...، ١٣.

(٢) دراسات تاريخية من القرآن الكريم، مصدر سابق: ج ١٣، ص ١٥٩.

(٣) اطلس الأديان، سامي بن عبد الله المغلوث، نشر دار العبيكان، الرياض، ط ٣،



المصور رقم (١٢)  
 مملكة نبي الله داود عليه السلام  
 أطلس الأديان: ص ٩٧

فداود معناها ذو الأيد أي المؤيد من الله، وسليمان تصغير كلمة سلمان، وهي صيغة مبالغة من سالم أو سليم، وهذا يعود الى الجذر اللغوي العربي وليس العبراني<sup>(١)</sup>.

ونصب داود ابنه سليمان على العرش قبل وفاته، وبعد وفاته. عمل سليمان على توطيد حكمه، وسعى الى التخلص من أعدائه ومناوئيه، ثم سارع الى تجديد التحالفات مع جيرانه، وأعاد تسليح جيشه وتنظيمه ... ويظهر أن سليمان لم تحدث في عهده معارك مهمة، أو فتوحات ذات بال ... والواقع أن عهد داود وسليمان عليهما السلام هو العهد الوحيد الذي يحق لليهود أن يقولوا: إنه كان لهم دولة فيه، والتي إستمرت حوالي 80 سنة، وخاصة عصر سليمان الذي يعد العصر الذهبي لليهود في فلسطين، والذي إمتد حوالي 40 سنة فقط، وبعد سليمان إنقسمت دولة اليهود الى مملكتين هزيلتين، ضعيفتين. ولا بد من التأكيد هنا بأن مملكة داود وسليمان، ثم مملكة يهوذا والسامرة بعد الإنقسام، كان أكثرية السكان من الكنعانيين، أصحاب البلاد الأصليين، ولم يشكل اليهود الأكثرية بين السكان، حتى أن اليهود اقتبسوا لغة الكنعانيين وحضارتهم<sup>(٢)</sup>.

وكان سليمان ماهراً في ربط شعبه بزوابط المحالفات، فصار ملك مصر صديقاً له، مزوجاً إياه إحدى بناته، وأرتبط فيه ملك صور (حيرام) بصلاة الصداقة والتجارة<sup>(٣)</sup>.

(١) سليمان صرخة النبوة، مصدر سابق: ص ٢١.

(٢) الكافي في القدس، مصدر سابق: ص ١٩٨ بتصرف.

(٣) اليهود في تاريخ الحضارات الأولى: جوستاف لوبون، ترجمة عادل زعير، نشر مكتبة

النافذة، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٩م: ص ٥٨.



وإذا كان سليمان لم يشهر حرباً، فإنه افتتح أراضٍ كثيرة متغلباً على الرمال، وذلك بأن وسّع رقعة الأراضي الصالحة للزراعة، وبأن شاد مدينة تدمر الرائعة، في مكان يلوح لنا اليوم أنه غير نافع للسكن، غير أن مصير تلك المدينة كان مؤقتاً كما يظهر، فمركز كبير للسكان لا يمكن أن يدوم في سواء البادية، بعيداً من مجاري المياه المهمة، إلا بمعجزات الصناعة والعمل. فلما مات سليمان نهكت الفتن الأهلية بني إسرائيل فهجرت تلك المدينة الشرقية، إلى أن استولى عليها الرومان، وجددوا بناءها. واليوم ترى أعمدة تلك المدينة قائمة في إعتزال، فيقضي السائح فيها العجب، ممتلئة نفسه بغم غريب. ولا يزال إسما سليمان وتدمر الكبيران يبهران الفكر، لما يبدو من سطوعهما في تاريخ بني إسرائيل الكئيب. والمرء إذا ما صدف عنهما، لم يبصر غير هوة مظلمة دامية، تزلق فيها هاوية بما يثير الحزن تلك المملكة الصغيرة التي من عليها داود وإبنة بعظمة مدة سنوات قليلة<sup>(١)</sup>.

ويعد مصدرنا الوحيد عن أعمال داود وسليمان وعن دورهما السياسي والعمراني في فلسطين هو التوراة، والتوراة وحدها إذ لم يعثر المنقبون على أي أثر لهذا الدور. والتوراة كما أسلفنا كتبت في وقت لاحق، وكتب أكثرها في الأسر في المحيط البابلي السومري الذي اعتاد أهله وصف أعمال الآلهة الخارقة العادة على نمط الأساطير الخيالية للتأثير بها على نفوس الجماهير... ويكفي أن ننظر إلى بعض أقوال التوراة، مثل قولها بأن الجماعة التي رافقت النبي موسى في خروجها من مصر بلغت (ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد)، في حين أن الباحثين قدروا هذه الجماعة بستة آلاف نسمة فقط، لتكوين فكرة عن مدى مبالغات

(١) المصدر نفسه، ص ٥٩.

التوراة وأوصافها الخيالية الى الحد الذي لا يمكن أن يتصوره العقل<sup>(١)</sup>.

ويبدو من سياق السرد العام للبداية السياسية التي تولى بها النبي سليمان أمر جماعات بني إسرائيل إنَّ أواخر أيام أبيه داود في الحكم كانت غير مستقرة بعد أن طمع في مناوآته والظهور بجانب مجموعات من القوى المتصارعة داخل جماعات بني إسرائيل. ويؤكد هذا المعنى الذي لا يستفاد من غير التوراة، نظر الكثرة للتناقض الذي ورد فيها ما روى في الإصحاح الأول من سفر الملوك الأول عن وجود قوى تتربص بحياة النبي داود والراقد على فراش المرض، ما أن تأكد لديها أن الرجل لن يقوم من نومته، إلَّا وابتدأت تنظيم نفسها وتختار كهانها لتنصب رجلا يمثل مصلحتهم وامتيازاتهم، كان ذلك على حد ما تقوله التوراة - سفر الملوك: الإصحاح الأول: ٥ - ٣٥<sup>(٢)</sup>.

فما الذي إبتدأ يعمله سليمان في هذه المرحلة التي تولى فيها أمر إسرائيل على حد رواية التوراة وأبوه لما يزل بعد حي وعلى فراش المرض؟ أدرك سليمان لأول وهلة أنه تولى الأمر أمام قوى متناقضة وعديدة، وكل منها لا تربطه بالقوى الأخرى ادنى علاقة من ولاء أو عقيدة، فما استطاع عقب عملية استجماع الإرادة التي دبت في بيت أبيه حين استشير داود بعد أن علمه ان عرشه تتناول عليه جماعات من عبيده أن يقف على قدميه، فأستصدر ما يتشبه الأمر الملكي بأنه قد تنازل عن عرشه لإبنه سليمان. وابتدأ سليمان يوجه ضرباته بما يشبه - بناء على ما يستفاد من التوراة - اسلوب المؤامرات السياسية وإحاكة البوقية ليتخلص من

(١) مفصل العرب واليهود في التاريخ: د.أحمد سوسة، نشر دار الوراق، بيروت، ط ١،

٢٠١٤م: ص ٥٦٨.

(٢) التاريخ اليهودي العام: صابر طعيمه، نشر دار الجليل، بيروت، ط ٣، ج ١، ص ٢٢٧.

القوى التي تقاومه أولاً بأول. وعقب تنفيذه قرار أبيه، يبدو أنه ابتداءً على الفور يعمل عمله، فأرسل مجموعة من الذين أدوا دوراً في تهيئة الجو العام الذي جعل من داود يتعجل تنفيذ ما وعد به، وذهبوا بالفعل يصنعون جواً من إشاعة الإبتهاج والفرحة لدى جميع بيوت جماعات إسرائيل، كي يخرجوا مواكب وجماعات تعلن تأييدها وسعادتها بتنصيب (الملك) الجديد. ثم انفذ مجموعة أخرى وسط المؤيدين والمتعصبين في خدمة (أدونيا) (١) كي يتعلموا على سحب الأرض التي يقف عليها (أدونيا) حين يفرقون أنصاره من حواليه، وحتى يلقوا في روع الجميع أن داود حين نصب ابنه سليمان قد تشدد وتقوى وأنه مبتهج لأن عاش حتى يرى ابنه سليمان يجلس على كرسي عرشه، وبالفعل فإن القوى التي أحاطت بسليمان استطاعت أن تفسح له الطريق مبكراً كي يتخلص من أعدائه، فإن (أدونيا) ما أن ووجه بتحول التيار العام عنه، إلا واستسلم سريعاً ودون أن يدخل مرحلة يشكل بها خطراً أو عائق أمام سليمان (٢).

وجاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الأول: وأثار الرب فاتناً - متمرداً - على سليمان وهو - هدد الأدومي - من نسل ملوك أدوم، الذي هرب هو وبعض عبيد أبيه الى مصر أثناء غزوات جيش داود لأدوم، فأواه فرعون وزوجه أخت امرأته وحظي برعايته، فلما علم بموت داود طلب من فرعون ان يطلقه الى بلاده.

(١) أدونيا: ابن حجيث، ترفع قائلاً: أنا أملك، وعد لنفسه عجلات وخمسين رجلاً يجرون أمامه وكان يتصور في نفسه صلاحية وأحقية لتولي أمر القوم وسيادتهم بعد داود - وهو أخ لسليمان عليه السلام.

(٢) التاريخ اليهودي العام، مصدر سابق: ج ١، ص ٢٢٩.

ثم قال الإصحاح: إن الرب أثار أثار فاتنا آخر على سليمان وهو - رزون بن أليداع - الذي كان من رجال هدد عزز ملك صوبية، خرج من صوبية وجمع إليه رجالاً وصار رئيس غزاة عندما كان داود يدمرهم، فأنطلقوا الى دمشق وأقاموا بها ملكاً وصار رزون فاتناً لإسرائيل كل أيام سليمان وملك على ارام وأعنت إسرائيل بالإضافة الى ما كان من شر هدد... والعبارة تفيد أن هذه الحركة لم تكن في شيخوخة سليمان كما يريد الإصحاح أن يوهم ذلك ويربط بينها وبين زيغان سليمان... وهكذا لم تكن أيام سليمان أيام راحة وسلم شامل بينه وبين من حوله كما ذكر الإصحاح الرابع من سفر الملوك الأول.

وبالإضافة الى هذين الخصمين الخارجين، فإن الإصحاح نفسه ذكر بعد خبرهما قصة يربعام بن نباط... الذي على سليمان ولكنه لم يتمكن من عمل شيء وطارده سليمان ففر الى مصر<sup>(١)</sup>.

ولما توفي سليمان عليه السلام 931 ق.م سارع يربعام بن ناباط زعيم ثورة (أفرايم) أي سبط (أفرايم)، والذي كان لاجئاً لدى (شيشق ملك مصر) حيث إلتجأ هناك بعد فشل ثورته ضد سليمان، سارع بالعودة الى قبيلته (أفرايم)، وبأدر بإثارة اهلها على وراثته سليمان على العرش، فلاقت دعوته هوى في نفوس اسباط اليهود التي تمنعت عن مبايعة (رحبعام بن سليمان)، إلا بعد أن يلغي الضرائب التي فرضها سليمان عليها، وأن ينشر المساواة بينها ويعلن عزم التحيز الى سبط (يهوذا) ولكن (رحبعام) أبى أن ينصاع لطلب زعماء اليهود، فثار عليه الشعب، فالتجأ الى القدس، ومن ثم أعلن ابناء قبيلته إنفصاهم عن القدس، واختيارهم

(١) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم، محمد عزة دروزة، نشر دار المكتبة العصرية، بيروت،

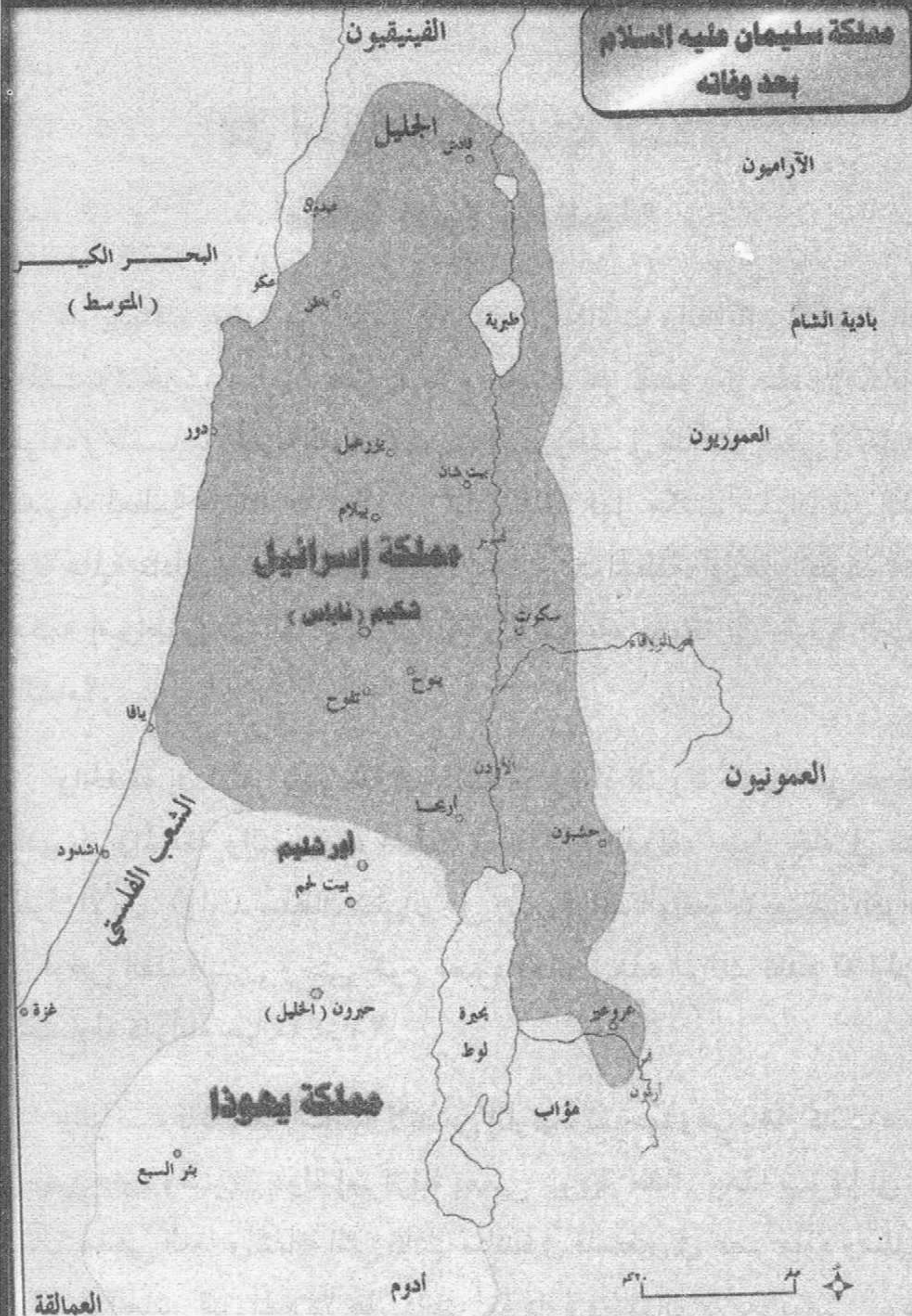
(يربعام بن ناباط) ملكاً على سبطهم، وتسمية مملكتهم الجديدة بإسم مملكة (إسرائيل).

ولما رأت الأسباط الأخرى ما قامت به (أفرايم) انضمت إليها، ولم يبق مع سبط يهوذا إلا سبط بنامين.

هكذا تمخض هذا الإنقسام قيام دولتين هزيلتين: الأولى في الشمال بإسم مملكة (إسرائيل) وعاصمتها (السامرة) - نابلس الآن - وملكها (يربعام)، والأخرى في الجنوب بإسم مملكة (يهوذا) وعاصمتها (أورشليم) - القدس - وتولى الملك فيها (رحبعام بن سليمان)، (ينظر المصوّر رقم ١٣)، ويعلق المؤرخ الفرنسي (لورس) على هذا الإنقسام بقوله: (إنه كان بداية النهاية لليهود في فلسطين، إذ قضى على العهد الذهبي الذي ما زال اليهود يتغنون بقيامه حتى اليوم)<sup>(١)</sup>.

(١) الكافي في تاريخ القدس، مصدر سابق: ص ٢١١.

**مملكة سليمان عليه السلام  
بعد وفاته**



المصوّر رقم (١٢)

مملكة سليمان بعد وفاته وانقسامها الى دولتين هزيلتين  
أطلس تاريخ الأنبياء والرسل: ص ١٦٦

## هل أسس سليمان عليه السلام

### مملكة كبيرة وعظيمة؟

قد يتساءل بعض من الناس هل ان الإمكانيات والطاقات الكبيرة التي وظفت وسخرت لسليمان عليه السلام، بحيث هو نفسه بين هذه الإمكانيات بقوله، وحسب ما أخبرنا القرآن الكريم: ( ... وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي )، لعظمة ما آتاه الله تعالى من آثار الملك. فهل مكنت سليمان من إنشاء دولة عالمية عادلة، تضم كل مدن ودول وحضارات المنطقة، أي هل انطوت تحت حكمه إمبراطوريات الفراعنة والبابلية والآشورية، مضافاً الى جزيرة العرب والشام؟.

والحقيقة إن الأمر يبدو خلاف ذلك بكثير، إذ التوراة نفسها التي عرفت بالتهويل والمبالغة والتحريف، أعطت ابعاد هذه الدولة، حيث جاء في سفر الملوك الأول: (وامتد سلطان سليمان على جميع الممالك الواقعة ما بين نهر الفرات الى أرض الفلسطينيين وحتى تخوم مصر، فكانت هذه الممالك تقدم له الجزية وتخضع له كل أيام حياته) ٤: ٢١.

وهنا تستوقفنا نقطة أساسية لا بد من إثارتها وشرحها وهي: هل كانت هناك في زمن داود وسليمان دولة إسرائيلية بمعنى يهودية حقاً!. وهذا يسوقنا الى أن نسأل: ما هي اللغة والثقافة التي كانت سائدة في فلسطين في عصر داود وسليمان في القرن العاشر قبل الميلاد؟ هل كانت لغة داود وسليمان عبرية، بمعنى يهودية آنذاك؟.. إن هذه المسألة محفوفة بالغموض الكثيف لعدم توافر أدلة محسوسة توضح لنا حقيقة الأمر، إذ لم يعثر حتى الآن على وثائق من هذا العصر على ما

وصل إليه علمنا. لذلك فإن معلوماتنا عنه تبقى مصدرها التوراة فقط، إلا أن القرائن كلها تدل بوضوح تام على أن هذه الدويلة التي تشكلت في زمن داود وسليمان لم تكن قد توفرت فيها المقومات القومية والثقافية، إذ لم تكن لها لغة أو ثقافة أو حضارة خاصة بها، بل كانت قائمة كلياً على تراث كنعاني بحت كما تؤيد لنا ذلك الحقائق التاريخية<sup>(١)</sup>.

والدليل على أن الشعب اليهودي لم يكن يمتلك أي بعد حضاري، وإنما كان شعباً رعويّاً ولا يعرف عملاً مهاريّاً آخر، ما عدا بعض الأعمال الزراعية التي فرضت نفسها عليهم ظروف الحياة. إن داود وسليمان عليهما السلام كانا إذا احتاجا إلى أعمال بناء أو نجارة أو بناء سفن، اضطروا إلى مخاطبة عمال المدن المجاورة من العرب. فكان سليمان عندما يحتاج إلى أخشاب لبنى بيت الرب، كان يحتاج أيضاً إلى عمال بناء، ولذلك لجأ إلى السُّخرة. وقد بدأ سليمان بتسخير أبناء الأموريين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين<sup>(٢)</sup>.

وتتابع التوراة حديثها عن بناء البيت، حيث طلب سليمان من حيرام ملك صور: (والآن فأمر أن يقطعوا لي أرز من لبنان ويكون عبيدي مع عبيدك وأجرة عبيدك أعطيك إياها، حسب كل ما تقول لأنك تعلم أنه ليس بيننا أحد يعرف قطع الخشب مثل الصيدونيين)<sup>(٣)</sup>.

وهذا النص يدل على عدّة أمور، وهي أن النص يعترف أن بني إسرائيل

(١) مفصل العرب واليهود في التاريخ، مصدر سابق: ص 571.

(٢) الموسوعة الكبرى للمذاهب والفرق والأديان: د. سليم الياس، نشر مركز الشرق الأوسط الثقافي، بيروت، ط ١، ج ٣، ص ٥٦.

(٣) سفر الملوك الأول: ٥: ٦.



عبارة عن قبائل جاهلة، تجهل حتى قطع الشجر، وإذا نظرنا الى النصوص التي بعد هذا النص نرى أن البيت الذي تخيله كاتب التوراة قد بناه الكنعانيون لسليمان، وليس بنو إسرائيل من بنيه، هذا بالطبع إذا كان النص صحيحاً<sup>(١)</sup>.

وكذلك إن مهندس هذا البيت - الهيكل - الذي أراده سليمان رجل كنعاني، حيث تقول التوراة: (وأرسل الملك سليمان وأخذ حيرام من صور وهو ابن امرأة أرملة من سبط نفتالي وأبوه (رجل صوري نحاس)<sup>(٢)</sup>).

وإن الدراسات الأثرية والتوراتية لا تشير مطلقاً الى تجاوز ملك النبي سليمان عليه السلام بعض أجزاء أرض فلسطين، وتثبت الدراسات أن ملوكاً وممالك كانت منتشرة في المنطقة كالمؤابيين والعمونيين في الأردن والآراميين في دمشق وما جاورها والكنعانيين في صور وصيدا، والأدوميين والأنباط (ينظر المصوّر رقم ١٤) والساحل الشمالي كله، إضافة الى الفراعنة في مصر والآشوريين في العراق. وقد أشارت التوراة الى أن الملك سليمان استعان بملك صور لبناء قصره ومعبدته<sup>(٣)</sup>.

ويقول الدكتور أحمد سوسة: أما الوصف الذي جاء في التوراة واعتاد الباحثون في ترد يده عن إتساع وإمتداد حدود مملكة سليمان فيعدّه أكثر الباحثين من قبيل المبالغات التي درجت عليها دويلات تلك العصور. والحقيقة هي أن مملكة سليمان التي تبجح بها اليهود بعظمتها كانت أشبه بمحمية مصرية مرابطة

(١) سليمان صرخة النبوة، مصدر سابق: ص ٨٥، وينظر: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، د. فيليب حتي: ج ١، ص ٢٠٦.

(٢) الإصحاح السادس والسابع من سفر الملوك الأول.

(٣) سليمان صرخة النبوة، ص ١٠٤. وينظر: الكافي في تاريخ القدس: ص ٢١٤.



على حدود مصر قائمة على حراب اسيادها الفراعنة الذين كان أهم ما يهدفون إليه من وراء هذا الإسناد حماية حدودهم الشرقية من غارات الأقوام الطامعة بمصر وفي مقدمتهم الآشوريين<sup>(١)</sup>.

ويعلق المؤرخ المشهور (ويلز wells) على التهادي في الخيال والمبالغات في تصوير إتساع حدود مملكتي داود وسليمان، فيقول في ذلك: ولا يستطيع أحد أن يزعم أن أرض الميعاد وقعت يوماً بيد العبرانيين اليهود. ويلوح أن داود وضع نفسه في حماية حيرام ملك صور، فثبتت هذه المحالفة الفينيقية ملكه<sup>(٢)</sup>.

وهناك نص توراتي يقول: (وأرسل حيرام ملك صور عبيده الى سليمان لأنه سمع أنهم مسحوه ملكا مكان أبيه، لأن حيرام كان محبا لداود كل الأيام. فأرسل سليمان الى حيرام التي أحاطت به حتى جعلهم الرب تحت بطن قدميه. والآن فقد أراحني الرب إلهي من كل الجهات فلا يوجد خصم ولا حادثة شر. وها أنذا قائل على بناء بيت لإسم الرب إلهي كما كلم الرب داود أبي قائلاً: إن ابنك الذي أجعله مكانك على كرسيك هو بيني البيت لإسمي). وهذا النص يدل على وجود علاقة طيبة بين داود والملك الكنعاني العربي (حيرام) الذي كان يحكم صور وشمال فلسطين، ويصل ملكه الى شمال صيدا<sup>(٣)</sup>.

ونلاحظ هنا بأن ملك داود وملك سليمان، حتى لم يكن على فلسطين بشكل كامل، وإنما كانت هناك مناطق رئيسية منها لم تكن تحت حكمهم.

(١) مفصل العرب واليهود في التاريخ، مصدر سابق: ص ٥٦٦.

(٢) نفس المصدر، ص ٥٦٦، نقلاً عن معالم الإنسانية للمؤرخ المشهور ويلز، ص ٢٧٩.

(٣) ينظر: سليمان صرخة النبوة: ص ٨٤.

وينقل ظفر الإسلام خان كلاماً عن جفريز: إن إمتلاك اليهود لفلسطين، بكل معنى حقيقي من معاني كلمة الإمتلاك، لم يكن في يوم من الأيام كاملاً، وإنه إنما ظلّ في رقعة داخل حدودها طوال مدة سبعين عاماً. ولقد عمّر بها لا يزيد عن عمر الرجل. وكان هذا قبل ثلاثة آلاف عام، أما في عهد المكابيين فكان هذا أقصر عمراً.. كان لما يقارب من خمسين عاماً على أكثر تقدير<sup>(١)</sup>.

وهناك نص توراتي تستشف من خلاله إن اليهود في عهد سليمان عليه السلام لم يكونوا بتلك القوة وسعة الملك الذي ينتقل إلينا من قبل كتاباتهم حيث جاء في سفر الملوك الأول، الإصحاح الثامن: ٤٤ - ٥٠:

(إذا خرج شعبك لمحاربة عدوه في الطريق الذي ترسلهم فيه وصلوا الى الرب نحو المدينة، التي إخترتها، والبيت الذي بنيته لإسمك فأسمع من السماء صلاتهم وتضرعهم واقضي قضائهم إذا أخطأوا إليك، لأنه ليس إنسان لا يخطئ، وغضبت عليهم ودفعتهم أمام العدو وسباهم الى أرض العدو، بعيدة أو قريبة، فإذا ردوا الى قلوبهم في الأرض التي يسبون إليها ورجعوا وتضرعوا إليك في أرض سبيهم قائلين قد أخطانا وعوجنا واذنبنا ورجعوا إليك من كل قلوبهم ومن كل أنفسهم في أرض أعدائهم الذين سبوهم وصلوا إليك نحو أرضهم التي أعطيت لأبائهم نحو المدينة التي أخترت والبيت الذي بنيت لإسمك فأسمع في السماء مكان سكنك صلاتهم وتضرعهم وأقض قضاءهم، واغفر لشعبك ما أخطأ به إليك وجميع ذنوبهم التي أذنبوا بها إليك وأعطهم رحمة أمام الذين سبوهم فيرحمهم).

(١) تاريخ فلسطين القديم: ظفر الإسلام خان، نشر دار النفائس، بيروت، ط ٣، ١٩٨١م:

ص ٥٠. نقلاً عن فلسطين: اليكم الحقيقة، لجفريز، ص ٤٥.

ولنا تعليق على هذا النص:

إن هذا النص قد يكون دليلاً على عدم إنتشار وظهور قوّة سليمان عليه السلام وسعة ملكه، لأنه يظهر من خطابه، بأن بني اسرائيل لم يكونوا من القوة وسعة الملك بحيث كان يخاف من سبيهم، وقد تكلم فعلاً بالسبي، وهذا يدل على عدّة أمور منها:

أولاً: إن مملكة سليمان عليه السلام لم تكن بتلك القوة وسعة الملك، بحيث كان يخاف من تمكن الأعداء منهم، بل وسبيهم.

ثانياً: أن يكون كاتب التوراة كاذباً فيما يقول، ولم يكن ملتفتاً لهذا الأمر بشكل تفصيلي، أو أراد أن يسقط شعوره النفسي وتصوره العقلي على أوراق التوراة المزعومة لتحقيق أغراضه وأهدافه.

ثالثاً: قد يكون سليمان عليه السلام قد تنبأ بمستقبل بني إسرائيل، وما سيتعرضون له من السبي على يد البابليين، وهذا بعيد لأن اليهود في مرحلة سبي نبوخذ نصر لم يكونوا ملتزمين بدين موسى عليه السلام، بل تمسكوا بما يقول لهم أحبارهم، الذين كانت تحركهم أهواؤهم واطماعهم الشخصية لا غير.

على كل حال تبقى مملكة سليمان في أقصى إتساع لها وكما تصوره لنا المخططات التاريخية هي مملكة صغيرة إذا ما قورنت بالدول والإمبراطوريات الكبيرة مثل الامبراطورية البابلية والآشورية والفارسية والرومانية واليونانية في عهد الإسكندر الأكبر، وخصوصاً إذا ما عرفنا أن القرآن الكريم عندما ذكر سليمان عليه السلام وملكه لم يحدد لنا سعة ومساحة هذا الملك، ولكنه اعطانا فكرة عامة بأن ملك سليمان لم يبلغ الأقصى، بل هناك مناطق لم يكن يعلم

بوجودها وقد أخبره بها وبأقوامها طائر الهدهد.

وفي هذا الصدد يقول ظفر الإسلام خان: بعد ذكر حدود الدولة اليهودية الشاملة لمعظم شرقي الأردن ونصف لبنان، وجزء من سورية وكل أراضي فلسطين حتى غزة، نجد ذكر هذه الحدود، كما يلي، في مصدر يهودي رسمي:

(إن المنطقة بكاملها - كما عرضت آنفا - لم يحتل الاسرائيليون كل أجزائها، لأن السهل الساحلي في الجنوب كان يملكه الفلسطينيون، وكان السهل الشمالي يملكه الفينيقيون، بينما لم تعد الممتلكات الإسرائيلية في شرقي الأردن بعيداً عن الأرنون (وادي المجيب) وفي الشمال أيضاً لم يستوطن الإسرائيليون أبداً في الأجزاء الشمالية القاصية والشرقية من سهل الباشان (حوران)، ولذلك فإن فلسطين، وخصوصاً الدولة الإسرائيلية ضمت مساحة صغيرة جداً، هي على وجه التقريب مساحة ولاية فيرمونت الأمريكية)<sup>(١)</sup>.

ولكن لا يمكن لنا بحال من الأحوال أن ننكر بأن سليمان عليه السلام قد كان نبياً على رأس مملكة استطاع أن ينشر مبادئ التوحيد والإيمان بالله تعالى، وأن يعمر بها، وكان متحركاً ولم يبق ساكناً، فقد أقام المشاريع ووطد علاقاته بدول الجوار.

وكان عهده عهد أمان وسلام، وقد وسع مدينة أورشليم وبنى فيها المعبد، وفي عهده ازدهرت حركة التجارة الخارجية<sup>(٢)</sup>.

(١) تاريخ فلسطين القديم، مصدر سابق: ص ١٠٤. نقلاً عن: JE, Article : plestine.

(٢) اطلس الدارسين للكتاب المقدس، نشر دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط،

فقد حكم سليمان عليه السلام مدة أربعين عاماً (٩٧٠ - ٩٣٠ ق.م) وقد إمتاز بالإدارة الناجحة والحنكة السياسية، وكان قوياً في توطيد العلاقات الدبلوماسية مع دول الجوار، وكما دخل في علاقات تجارية مع حيرام، ملك مدينة صور الفينيقية، وقسم مملكته الى ١٢ مقاطعة إدارية، الأمر الذي سهل برنامج العمران والازدهار في الدولة كلها. واستغل المصادر الطبيعية في مملكته ... كما شيّد أفراناً للحديد، ومناجم للنحاس وعمل قاعدة بحرية في عسيون جابر<sup>(١)</sup>.

(١) اطللس الكتاب المقدس وتاريخ المسيحية، دار أوفير للطباعة والنشر، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٧م: ص٣٦ بتصرف.

## ثلاثية العالم والعفريت والهدهد وهداية ملكة سبأ

وهنا لنا تعليق على ثلاثة عناوين ترتبط فيما بينها برابطة التحدي، وبيان قدرة الجنود التي سخرها الله تعالى لسليمان عليه السلام، وهي تتعلق بالطير والجن والإنسان، وبيان النمط التسخيري الممتد فيما بينهم بقضية واحدة قد بينها القرآن الكريم ألا وهي قضية مملكة سبأ. وقد تمثلت تلك العناوين بـ:

- الطير والذي مُثِّل بالهدهد، وقضية إخباره لسليمان عليه السلام عن وجود تلك المملكة وكشف طريقة عبادتهم، وقد بيّنا سابقاً البعد الإعجازي في ذلك.

- الجن والذي مُثِّل بعفريت من الجن، وعرض لقوته وأمانته في جلبه لعرش ملكة سبأ خلال ساعة أو سويعات قليلة.

- الإنس والذين مُثِّلوا بالذي عنده علم من الكتاب، وهو آصف بن برخيا، حسب ما ذكرته أوثق الروايات، وكيفية عرض إمكاناته بالإتيان بالعرش، قبل إرتداد طرف سليمان عليه السلام.

هذا العرض للقوى الذي مثل ثلاثة أجناس أو أنواع مختلفة بحسب الرؤية المنطقية في باب الإيساغوجي، وكيفية اشتراكها في موضوع مملكة سبأ، لا بد أن يكون له دلالات، فيا ترى ما هذه الدلالات، وإلى أي شيء أرادت أن تشير إليه حتى نلتفت نحوه؟ والآن يمكن أن نذكر بعضاً منها:



## الدلالة الأولى:

نلاحظ أن أفراد هذه الأجناس الثلاثة قد حركهم بعد إيماني واضح، وقد توجهوا نحوه بإستعراض كل قواهم، لنشر منهج سليمان عليه السلام وخصائصه الإيمانية وإيصاله الى أبعد نقطة ممكنة، ومن الراجح أن يكون وصول الهدهد الى مملكة سبأ لم يكن على نحو التنزه أو على نحو التيه وضلالة الطريق، فأخذ بالإبتعاد شيئاً فشيئاً. بل كان باحثاً وقاصداً في طيرانه، عساه أن يرى قوماً يمكن هدايتهم، بعد أن رأى عدم إمكانية هداية الأقوام والممالك المجاورة لمملكة سليمان.

ويدل على هذا الشعور، هو ما يحمله الهدهد من إيمان عالي بعيد عن العاطفة، ونابع عن قناعته، والتي بيته الكلمات التي صدرت منه في معرض إجابته لسليمان عليه السلام، حينما سأله عن سبب غيابه. فلو تمعنا بإجابته سترها تكشف لنا هذا المستوى الإيماني العالي، إذ قال تعالى حكاية عنه: (وَجَدْتُمَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ\*أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ\*اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) سورة النمل: ٢٤ - ٢٦.

وربما يكون تولد هذا الشعور، بعد أن كان النبي سليمان عليه السلام يعتمد عليه في كشفه للماء وهو تحت الأرض. فكان يرى أنه من الممكن أن يكتشف قوماً لهم قابلية الهداية والإيمان، وهم بعيدين عنهم، بحيث لم يكن سليمان قادراً على أن يستشعر ذلك الوجود القابل للهداية والإيمان.

وأما بالنسبة الى العفريت من الجن، والذي عنده علم من الكتاب، فأيضاً من الراجح أنهما لم يظهرتا قدرتهما وعلومهما بهذا الخصوص، بل كانا في طي الكتمان، وقد يكون هذا الكتمان لمصالح خاصة، ولكن ما أن تعلق الأمر بهداية وإيمان قوم مملكة سبأ، إستعجلا في إظهار هذا الجانب أمام الملأ، وبدون أي محذور أو تأن وإسترخاء.

فباشر سليمان عليه السلام بالسعي العملي لإجراء هذه العملية بأسرع وقت ممكن، ولذلك طلب الإتيان بالعرش لتثبيت مبدأ إيمان ملكتهم. ولعل طلب الإتيان بالعرش وبهذه السرعة الخاطفة، هو ليس على نحو استعراض القدرات فقط، وإنما هو أمر يختص بثبات الإيمان وعن دراية، لأن قول سليمان عليه السلام لهم: (لأتيتهم بجنود لا قبل لهم بها) قد يشعرهم بالخوف، وسيستسلموا لا عن قناعة تامة وإذعان كامل للإيمان، ولذلك اراد أن يحضر عرش ملكتهم، لكي تكون القناعة نتيجة أمر آخر، لأن من يمتلك تلك القدرات غير المألوفة، وبهذا المقدار من القوة والدقة، لا يمكن أن تكون قدراته من صنع البشر.

#### الدلالة الثانية:

لو جئنا ونظرنا وتمعنا في الآيات التي ذكرت الإمكانيات والأشياء المسخرة لسليمان عليه السلام نجدها تنقسم الى قسمين هما:

الأول: القسم الذي بين لنا الآيات التي ذكرت القوة المسخرة لسليمان عليه السلام. وأعطت بعض عناوين ذلك التسخير، ومن هذه الآيات:

- (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ...) سبأ: ١٢.

- (وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ...) سبأ: ١٢.

- (وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ \* يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ...) سبأ: ١٢ - ١٣.

- (وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَغَوَّاصٍ) سورة ص: ٣٧.

الثاني: القسم الذي كان متعلقه، هو لبيان قضية مملكة سبأ، وما حصل مع ملكتها. وطرح قوى جديدة مسخرة لسليمان بواسطة جنوده من الجن والإنس والطيور، والتي بيئتها الآيات التالية:

- (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ \* لَأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ \* فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ مَحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ).

- (اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون \* قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم).

- (فلما جاء سليمان قال أتمدونن ببال فما أتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون \* ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون).

- (قال عفریت من الجن أنا آتیک به قبل أن تقوم من مقامک وإني علیه لقوي أمين).

- (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتیک به قبل أن يرتد إليك طرفك...).

والفرق بين القسم الأول والثاني هو أن التسخير في الأول كان يبدو في زمن النبي سليمان عليه السلام خارقاً لنواميس الطبيعة، ولكن الآن أصبح من الممكن أن يحدث في زماننا، بالأسباب والعلوم الطبيعية، التي لا تحتاج الى طفرات وأعمال إعجازية، فعلى سبيل المثال، إن ما كانت تقوم به الريح من نقل سليمان في الغدو والرواح مسيرة شهر أو شهرين، الآن يمكن لنا أن نتصور حدوث هذا الأمر، بل حتى أسرع من تلك المدة المذكورة في القرآن الكريم، وذلك عن طريق التنقل بالطائرة، ومن المعلوم أنه لا يمكن للطائرة بأن تطير لولا الريح. أو إستخراج وإسالة وصهر النحاس والمعادن الأخرى، فالآن أصبح بواسطة العلوم والتكنولوجيا، عملية استخراجها وصهرها والتحكم فيما من الأمور السهلة والميسرة. ناهيك عن البناء وعمل المحاريب والتماثيل وغيرها، فإن كل هذه الأمور أصبحت بالواقع العملي ممكنة وحاضرة بين أيدينا. بل إننا نستطيع القول بأن هناك إمكانات وأعمال أكبر وأعظم من الأمور التي ذكرها القرآن الكريم لسليمان، وهذا يدل على الرقي الإنساني، ووصوله الى مراتب علمية وعملية عالية، استطاع أن يجعل الأمور التي كانت تبدو خارج قدرة الإنسان في ذلك الزمن، أموراً طبيعية، ومن الممكن أن تستخدم في حياتنا الأسرية والإجتماعية، على نحو طبيعي جداً.

والحقيقة ان هذا ما كان ليحدث لولا التخطيط الإلهي الدقيق للتنقل بالأحداث، وإيجاد أموراً استثنائية في ظرف زمني محدد، لكي يحقق اهدافه، وينشر آثاره في تلك المرحلة، ومن ثم يغادر تلك الحقبة من التاريخ راسماً كثيراً من علامات الإستفهام والإستغراب، ليعود في زمان آخر، بنفس الشدة إن لم يكن أكثر، ولكنه هذه المرة قد لبس ثوب الواقعية وقوانين الطبيعة، ليشكل صورة الأمر العادي، الذي يجعل من اسباب التسخير التي حصرت بسليمان عليه

السلام حاضرة أماننا، نشهد على حدوثها، وكأنها لم تكن يوماً من علامات الإعجاز الكبرى.

أما التسخير في القسم الثاني، فهو ذلك التسخير الذي حصل لسليمان عليه السلام بواسطة ثلاثة أفراد من أجناس وأنواع مختلفة، فقد جرى بوجودهم تسخير لم يتمكن إلى هذه اللحظة من أن نعرف ذلك السبب والسر الذي تمكن بسببه الهدد من الذهب والإياب ولأكثر من مرة إلى ذلك المكان البعيد، والعودة بسرعة لا تناسب مقدار البعد بين مملكة سليمان عليه السلام ومملكة سبأ. وكذلك عدم قدرتنا على إيجاد قابلية، كقابلية ذلك العفريت من الجن، وهو يبدي استعداداً لإحضار عرش ملكة سبأ خلال ساعة أو أقل، فضلاً عن عدم قدرتنا للوصول إلى إمكانية ذلك العبد الذي عنده علم من الكتاب، الذي تمكن فعلاً من إحضار العرش قبل إرتداد طرف سليمان عليه السلام.

والحقيقة ان في هذا القسم تحد للإنسان قائم إلى هذه الساعة، ومن غير المعلوم، هل سيأتي اليوم الذي نستطيع أن نتمكن به من الوصول إلى هذا المستوى من الرقي والسرعة في نقل الأشياء وإحضارها دون إحداث أي ضرر مادي أو معنوي فيها، أم لا نستطيع فعل ذلك؟.

وهنا نجد في هذا القسم إنسجام وتناسق، وتلازم ثلاثي، لا نعرف هل أنه حصل على نحو الصدفة أم الإتفاق، ولكنه بالتالي قد حصل وتسبب في إيجاد مستوى إيماني وهدائتي عند ملكة سبأ وقومها، الذين كانوا يعبدون الشمس من دون الله، فقد اشترك أولئك الأفراد الثلاثة في إيجاده، ويقودهم سليمان عليه السلام:

الأول: طائر الهدهد، فلولا رحلته في البحث عن إيجاد مجتمع يعيش حالة العزلة والإبتعاد عن المدّ الرسالي. وبالتالي السعي من أجل إيصال سهم الهداية إليه، ولذلك أسرع وأخبر النبي سليمان عن حالهم، وعليه الوصول إليهم بطريقة ما.

الثاني: ذلك العفريت من الجن، الذي تحرك من واقع مسؤوليته، ليتحمل ذلك الجهد من أجل الذهاب الى مملكة سبأ وإحضار العرش.

الثالث: الإنسان الذي عنده علم من الكتاب، والذي حفّزه قول العفريت بأن يظهر إمكاناته التي كان يخفيها عن الملأ. وما كان له أن يبدي سرّ من أسرارهِ، لولا حبه للإسراع في إيصال وإيقاع كلمة الإيِّان والهداية عند أولئك القوم، والدليل إنه لم يتكلم في البدء لإظهار قدراته في إحضار العرش، وإنما انتظر وصمت، عسى أن يوجد فرد غيره، يحقق طلب سليمان عليه السلام. وعندما رأى أن الذي عرض نفسه لجلب العرش لم يكن ليحقق مستوى قبول سليمان عليه السلام، هنا وفي تلك اللحظة عرض نفسه بالمباشر ليكون هو من يتحمل تلك المسؤولية التي لا تتحمل أن تقبل الفشل أو التأخير.

إذن يظهر من ذلك بأن الأمور التي سخرت لسليمان في القسم الأول، كان لها بعد حضاري أو واقع عسكري، ولكن ليس له علاقة بالهداية والإيِّان، الذي يكون له مدخلية في ترسيخ المفهوم والمصداق الذي يتعلق به الإيِّان والتوحيد. ولذلك فإن مثل هذه الأمور التي تبدو خارقة للعادة وسنن الطبيعة، وكأنها في عزلة وحجاب عن تلك الأسباب المألوفة، سوف يأتي زمن لاحق، إذا ما أحسن فيه الإنسان التصرف والبحث الجاد من أجل نيل العلوم، بمختلف مسمياتها وصورها، سوف يستطيع أن يمتلك ناصيتها، بل ستكون حينئذ لازماً حضارياً

ضرورياً تحتاجه البشرية لسعة مساحة الإحتياج التي تولدت نتيجة سعة الكثافة البشرية وتناميها.

وهذا البعد الحضاري الذي سيصل له الإنسان لا مدخلية له في الإستحقاق الإيماني من عدمه، فهذا شيء وذلك شيء آخر، لأن هذا البعد الحضاري تحتاجه البشرية لديمومة وجودها، وإستمرار عنصر تفاعلها مع الطبيعة بإختلاف آثارها.

وضمن هذا المقياس قد تتمكن شعوب هي بعيدة عن الإيمان بالله، أو تؤمن بالله وهي ظالمة في ذات الوقت، ولكنها مشت ضمن السنن التاريخية وضوابطها الحركية، التي تضمن بقاءها وإستمرار هذا البقاء، مع السير الحثيث لنيل العلوم، واستغلال الطبيعة من أجل الوصول الى أقصى حد للحضارة. وهنا يبقى حسن الإستخدام المدني أو سوءه رهيناً بمدى البعد الأخلاقي والقيمي، الذي استطاع أن يركب ذلك المسار التاريخي ولم يتخلف عنه.

ولذلك إنك تجد كثيراً بل الغالب من الشعوب الإسلامية، قد تخلفت وابتعدت بمسافات طويلة جداً عن الركب الحضاري، بسبب الخروج عن ساحة المعطيات التي من أهمها:

١- عدم الإتكال.

٢- الفكر.

٣- العمل.

٤- المطاولة.

ولذلك ضمن هذه العوامل وكيفية التعامل معها، سيحدد مسار الأمة الحضاري، فأما مساراً فيه كل مفردات البقاء والإستمرار، وأما العزلة والبقاء في حفر التخلف والظلام.

إذن المنظار هنا يشمل، وكما قلنا إحتياج البشرية لهذا البعد، وذلك يأتي من باب رحمة الله تعالى بعباده، فلهم هنا في هذا الأمر نظرة خَلْقِيَّة واحدة، أي بما أن الله تعالى أوجدهم على هذه الأرض، فله أن يسير ويهيء السبل لإستمرار بقاؤهم، أو قل لقد وصلنا الى مرحلة يكون فيها الجانب الحضاري مفردة لا يمكن اغفالها، لإستمرار البشرية بشكل عام من خلال عبور التحديات، سواء ما تطرحه الطبيعة أو الإحتكاك والتصادم البشري الهائل.

أما الأمور التي سخرت لسليمان عليه السلام في القسم الثاني، فإنها من نوع آخر، ونتاجها أيضاً سيكون من نوع آخر، وقد يكون من سنخية أخرى، فهي لا يمكن أن تتحصل بالسعي والمعرفة الكسبية وبقوانينها المادية البحتة، لأنها أمور لا توجد إلا عندما تصل المرحلة الى الإضطراب وارتفاع البدائل، وحلول الإحتياج، ليس لبقاء النوع الإنساني كمفردة من مفردات هذا الوجود الكبير، وإنما لمد الخط الإيماني والتوحيد الخالص بشرايين الحياة، من أجل البقاء والتكامل، والوصول الى العبادة الحققة، ولذلك مثل هذه الأمور لا تتحصل لكل أحد، ولا يمكن الوصول إليها بالتجربة والإختبار، وإنما تعرض ويتم التعامل معها من خلال الأنبياء والمصلحين الكبار، الذين سيحررون البشرية من كل قيود الجهل والظلم والإنحلال.

ولذلك من المؤمل جدا أن يكون لمثل هذا التسخير، بل حتى بوجود أعظم وأكثر من ذلك الذي جرى مع سليمان عليه السلام، نصيب عند ظهور الإمام



المهدي عليه السلام يستخدم من قبل أصحابه الكمّل، ليكون أحد وسائل الجذب للآخر، للدخول في ذلك المد الإيماني العالمي المبعوث بيد محمد صلى الله عليه وآله.

علمًا أن هذين الخطين:

أ- خط الحضارة الذي يأتي عن طريق الكسب والإختيار، وهو مجال واسع، وخطوط بقاءه تستمر، مع الإحتياج البشري لها، ومتى ما استغنت البشرية عنها، تلاشت واختفت، وحلت البدائل محلها.

ب- خط العطاء للخواص، وهو الذي لا يأتي ولا يتحصل عن طريق التجربة والدرس، وإنما هو هبة إلهية لذوي النفوس الصافية، التي اشعلت وجودها من أجل انارة الدرب للآخرين. وهو دائماً خط مصيري، متى ما أخذت الحضارة المادية تؤذي الجانب المدني للإنسانية، مع عدم قدرة الشعوب المستضعفة من الوقوف قبالها، يتحرك هذا الخط، لحسم الأمور لصالح جهة الحق، والتي لم تقصر في مسيرها في وجودها الدنيوي، بالرغم مما تعانيه من غربه، وهي تعيش داخل مسميات اسلامية كاذبة.

ولذلك ستكون هي المؤثرة والفاعلة في تحريك هذا الخط، بالرغم من قلتها وقصور ذات اليد عندها ظاهراً. وهذا الخط هو الذي يعطي للحياة معنى السعادة والواقعية التي لا إضمحلال معها أو فتور.

## هل أوجد سليمان عليه السلام الدولة العادلة؟

قبل الإجابة عن هذا التساؤل علينا بيان ما يلي:

يبدو أن حكم النبي سليمان مختلفاً عن غيره من الأنبياء، وهذا الاختلاف ينبع من عدة أمور:

أولاً: كان كثير من حكم سليمان عليه السلام قد شيد بسبب الجن والرياح التي تجري بأمره، وغيرها من الأمور، وهذا مما لم يتحقق مع أي نبي أو قائد قد مارس الحكم الفعلي في أي بلد من البلدان، وهذا بالتالي يجعل من عصر سليمان عصرًا إستثنائياً خاصاً، بإعتبار المشاركة الظاهرية لمخلوقات أخرى مع بني الإنسان، لأداء أعمال تخص المستوى الإجتماعي والعسكري والحضاري للإنسان نفسه، وليس لتلك المخلوقات.

ثانياً: لم يكن في زمن سليمان عليه السلام، وفي مملكته تحديداً أفراداً مخلصين ومهيأين لتحمل مسؤولية هداية العالم، ومن ثم إيجاد المجتمع العالمي السعيد، الذي يخلو من المشاكل، بالرغم من وجود سليمان نفسه، وطاقة الهداية المنبعثة منه، مضافاً لوجود عناصر القوة الغيبية معه.

إذ بقيت الأمة اليهودية تعاني كثيراً من الأمراض والعقد النفسية التي وقفت عائقاً في طريق الإيمان الصحيح. ولذلك فإنه بمجرد ما أن مات سليمان عليه السلام، تمزقت الأمة اليهودية وانقسمت مملكة سليمان الى قسمين، مملكة (اسرائيل) في الشمال وعاصمتها (شكيم) - نابلس - ومملكة الجنوب وعاصمتها

(أورشليم) - القدس - .

نعم كان وجود آصف بن برخيا - الذي عنده علم من الكتاب - وجوداً كاملاً، إلا ان وجود فرد واحد مثله لا يفي بالغرض، ولن يحقق إنجازاً مجتمعياً كبيراً، ما لم يكن هنالك أفراداً آخرين يساهمون في إيجاد ملامح المجتمع السعيد. ولذلك فإن أقصى ما يمكن أن يقدمه سليمان عليه السلام، وآصف بن برخيا هو أن يساهما في إيجاد لبنة تشترك في بناء الأساس الصحيح والمتين الذي يعلو عليه القادم.

ثالثاً: شعر النبي سليمان بأن حكمه لم يكن له شبيه يشاكلة، فيمن سبقوه في الحكم، وإنما كان حكماً قد إمتاز بهبات ومميزات اختص بها هو وحده دون غيره. وعندما شعر بأهمية ملكه وبخصائصه القوية، أراد أن يظن ويحتفظ بها لنفسه فقط، ولا يريد أن يماثله في الحكم أحد يأتي من بعده. وكما جاء في القرآن الكريم: (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) ص: ٣٥.

ولكن الشيء الغريب، إنه بالرغم من وجود تلك القوى الغيبية والطبيعية، التي وجدت وسخرت لخدمته، والتي كانت عامل قوي وفعال في إحداث التغيير في مملكة سليمان عليه السلام من بناء وإعمار وإزدهار إقتصادي، وكذلك إحداث النصر على اعداء الله، ولكننا نرى عدم وجود ذلك التكامل الإيماني الذي من الممكن أن يؤثر على تلك المجتمعات والممالك المجاورة لهم في تلك الحقبة الزمنية.

وظل حكم سليمان عليه السلام منحصرأً في منطقة ضيقة من العالم، حيث

بقي في منطقة الشام، بل ليس كل الشام، وإنما في مناطق محدودة منه.

رابعاً: بالرغم مما تنقله لنا الآيات القرآنية المباركة من كثرة الأشياء المسخرة لسليمان من القوى الغيبية والطبيعية، والتي تبدو للوهلة الأولى بأنها قادرة على أن تجعل كل العالم الموجود في ذلك الحين بين يدي النبي سليمان، ولكن الحقيقة قد استقرت ورسيت على خلاف ذلك. حيث بقي ملك سليمان عليه السلام ضيقاً ومنحصرأ في تلك المنطقة.

بل لم يكن له حتى بالأقوام التي تبعد عنه مئات الأميال. ولذلك فهو سلام الله عليه كان ملتفتاً الى أن حكمه وملكه منحصرأ في تلك المنطقة، ولم يكن مكلفاً بالبلدان الأخرى، حتى جاء الهدهد وأخبره عن مملكة سبأ.

وهنا يبدو بأن النبي سليمان عليه السلام كان شاعراً بأنه غير مسؤول عما لا يعلم، أو أنه غير ملزم بالبحث عما وراء مملكته، ولذلك هو ركز في حكمه على تقويته وضبط حدود مملكته. وكان أمر اخباره من قبل الهدهد عن مملكة سبأ ومسألة عبادتهم للشمس من دون الله، وأمر إصراره على أن يأتوه مسلمين، كان هذا العمل مفاجئاً، وقد قام به سليمان عليه السلام ليثبت من خلاله بأن هناك إمكانية أن تحل الهداية عند قوم هم بعيدين عن تواجد النبي أو المصلح، ولا يرونه، ولم يسمعوا كلامه من قبل، ولكن بمجرد أن يصل إليهم سهم الهداية تجدهم يسارعون بالإيمان به والذوبان بما يريد مناهم.

بينما من يعيش بينهم النبي أو المصلح، ويكون قريباً منهم يرونه ويسمعون كلامه، ويعرفونه صادقاً تقياً عن يقين، تجدهم غالباً معاندين، وأشد عداوة وبغضاء وعناد له، وحتى وإن دخلوا في دينه، سوف يدخل كثير منهم مكرهين

غير راغبين. ولذلك نجد أن هناك أهدافاً إلهية تتأخر، وتبتعد عنا ثمراتها، بسبب هذا الأمر.

وهذا الشيء الذي حدث مع ملكة سبأ وإيمانها بسليمان عليه السلام هو في الواقع كان توبيخاً لبني إسرائيل، وبيان أن أمر الإيماني والدعوة الى شريعة موسى عليه السلام غير منحصرة ومقيدة ببني إسرائيل، وإنما هي بكل الأحوال دعوة إيمانية مفتوحة، لكل من وصلته وقرعة سمعه، وإن كان في أقصى الأرض، ومن قوم لا يمتون لبني إسرائيل بصلة. وهذا خير دليل على بطلان دعواهم بأن شريعة موسى عليه السلام منحصرة ببني إسرائيل فقط!.

والآن لنأتي ونذكر الأسباب المانعة من إقامة سليمان عليه السلام لدولة العدل العالمية:

### السبب الأول:

إن الدولة العالمية العادلة الكبرى لا يمكن أن تفرض فرضاً جبرياً وبشكل قسري على المجتمع البشري، وكأنه مجتمعاً آلياً لا يتحرك من تلقاء نفسه، إلا بوجود طاقة توجهه وتحدد بعده الحركي، فهذا في الحقيقة وهم، فالإنسان إن لم يكن له استعداد ذاتي يحركه نحو طلب العدالة والمساواة والسعادة المنشودة ضمن ضوابط يحددها العطاء السماوي الممنوح بيد الأنبياء والمرسلين، ليكون لهم مبعوثاً من قبل الله تعالى لينتشلهم من عبث النفس، وتيهان الفكر بدهاليز العقل، وهم يبحثون دون جدوى عن حلول ذاتية تنقذهم مما هم فيه من تضاد وتصادم.

فمجتمع مثل المجتمع اليهودي لم يكن أفراده على مستوى عال من الإيمان،

بل على العكس نجدهم كثيراً ما تنمّروا، وتجراًوا بالإقدام على قتل الأنبياء، كلما نصحوهم وطلبوا منهم الإبتعاد عن الذنوب والمعاصي. والتاريخ شاهد على أفعالهم وخبث سرائرهم، فبمجرد أن عبروا البحر ورأوا بأم أعينهم كيفية إنفلاقه، وكيفية نجاتهم من فرعون وجنده، وما زالت أقدامهم لم تجف من الماء، طلبوا فوراً أن يكون لهم عجلاً له خوار يعبدونه، وكما قال تعالى: (وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) البقرة: ٩٢. ثم طلبهم بأن يروا الله جهرة (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْتُمُ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ) سورة البقرة: ٥٥. ثم بعد أن أكلوا المن والسلوى وطيبات الرزق وتظليل الغمام عليهم، قالوا لموسى عليه السلام لن نصبر على هذا الطعام، حيث قال تعالى: (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) سورة البقرة: ٥٧. (...وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبِدُّونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمُسْكِنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ... ) سورة البقرة: ٦١.

ثم تجراًوا على قتل الأنبياء بغير حق (وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) سورة البقرة: ٦١. حتى جاء في كتب التفسير: يقتلون الأنبياء كزكريا ويحيى وغيرهما<sup>(١)</sup>.

ثم اعتداؤهم يوم السبت ومخالفة ما أمروا به (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) سورة البقرة: ٦٥.

(١) تفسير مجمع البيان، مصدر سابق: ج ١، ص ١٥٨.

وقولهم على الله بأن يده مغلوله: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ  
وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا...) المائدة: ٦٤. الى غيرها من الموبقات والمعاصي التي اقترفوها  
بحيث لا يوجد معيار للتكامل الإيماني عندهم، ولذلك قال تعالى عنهم: (وَأَلْقَيْنَا  
بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ  
وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) المائدة: ٦٤. وهكذا استمروا  
في طغيانهم وعتوهم وإنقلابهم على انبيائهم، وعدم تخرجهم من الكذب عليهم  
ونسب ما لا يجوز عليهم من الذنوب الكبيرة، بل حتى رميهم بالزنا والعياذ بالله.

فمثل هكذا أمة وهكذا مجتمع لا يمكن أن يكون مؤهلاً لنشر العدل والهداية  
الإلهية في ربوع العالم أو على أقل تقدير في المناطق المحيطة بهم، فضلاً فيما بينهم،  
فالإقتتال والتنازع، فيما بين الأسباط قائم على قدم وساق، وخير مثال على ذلك  
ما أن مات سليمان عليه السلام حتى انقسمت مملكته وانشقت على نفسها، نتيجة  
الصراعات بين قبائلها على السلطة، بحيث لم يكن للبعد الإيماني الذي سعى إليه  
داود وسليمان عليهما السلام أي تأثير عليهم، فأنقسمت المملكة الى مملكتين  
هزيلتين هما إسرائيل في الجنوب ويهوذا في الشمال.

وفي هذا الصدد يقول العالم هـ.ج. ويلز: وما أن قويت شوكة مصر ثانية  
وأصبح تاريخ ملوك إسرائيل وملوك يهوذا، تاريخ ولايتين صغيرتين بين شقي  
الرحى تعركهما على التوالي سوريا ثم بابل من الشمال ومصر من الجنوب. وهي  
قصة نكبات وتحركات لا تعود عليهم إلا بإرجاء نزول النكبة القاضية، هي قصة  
ملوك همج يحكمون شعباً من الهمج، حتى إذا وافت سنة 721 ق.م تحت يد  
الأسر الآشوري مملكة إسرائيل من الوجود، وزال شعبها من التاريخ زوالاً تاماً،

وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى حلّ بها في 604 ق.م ما حلّ بإسرائيل (...)<sup>(١)</sup>.

ولذلك هم إحتاجوا الى مرحلة من مراحل الضبط الآني والخاص بهم في فترة وجود سليمان عليه السلام، ولم يكن لأغراض التوسع الإيماني العالمي وبسط العدالة في دوله ومجتمعاته.

يقول صاحب كتاب التاريخ اليهودي العام: فأخذ سليمان عليه السلام على عاتقه محاولات التطهير الديني التي رفضت تماماً من كل قلوب بني إسرائيل ومشاعرهم منذ دعوة موسى إليهم ليعبدوا الإله الواحد ويقيموا قضية العدل الإجتماعي بينهم<sup>(٢)</sup>.

أما المعجزات التي رافقت النبي سليمان فقد خصّ الله كلّ نبي بمعجزات تؤيده وتسهل دعوته لدين الله الواحد، وبالرغم من وجود هذه المعجزات بين يدي سليمان إلا أن التوراة لم تورد شيئاً منها، لأنها لا تعترف به نبياً مرسلًا، وإنما تعترف به كملك<sup>(٣)</sup>.

فإذا كان الأمر كذلك، فربما يكون ما رافق النبي سليمان من تسخير ومعاجز هو في خدمة الدعوة الى الله تعالى، والعودة الى أصل شريعة موسى عليه السلام لبني إسرائيل، وليس من قبيل إظهار قوّة وعظمة ملك سليمان، والسيطرة على دول وممالك المنطقة.

(١) موجز تاريخ العالم: ه.ج. ويلز، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، نشر اقلام عربية، القاهرة، ط ١، ٢٠١٧: ص ١٠٢.

(٢) التاريخ اليهودي العام، مصدر سابق: ج ١، ص ٢٣٤.

(٣) سليمان صرخة النبوة في وجه الخرافة التوراتية، مصدر سابق: ص ٢١ بتصرف.



من كل هذا يستنتج بأن المجتمع اليهودي لم يكن يمتلك قابلية النهوض بذاته، وقبول الهداية الكاملة التي تؤهله لقيادة العالم، بل على العكس نلاحظ من قرائتنا للتاريخ أن اليهود كانوا غير مرغوب بهم من قبل الأقوام والبلدان المجاورة، بل كانوا يشكلون دائماً مصدر قلق لديهم، لأنهم كانوا دائماً ما يمثلون الفتن والتخريب والأطماع. ولذلك إكتفى سليمان عليه السلام بأن يضغط عليهم من أجل أن يعيدهم الى طاعة الربّ والإبتعاد عن المعاصي، ومن ثم العمل على إقامة علاقات حسن جوار مع الأقوام والممالك المجاورة التي ظلت طوال السنين التي سبقت سليمان عليه السلام في عدم الإرتياح منهم، خصوصاً إذا ما عرفنا بأن اليهود قد أخذوا تلك الأراضي عنوة من الكنعانيين واليبوسيين.

وهنا قد يعرض تساؤل وهو، إنه لماذا أرسل سليمان عليه السلام بكتابه الى ملكة سبأ وطلب منها ومن قومها أن يأتوه مسلمين، وإلا ليأتينهم بجنود لا قبل لهم بها؟

وجواب ذلك يكون كالآتي:

١- إن ملكة سبأ كانت بعيدة عن مملكة سليمان عليه السلام ولم تكن قد سمعت بها، وكذلك لم تكن تعرف الإمكانيات العالية عند سليمان وما سخره الله تعالى له من الجن والطير وإلانة الحديد وجريان الريح بأمره.

٢- إن ملكة سبأ لم تكن قد عرفت اليهود وطبائعهم وإنحرافاتهم، وإقدامهم على قتل الأنبياء. ولذلك هي لم تكن تعرف ان سليمان عليه السلام قد جاء أصلاً لضبط بني اسرائيل، وإرجاعهم الى شريعة موسى والحفاظ على القدر المجزي من الإيمان بين اليهود. ولم تكن هي بالأصل داخلة في برنامجه الهدائي.

والدليل على ذلك، إنه عليه السلام لم يكن ليعلم بها وبمملكتها لولا ذلك الهدهد.

٣- ان سليمان عليه السلام لم يكن مكلفاً بنشر شريعة موسى عليه السلام في الأرض، وإلا لسعى هو بنفسه، ولساح في الأرض شرقاً وغرباً، وذلك لأن وضع اليهود لا يسمح بهذا الشيء، لوجود عدّة عوامل تمنع من ذلك. ولكنه ما أن علم بوجود مملكة سبأ في اليمن، وأن قومها يسجدون للشمس من دون الله، مع امتلاكه للقدره على أن يجعلهم مؤمنين بالله الواحد الأحد، أرسل لهم بكتابه يدعوهم للإيمان.

علماً إنه لم يكن ملزماً مع تلك المملكة بأية عهود ومواثيق تجعله لا يتدخل بأمرها، وهذا خلاف الدول والممالك التي كانت محيطة بمملكته، فإنه كان مرتبطاً معها بمعاهدات، بأن لا يتدخلون بمملكته ولا يتدخل بهم، وذلك لوجود عدّة مصالح تجبره على فعل هذا الأمر، وكما بيّناها في الصفحات السابقة.

٤- وهذا ما يعبر عنه في الفلسفة والمنطق، وهو وجود المقتضي والقابل مع إرتفاع المانع، فوجود المقتضي للهداية كان موجوداً عند سليمان عليه السلام، وما إمتلكه من قوة الحجّة، زائداً هبة الله تعالى إليه بتسخير الأشياء له، لتعمل له ما يشاء. والقابل للهداية كان موجوداً لدى ملكة سبأ، كونها كانت تحمل عقلاً راجحاً تميز به الحق والباطل، والوهم من الحقيقة متى ما عرضت لها، بإعتبار سلامة فطرتها، وعدم تلوثها بالذنوب الحاجبة. مضافاً الى أن المانع كان مرفوعاً عن الطرفين، بحيث إلتقيا فتج عن لقائهما ذلك الإقرار الصافي بالله تعالى، فمجرد أن رأت حكمة سليمان عليه السلام وسعة ملكه والقدره الإلهية

التي جرت على يدي جندي من جنود سليمان قالت وكما نخبرنا القرآن الكريم: (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) سورة النمل: ٤٤.

وهذا الإستعداد الإيماني لم يكن موجوداً عند الأقوام والممالك التي كانت بجوار مملكة سليمان، لكي تتمكن من أن تسلم مع سليمان عليه السلام لرب العالمين لوجود الموانع في ذلك، المتمثلة بخبث نية اليهود وعدم إيمانهم الكامل بسليمان، بالرغم من انه نبههم ومرسل إليهم، بحيث أن هذا الخبث اليهودي، ولد عدم ثقة عند الأقوام والممالك المجاورة لهم، حتى أصبحوا يسيئون الظن بسليمان نفسه، إذا دعاهم لعبادة الله الواحد. وذلك لأن عدم إطمئنانهم لليهود قد جرهم بالتالي الى عدم الثقة والإطمئنان بالنبي سليمان عليه السلام، بالرغم من أنهم كانوا معجبين بحكمته وعدالته.

وهذا الأمر يثير عندنا أمر مهم يتعلق بخروج الإمام المهدي عليه السلام وكيف سيتأثر به الغرب، وذلك لوجود ثلاثة من نقاط القوة وهي:

الأولى: قوة الحجّة التي يمتلكها الإمام المهدي، بحيث ستكون عنده في تلك المرحلة من أعلى المستويات من حيث البيان، وعمق الدلالة.

الثانية: ما يروونه من قوة وعظمة الأشياء المسخرة له، وما سيقدمه من علوم تفوق كثيراً ما سخر وأوتي لسليمان من قوة وعلم. مضافاً الى علوم الحاضر وتقنياته. وهذا ما تشير إليه كثير من الأحاديث والروايات.

الثالثة: ان الإمام سوف يزيل الموانع والحجب التي تمنع من إيصال صوته الى العالم، وخصوصاً الغرب منه، وهذه الموانع غالباً ما تجتمع في البلدة التي يخرج

منها، وبالدول المجاورة لتلك البلدة، لأنهم لن يؤمنوا به عند خروجه المبارك، وسيقولون له إرجع من حيث أتيت فالإسلام بخير ولا حاجة لنا بك، وأنت واهم ولا تمثل الإسلام، ففي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: (... إذا قام القائم عليه السلام سار الى الكوفة، فيخرج منها بضعة عشر ألفاً يدعون البتريه عليهم السلاح، فيقولون له: إرجع من حيث جئت فلا حاجة لنا في بني فاطمة، فيضع فيهم السيف حتى يأتي على آخرهم (...).<sup>(١)</sup>

وهنا تذكّر حال اليهود في مملكة سليمان عليه السلام، وعدم ثقة الأقوام المجاورة بهم، مما جعلهم يتعدون عن سليمان. وفي هذا الوضع فإن الإمام المهدي سوف يحاربهم وستقع فيهم مقتلة عظيمة، ولن يكون مع الإمام في تلك المرحلة من الظهور إلا المخلصين من جيشه والذين يمثلون خلاصة ما تجود به منطقة الظهور المبارك.

وحينها سيكون حال الغرب، وإيمانهم بالإمام المهدي عليه السلام بالرغم من بعدهم عنه، كحال ملكة سبأ وإيمانهم بسليمان بالرغم من بعدها عنه. فتمعن بهذا المطلب جيداً وستصل الى نتائج هامة.

### السبب الثاني:

لم يوجد عند بني إسرائيل أي بعد حضاري، يمكن أن تتقدم وتعلو بواسطته الأمة اليهودية، لتواكب مسير الأمم الموجودة بجوارها. وفي ذلك يقول العالم ويلز:

(١) المعجم الموضوعي لأحاديث الإمام المهدي: علي الكوراني العاملي، نشر دار المرتضى، بيروت، ط ١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م: ص ٥٥٥.

يبدو أن اليهود لم يكونوا قبل ذلك الأوان شعباً متحضراً ولا متحداً، وربما لم يكن فيهم إلا قلة ضئيلة تستطيع القراءة والكتابة. غير أن تاريخهم نفسه لا يذكر البتة أن الأسفار القديمة من التوراة كانت تقرأ، ولم تذكر الكتب الأولى مرة إلا في عهد يوشع، ولكن الأسر البابلي مدّهم ووحدهم فعادوا الى بلادهم شديدي اليقظة الى أديهم<sup>(١)</sup>.

ويقول ظفر الإسلام خان في كتابه تاريخ فلسطين القديم: ان داود لم يصل الى رأس مملكته مرفوعاً على السواعد الإسرائيلية، بل رفعته سواعد أجداد عرب فلسطين المعاصرين ... ثم يستشهد بقول البروفسور (روبنسون) عن جيش داود: (إن مما يدعو الى الإهتمام أن نلاحظ أن القوة الأساسية لهذا الجيش الدائم كانت تستمد من مصادر أجنبية، لأن الشريطين والبليطين كانوا فلسطينيين (فلسطينيين) على وجه اليقين، ولم يكونوا يشكلون عماد قوة داود الشخصية فحسب، بل إن وجودهم في صفوف جيش داود قد ذهب الى مدى تنصبيه على العرش. لقد كانوا بالنسبة لداود كما كان الحرس البريتوري بالنسبة الى أباطرة الرومان). ثم يعلق المؤرخ الإنجليزي جفريز قائلاً عن هذه الحقيقة إنه بهذا ((قد أسهم العرب بالنصيب الأكبر في إعطاء العرش لسليمان الذي يمثل أوج العصر السياسي لإسرائيل))<sup>(٢)</sup>.

ثم ينقل في مكان آخر قول محرر دائرة المعارف البريطانية عن حضارة الإسرائيليين:

(١) موجز تاريخ العالم، مصدر سابق: ص ١٠٠.

(٢) تاريخ فلسطين القديم، مصدر سابق: ص ٤٤، نقلاً عن: جفريز في كتابه (فلسطين إليكم الحقيقة)، ص ٤١.

(إن الإسرائيليين حسب روايتهم الذاتية نفسها، خربوا أكثر بكثير، وأضافوا حتى أقل من ذلك الى الثقافة المادية للبلاد...) ثم يضيف: (إن الحفريات التي عثروا عليها من آثار العصر اليهودي تدل على أنهم كانوا بدائيين جداً وبسطاء.. إن إتكال داود وسليمان على (حيرام Hiram) ملك صور، وعلى النجارين والبنائين والحدادين (السوريين) يوضح أن فلسطين كانت لا تزال جارة فقيرة لسورية<sup>(١)</sup>).

ولم يوجد لدى العبريين شيء من الفنون الرفيعة، وما وقع من مخالفة اليهود للوصية الثانية غير مرّة لم يؤد الى غير العجول النحاسية أو الذهبية التي هي أصنام اليهود المفضلة المصبوبة صباً رديئاً على أوتاد غليظة عدت رموزاً للرجولة، والمنصوبة تحت غياض عشروت، تلك الأصنام القومية، أو الترافيم، التي هي ضرب اللعب المثيرة للسخرية... إذن لا ينبغي لنا أن نحدّث عن وجود شيء من فن النحت أو التصوير لدى بني إسرائيل وقل مثل هذا عن فن البناء عندهم، فأنظر الى هيكلهم المشهور (هيكل سليمان)، الذي نشر حوله كثير من الأبحاث المملّة، تجده بناءً أقيم على الطراز الآشوري المصري من قبل بنائين من الأجانب كما تدل عليه التوراة<sup>(٢)</sup>.

وحتى الحرب التي مارسها بنو إسرائيل باستمرار... رغم ذلك لم تصبح الحرب فناً ولا علماً عندهم، فكانت تعوزهم التعبئة، وما كان ليكتب لهم فوز إلا بضرب من الصولة المشابهة لغارة البدويين المعاصرين. وبنو إسرائيل إذ كانوا

(١) المصدر نفسه: ص ١٠٦ نقلاً عن دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٦٠.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٠٧ نقلاً عن اليهود في الحضارات الأولى لفوستاف لوبون،

جنباء خوفاً بطبيعتهم لم يبدو مرهوبين إلا بما كان يحاول إلقاءه زعمائهم وأنبيائهم فيهم من حماسة مؤقتة ... جاء في سفر الملوك: (فسمع شاول وجميع إسرائيل كلام الفلسطينيين (جُلِيَّات) هذا فأرتاعوا وخافوا جداً .. ولما سار جدعون الى المدينين خاطب جنوده بقوله: (من كان خائفاً مرتعداً فليرجع وينصرف) فتركه من هؤلاء إثنان وعشرون ألفاً من إثنين وثلاثين ألفاً ليعودوا الى منازلهم<sup>(١)</sup>.

ولم يكن لليهود القدماء من نشاط تجاري على غرار عديد من الشعوب القديمة، ولعل السبب يرجع الى أنهم لم يكونوا محبوبين من جيرانهم، (ولم يجلب بنو إسرائيل في البحر كما كان يجول جيرانهم الفينيقيون، وذلك لأنهم لم يكادوا يكونوا سادة للساحل)<sup>(٢)</sup>.

ولا كان لدى اليهود من صناعة تذكر، (.. كان بنو إسرائيل عاطلين، حتى في إبان أبهتهم، عطلاً تاماً من العمال المهرة في الحرف الغليظة كالنجارة مثلاً<sup>(٣)</sup>. ودليل ذلك ما جاء في التوراة من إستعانة سليمان بالعمال المهرة من الفينيقيين والسوريين، (وبنو إسرائيل ظلوا قوماً من الزراعة والرعاة فقط، فانحصر عملهم في تربية المواشي وزراعة القمح والتين والزيتون والعنب على الدوام ... ولم تكن في فلسطين أية صناعة مهما كان نوعها، وإذا حدث أن صنع اليهود شيئاً فعلى ألا يستحق الإصدار (التصدير) وفي عهد سليمان حينما لاح الترف، كان هذا الترف

(١) تاريخ فلسطين القديم، مصدر سابق، ص ١٠٧ نقلاً عن اليهود في الحضارات الأولى لغوستاف لوبون، ص ٤٦.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٠٨ نقلاً عن اليهود في الحضارات الأولى، ص ٢٦.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٠٨ نقلاً عن اليهود في الحضارات الأولى ص ٤٥.

يغذى بالمنتجات التي يؤتى بها من الخارج<sup>(١)</sup>.

هذا ولكونهم لا يملكون علاقات طيبة مع تلك الممالك والدول المجاورة حرموا ومنعوا من التبادل العلمي والحضاري معهم. ولذلك كان أمر التسخير الذي حصل لسليمان عليه السلام، أمراً إضطرارياً، في فترة كانت الأمة الإسرائيلية بأمس الحاجة إليه لتثبيت أركان رسالة موسى عليه السلام بينهم، وعدم ضياعها بالمرّة.

وبما أن هذه الأمة تربّت ونشأت على كل ما هو معجز وخارج عن نوااميس الطبيعة، بحيث أن تلك المعجزات هي التي أعانتهم في الإستمرار والثبات الجزئي والمرحلي في أعلى التقادير، ولولا ذلك للبثوا في العذاب المهين، ولما تمكنوا من الإستمرار مع موسى عليه السلام وإتباع شريعته، بالرغم من أنهم لم يتعظوا بذلك، واستمروا بطغيانهم وابتعادهم عن شريعة موسى عليه السلام شيئاً فشيئاً.

فهؤلاء اليهود لم يكونوا قد اعتمدوا يوماً على قدراتهم الذاتية للتكيف مع هذا الدين السماوي، ظناً منهم بأنهم شعب الله المختار، ولذلك أعطاهم تلك المعجزات. فكان سليمان عليه السلام بأمس الحاجة الى ذلك التسخير، لكي يسيطر على التمرد والتهديدات التي كانت تحدث داخل مملكة داود عليه السلام، والتي كانت من الممكن أن تنتقل الى مملكته.

هذا الأمر الذي تذكره التوراة تفصيلاً، مضافاً الى تهديدات الفراعنة في الجنوب والدولة الآشورية من الشمال، التي لا زالت مستمرة لأهمية المنطقة،

(١) المصدر نفسه: ص ١٠٩ نقلاً عن اليهود في الحضارات الأولى، ص ٤٤.



بالرغم من أن الباحثين يرون بأن العوامل التي ساعدت على توطيد ملك داود وتهيئة الظروف الملائمة لبعض الإتساع هي: (أن أمور مصر في عهده كانت مرتبة فخفت هيمنتها على فلسطين وبلاد الشام، وكانت أمور الدولة الآشورية مرتبة كذلك، وقد منح هذا لداود شيئاً من الحرية والنشاط والتبسط وممارسة السيادة)<sup>(١)</sup>.

هذا مضافاً الى ابتعادهم عن شريعة موسى عليه السلام وإنغماسهم بالمعاصي، (فإن سليمان قد إلتمز بأن يحاول هدم تناقضات المجتمع الإسرائيلي، وأن ينادي هذا المجتمع الى الربّ الإله، بمنهج غير مشوب بالسلوك الوثني الذي لم يسلم فيه كل الذين تحدث عنهم التوراة. فمثلاً نلمح من الإصحاح الثامن من سفر الملوك الأول: أن سليمان أوقف جماعة إسرائيل أمامه وبسط يديه الى السماء وقال: (... أيها الربّ إله إسرائيل ليس إله مثلك في السماء من فوق، ولا على الأرض من أسفل حافظ العهد والرحمة لعبيدك السائرين أمامك بكل قلوبهم ...) )<sup>(٢)</sup>.

وهذا ينتج لنا بأن الأمة اليهودية كانت خاوية وفارغة من ناحيتين هما:

الأولى: البعد الحضاري.

الثانية: البعد الإيماني العالي والمتنامي.

أما البعد الأول، فقد حاول سليمان عليه السلام أن يعوض بني إسرائيل

(١) مفصل العرب واليهود في التاريخ، مصدر سابق: ص ٥٦٧. نقلاً عن مقارنة الأديان للدكتور شبلي، ص ٥٧.

(٢) التاريخ اليهودي في العام، مصدر سابق: ج ١، ص ٢٣٤.

بواسطة ذلك التسخير الذي هياه الله تعالى له، واضطر للإنتقال بهم من مرحلة الجهل والحرمان الحضاري أن يستخدم المعجزات في ذلك. ولأن في تلك المرحلة لا يمكن إيجاد أي بديل عوضاً عن الذي جرى لسليمان عليه السلام. ولو كان بني إسرائيل على قدر المسؤولية من تحمل ثقل الرسالة السماوية لما احتاج سليمان أن ينتقل الى هذا التسخير الإلهي.

ولذلك بمجرد أن توفي سليمان عليه السلام حرمت الأمة اليهودية من ذلك التسخير، لأنهم لم يكونوا مهرة في الإستفادة منه وإكتساب المهارات من تلك الحوادث والخوارق. وكذلك دخل هذا الشعب دور الإنقسامات والفوضى، ولم يستطع الحفاظ على تلك الوحدة التي حققها لهم سليمان عليه السلام. ودليل ذلك الى أن حضارة مملكة سليمان لم يبق منها أي أثر يدل عليها ويشير الى عظم شأنها.

فهناك العديد من الدراسات الغربية التي تناولت سيرة النبي سليمان من خلال نصوص التوراة ومملكه ودولته، وقد أجمعت كافة هذه الدراسات بما فيها دراسة المؤرخين اليهود الجدد أن نصوص التوراة التي تحدثت عن سليمان ومملكه هي نصوص كاذبة اعتمدت على خيال اسطوري وليس على واقع وحقيقة، ولعل أهم ما قيل في ذلك:

(لا يوجد لسليمان أو داود أي ذكر في أي نص تاريخي واحد مصري أو ما بين النهرين، كما أن الدليل الأثاري على مشاريع البناء المشهورة لسليمان في القدس مفقود تماماً، لقد أخفقت كل التنقيبات الأثرية التي أجريت في القرن ١٩، والقرن ٢٠ حول جبل الهيكل في القدس في التعرف حتى على مجرد

أثر بسيط لهيكل سليمان الأسطوري أو مجمع قصره<sup>(١)</sup>.

وأما البعد الإيماني العالي المتنامي، هذا مما لا يمكن أن يعوّض بأي شيء آخر خارجي. وما كان على النبي سليمان إلا أن يجد لهم ما أبلوه وما حرّفوه من شريعة موسى عليه السلام، وأن يعيدهم الى أيام الله، ويبقى الفرد هو نفسه يتقبل هذا الأمر ويتفاعل معه، بحيث تظهر آثار الإيمان وعبادة الإله الواحد في حركاته وسكناته وفي أقواله وتأملاته، ومن ثم لتثمر بالنتيجة توجه لهداية الآخرين وجذبهم الى التوحيد الخالص. ولكنهم في الحقيقة في هذا الجانب فشلوا أيضاً، ولم يستطيعوا أن يحافظوا على الإيمان داخل نفوسهم، فكيف بالتالي يستطيعون دعوة الآخرين إليه وجعلهم ينصهرون في دولة الإيمان الكبرى بقيادة سليمان عليه السلام؟!.

إذن هذا الفراغ في البعد الحضاري والبعد الإيماني لا يمكن أن يحقق أي إصلاح خارجي لأنه سينشغل بنفسه، وفاقد الشيء لا يعطيه، فكيف نأمل منه أن يمد العالم بإيمانه ومن ثم إرساء حكم العدالة المطلق بين افراد البشرية وإن كانت لم تصل بعد الى ما وصلت إليه الآن.

### السبب الثالث:

إن تحقيق الدولة العالمية الكبرى التي تنعم بالعدالة والمساواة والسعادة البشرية الكاملة، لا يمكن أن تتحقق في ذلك الزمن الذي عاش فيه النبي سليمان، وذلك لأن البشرية لم تكن بعد مهياًة ومستعدة للقيام بهذا الدور العالي، ولا زالت مقدمات هذا التحول والإستعداد في دور البداية، وتحتاج الى زمن

(١) سليمان صرخة النبوة في وجه الخرافة التوراتية، مصدر سابق، ص ٣٧.

طويل تتخلله أحداث وبلاءات وتجارب إيمانية كثيرة يتلو بعضها بعضاً، ومن ثم يمكن الوصول الى الإرهاصات الأخيرة لعملية قيادة العالم نحو سعادته المأمولة.

وهناك أمر في غاية الأهمية، وهو أن الله تعالى قال في كتابه الكريم: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...) سورة البقرة: ٣٠. وهذا القول لا يمكن أن يكون إنشائياً، وإنما هو إخبار عن أمر واقعي سيحدث على هذه الأرض. وهذه الخلافة هي التي يقام بسببها العدل الكامل، وتعم السعادة العالم، بعد أن تتخلص كل البشرية من آلامها وهمومها، التي أوجدتها المظالم والآثام. والتي كانت سبباً رئيسياً لإعتراض الملائكة أو تعجبهم من الإرادة الإلهية، بأن تكون الخلافة للإنسان الكامل في هذه الدنيا ولذلك قالوا: (أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) سورة البقرة: ٣٠، هذا الإعتراض الذي نشأ عن علمهم بالمقدمات التي خلق منها آدم، وعدم إطلاعهم على السباب فيما لو تحققت، ستكون النتائج قد هيأت لنا إنساناً ملائكياً في تصرفاته وطبعه، بالرغم من كونه يعيش تجربة الإختبار والإختيار.

وهذا مما لم تألفه الملائكة التي سلبت تجربة إيجاد هكذا بعداً نفسياً وروحياً تشترك فيه الإنسانية جمعاء. كونها رائدة في الطاعة المطلقة لله تعالى، والتي تؤدي بالتالي الى عدم وجود أية معصية فيما بينهم، لأنهم قد خلقوا من نور، لا وجود للشهوات النفسية فيه لتتحكم بهم كيفما تشاء.

هذا الأمر الظاهري الذي جعل الملائكة في غفلة عمّا سوف يفرزه من نتائج تكون هي الغاية المقصودة من إيجاد الإنسان. بإعتبار أن العيش تحت الظلم والطغيان، ومقاومة هذا البعد، بما لا يلام من خلاله الفرد بالتقصير، سوف

يصقل الإنسان ويهذبه للوصول الى مرتبة الإخلاص في السعي لنشر الهداية في ربوع الأرض.

ولذلك نحتاج للوصول الى هذا اليوم الى تجارب مكثفة، تمر بها الأجيال البشرية ومن ثم يولد هذا التوارث في التجربة، والفهم المعمق لها - باعتبار معاشة التطبيق وإن كان نفسياً - بعداً معنوياً هائلاً لإيجاد المستوى الإيماني العالي، الذي يستطيع اجتياز أية مرحلة من مراحل المواجهة التي يفرزها الظلم المتصاعد في هذه الدنيا.

فهذا الأمر لم يكن قد وصل إليه خط البشرية الموجود في زمن سليمان عليه السلام، ولذلك فهو غير مؤهل لإحداث مثل هذا التغيير العالمي، لسببين:

الأول: عدم إكتمال التجارب والاختبارات التي تحتاجها البشرية للتكامل. لأنها ما تزال في مراحلها الأولى من التربية. ولا زالت تحتاج الى مستويات عالية من الاختبارات لكي تتحقق النتائج المرجوة.

الثاني: عدم إمتلاء الأرض بالظلم، إذ لا زال الظلم قائماً في مناطق محدودة من هذه الأرض، ولا زالت في ذلك الزمن أراضي واسعة لم يصلها الظلم بعد، لعدم وجود البشر عليها لقلّة اعدادها، هذا فضلاً لم يظهر بعد الفساد في البحر الذي يهدد البشرية في الفناء والدمار، كما هو حاصل الآن في البحار والمحيطات وتحكم القوى الكبرى فيها. ونحن نعلم بأن العدل والمساواة لن يتحقق إلا بعد أن تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً.

## السبب الرابع:

هنا في هذا السبب علينا أن نقف ونتدبر الى أمر مهم آخر، وهو أن قوى الطبيعة إذا سخرت للإنسان، يضاف إليها تسخير القوى الغيبية المتنوعة، فإنها لن تكون كافية، ولا تستطيع أن تحقق النصر الذي تتطلع إليه البشرية، بالرغم من أن قدرة تلك القوائين تفعل الأعاجيب.

وذلك بإعتبار أن النصر الذي يحقق العدالة والمساواة، سيبقى منوطاً ورهيناً بالإنسان نفسه، ومدى قدرته على تحريك طاقاته، التي تبين استعداده القلبي والنفسي والعقلي والروحي للولوج في عالم المعرفة والتكامل، ليؤهل بالتالي الى تحقيق وإنجاز ما خلق من أجله. ولن تتمكن أية قوى أخرى خارجية، مهما كانت قدراتها، أن تحقق هذا الأمر، لتكون يوماً ما بديلاً عن الإنسان.

وذلك لأن الله تعالى قد أودع الإنسان، قدرات وطاقات لو استخدمها استخداماً صحيحاً، لصعد بها الى مراتب ومراتب، ولكنه أخلد الى الأرض، ورضي بواقعه المرير، ولم يحرك ساكناً للتغيير.

والنتيجة فإن الله تعالى قد بعث الأنبياء ليحركوا في الإنسان تلك القوى والطاقات، وليخرجوها بالتالي من القوة الى الفعل. وهذه الطاقات والقوى الروحية هي الكفيلة بتحقيق سعادة الإنسان، لا غير.

ونحن لا نقول بعدم الإحتياج الى تسخير قوى الطبيعة أو القوى الغيبية في تحقيق دولة العدل العالمي، فهذا الأمر غير وارد وغير ممكن. وذلك لوجود علاقة وطيدة بين قوى الإنسان وطاقاته وبين تلك القوتين، وهذه العلاقة لا يمكن لها أن تنفك، نعم يمكن أن تضعف وتقل، ويمكن أن تقوى وتكبر، بحسب إرادة

الفرد وسعيه، ولكنها لن تزول. ولذلك سيكون أمر تسخير القوى الطبيعية والغيبية عاملاً مساعداً على النصر، ولكنه ليس علته الرئيسية.

وفي ذلك إلتفاتة الى مدى قوّة الإنسان وطاقاته الهائلة، التي وهبها له الله تعالى، لتكون له القدرة على تغيير الواقع الفاسد، مهما كان كبيراً، وإبداله الى واقع الخير والسعادة، ولعل قوله عزّ وجلّ فيه إشارة الى هذا الأمر: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) التين: ٤. فعليه أن يسعى ويجد في حسن التصرف ولا يكن من الغافلين.

# ذو القرنين الفتاح الكبير



## من هو ذو القرنين؟

لم يتعرض القرآن الكريم لشخصية ذي القرنين إلا في سورة الكهف، وفي بضع آيات منها، وجاء ذكره جواباً عن سؤال. والظاهر إنه لم يكن عن ذاته أو هل هو نبي أو ملك أو حتى نسبه ولأي البلاد ينتمي، وإنما كان عن شأنه وعن أفعاله وتحركاته غير المعتادة، أو أنهم سألوه عن كل ذلك، ولكن جاءتهم الإجابة بحسب المصلحة وما يخدم الدعوة الإيمانية، ولأن التاريخ مليء بالأحداث والعبر، فلذلك كانت قصص التاريخ خير شاهد للتذكير والتوجيه، فاختر من قصة ذي القرنين ما يخدم هذا الجانب لا غير.

والسائلون قريش، والمسؤول عنه: خبر رجل من عظماء العالم عرف بلقب ذي القرنين، كانت أخبار سيرته خفية مجملة مغلقة، فسألوا النبي عن تحقيقها وتفصيلها، وأذن له الله أن يبين منها ما هو موضع العبرة للناس في شؤون الصلاح والعدل، وفي عجب صنع الله تعالى في اختلاف أحوال الخلق، فكان أخبار اليهود منفردين بمعرفة إجمالية عن هذه المسائل. ولم يتجاوز القرآن ذكر هذا الرجل بأكثر من لقبه المشتهر به إلى تعيين اسمه وبلاده وقومه، لأن ذلك من شؤون أهل التاريخ والقصص وليس من أغراض القرآن، فكان منه الاقتصار على ما يفيد الأمة من هذه القصة عبرة حكمية أو خلقيةً فلذلك قال: (قُلْ سَأْتَلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا)<sup>(١)</sup>.

وقد بذلت جهود كثيرة في سبيل التوصل لمعرفة، فقد ذكر المفسرون وأهل التاريخ كلاماً كثيراً عنه، فهو شخصية أثارت إهتمام الباحثين والفلاسفة،

(١) تفسير التحرير والتنوير: مصدر سابق، ج ١٥، ص ١٢١.

وأدلى كل بدلوه، وقدم قرائنه وشواهدده فيما يدعم إختياره لتلك الشخصية دون غيرها. ومما ذكروا على أنه ذو القرنين المعني في القرآن الكريم ما يلي:

أولاً: يرى البعض أن (ذو القرنين) ليس سوى (الإسكندر المقدوني)، لذا فإنهم يسمونه (الإسكندر ذو القرنين) ويعتقد هؤلاء بأنه سيطر بعد وفاة أبيه على دول الروم والمغرب ومصر، وبنى مدينة الإسكندرية، ثم سيطر بعد ذلك على الشام وبيت المقدس، ثم ذهب من هناك إلى (أرمينيا)، وفتح العراق وبلاد فارس، ثم قصد الهند والصين، ومن هناك رجع إلى خراسان، وقد بنى مدناً كثيرة، ثم جاء إلى العراق ومرض في مدينة (زور) وتوفي فيها<sup>(١)</sup>.

ثانياً: ويرى جمع من المؤرخين أن (ذو القرنين) كان أحد ملوك اليمن (كان ملوك اليمن يسمون بـ ((تبع)) وجمع ذلك ((تباعة)) وقد دافع عن هذه النظرية ((الأصمعي)) في تاريخ العرب قبل الإسلام، و((ابن هشام)) في تاريخه المعروف بسيرة ابن هشام، و((أبو ريجان البيروني)) في كتاب ((الآثار الباقية)). ويمكن لنا أن نلمح في شعر شعراء (الحميرية) وهم من أقوام اليمن، وبعضاً من شعراء الجاهلية تفاخرا بكون ((ذو القرنين)) من قومهم<sup>(٢)</sup>.

ثالثاً: ينسب إلى بعضهم إن ذا القرنين هو ملك الصين (شين هو انك تي) الذي بنى السور بين الصين وبين منغوليا، لصد هجمات المغول عن الصين، والذي يبلغ طوله ثلاثة آلاف كيلو متر في عرض تسعة أمتار وإرتفاع خمسة عشر

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، مصدر سابق ج ٩، ص ٢٥٩.

(٢) المصدر نفسه: ج ٩ ص ٢٦٠.

متراً والذي شرع بينائه سنة ٢٦٤ ق.م<sup>(١)</sup>. ومن الذين ذهبوا الى أن ذا القرنين كان ملكاً من ملوك الصين هو صاحب تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ((ابن عاشور)) حيث اعطى عدّة وجوه للإستدلال على ما ذهب عليه حيث قال:

أحدها: أن بلاد الصين اشتهر أهلها منذ القدم بأنهم أهل تدبير وصنائع.

الثاني: أن معظم ملوكهم كانوا أهل عدل وتدبير للمملكة.

الثالث: أن من سماتهم تطويل شعر رؤوسهم وجعلها في ضفيرتين فيظهر وجه تعريفه بذي القرنين.

الرابع: أن سداً وردماً عظيماً لا يعرف له نظير في العالم هو موجود بين بلاد الصين وبلاد المغول، وهو المشهور في كتب الجغرافيا والتاريخ بالسور الأعظم.

الخامس: ما روت أم حبيبة عن زينب بنت جحش رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وآله خرج ليلة فقال: (ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج هكذا) وأشار بعقد تسعين (أعني بوضع طرف السبابة على طرف الإبهام). وقد كان زوال عظمة سلطان العرب على يد المغول في بغداد فتعين أن ياجوج وماجوج هم المغول وأن الردم المذكور في القرآن هو الردم الفاصل بين بلاد المغول وبلاد الصين وبيانه ملك من ملوكهم<sup>(٢)</sup>.

رابعاً: وهو رأي لم يتناوله أحد من المؤرخين أو الباحثين القدماء، وإنما رأي

(١) ينظر: الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج ١٣، ص ٣٨١، بتصرف.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، مصدر سابق: ج ١٥، ص ١٢٥.

ورد من مفكر إسلامي معاصر وهو المرحوم (أبو الكلام آزاد) الذي شغل يوماً منصب وزير الثقافة في الهند، والذي اطلع على التاريخ الفارسي القديم، فرأى فيه أن أبرز شخصية إيرانية .. (كورش الأخميني) والذي يسميه اليونان سائرس (Syrtus)، وتسميه اليهود (خورس) ويذكره المؤرخين المسلمون (كيخسرو). رأى أن صفاته تنطبق على (ذي القرنين) مما عرف به من العدل والإصلاح بين الرعية، والخصال الإنسانية الحميدة في حروبه وفتوحاته<sup>(١)</sup>.

خامساً: وهو أيضاً رأي لأحد الكتاب المحدثين وهو الاستاذ حمدي بن حمزة أبو زيد في كتابه (أسرار ذي القرنين)، وقد تعرض المؤلف الى التاريخ القديم لمصر الفرعونية التي تعرضت لغزو قبائل الهكسوس الآسيوية وحكموا مصر لأكثر من ١٥٠ سنة، وانتهت حقبة حكمهم لمصر حوالي عام ١٥٠٠ ق.م. وانتهى البحث الى أن ذا القرنين هو أمنحوتب الرابع ابن أمنحوتب الثالث، ذلك الفرعون الذي عاصر موسى عليه السلام، وأضاف أيضاً الى أن أخناتون هو نفسه مؤمن آل فرعون الذي جاء ذكره في سورة غافر. وأستدل بأن مؤمن آل فرعون هو ابن الملك أمنحوتب الثالث، وأن الملك وقومه لم يصدروا أمراً بقتله، ثم ذكر انه لم يعثر على رفات أمنحوتب الرابع في مصر، وكذلك زوجته نفرتيتي، حيث أنه هاجر من مصر وطاف بالأرض، وأستقر بالصين وتوفي هناك<sup>(٢)</sup>.

سادساً: هو الاسكندر الأول (المعروف بإسكندر الرومي) وبينه وبين

(١) ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح: محمد خير رمضان، نشر دار القلم، بيروت،

ط٢، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م: ص ٢١١.

(٢) ذو القرنين الملك العادل: منصور عبد الحكيم، نشر دار الكتاب العربي، دمشق، ط ١،

٢٠١٤م: ص ١١٤ بتصرف.

الاسكندر المقدوني أزيد من ألفي سنة (٢٣٠٠ ق.م)، فقد كان عبداً مؤمناً صالحاً وملكاً عادلاً وكان وزيره الخضر<sup>(١)</sup>.

وقال صاحب تفسير بيان السعادة: اعلم ان المسمى بذى القرنين كان اثنين أكبر وأصغر وكلاهما ملكا في الأرض وان ذا القرنين الأكبر هو الذي كان عبداً صالحاً نبياً أو غير نبي، وهو الذي طاف المشرق والمغرب وبنى سد يأجوج ومأجوج، وهو كان غلاماً من أهل الروم، وكان ابن عجوز فقيرة وهبه الله تعالى الملك والسلطنة، وورد انه سمّي بذى القرنين لأنه بعث في قومه فدعاهم الى الله فضربوه على قرنه الأيمن فأماته الله أو غاب عنهم على اختلاف الروايات خمسمائة عام أو مائة عام أو مدّة على اختلاف الروايات أيضاً، ثم بعثه الله فدعا الى الله فضربوه على قرنه الأيسر فأماته أو غاب عنهم في المدّة المذكورة، ثم بعثه الله تعالى فملك المشرق والمغرب<sup>(٢)</sup>.

ولا يهمننا الآن كثرة هذه الأقوال، ولكننا سنختار أشهرها لتكلم عنها بشيء من التفصيل لتوضح الصور أكثر ولتعم الفائدة بشكل أوسع، وهما شخصية (الاسكندر المقدوني) و (كورش الأخميني).

أما شخصية الصعب الحميري أو غيره من الملوك التابعة باليمن، فلن يجدي نفعاً التكلم عنها أو عن غيرها، فهي أبعد ما يكون عن شخصية ذي القرنين الذي ذكرت في القرآن الكريم، وذلك لأن تاريخ ملوك حمير معروف، وقد كتب عنهم الكثير وأسهبوا في السرد والتفصيل، وتناقل قصصهم الرواة

(١) الفرقان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج ١٨، ص ١٠٩.

(٢) تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة: العارف الشهير الحاج سلطان محمد الجنازدي،

نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م: ج ٢، ص ٤٨٠.

وسجلها المؤرخون على علاقتها، فكانت خليطاً من الحقائق والمبالغات والأساطير، ولم يعرف في تاريخ العرب الجاهلي كله اعقد من تاريخ ملوك اليمن. والأمر الذي إزداد فيه التعقيد والخلاف، هو ما ذكره بعض العلماء السابقين من أن ذا القرنين المذكور في القرآن الكريم هو أحد ملوك حمير، وأنه عربي من اليمن، فتح بلاد المشرق والمغرب، وبنى السد على يأجوج ومأجوج، وعرف بصلاحه وعدالته. وكان أول كتاب كتب في هذا، هو كتاب (التيجان) الذي رواه وهب بن منبه، ففيه تاريخ التبابعة، مركزاً على حياة ذي القرنين من بينهم<sup>(١)</sup>.

وفي معرض رد الباحث الإسلامي (سيد قطب) على أبي الريحان البيروني الذي قال بان ذا القرنين هو من حمير مستدلاً بإسمه: وقد يكون هذا القول صحيحاً، ولكننا لا نملك وسائل تمحيصه، ذلك أنه لا يمكن البحث في التاريخ المدون عن ذي القرنين، الذي يقص القرآن طرفاً من سيرته، شأنه شأن كثير من القصص الواردة في القرآن، كقصص قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وغيرهم، فالتاريخ مولود حديث العهد جداً بالقياس إلى عمر البشرية. وقد جرت قبل هذا التاريخ المدون أحداث كثيرة لا يعرف عنها شيئاً فليس هو الذي يستفتى فيها<sup>(٢)</sup>.

إذا فلا يمكن الاعتماد على أخبار اليمن في تحقيق علم قرآني بارز والجزم بأنه هو، إذ أن الحوادث والشخصيات التاريخية لا تقرر ولا تثبت بمثل هذه الأخبار الواهية سنداً وامتناً. إنما تثبت بشواهد واضحة وبراهين علمية وروايات صحيحة<sup>(٣)</sup>.

(١) ذو القرنين القائد الفاتح: مصدر سابق: ص ١٦٦ وما بعدها بتصرف.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٩٨ نقلاً عن ظلال القرآن ج ٤ ص ٢٢٨٩ - ٢٢٩٠.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٩٩.

وللعلامة ابن خلدون رأي في هذا الموضوع حيث يقول: ومن الأخبار الواهية للمؤرخين ما ينقلونه كافة في أخبار التبابعة ملوك اليمن وجزيرة العرب، أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن إلى أفريقية والبربر من بلاد المغرب، وإن أحد ملوكهم، وهو (أسعد أبو كرب) قد ملك الموصل وأذربيجان ولقى الترك فهزمهم، وغزا بلاد الروم، وقطع المفازة إلى الصين، فوجد أخاه الثاني الذي غزا إلى سمرقند قد سبقه، فأثخنا في بلاد الصين، وتركوا ببلاد الصين قبائل من حمير فهم بها إلى هذا العهد، وبلغ ثالث إلى القسطنطينية فدرسها<sup>(١)</sup> ودوخ بلاد الروم ورجع.

ثم يقول: وهذه الأخبار كلها بعيدة عن الصحة، عريقة في الوهم والغلط، وأشبه بأحاديث القصص الموضوعية. وذلك أن ملك التبابعة إنما كان بجزيرة العرب وقرارهم وكرسيهم بصنعاء اليمن. وجزيرة العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها: فبحر الهند من الجنوب، وبحر فارس الهابط منه إلى البصرة من المشرق، وبحر السويس الهابط منه إلى السويس من أعمال مصر من جهة المغرب. فلا يجد السالكون من اليمن إلى المغرب طريقاً من غير السويس، والمسلك هناك ما بين بحر السويس والبحر الشامي قدر مرحلتين فما دونهما. ويبعد أن يمر بهذا المسلك ملك عظيم في عساكر موفورة من غير أن تصير من أعماله، هذا ممتنع في العادة. وقد كان بتلك الأعمال العمالقة، وكنعان بالشام، والقبط بمصر، ثم ملك العمالقة مصر، وملك بنو إسرائيل الشام، ولم ينقل قط أن التبابعة حاربوا أحداً من هؤلاء الأمم، ولا ملكوا شيئاً من تلك الأعمال.

وأما غزوهم بلاد الشرق وأرض الترك، وإن كان طريقه أوسع من مسالك

(١) درسها: محاسنها.

السويس، إلا أن الشقة هنا أبعد، وأمم فارس والروم معترضون فيها دون الترك. ولم ينقل قط أن التبابعة ملكوا بلاد فارس، ولا بلاد الروم، وإنما كانوا يحاربون أهل فارس على حدود بلاد العراق وما بين البحرين والحيرة والجزيرة بين دجلة والفرات وما بينهما في الاعمال<sup>(١)</sup>.

هذا وينقل صاحب كتاب ذو القرنين قولاً للدكتور عبد العليم خضر في هذا الشأن: (إن العرب لم يدوخوا الروم ويدوسوا بلادهم إلا بالإسلام حين خرجوا يحملون راية لا إله إلا الله، محمد رسول الله.. حينئذ فقط.. وبعدها لمسوا سور الصين العظيم، فوصلوا الى أندونيسيا وفتحوا السند والهند وطبرستان وأذربيجان وشمال أفريقيا، ووصل الإسلام بالعرب الى الأندلس وفرنسا وصقلية وجنوب أوروبا وشرق أفريقيا..

أما قبل الإسلام وبعد زوال أمجاد سبأ، فقد كان بعض العرب وقوداً للحرب التي كانت مستعرة بين العملاقين الرهيبيين: الفرس والروم.

بل لقد ورد في كتاب اليونان والسريان وغيرهم أن الأحباش (ولا نقول الفرس والروم) أخذوا يستخفون بالحميريين ويتطلعون الى بلادهم تطلع الذئب للشاة منذ أوائل النصرانية على أثر تضعيع السبئيين وذهاب دولتهم وتفرق كلمتهم، والأحباش يومذاك في إبان سطوتهم. ثم يعود فيذكر أنه لم يثبت أن أحداً من ملوك حمير قد قام برحلة أو حملة نحو مغرب الشمس.. كما لم يثبت أن

(١) المقدمة: العلامة عبد الرحمن (ابن خلدون) المغربي، نشر دار الكتاب اللبناني، بيروت،



أحداً منهم قد قام برحلة أو حملة نحو شرقها<sup>(١)</sup>.

أما ما ورد من أنه قصارى ما يستفاد من إسمه أنه عربي وليس من دأب القرآن مسح الأسماء الأعجمية، وإنما تغيير بقدر ما يجعله وفق الأدب العربي كإبراهيم معرب (أبراهام) وموسى معرب (موشه). وذو القرنين لا يلمح بسمة غير عربية، (وذو) تلمح الى أنه من الأذواء اليمنيين، وبالتالي فهو يدلنا على أنه أحد التبابعة الأذواء اليمنيين، ولذلك تردد ذكره في العديد من أشعار الحميريين فهذا أيضاً دليل لا ينهض، لأن:

أ- إن اسم ذي القرنين لم يطلق على واحد من ملوك اليمن، بل تعداه الى آخرين، حتى ولو لم يقصد به ذا القرنين الحقيقي<sup>(٢)</sup>.

ب- إن إسم ذي القرنين كان يطلق على كل من بلغ طرفي الأرض<sup>(٣)</sup>.

ج- إن لقب ذي القرنين لقب قديم، وقد تناهت الى أذهان كل الناس أخباره وفتوحاته، وأصبح هذا رغبة بعض الملوك ممن أحب التوسع في الملك والسلطان... فيدفع الجيوش في البلاد، ويحاول أن يسيطر على كل بقعة يستطيع الوصول إليها، ويشيع بين الناس أنه مثل ذي القرنين، أو أنه ذو القرنين الثاني في فتوحاته وقوته وعدله بين الناس.. وهذا ما دعا بعض ملوك اليمن - الذي بلغ شأواً عظيماً في القوة والتمكين في بلاده -

(١) ذو القرنين القائد الفاتح، مصدر سابق: ص ٢٠٠، نقلاً عن: مفاهيم جغرافية في القصص القرآني، ص ١٩٥.

(٢) ذو القرنين القائد الفاتح، مصدر سابق: ص ٢٠٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٣، نقلاً عن كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ١٠٤).

أن يطلق على نفسه هذا اللقب<sup>(١)</sup>.

د- إن كلمة (ذو القرنين) لا تخص اللغة العربية وحدها، فقد ذكر انها مستعملة عند الأوربيين أيضاً، وقد ذكرت عند اليهود. يقول العلامة القاسمي: هذا اللقب من الكناية عن كل ذي قوة وبأس وسلطان.

ثم إن هذا لقب، وليس إسماً حتى يقال بأن اللفظة عربية!، وإنها ولو كانت إسماً، فلا يشترط أن تكون عربية. وذلك أن هناك اسماً وألقاباً في القرآن الكريم كانت بلغات متعددة، لكنها صيغت بترجمة عربية صافية. فإذا كان ذلك كذلك، فمن الطبيعي جداً أن يقال إن ذا القرنين لم يكن عربياً.. لكن لقبه ترجم الى العربية. تماماً كما يقال عن يأجوج ومأجوج بأنها لقبان لقبائل همجية، والأقرب من هذا أن يقال عن لقب (ذي الكفل) عليه السلام أيضاً. فقد كان رجلاً من بني اسرائيل.. ويورد العلماء أنه لقب بهذا لأنه تكفل بعهد فيه تبليغ أو عمل صالح<sup>(٢)</sup>.

نكتفي بهذا القدر حول الملوك التبابعة، ولنتقل الى ملك آخر أشير إليه على إنه ذو القرنين الذي ذكره القرآن الكريم، ألا وهو الملك الفارسي (كورش).

(١) ذو القرنين القائد الفاتح، مصدر سابق، ص ٢٠٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٥.

## كورش الإخميني

مدة حكمه (٥٥٩ - ٥٢٩ ق.م)

في عام ٥٥٩ ق.م أصبح كورش الإخميني (Cyrus) ملكاً على أنشان (Anshan) وبدأ حكمه من عاصمته المفتوحة باسارجاراي (Passargada). وبعد أن توحدت عدة قبائل (المرافي - والماسي - وبانثالي - والدروسي - وجيرماني) وأيضاً قبائل الرعي اليدوية وهي - الداى - والماردي - والدرو بيسي - والساجارتي - وبعد هذا التوحد أصبح الفرس جميعهم متحدين تحت قيادة كورش والذي بدوره كان يبحث عن أي تحالف ضد ميديا media مع القوى العظيمة المحيطة فكانت الأقرب للتحالف هي بابل<sup>(١)</sup>.

وواجه كورش الليديين بعد أن قام الملك الليدي بضم الإسبارطيين الى جانبه وكذلك اتحدت بابل والفرعون المصري أماسيس مع الدولة الليدية، وكانت الحرب ضروس بين الجيشين الليدي والفارسي وأنتهت دون نتيجة لصلاية مقاومة الليدية، وحين أقبل الشتاء ظن الملك الليدي أن الفرس لن يجرؤا على مهاجمة أرض ليديا أثناء الشتاء، وبخاصة أنه يلقى تأييداً من بابل، فسرح جيشه عاقداً العزم على وضع نهاية لأمر فارس في السنة التالية حين يصل الجيش الموحد لبابل ومصر، ولكن كورش بادر على الفور لإجراء محادثات مع الدولة البابلية وعقد معاهدة صلح مع (نبونيد) ملك بابل. ثم توجه قاصداً سارد. والتقى بالليديين على مقربة من العاصمة، لتنتهي الحرب بانتصار الفرس

(١) الإمبراطورية الفارسية عبر التاريخ: أ.ت. أولمستد، مجموعة من المترجمين، نشر الدار

العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ٢٠١٢م - ١٤٣٣هـ: ج١، ص٧٠ وما بعدها.

والإستيلاء على سارد ووضع نهاية للدولة الليدية (٥٤٩ ق.م).

وحين استولى الفرس على ليديا، أصاب اليونانيين الفزع الشديد، لأنه قد أصبح لزاماً عليهم أن يتعاونوا مع دولة أقوى من الدولة الليدية، وتتفوق على الدول اليونانية في النظم والحضارة تفوقاً تاماً. وكان كورش قبل الإستيلاء على سارد قد كاتب اليونانيين للإتحاد معه ولكنهم أبوا، وعادوا فأرسلو رسلاً الى كورش طالبين منه أن يجدد الإتفاقية التي قدمها، فلم يرد كورش عليهم<sup>(١)</sup>.

وبعد أن استولى كورش على سارد، قد عاد بعد وقت قصير الى إيران، وترك أمر الإستيلاء على أجزاء آسيا الصغرى الى قواده ولم تكن الفتوحات الفارسية سريعة ولا سهلة، حيث استغرق قادة كورش مدة لا تقل عن ٤ سنوات للتفوق على يوناني آسيا الصغرى. وبينما كان أحد قادة كورش الذي هو - هارباجوس - Harpagus يتحرك جيئة وذهاباً في الأجزاء الغربية والجنوبية من آسيا، كان كورش يخوض المعارك على الجهات الشمالية والشرقية، وخضعت له كل الأمم بلا استثناء، كما كتب هيروdotus . وفي عام ٥٤٦ ق.م غادر الملك آسيا الصغرى عائداً الى مركز إمبراطوريته بسبب الخطر الملح الذي كان يشكله كل من البابليين، والساكيين والباكتريين والمصريين<sup>(٢)</sup>.

واستمر كورش في عملياته الحربية وغزواته في شمال إيران وشرقها طوال ثماني سنوات، فتقدم من الناحية الشمالية حتى وصل الى حدود نهر سيحون حيث بنى مدينة باسمه على شاطئ هذا النهر، ثم تقدم بعد ذلك في الناحية الشرقية

(١) ذو القرنين القائد الفاتح، مصدر سابق: ص ٢١٦.

(٢) موسوعة تاريخ الإمبراطورية الفارسية: بيير بريانت، ترجمة بيتري وآخرون، نشر الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط ١، ٢٠١٢م - ١٤٣٣هـ: ج ١، ص ١٠١ وما بعدها.

حتى وصل الى نهر السند، وبعد أن ثبت دعائم حكمه في الشرق والغرب، أراد أن يتوجه الى بابل.

وبعد أن ضعف نابونيد Nabu-Neid ملك بابل، حيث قام بترك (أريدوم) على حدودها الصحراوية، وقام بالتوغل في عمق شبه الجزيرة العربية، حيث هاجم تيا Teima في واحتها المركزية، ولسبب غريب جعل مقر إقامته في تيماء، وخلف ابنه بيلشازر Belshazzar ليمارس القيادة والسلطة في بابل... وقرر كورش غزو بابل في الفترة التي حاول نابونيد القيام بإصلاحات في المملكة، وضبط الصورة الكهنوتية لماردوك Mardouk ، وقد تم عمل كل تلك الإصلاحات على نفقته، ولكن هناك بعض الكهنة غير مرتاحين وراضين عن ذلك، وأنبياء اليهود كانوا يتنبأون بسقوط بابل على يدي كورش، وهو الذي سوف يسمح بعودة صهيون حيث كانت الأرض كلها في فوضى.

وقبل ثلوج الشتاء في عام ٥٣٩-٥٤٠ ق.م كان كورش على الحدود ومع بداية أكتوبر نجد أن كورش قد قام بالمحاربة في معركة أو نيسس Opis على نهر التيجر Tigris واحتل أكد، وبعد هذه الحروب المستمرة نجد أن معارضيه فقدوا شجاعتهم، وفي الحادي عشر من أكتوبر تم الإستيلاء على سيبار Sippar بدون حرب، وهرب نابونيد. وفي الثالث عشر من أكتوبر عام ٥٣٩ ق.م يقوم جوبر ياس Gobrayas وهو حاكم جوتيم Gutium وقوات كورش بدخول بابل بدون قتال. وبعد ذلك، عندما عاد نابونيد الى بابل تم أخذه كأسير.

وفي التاسع والعشرين من أكتوبر، دخل كورش نفسه الى بابل، وانتشرت أخبار مروره، وأعلن كورش السلام والأمان لكل شخص في المدينة، وأصبحت جوبرياس مرزبانية مكونة من إقليم جديد وهو بابيروش Babirush.

ولم يكن كورش في عيون المرؤوسين والرعية من البابليين ملكاً أجنبياً، ففي خطابه لهم بلغتهم هم، نجده يستخدم الألقاب القديمة، حيث يقول: أنا كورش ملك الكون، الملك العظيم، ملك بابل، ملك سومر، ملك أكاد، وذلك في ربوع الأرض، وهو منبع الملكية منذ الصغر ويفضل حكمه كل الناس، ويخضعون لسيادته في قلوبهم.

وأما الكهنة تمت مكافأتهم على عدم ولائهم لنابونيد. وكان الشعب البابلي والسومري والأكدي والأمراء والموظفين خضعوا أمامه، وقبلوا قدمه، وكان كورش يقول: عندما قمت بدخولي الرحيم الى بابل بسعادة وسرور، قمت بعمل إقامتي الملكية في القصر الملكي، وقام ماردوك -السيد العظيم- بجمع الجيش النبيل أو مجموعة النبلاء من البابليين معي، وقد كنت أقوم برعايته يومياً، حيث تحركت قواتي الواسعة بسلام الى بابل، وفي كل من مدينتي سومر وأكاد لم أسمح بأية معاملة سيئة وكان الذي يتعامل بدون شرف، أقوم بالتخلص منه. وماردوك -السيد العظيم- كان يبارك خطواتي، ويرحم مباركتي، أنا كورش الملك الذي يعبد، وقمبيز Cambyzes إبني، وكل الجنود، بينما نحن في إخلاص وبكل سرور نرفع رأسه ونقدس، كل الملوك التي تأوى وتسكن القصور من كل ربوع الأرض من البحار الى أسفلها، وكل الملوك الذين يوجدون حالياً في الخيام قد أحضروا لي هداياهم الثقيلة، وقاموا في بابل بتقبيل قدمي<sup>(١)</sup>.

وإثناء إقامة كورش في بابل استمر في استقبال ملوك سوريا الذين وفدوا لتقديم الولاء بشخصهم، وكانت السيطرة على فينيقيا تعني لكورش، أنه كان لديه وتحت تصرفه أسطول حربي ثان يساوي أسطوله الأول في العدد والمهارة

(١) الإمبراطورية الفارسية عبر التاريخ، مصدر سابق: ج ١، ص ٨٨ وما بعدها.

الحربية، ويضارع القوة البحرية الإغريقية.

وبعد فلسطين توجد مصر، التي كان ملكها أمارسيس Amasis متحالفاً مع كرو يوس Croesus، ولذلك كان يتوقع الغزو، وكان ما يسهل غزو وادي النيل هو رؤوس الكباري عبر الصحراء في فلسطين، وكان الطريق عبر مصر تسيطر عليه قلعة القدس المدمرة، حيث أن الطبقات العليا المؤيدة لمصر كان قد تم ترحيلها الى بابل بواسطة نبوخذ نصر Nebuchad nezzar، وكان ابنه أميل - ماردوخ Amel-Marduk قد حاول كسب ولائهم تلاعباً بأمل استرداد الملك القديم، وقد تم اغتياله من قبل المصريين، وبالتالي بقى اليهود في المنفى في حالة عداة مرير مع الحكومة، وفي اثناء إحباطهم تنبأ أنبياء بني اسرائيل بتدمير بابل على أيدي الميديين، وعندما فشل اليهود في تحقيق آمالهم في العودة استحثوا كورش ليكون محوراً لهم.

وبالرغم من تأثير هذه التنبؤات النبوية في بابل، فإن اليهود قد أظهروا تعاطفهم مع الحكم الجديد، وبابل التي كانت بعيدة عن احتمال التدمير كانت خاضعة للغزاة، وقد تنبأ أيضاً إيزايه Isaih الثاني بالعودة المجيدة الى جبل صهيون، وكان هذا غير متوقع من أن يترك اليهود ثراءهم في أرض بابل الخصبة للعودة الى التلال القاحلة في القدس. ولكن هناك بفعل شيء تجاه هذه العودة لهم، حيث غالبية اليهود كانوا ما يزالون في فلسطين بعيداً عن قاداتهم، ومن المتوقع أن يكونوا قد فقدوا ولاءهم لمصر، وكان كورش قد عاد الى الولاة للآلهة التي يمثلها نابونيد، ليس فقط في بابل، بل في أسبيريا وإيلام، بل قد أعاد بناء معابدهم المدمرة، وبناءً على هذه السياسة الجديدة أمر بإعادة بناء معبد في

القدس، وقام بالتالي اليهود مباشرة بإستبدال الآلهة بالمعبد بمقدساتهم الخاصة<sup>(١)</sup>. وما أن أصبح كورش سيداً لبابل، كان بإمكانه في البداية المطالبة بالإرث البابلي الجديد في الأراضي السورية-الفلسطينية، وهي تعتبر محل نزاع تقليدي بين سادة بابل وسادة مصر، وكان سكانها يتمايزان بتنوع ثقافي وعرقي كبيرين، حيث كان الفينيقيون يعيشون في الموانئ الكبرى مثل صيدا وصور، بينما كان يسكن الآراميون والعبرانيون والفلسطينيون والعرب، حتى اليونانيون في العديد من الجيوب السكنية الساحلية. ولقد انتهج ملوك بابل سياسة ثابتة وطموحة نحو هذه الأراضي من أجل فتح منفذ على البحر المتوسط، والاستفادة من التجارة المتوسطية والتجارة العربية، وهكذا فقد رغبوا في بسط سيادتهم على المدن الفينيقية والفلسطينية وخاصة غزة. حتى صارت منفذاً لتجارة النباتات العطرية التي كانت تأتي من جنوب الجزيرة العربية، التي كانت تسيطر عليها مملكة سبأ. علاوة على ذلك فقد وجد ملوك بلاد ما بين النهرين هناك المواد الخام التي تنقصهم، مثل الخشب من لبنان، والحديد من كيليكيا، ولهذا السبب تم شن العديد من الحملات على هذه المنطقة لإخضاع الممالك التي أعلنت استقلالها (دمشق، اسرائيل، والمدن الفينيقية) ولمراقبة شعوب شمال شبه الجزيرة العربية. وقد شن نابونيد خلال فترة حكمه حروباً عديدة على كيليكيا وسوريا عبر الأردن وشبه الجزيرة العربية، ويرجع سبب بقائه لمدة طويلة في تيماء الى رغبة في بسط نفوذه على تلك المنطقة.

وفي هذه المناطق نشأت مملكة يهودا، والتي كانت تربطها دائماً علاقات معقدة، وغالباً ما تكون عدائية مع السلطات الآشورية-البابلية، ولقد حاولت

(١) ينظر الإمبراطورية الفارسية عبر التاريخ، مصدر سابق: ج ١، ص ٩٨ وما بعدها.



بشكل متكرر المحافظة على تلك السياسة الخطرة والتي كانت تتمثل في تأرجح ولائها فيما بين مصر وبابل. وفي عام ٥٩٧-٥٩٨ ق.م زحف نبوخذ نصر بنفسه نحو القدس التي سقطت في مارس من عام ٥٩٧ وتم أسر جزء كبير من صفوف العائلات اليهودية، قادة الجيش-النبلأ-ملاك الأراضي-الكهنة، وتم إقتيادهم أسرى الى بابل، وعين نبوخذ نصر ملكاً جديداً يدعى زيديكيا Zedekiah، وبإغراء ووعود من الفرعون المصري، حاول زيديكيا تكوين تحالف ضد البابليين حول يهودا، ولكن الظروف لم تكن مواتية له. فقد كان يعاني من الصراعات الداخلية، إذ نشب صراع مرير بين الحزب الذي يدعو للتمرد والحزب الآخر الذي يدعو الى الخضوع، وصدرت أشهر تلك الدعوات المنادية بالخضوع من النبي أرميا الذي وصف النصر البابلي بأنه عقاب من (يهوه) ضد هذا الشعب غير المؤمن. وقد إخرق الهجوم الذي شنته الجيوش البابلية دفاعات مملكة يهودا، وفي صيف عام ٥٨٧ ق.م سقطت القدس، وسجن الملك زيديكيا، وتم تدمير المدينة والمعبد، وتلا ذلك عملية ترحيل ثانية لليهود، ولم تعد هناك مملكة يهودا، بل صارت جزءاً لا يتجزأ من المملكة البابلية الجديدة<sup>(١)</sup>.

### علاقة كورش Cyrus باليهود

ينال كورش الكثير من الإطراء في المصادر اليهودية، ومن المحتمل أنه بمجرد دخوله بابل عمد على تقوية علاقاته بقيادة المجتمع اليهودي في المنفى، الذين على أيديهم تم الحفاظ على تقاليد البلد الأم. وذلك على الرغم من دمجهم

(١) موسوعة تاريخ امبراطورية الفرس، مصدر سابق: ج ١، ص ١١٩.

بدرجة كبيرة داخل المجتمع البابلي، وبدا النبي حزقيال في بابل عام ٥٩٣ ق.م في وعظ الشعب واعداداً المستمعين إليه بالعودة الى القدس، وإعادة بناء المعبد، ومواصلة عبادتهم للإله يهوه، واستعادة المملكة الموحدة التي تضم كل من إقليمي يهودا وإسرائيل<sup>(١)</sup>.

وإليك النصوص الدينية كما جاءت في التوراة:

(في السنة الأولى لحكم كورش ملك فارس، وإتماماً لكلام الرب الذي نطق به على لسان إرميا، نبه الرب روح كورش فأصدر نداءً مكتوباً في كل أرجاء مملكته ورد فيه: هذا ما يقوله كورش ملك فارس: لقد وهبني الرب إله السماء جميع ممالك الأرض، وأوصاني أن أشيد له هيكلًا في أورشليم في مملكة يهوذا، فعلى كل واحد من أبناء شعبه ليكن الربّ معه أن يصعد إلى أورشليم في أرض يهوذا فيبني هيكل الربّ إله إسرائيل. إنه الله الذي في أورشليم. وعلى أهل المواضع التي يقيم فيها الآن المسييون المتغربون أن يمدّوهم بالذهب والفضة والدواب، فضلاً عما يتبرعون به لبناء هيكل الربّ الذي في أورشليم، فهب رؤساء بيوت يهوذا وبنيامين والكهنة واللاويين، كل من نبه الربّ قلبه ليرجع الى أورشليم لبناء هيكل الربّ هناك)<sup>(٢)</sup>.

(إصمتي وأسمعي لي أيتها الجزائر لتجدد الأمم قوتها ولتتقدموا ليعرضوا حججهم. لنجتمع معاً للمثول أمام القضاء. من أقام من المشرق قائداً مظفراً، يواكب النصر كل خطوة من خطواته، وأسلم الأمم إليه وأخضع له الملوك، وجعلهم كالتراب بسيفه، وكالعاصفة المذراة بقوسه؟ يتعقبهم ويجوز آمنًا في

(١) المصدر نفسه: ج ١، ص ١١٩.

(٢) سفر عزرا: ١-٥.

دروب لم يطأها بقدميه. من فعل هذا وأنجزه داعياً الأجيال منذ البدء؟ أنا الربّ. أنا الأول والآخر<sup>(١)</sup>.

(هذا ما يقوله الربّ لكورثس مختاره، الذي أخذت يمينه حتى أخضع أمامه أمماً وأكسر شوكة ملوك، لأفتح أمامه كوّات ولا توصل في وجهه مصاريع. ها أنا أتقدمك لأسوي الجبال بالأرض وأحطم أبواب النحاس، وأكسر مغاليق الحديد، وأهبك كنوز الأقبية المظلمة وذخائر المخابئ، لتعرف أني أنا هو الربّ إله إسرائيل الذي دعاك باسمك لأجل عبدي يعقوب، وإسرائيل مختاري دعوتك بإسمك لقبتك من غير أن تعرفني. أنا هو الربّ ولا إله غيري. ليس هناك آخر، شددتك مع انك لم تعرفني. حتى يدرك الناس من مشرق الشمس ومن مغربها أني أنا هو الربّ وليس هناك آخر. أنا مبدع النور وخالق الظلمة، أنا صانع الخير وخالق الضرّ، أنا هو الربّ فاعل كلّ هذه. اهبطي أيتها السماوات من فوق، وأمطري يا غمام برّاً، لتنتفتح الأرض حتى يثمر الخلاص، وينبت البرّ. أنا خلقتة<sup>(٢)</sup>).

ويستمر سفر إشعيا: (أنا أقمت كورثس ليجري العدل، وأنا أمهد طرقه كلّها، فيبني مدينتي ويطلق سراح أسراي، لا بثمان ولا لقاء مكافأة، يقول الربّ القدير. يقول الربّ: يأتي إليكم المصريون والكوشيون والسبئيون بكل ما يملكونه من ثروات، ويضعونها عند أقدامكم، ويصيرون رعاياكم، يمشون خلفكم مصفدين بالأغلال، ويخرون ساجدين أمامكم قائلين: حقاً أن الربّ معكم ولا إله سوى إلهكم. هو وحده الإله لا غيره<sup>(٣)</sup>).

(١) إشعيا، ٤١: ١-٤.

(٢) إشعيا، ٤٥: ١-٨.

(٣) إشعيا، ٤٥: ١٣-١٤.

## قراءة في النصوص التوراتية:

والحقيقة الآن أود أن أشير الى بعض الملاحظات، التي يمكن أن تظهر من خلال القراءة لهذه النصوص التوراتية والتي منها:

أولاً: ان الربّ قد إختار كورش ونبهه لأن يصدر نداءً مكتوباً في كلّ أرجاء المملكة، بحيث يّين كورش بهذا النداء أن الربّ إله السماء هو الذي وهبه جميع ممالك الأرض.

ثانياً: الوصية من الربّ الى الملك الفارسي كورش بأن يبني هيكلًا في أورشليم - القدس -.

ثالثاً: طلب من المسيبين المتغربين التبرع بالذهب والفضة والدواب، لبناء هيكل الربّ.

رابعاً: إظهار الملك كورش بأنه ذلك القائد الذي منح بركة الربّ بحيث يواكب النصر كل خطوة من خطواته وستنكسر شوكة الملوك أمامه، ولن توجد في وجهه مصاريع. والى غيرها من المنح والأوصاف.

خامساً: بين الربّ بأنه أقام كورش ليجري العدل، ويطلق سراح الأسرى ويبنى مدينته.

لقد أصبح من الأمور المتفق عليها من قبل الباحثين في شؤون التوراة، على أنه قد تم تدوينها على يد عزرا الكاهن والكاتب اليهودي، أيام السبي البابلي في عهد نبوخذ نصر الذي هزم المملكة الجنوبية لليهود - مملكة يهوذا - سنة ٥٨٦ ق.م ونقل من بقي فيها من اليهود اسرى الى بابل.

وإن هذا المدح والإطراء الذي صدر من قبل اليهود للملك الفارسي كورش، لم ينله أي ملك أو أي قائد، لا ينتمي إلى بني إسرائيل، لما لديهم من مغالاة تجاه العنصر اليهودي. لا بل يمكن أن تزداد غرابتنا ودهشتنا، بأن كورش لم يتم خدشه أو وصمه بأية وصمة أو أي فعل ينافي البعد الأخلاقي أو العقائدي بشكل عام، على الرغم من أنهم قد تجرأوا على انبيائهم، وكذبوا عليهم، وحملوهم ذنوباً وتصرفات هي بعيدة كل البعد عن المنحى الإنساني، فضلاً عن قداسة وطهر الأنبياء، فتجد في توراتهم قد نسبوا إلى نوح ولوط وإبراهيم وداود وسليمان عليهم السلام أفعالاً يجل اللسان عن ذكرها.

والواقع ان عزرا عندما لبي دعوة كورش أراد أن يجعله قديساً عظيماً، بالرغم أنه من المعروف أن الفرس لم يكونوا موحددين، كل ذلك في مقابل أن يقوم كورش بالسماح لليهود بالعودة إلى أورشليم، وبناء هيكلهم من جديد، وإقامة شعائرهم وطقوسهم الدينية بحرية كاملة.

ولذلك لا يبعد أن ينسب عزرا إلى النبي إشعياء الذي أصبح نبياً ٧٤٢ ق.م. كلاماً بخصوص الملك كورش، لكي يدعم من موقفه ومكانته عند هذا الملك، فتراه يمجّد ويبالغ بمكانة كورش حتى أوصله مكانة عالية جداً.

فهذا الشيء يدل على أن هناك إتفاق مسبق بين اليهود وبين كورش ضد بابل وملكها نبونيد، يتم من خلاله إرباك الوضع الداخلي في المملكة البابلية، وخصوصاً الجانب النفسي لدى مواطنيها، لتسهيل مهمة دخول الجيش الفارسي لبابل، بحيث وصل الأمر إلى ان يتحول أكبر موظفي نابونيد إلى اليهودية وأسماؤهم زيريا Zeria وريموت Rimut.

وفي هذا الصدد يقول المؤرخ بيير بريانت: لو أنكرنا وجود علاقات خاصة بين كورش وقادة اليهود في بابل، فكيف يمكننا تفسير توجيهاته؟ لن يكون أمامنا سوى وضع بعض الإفتراضات، ودعونا نتذكر أنه وفقاً لهيرودوت (الكتاب الأول، فقرة ١٥٣) فلقد اتخذت مصر موقفاً عدائياً تجاه كورش، وكانت خائفة من أطماعه بعد مغادرته للجبهة الليدية في عام ٥٤٦ ق.م، ولهذا الأسباب فمن المتفق عليه بشكل عام، فإن إنشاء إقليم القدس الذي يتسم بولائه الكامل للمصالح الفارسية قد تم في سياق استراتيجي أوسع، يتمثل هدفه النهائي في فتح مصر عاجلاً أو آجلاً<sup>(١)</sup>.

ومن قراءة النصوص اليهودية يحصل المرء على إنطباع بأن المنح والإميازات التي منحها كورش لليهود كانت استثنائية بالمقارنة مع العلاقات الطبيعية بين أحد ملوك الشرق الأدنى وأحد المجتمعات الدينية العرقية<sup>(٢)</sup>.

ولكونه قد تم إختياره وتوجيهه من قبل يهوه - كما تم إختياره من قبل ماردوك في بابل - فإن كورش الذي تتحدث عنه المصادر الدينية لم يعد ينتمي الى التاريخ، بل أصبح تزييناً وشخصية إسطورية تميز التاريخ اليهودي، ولكن لا يستطيع المؤرخون إختيار مصادرهم هنا أكثر مما في استطاعتهم فعل ذلك في أماكن أخرى، وفي ظل غياب أية وجهة نظر أخرى، فإن أية محاولة لفهم نوايا وأهداف سياسة كورش تجاه المجتمع اليهودي لابد أن تعتمد على الكتب اليهودية<sup>(٣)</sup>.

(١) موسوعة تاريخ الإمبراطورية الفارسية، مصدر سابق: ج ١، ص ١٢٤.

(٢) المصدر نفسه: ج ١، ص ١٢٣.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٠.

ولعل بوادر مثل هذا الإجراء الذي اتخذوه، وهو إعطاء كورش تلك الصفة من الحركة التي أمر بها "يهوه"، وإختياره لمهمة سماوية هي تخلص الشعب اليهودي من قيود الأسر، قد برزت في شبه الجزيرة العربية ما قبل الإسلام، وحين ظهوره، بحيث كانوا يحاولون أن يسقطوا لقب ذي القرنين على شخصية كورش. كما كان عرب اليمن وخصوصاً عرب حمير يفتخرون بأن ذي القرنين هو جدهم، وهو مصعب الحميري أو غيره، وقد قالوا كثيراً من الأشعار في ذلك، وما ذلك إلا لأن شخصية ذي القرنين كانت تأخذ حيزاً من البطولة والشرف والتوحيد والشجاعة وسعة الملك. فكان كل طرف يحاول أن يبحث عن إنتماء مع هذا اللقب، فاليهود بإعتبار أن الله قد بعثه إليهم، وهو مأمور من قبله لتخليصهم وتحريرهم من الأسر البابلي ومن ثم إعادة بناء هيكلهم في القدس، وبذلك يكونوا قد وجدوا دليلاً على أحقية دينهم، وهم حقاً شعب الله المختار، وخصوصاً أنهم كانوا في أمس الحاجة لتعزيز موقفهم في زمن نزول الرسالة الإسلامية.

والعرب كانوا يبحثون عن عزٍّ لهم من بين الأمم المجاورة لهم، بإعتبار ما لها من وجود وامتداد حضاري لا يمكن تجاهله. ولذلك أسرع اليهود الموجودون في الجزيرة العربية وخصوصاً في مكة بحث القرشيين على أن يسألوا الرسول محمد صلى الله عليه وآله عن شخصية ذي القرنين، فعسى أن يكون جوابه يحاكي ما ذهبوا إليه، وما كانوا يتداولونه في المنطقة.

وقد ذكرت كتب التفسير بأن سؤال النبي صلى الله عليه وآله كان على وجه الإمتحان والسائلون في المشهور قریش بتلقين اليهود، وقيل اليهود

أنفسهم<sup>(١)</sup>.

والآن قد يعرض سؤال، وهو هل كان اليهود يعلمون بشخصية ذي القرنين من تكون، وفي أي زمان وجدت، ولمن تنتمي؟ أم أنهم كانوا في الواقع يجهلون تلك الشخصية من تكون، ومن الذي منح هذا اللقب واقعاً؟

وجواب ذلك: إنهم كانوا يجهلون، ودليل ذلك إن هذه الشخصية لم تذكر في توراتهم ولا حتى في الإنجيل، ولم يشار لها على نحو الخصوصية واليقين. وأغلب الظن أنها كانت تطرح ويتم تداولها في نواديهم واجتماعاتهم، على أنها شخصية تاريخية، قد أطرت بأطر مثالية، أرتقت في كثير من صفاتها وحركاتها عن شخصية الإنسان العادي. وبالتالي لتكون قصته حال قصة أصحاب الكهف، بإعتبار أن توراتهم لم تجربهم عن حال فتية تأتي في المستقبل لتبين لهم شأنياتهم وعمّا قرّروه من التضحية بكل شيء من آثار الدنيا ليتوجهوا بيقين صادق لتسليم أنفسهم الى الله تعالى هروباً من ذلك الظلم والوثنية العمياء.

فهم كما أرادوا الإستخبار عن ذي القرنين، كذلك قد سألوا عن حال فتية الكهف، فتساوت نسبة الجهل عندهم لهاتين القصتين. وقد ذكر كثير من المفسرين: أن المشركين لما أهمهم أمر النبي صلى الله عليه وآله، وإزدياد المسلمين معه وكثر تساؤل الوافدين الى مكة من قبائل العرب عن أمر دعوته، بعثوا النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة يثرب يسألونهم رأيهم في دعوته، وهم يطمعون أن يجد لهم الأحبار ما لم يهتدوا إليه مما يوجهون به

(١) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، للآلوسي، ج ١٦، ص ٤٦٠. والأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٩، ص ٢٤٩. والفرقان في تفسير القرآن، ج ١٨، ص ١٠٦. وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج ١٥، ص ١٢١. وغيرها من التفاسير.



تكذيبهم إياه، قالوا: فإن اليهود أهل الكتاب الأول وعندهم من علم الأنبياء، علم ليس عندنا، فقدم النضر وعقبة إلى المدينة ووصفا لليهود دعوة النبي صلى الله عليه وآله، وأخبراهم ببعض قوله، فقال لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث؟ فإن أخبركم بهن فهو نبي، وإن لم يفعل فالرجل متقول، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرهم، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها...<sup>(١)</sup>.

وأظهروا لقريش على أنهم يعرفون الإجابة، ولكنهم أرادوا إختبار محمد صلى الله عليه وآله بتلك الأسئلة. ولكن واقعاً هم كانوا يجهلون الإجابة، ويعلمون أن محمداً رسول مبعوث من قبل الله تعالى. وهذا ما تخبرهم به كتبهم، وكما يقول الله عز وجل إخباراً عنهم: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) سورة البقرة: ١٤٦. فأرادوا أن يسمعوا الجواب القطعي منه، لا من غيره، كما كانوا يسمعون من أصحاب الإخبار والقصص، والمراجع التاريخية، لأنها ستبقى معرضة للكذب أو الزيادة والنقصان، مضافاً الى أن السرد القصصي غالباً ما يمسح بمسحة ميثولوجية لإضافة عنصر التشويق إليها. فضلاً ما تلعبه الأهواء والمصالح الشخصية والابعاد القبلية والعرقية في هذا الأمر. ولذلك هم أرادوا، وكما بيّنا سابقاً تحويل شخصية ذي القرنين من شخصية تاريخية، لأنها لم تخرج في ذلك الزمن عن هذا الإطار، وتحويلها الى شخصية دينية خالصة، بحيث تبقى مقيدة بالسياق التوراتي، متى ما أريد التعامل معها كشخصية تحت مشرح الدراسة والتحليل.

(١) ينظر تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج ١٥، ص ٦. والأمثل في تفسير الكتاب المنزل، للشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ج ٩، ص ١٤٦ وغيرهما.

وسنكتفي بهذا القدر من التعليق عمّا جاء في بعض النصوص التوراتية حول كورش.

هذا وقد اتخذت مصر موقفاً عدائياً تجاه كورش، وكانت خائفة من أطماعه بعد مغادرته للجبهة الليدية في عام ٥٤٦ ق.م، ولهذا الأسباب فمن المتفق عليه بشكل عام فإن إنشاء إقليم القدس الذي يتسم بولائه الكامل للمصالح الفارسية، قد تم في سياق استراتيجي أوسع. يتمثل هدفه النهائي في فتح مصر عاجلاً أو آجلاً. ولكن ما لدينا من معلومات عن سياسة كورش في المناطق التي تقع فيما وراء نهر الفرات فهو ضئيل للغاية، وتحتوي إحدى فقرات اسطوانة كورش للوهلة الأولى على سجل بالطموحات الإقليمية لسيد بابل الجديد<sup>(١)</sup>.

وقد نسب المؤرخ زينوفون Xenophon الى كورش عدة فتوحات داخل - مصر وأعلى البحر الأبيض المتوسط - ووفقاً له فلقد أخضع كورش العرب، وولى عليهم مرزباناً، ولقد استسلمت قبرص طوعاً، وقامت بإرسال فرق عسكرية الى الملك الأكبر عقب فتحه لبابل، ووفقاً لزينوفون، فلقد كانت قبرص ومصر تمثلان الحافة الغربية لإمبراطورية كورش، وينسب زينوفون الحملات العسكرية التي أدت الى فتح مصر الى كورش، (الكتاب الثامن، فقرة ٦-٢) ولكن معلومات زينوفون هذه غير مقبولة، فمن المؤكد أن كورش لم يقم بقيادة حملة ضد عرب سكان شبه الجزيرة، ولكنه قام بإخضاع العرب الذين يعيشون في بلاد ما بين النهرين، ومن المؤكد أيضاً أنه لم يفتح مصر، وبالنسبة الى قبرص، فبالإضافة الى كونها بعيدة عن قيام الفرس، وعلى العكس من ذلك يبدو أنها كانت تابعة للفرعون أماسيس Amasis في عام ٥٣٩ ق.م ونحن لا نعلم شيئاً

(١) موسوعة تاريخ الإمبراطورية الفارسية، مصدر سابق: ج ١، ص ١٢٤.

عن موقف المدن الفينيقية في هذا التاريخ، ولقد صرّح "عزرا" Ezra أنه عقب عودة اليهود، فقد زودوا أهل صيدا وصور بالماء والغذاء والزيت لكي يحضروا خشب الأرز من لبنان بحراً الى يافا، وذلك وفقاً لقرار ملك الفرس كورش، ولكت حتى في حالة وجود مثل هذا القرار، فهو لا يتضمن بالضرورة الخضوع السياسي للمدن الفينيقية للسلطة الفارسية الجديدة، وحتى لو كان الفينيقيون قد خضعوا لسيطرة الفرس فنحن لا نعرف شيئاً عن الأشكال المادية التي اتخذتها هذه السيطرة الفارسية، وترجع الأمور الحاسمة الى عهد قمبيز Cambyses، كملاحظة على ما يشير إليه هيرودوت Herodotus.

وفي الواقع فالأدلة تشير الى أن كورش قد قام بإنشاء إدارة مرزبانية ضخمة توحد بابل وباقي بلاد عبر الفرات، وذلك بعد أربع سنوات من الإستيلاء على بابل، ووفقاً لهيرودوت، فلقد امتدت عبر الفرات من مدينة رأس البسيط وحتى مصر، واشتمل إقليم (نوموس) على مدن فينقيا بالكامل، وذلك الجزء من سوريا المسمى فلسطين، وقبرص (الكتاب الثالث، فقرة ٩١). والحقيقة هل قام الفرعون أماسيس بالإتصال بكورش عقب الإستيلاء على بابل؟ نحن لا نعلم شيئاً عن هذا الأمر، عدا المعلومات المتناقضة التي سجلها هيرودوت، وكررها باقي المؤلفين<sup>(١)</sup>.

عموماً لقد كان كورش في ذلك الوقت حاكم أعظم إمبراطورية شهدها التاريخ، حيث بسط سلطان حكمه على أراض مترامية الأطراف<sup>(٢)</sup>.

وقال عنه ول ديورانت: كان كورش من الحكام الذين خلقوا ليكونوا

(١) المصدر نفسه: ج ١، ص ١٢٥ وما بعدها.

(٢) الامبراطورية الفارسية عبر التاريخ، مصدر سابق: ج ١، ص ١٠٣.

حكاماً. فلقد كان ملكاً بحق في روحه وأعماله،، قديراً في الأعمال الإدارية والفتوح الخاطفة المسرحية، كريماً في معاملته المغلوبين، محبوباً من أعدائه السابقين، فلا عجب والحالة هذه أن يتخذ اليونان منه موضوعاً لعدة روايات، وأن يصفوه بأنه أكبر أبطال العالم قبل الإسكندر.

ومما يؤسفنا أننا لا نستطيع أن نرسم له صورة موثوقاً بصحتها مما نقرره عنه في هيرودوت أو أكسنوفون، وذلك بأن أول الرجلين قد خلط تاريخه بكثير من القصص الخرافية، وأن الثاني قد جعل سيرته مقالة فنون الحرب تتخللها في بعض المواضع محاضرات في التربية والفلسفة. وكل ما نستطيع أن نقوله عنه واثقين - أنه كان وسيماً بهي الطلعة - لأن الفرس اتخذوه نموذجاً لجمال الجسم حتى آخر أيام فنهم القديم، وأنه أسس الأسرة الأكمينية أسرة (الملوك العظام) التي حكمت بلاد الفرس في أزهى أيامها وأعظمها شهرة. وأنه نظم قوات ميديا وفارس الحربية، فجعل منها جيشاً قوياً لا يقهر، وأنه استولى على سرديس وبابل، وقضى على حكم الساميين في غربي آسيا، وضم إلى الدولة الفارسية كل البلاد التي كانت من قبل تحت سلطان آشور، وبابل، وليديا، وآسيا الصغرى، حتى أصبحت تلك الإمبراطورية أوسع المنظمات السياسية في العالم القديم قبل الدولة الرومانية، ومن أحسنها حكماً في جميع عصور التاريخ<sup>(١)</sup>.

(١) قصة الحضارة: ول ديورانت، ترجمة د. زكي نجيب محمود، نشر دار الفكر، بيروت،

## الإسكندر بن فيليب المقدوني

٣٥٦-٣٢٤ ق.م

ولد الإسكندر المقدوني في السادس من شهر (هيكاتو مبيوس) الشهر الذي يسميه المقدونيون (لوس Lous) في عام ٣٥٦ ق.م وما أن استولى فيليب والد الإسكندر على (بوتيدا Potidaea) حتى تسلم رسائل ثلاثاً في آن واحد. الأولى تعلمه بأن (بارمينيو Parmenio) قد هزم الألبانيين في معركة عظيمة. والثانية تنبئه بأن حصانه قد خرج فائزاً في سباق الألعاب الأولمبية. والثالثة تبشره بولادة الإسكندر. فكان اغتباطه عظيماً بطبيعة الحال، وقد زاد في سروره أن العرافين أكدوا له بأن إبناً صادفت ولادته مثل هذه البشائر الثلاثة بلا شك هو جبار لا يغلب<sup>(١)</sup>.

ولقد اعتنى فيليب عناية فائقة بتربية ولده، فلم يكتف بأن اتخذ من أرسطاليس أعظم فلاسفة عصره معلماً للغلام الصغير، بل إشتراك الصبي في آرائه ودرّبه تدريباً عسكرياً تاماً. وقاد الخيالة في معركة خيرونيا وهو في الثامنة عشرة من عمره<sup>(٢)</sup>.

وكان وهو في مطلع شبابه يستقبل السفراء القادمين من ملك الفرس في غياب أبيه. ويدخل معهم في مناقشات كثيرة، فينال إحترامهم بدمائة وطيب

(١) تاريخ اباطرة وفلاسفة الإغريق: بلوتارك (فلوטר خوس)، ترجمة جرجيس فتح الله، نشر الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط ١، ٢٠١٠م - ١٤٣٠هـ: ج ٣، ص ١٢٥٧.  
(٢) موجز تاريخ العالم: ه.ج. ويلز، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، نشر دار اقلام عربية، القاهرة، ط ١، ٢٠١٧: ص ١٢٤.

مجلسه، وكانوا يعجبون كثيراً بأسئلته التي تسمو عن الفهاهة والصبيانية. فمثلاً يستفسر منهم عن أحوال الطرق وطبيعة المسالك الى داخل آسيا، وعن عادات ملكهم، وكيف يواجه اعداءه في الحرب، وكم هي القوات التي يستطيع زجها في ساحة القتال. فيمتلئون إعجاباً به، فيعدون كفاءة فيليب المشهورة التي طبقت شهرتها الآفاق، لا شيء بالمقارنة الى النضوج المبكر الذي بدا في ابنه، وفي شرف الأغراض التي يتوخاها<sup>(١)</sup>.

وعندما جرّد فيليب حملته على البيزنطيين، عين الإسكندر نائبه في مقدونيا، وهو لم يتجاوز الستة عشر ربيعاً، وفوض إليه ختمه. فلم يركن الإسكندر الى العطالة، وجرّد حملة على (الميدي Maedi) الثائرين وأخضعهم. واستولى على مدينتهم الكبرى عنوة وطرّد سكانها البرابرة. وأسكن محلهم مستعمرين من عدّة قوميات، وأعاد تسمية المدينة بإسمه (اسكندر و بوليس). وفي موقعة (خيرونيا) التي خاضها أبوه ضد الإغريق، قيل إنه كان أول جندي في الجيش هجم على (العصبة الثيبية المقدسة)<sup>(٢)</sup>.

وكان للإسكندر من العمر عشرون سنة عندما قتل أبوه، وخلفه في حكم المملكة التي كانت تكتنفها المخاطر العظيمة وتمزقها الفوضى ومكائد الأعداء الحاقدين. ومن ذلك أن الشعوب البربرية التي كانت تحاد مقدونيا أبت أن يحكمها إلا أمير من أمرائها<sup>(٣)</sup>.

ولذلك انفق عاماً كاملاً في إرهاب البرابرة على طول الحدود الشمالية

(١) تاريخ اباطرة وفلاسفة الإغريق، مصدر سابق: ج ٣، ص ١٢٥٨.

(٢) المصدر نفسه: ج ٣، ص ١٢٦٣.

(٣) المصدر نفسه: ج ٣، ص ١٢٦٤.

لمقدونيا، وفي قمع طيبة التي اغتنمت هذه الفرصة لإشعال الثورة<sup>(١)</sup>.

وبعد القضاء على ثورة البرابرة، وتبديد كل فكرة تراودهم بشن حرب، فقد قاد حملة مفاجئة على بلادهم، وصل بها الى ضفاف الدانوب وأوقع هزيمة نكراء بـ (سيمروس Symrus) ملك الترياليين Triballians في معركة فاصلة. ولما وردته انباء قيام (الشيبيين) بثورة عليه زحف عليهم بإيقاف مع الأثينيين من مضيق (ترموبيلي) قائلاً قولته المأثورة:

لقد سمّاني ديموستينس (طفلاً) عندما كنت في (اليريا) وفي بلاد (تريبالا) وسمّاني (شاباً) عندما كنت في (تساليا). ولكني سأبدو له رجلاً عند وصولي أسوار أثينا.

وبعد ذلك اجتمع الإغريق وأعلنوا التزامهم الانضمام الى الإسكندر في حربه مع الفرس كما أمروه قائداً عاماً لهم. واختلف الناس في تقرير عدد جيشه، فأولئك الذين مالوا الى التقليل منه قالوا: أنه كان يتألف من ثلاثين ألفاً من الرجال، وأربعة آلاف من الخيالة. أما أولئك الذين بالغوا في رفع عدده، فقد قالوا إنه كان في حدود اربعة وثلاثين ألفاً من الرجال وثلاثة آلاف خيال. وفي تغطية مصاريف ومتطلبات جيشه منح لبعضهم مزارع ولآخرين أقطع قرى أو غلات قرى أو عوائد مرفأ بلدة، وهكذا حتى أنه أقطع ومنح وأوقف كل الأملاك العائدة للتاج المقدوني مما دفع أحد اصدقائه للقول:

- ماذا ستبقي إذن لنفسك؟

(١) تاريخ الحضارة الهيلينية: أرنولد توينبي، ترجمة رمزي جرجيس، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣م: ص ٢٠٦.

- فأجابه الاسكندر: آمالي.

- فرد عليه صاحبه بقوله: إذن سيكون جنودك شركاء لك في ذلك.

فبهذه العزيمة الثابتة، وبتلك الفكرة الرصينة عبر الإسكندر المضايق<sup>(١)</sup>.

ثم عبر البحر بجيشه الى آسيا في ٣٣٤ ق.م وهزم جيشاً فارسياً في معركة جرانيكوس. واستولى على عدد من المدن في آسيا الصغرى، ولزم الإسكندر ساحل البحر، وذلك لأن الفرس كانوا يسيطرون على أساطيل صور وصيدا، فلو أنه ترك وراءه ميناء معاديا دون حامية تحرسه، لجاز أن ينزل به الفرس قواتهم للإغارة على مواصلاته وقطع خط رجعتهم، والتقى قرب اسوس ٣٣٣ ق.م بجمع هائل مختلط تحت قيادة دارا الثالث وهزمه هزيمة ساحقة<sup>(٢)</sup>.

وبعدها فقدت فارس معظم قوتها، ولم تحاول الدفاع عن مصر حينما جاء إليها الإسكندر غازياً<sup>(٣)</sup>.

وسلمت صيدا للإسكندر، ولكن صور قاومت بعناد، وأخيراً فتحت بعنوة، وفتحت بعدها غزة، وعند قرب نهاية ٣٣٢ ق.م دخل الإسكندر مصر واستولى من الفرس على مقاليد حكمها وبنى الإسكندر مدينتي الإسكندرية بالشام، والإسكندرية بمصر. وفي ٣٣١ ق.م تقدم الإسكندر في مصر بجيشه الى بابل، وكانت لا تزال بلداً ثرياً هاماً، ثم الى سوسا (سوس) وبرسيبوليس. وما

(١) تاريخ اباطرة وفلاسفة الإغريق، مصدر سابق: ج ٣، ص ١٢٦٤.

(٢) موجز تاريخ العالم، مصدر سابق: ص ١٢٢.

(٣) معالم تاريخ الشرق الادنى القديم: د. محمد أبو المحاسن عصفور، نشر دار النهضة

العربية، بيروت، ط ١، بدون سنة طبع.



لبث الإسكندر بعد ذلك أن جعل من آسيا الوسطى ميداناً عسكرياً لعرض جيشه على الأنظار، وأنطلق به الى أقصى تخوم الإمبراطورية الفارسية، وتعقب الإسكندر (دارا) حتى أدركه بعد أن قتله شعبه فوجده قد مات<sup>(١)</sup>.

وهناك مواقف تحكي نبيل وأخلاق الإسكندر مع عائلة الملك الفارسي (دارا) منها:

فبما كان يهيم بالعشاء، أبلغ أن أم داريوس القائد الفارسي الكبير وزوجه وبنتيه الباكرتين اللاتي كن بين الأسرى، قد غشيهن كرب عظيم، وحزن أليم لما شاهدت عجلته الحربية وقوسه، فتوهمن أنه قتل. فظل برهة ساكناً، وقد غلب تأثير حزنهن فيه على تأثير نصره. وأرسل إليهن أحد جنده ليعلمهن بأن داريوس ما زال حياً، ولا حاجة تدعو الى الخوف من أي أذى يلحقه الاسكندر بهن، لأنه لم يشن الحرب على وليهن، إلا لغرض فتح الأمصار. وأمر أن يعطين كل ما أعتدن الإستمتاع به عند داريوس. ولم يسع السيدات الأسيرات إلا أن يرحبن بهذه الرسالة أجمل ترحيب لاسيما بعد اقترانها بأعمال أخرى لا تقل عنها إنسانية وكرماً. ولم يعمد الى إنقاص عدد بطانتهم وخدمهن، ولا من تقليل الإحترام الذي كن يتمتعن به.

وزاد في النفقات التي كانت تجرى لهن سابقاً. على أن أشرف وأنبل تصرف خليف بالملوك قام به تجاههن هو أنه عامل تلك السيدات العظيمات حسب مقتضى مقامهن وأخلاقهن. فممنع أن يسمعن أو ينلن أو يجابهن بأي شيء غير لائق، فبدا لهن وكأنهن لا يعشن في معسكر عدو، بل في هيكل أو في حجرات

(١) ينظر موجز تاريخ العالم، مصدر سابق: ص ١٢٣.

مقدسة مخصصة للعداري حيث يستمتعن بخلواتهن المصانة المحرمة. وكانت زوج داريوس تعد أجمل أميرات زمانها. كما كان زوجها أطول وأجمل رجال زمانه، ولم تكن بنتاهما بأقل من والديهما أوصافاً وميزات.

إلا أن الإسكندر الذي وجد الأليق بالملوك، أن يشكموا أنفسهم من أن يذلوا اعداءهم، لم يحاول مطلقاً مطارحة أية واحدة منهم بالحب. بل لم يعمد الى الإجتماع بأية امرأة قبل الزواج. ولم يظهر إهتماماً قط ببقية الأسيرات الفارسيات، مع جمالهن الباهر، أكثر من قوله مازحاً: ان الفارسيات هن قذى للعين فطبع، مقارنة ذلك بمظهر جمال خلقه وفرط ضبط نفسه. وقد أمر بأخذهن بعيداً عنه كما ترفع من أمامه الكثير من التماثيل والصورة الجامدة الخالية من الحياة.

وسمع بأن (دامون) و (طيمو ثيوس) وهما جنديان من جنود (بار مينو) المقدونيين قد اعتديا على زوجات بعض الأجانب المرتزقة في جيشه، فكتب الى (بار مينو) يطلب منه بشكل لا مردّ له، أن ينفذ فيها حكم الموت إن وجدتهما مذنبين، كما ينفذ الحكم في أي حيوانين مفترسين لم يخلقا إلا لإثارة المتاعب والفوضى للبشرية.

وأضاف يقول في رسالته هذه، بأنه لم يكن قط ليرى أو ليريد أن يرى زوج (داريوس) كلاً، ولا أن يسمح لأي أحد أن يتكلم عن جمالها بمحضره<sup>(١)</sup>.

وبعد أن إنتصر على (دارا) تقدم وهدم حصون فارس، وبيوت النار، وقتل الهرابذة، وأحرق كتبهم، واستعمل على مملكة فارس رجالاً، وسار الى الهند،

(١) ينظر تاريخ اباطرة وفلاسفة الإغريق، مصدر سابق: ج ٣، ص ١٢٧٥.

فقتل ملكها، وفتح مدنها، وضرب بيوت الأصنام<sup>(١)</sup>. ثم صير على الهند ملكاً من قبله من أهل الهند يقال له (كيهن) وانصرف<sup>(٢)</sup>.

ثم سار منها الى الصين، ويذكر ابن الأثير هنا حادثة وقعت بين الإسكندر المقدوني وملك الصين فيها شيء من العبرة واللطافة والحكمة المتبادلة وهي:

فلما وصل الإسكندر الى الصين أتاه حاجبه في الليل، وقال: هذا رسول ملك الصين، فأحضره، فسلم وطلب الخلوة، ففتشوه فلم يروا معه شيئاً، فخرج من كان عند الإسكندر، فقال: أنا ملك الصين جئت أسألك عن الذي تريده، فإن كان مما يمكن عمله عملته، وتركت الحرب. فقال له الإسكندر: ما الذي آمنك مني؟ قال: علمت أنك عاقل حكيم، ولم يكن بيني وبينك عداوة ولا ذحل<sup>(٣)</sup>، وأنت تعلم أنك إن قتلتي، لم يكن قتلي سبباً لتسليم أهل الصين ملكي إليك، ثم إنك تنسب إلى الغدر، فعلم أنه عاقل. فقال له: أريد منك ارتفاع ملكك لثلاث سنين عاجلاً، ونصف الإرتفاع لكل سنة، قال: قد أجبتك ولكنك أسألني كيف حالي؟ قال: قل كيف حالك؟ قال: أكون أول قتيل لمحارب، وأول أكلة لمفترس، قال: فإن قنعت منك بإرتفاع سنتين؟ قال: يكون حالي أصلح قليلاً، قال: فإن قنعت منك بإرتفاع سنة؟ قال: يبقى ملكي وتذهب لذاتي، قال: وأنا أترك لك ما

(١) الكامل في التاريخ: عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد ابن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف (بابن الأثير) (٥٥٥ - ٦٣٠ هـ) تحقيق الشيخ خليل شبحا، نشر دار المعرفة، بيروت، ط ٣، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م: ج ١، ص ٢٤٠.

(٢) تاريخ اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، نشر شركة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، ط ١، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م: ج ١، ص ١٨٤.

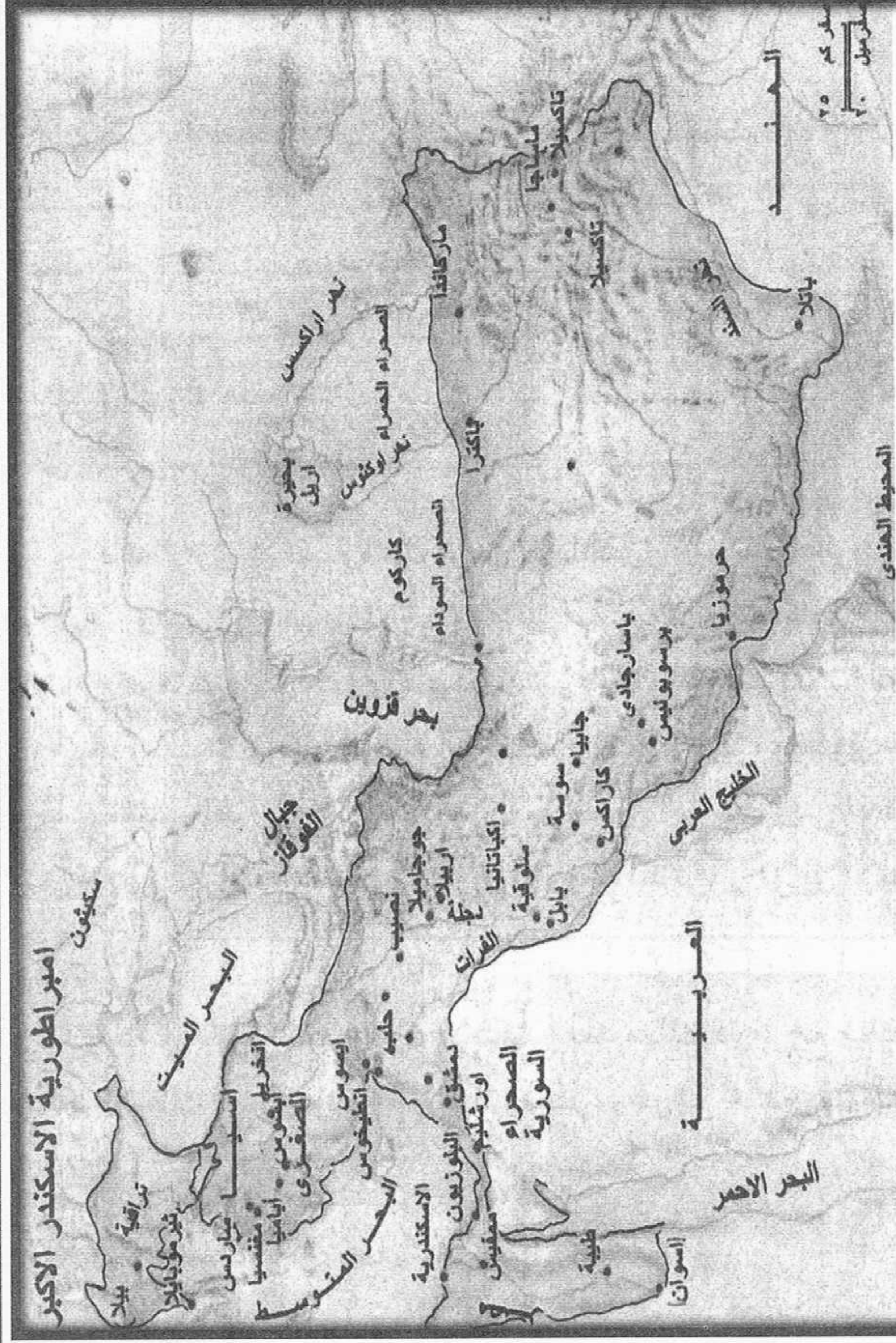
(٣) الذحل: الثأر.

مضى، وأخذ الثلث لكل سنة، فكيف يكون حالك؟ قال: يكون السدس للفقراء والمساكين ومصالح البلاد، والسدس لي، والثلث للعسكر، والثلث لك، قال: قد قنعت منك بذلك. فشكره وعاد، وسمع العسكر بذلك ففرحوا بالصلح.

فلما كان الغد خرج ملك الصين بعسكر عظيم، أحاط بعسكر الإسكندر، فركب الإسكندر والناس، فظهر ملك الصين على الفيل وعلى رأسه التاج، فقال له الإسكندر: أغدرت؟ قال: لا، ولكنني أردت أن تعلم أنني لم أطعك من ضعف، ولكنني لما رأيت العالم العلوي مقبلاً عليك، أردت طاعته بطاعتك، والقرب منه بالقرب منك. فقال له الإسكندر: لايسام مثلك الجزية، فما رأيت بيني وبينك من يستحق الفضل والوصف بالعقل غيرك، وقد اعفيتك من جميع ما أردته منك، وأنا منصرف عنك، فقال له ملك الصين: فلست تخسر، وبعث إليه بضعف ما كان قرره معه، وسار الإسكندر عنه من يومه، ودانت له عامة الأرضين في الشرق والغرب، وملك التبت وغيرها<sup>(١)</sup>.

ثم عاد بحذاء ساحل بلوخستان حتى وصل الى سوس مرة ثانية في عام ٣٢٤ ق.م وعند ذلك أخذ يستعد لتنظيم امبراطوريته العظيمة (ينظر المصور رقم ١٥) وشد ما بين اجزائها من روابط، فحاول أن يفوز بمحبة رعاياه الجدد، بأن إتخذ ثياب العاهل الفارسي وتاجه، فأثار ذلك غيرة قواده المقدونيين الذين لقي منهم شراً كبيراً، ثم عقد قران كثير من الضباط المقدونيين بنساء فارسيات وبابليات، وهو ما يسمى (بزواج الشرق والغرب) على انه لم يعمر لينفذ الترابط

(١) الكامل في التاريخ، مصدر سابق: ج ١، ص ٢٣٩، وذكر هذه الحادثة: الثعالبي في غرر أخبار الفرس وسيدهم ص ٤٣٩. وذكره النويري في نهاية الأرب ج ١٥، ص ٢٥١. وذكره ابن حجة الحموي في (ثمرات الاوراق في المحاضرات) ص ١٧٣-١٧٤.



أطلس الكتاب المقدس: ص ٢٠١  
 المصوّر رقم (١٥)

٢٥  
 ٢٠  
 كيلومتر  
 ميل

المن

المر

البحر الاحمر

المحيط الهندي

امبراطورية الاسكندر الاكبر

سكيتون

البحر الميت

الصحراء السورية

الاسكندرية

الصحراء السورية

السوانا

الخليج العربي

حرموزيا

باتلا

بحر قرون

الصحراء السوداء

الصحراء الحمراء

نهر الراكس

بحيرة اريط

جبال القرقاز

البحر المتوسط

البحر الميت

البحر الميت

البحر الميت

البحر الميت

البحر الميت

البحر الميت

البحر الميت

البحر الميت

البحر الميت

البحر الميت

البحر الميت

البحر الميت

البحر الميت

البحر الميت

البحر الميت

البحر الميت

البحر الميت

البحر الميت

البحر الميت

الذي أعدّ له<sup>(١)</sup>.

وكتب للإسكندر الحياة ليسمو عن ذلك المبدأ الحقير الذي كان ينادي باللهيلينيين السيادة على غيرهم من بني البشر، ويأخذ بالمثل الأعلى الكريم الذي يقول بأخوة الإنسانية جمعاء. فإنه عندما التقى بالفرس، لمس فيهم تلك الفضائل التي مكنتهم من أن يحكموا ذلك الجزء الكبير من العالم الى ما يزيد على مائتي سنة، فاستهوته هذه الخلال وملكته عليه أقطار نفسه، فداعب خياله بدوره، حلم إنشاء إمبراطورية عالمية يحكمها الفرس والهيلينيون متضامين<sup>(٢)</sup>.

وقال الرازي في تفسيره: إن الإسكندر المقدوني جمع ملوك الروم والمغرب وقهرهم وانتهى إلى البحر الأخضر ثم إلى مصر وبنى الإسكندرية، ثم دخل الشام وقصد بني إسرائيل وورد بيت المقدس. وذبح فيه مذبحه، ثم انعطف إلى أرمينية، وباب الأبواب، ودان له العراقيون والقبط والبربر، واستولى على إيران وقصد الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ورجع إلى خراسان وبنى المدن الكثيرة ثم رجع إلى العراق، ومات في شهر زور أو رومية المدائن، وحمل إلى الإسكندرية، ودفن بها<sup>(٣)</sup>.

وجاء في تاريخ الطبري: إن الإسكندر بعد مهلك دارا، جمع ملك دارا الى ملكه، فملك العراق والروم والشام ومصر، وعرض جنده بعد هلاك دارا

(١) موجز تاريخ العالم، مصدر سابق: ص ١٢٤.

(٢) تاريخ الحضارة الهيلينية، مصدر سابق: ص ٢٠٦.

(٣) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي (٥٤٤-٦٠٤هـ)، حققه وعلق عليه عماد زكي البارودي، نشر المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط ١، بدون سنة طبع: ج ٢١، ص ١٤٩.

فوجدهم، فيما قيل، ألف ألف وأربعمائة ألف رجل، منهم جنده ثمانمائة ألف، ومن جند دارا ستمائة ألف. وقد استعمل على مملكة دارا رجالات من أصحابه وسار قدماً إلى أرض الهند، ودانت له عامة الأرضين، وملك التبت والصين، ودخل الظلمات مما يلي القطب الشمالي والشمس جنوبية<sup>(١)</sup>.

وكان يوم مات في السنة الثالثة والثلاثين من عمره في عام ٣٢٣ ق.م. ولما سأله قواده لمن يترك ملكه، أجابهم بقوله: (إلى اعظمتكم قوّة)<sup>(٢)</sup>.

هذا ولقد كان الاسكندر المقدوني معتدلاً في شرابه وطعامه، ويلبس الأشياء الخشنة، وكان بعض معلميه ومدريه قد تعود على فتح الصناديق والخزائن وتفتيش الأثاث في غرفته، ليثبت من أن أمه لم تترك له شيئاً فيه طابع الرقة والخنوثة. وبعكس ما اعتاده القادة الآخريين وميولهم للهو والخمر أو النوم أو مطارحة الحب أو أي عارض آخر يؤخره عن عمل عندما يتطلب منه ذلك. وليس ثمة دليل أقوى على ذلك، هو تحقيقه هذه المآثر العظيمة والكثيرة في مثل ذلك الزمن القصير. فلقد اعتاد في الأوقات الاعتيادية الاستيقاظ مبكراً، ثم يتناول الفطور، ويقضي بقية النهار في الصيد، أو في كتابة المذكرات أو إصدار القرارات في الأمور العسكرية أو في المطالعة، وتراه في التجريدات الحربية التي تتسم بطابع العجلة والسرعة لا يني يتدرب على الرمي أو أن يركب عجلة ويترجل منها وهي تجري بأقصى سرعتها. وكان محباً للضيوف وشديد الإكرام

(١) تاريخ الطبري: أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ)، نشر دار أحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م: ج ١، ص ٣٧٤. والكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج ١، ص ٣٧٤.

(٢) قصة الحضارة، مصدر سابق: ج ١، ص ٥٣٨.

لهم. وكان قليل الطعام بعيداً عن النهم فإن أرسلت إليه سمكة مثلاً أو فاكهة نادرة، فرّقها على أصحابه، وفي أغلب الأحيان تراه لا يحتفظ بشيء منها لنفسه<sup>(١)</sup>.

هذا وقد جاء في كتاب الملل والنحل للشهرستاني ذكر فضائل كثيرة للإسكندر المقدوني نورد الآن بعضاً منها:

- قيل له: إنك تعظم مؤدبك أكثر من تعظيمك والدك! قال: لأن أبي كان سبب حياتي الفانية، ومؤدبي هو سبب حياتي الباقية.

- وجلس الإسكندر يوماً فلم يسأله أحد حاجة، فقال لأصحابه: والله ما أعد هذا اليوم من أيام عمري في ملكي. قيل: ولم أيها الملك؟ قال: لأن الملك لا يوجد التلذذ به إلا بالجود على السائل، وإغاثة الملهوف، ومكافأة المحسن، وإلا بإنالة الراغب، وإسعاف الطالب.

- وتشاور الحكماء في أن يسجدوا له إجلالاً وتعظيماً، فقال: لا سجود لغير باري الكل.

- وأغلظ له رجل من أهل أثينية فقام إليه بعض قواده ليقابله بالواجب، فقال له الإسكندر: دعه، لا تنحط إلى دناءته، ولكن إرفعه إلى شرفك.

- من الواجب على أهل الحكمة أن يسرعوا إلى قبول اعتذار المذنبين، وأن يبطئوا عن العقوبة.

- وقال: الذي يريد أن ينظر إلى أفعال الله عز وجل مجردة، فليعف عن

(١) تاريخ اباطرة وفلاسفة الإغريق، مصدر سابق: ج ٣، ص ١٢٧٦.



الشهوات<sup>(١)</sup>.

وعن سبب تسميته بذئ القرنين قيل لأنه طاف قرني الدنيا، يعني جانبيها شرقها وغربها، وقيل كان له قرنان أي ضفيريّتان، وقيل انقرض في وقته قرنان من الناس، أو لأنه ملك الروم وفارس، وقيل كان لتاجه قرنان<sup>(٢)</sup>. وقيل: كان يلبس خوذة في الحرب بها قرنان، وقيل: رسم ذاته على بعض نقوده بقرنين في رأسه<sup>(٣)</sup>.  
والحقيقة ان مسألة القرنين الموضوعين على التاج، أو مسألة لبس خوذة حرب بها قرنان، أو أن له ضفيريّتان، لا تصلح لأن تكون أسباباً لتسميته بذئ القرنين، كونه إمتاز بهذا الشيء. لأن مثل هذه الأمور، الظاهر أنها كانت سائدة في تلك المجتمعات، حيث كان يستعملها الملوك والقادة، وعلى سبيل المثال كان (نرام سين) حفيد سرجون الأكدي يظهر بالمنحوتات بإرتداء لباس الرأس ذي القرنين<sup>(٤)</sup>. وكان هذا امتيازاً لا يعطى إلا للآلهة<sup>(٥)</sup>.

إذن علينا أن نبحث ونركز على أسباب أخرى يكون ذو القرنين قد انفرد وتميز بها دون غيره، حتى استحق أن يلقب بهذا اللقب. ولنبتعد عن ذكر مثل هذه الأسباب التي يشترك الكثير بها، وبالتالي لا تعتبر علامة مميزة للفرد المتلبس بها.

(١) ينظر: الملل والنحل: أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (٤٧٩ - ٥٤٨هـ)، تحقيق سيد كيلاني، نشر دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م: ج ٢، ص ١٣٧ وما بعدها.

(٢) تفسير البحر المحيط: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (٦٥٤ - ٧٥٤هـ)، نشر دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م: ج ٦، ص ١٥٨.

(٣) تفسير التحرير والتنوير، مصدر سابق: ج ١٥، ص ١٢٣.

(٤) ينظر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: ص ٤٠٢.

(٥) ينظر: تاريخ الحضارات العام: ج ١، ص ١٤٢.

## التنوع البشري في الرحلات الثلاثة لذي القرنين

لقد بين لنا القرآن الكريم الرحلات الثلاثة التي قام بها ذو القرنين، وكيف أنها كانت بجهات مختلفة في الأرض، ولقد حصرت بتلك النماذج من البشرية في ذلك الزمن، كونها قد مثلت التنوع في مستوى الوعي الذي كانت تمتلكه تلك المجتمعات. وكيف رأينا الاختلاف والتباين في النسق المعرفي واضحاً جلياً فيما بينهم. ولو كانت هناك صورة إجتماعية ومعرفية أخرى تختلف في مبانيها واسسها عن تلك الأنماط المعرفية، لذكرها القرآن الكريم، ولما تحاشاها، خصوصاً إذا ما عرفنا ان ذا القرنين كان جاداً بايصال سبل الهداية ومساعدة الأقسام بالقدر المستطاع، وهذا ما جعله مستحقاً بأن يأتيه الله من كل شيء سبباً.

علماً إن هذا الأمر يسري حتى وإن وجدت أقوام أخرى لها صور إجتماعية وبيئية تختلف عن التي ذكرت في القرآن، فإنها تندرج تحت واحد من الأنماط المعرفية والسلوكية الثلاث، ولكنها ظهرت بمستوى من مستويات ذلك النمط، بإعتبار أن لكل نمط عدّة مستويات، متغيرة الصورة، يختار الظرف والمحيط الخارجي للصورة المناسبة ليظهر من خلالها.

إذن نستطيع القول إن المشاكل الرئيسية للبشرية تنحصر في تلك المشاكل التي وجدت عند أولئك الأقسام، وأما المشاكل الأخرى فإنها ترجع بالأصل إليها. أو قل إنها تتفرع وتتكاثر منها. وهذه المشاكل كانت تتمثل بما يلي:

- في الرحلة الأولى:

هناك قوم كافرين، عندما عرض لهم ذو القرنين سبل الهداية والإيمان بالإله الواحد، إنقسموا الى قسمين:

الأول: الذين آمنوا، وهم الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه.

الثاني: الذين أصرّوا على الكفر، وأولئك الذين يمثلون طبقة أهل العناد والتكبر.

- في الرحلة الثانية:

التقى بقوم يمثلون الجهل وعدم الوعي بأعلى درجاته.

- في الرحلة الثالثة:

كان هناك قومان:

أولاً: القوم الذين إلتقى بهم وتحدث معهم وعرف مشاكلهم، وكانوا قوماً عقلاء يمتلكون مستوى إقتصادي معتد به، ولكنهم كانوا في مستوى حضاري وفكري بسيط، لأنهم لم يستطيعوا إيجاد وسائل يستطيعون بها حماية أنفسهم وممتلكاتهم من يأجوج ومأجوج، ولذلك طلبوا المساعدة من ذي القرنين.

ثانياً: وهم القوم الذين لم يواجههم أو يلتقي بهم ذو القرنين والذين عبر عنهم القرآن الكريم بيأجوج ومأجوج، وأولئك كانوا يمثلون أعلى مستويات الإفساد في الأرض، لما يمتلكونه من قوى مادية كبيرة يصعب مواجهتها.

## لماذا لم يتم القضاء النهائي على يأجوج ومأجوج؟

وهنا في هذا الصدد ونحن نتكلم عن يأجوج ومأجوج، هناك مسألة مهمة جداً لم يتم الالتفات إليها من قبل، ومن ثم مناقشتها والوصول الى مباني يمكن من خلالها إيجاد أسباب مقنعة تحيط بالمسألة التي نريد أن نناقشها، هذه المسألة هي أن ذا القرنين عندما اتبع سببا وبلغ بين السدين، وأخبره القوم الذين وجدهم هناك عن فساد يأجوج ومأجوج في الأرض. والسؤال هنا لماذا لم يتم القضاء النهائي على يأجوج ومأجوج، وتخليص الأرض من ظلمهم وإفسادهم، ولماذا اكتفى ببناء السد أو الردم. فهو والحال هذه، لم يعالج الأمر بشكل نهائي وقطعي، وإنما اكتفى بالحل المرحلي، وهناك وقت معلوم يجعل فيه ذلك السد أو الردم دكاً، لتظهر يأجوج ومأجوج مرة أخرى وبشكل أوسع، بحيث يصفهم القرآن الكريم: (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) الانبياء: ٩٦. ليعثوا في الأرض فساداً ويكثروا من التدمير والخراب. وخصوصاً أننا نعلم أن ذا القرنين قد نال صيتاً عظيماً بسيطرته على مشارق ومغارب الأرض المسكونة، أو الأهله بالسكان في ذلك الحين، وقد دان ورضخ له كل من وصلته قوات ذي القرنين، هذا فضلاً عما أخبر القرآن بالأشياء والأمور التي حازها دون غيره، والتي من أهمها الدعامتان الرئيسيتان:

الأولى: التمكين في الأرض (إِنَّا مَكِّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ).

الثانية: اعطاؤه مقدرة الوصول الى معرفة الأسباب التي يحقق بها أهدافه (وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا).

هذه الإمكانيات التي وهبها الله تعالى له، كانت تبدو للوهلة الأولى أنها كافية في أن ينهار أي عدو أمامه، ومن ثم استسلامه لما يريد منه. خصوصاً إذا ما عرفنا انه انطلق في حملة تستهدف نشر دين الله ومسألة التوحيد بين الأقسام الوثنية، حتى وصل الى بقاع مجهولة لم يصلها من قبل أحد غيره.

ويمكن الإجابة عن ذلك بما يلي:

أولاً: أراد ذو القرنين أن يبين أمراً مهماً، ألا وهو أن الأمور والمشاكل الموجودة في هذه الدنيا لا يمكن أن تُحل كلها بالحوارق والإمكانيات الإلهية المباشرة، من دون أن يكون هناك دور يؤديه الإنسان لينعقد النصر من خلاله. وكما قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ..) الاعراف: ٩٦. فإذاً هذا الشعور يجب أن يكون ملازماً عند افراد البشرية. وكون الإيمان بالله تعالى وخشيته جزء مهم في إيجاد أسباب التغلب على المشاكل وعلى أعداء الإنسانية بشكل عام. وكما أننا كثيراً ما نبحث عن تدخل إلهي مباشر لإزالة الخطر، فعلى نفس الإندفاع والشعور أن نوجد أسباب ترفع بها المشاكل ليكون لنا جزء كبير في هذه المساهمة.

ومن أهم هذه الأمور هو الإيمان الواعي بالله تعالى والعمل بتقواه، ليكون بالنتيجة هذا عاملاً على الإبداع وزيادة في القوة المعنوية والمادية التي ينكسر أمامها أي اعتداء على الأنفس أو الممتلكات أو العقيدة.

ثانياً: إن هذا الوجود الدنيوي قائم بقطبين هما الشر والخير، وهما يتصارعان منذ هبوط آدم عليه السلام وقتل قابيل لهاييل والى يوم ظهور المصلح العالمي المتمثل بالإمام المهدي عليه السلام، حينها فقط سيتم القضاء على الشر بنهاية

ابليس، ولعل الآية المباركة تشير الى هذا الأمر، (قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ \* قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ \* إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) الحجر: ٣٦-٣٧-٣٨. فمنذ ذلك الحين والصراع بينهما يتزايد، فكلما زاد الإيمان والوعي عند الأمة المخلصة، زاد بالطرف الآخر العناد، وتنوعت جهات الشر، وازدادت ضغوطها وآثارها. وهكذا يستمر حتى يصل المجتمع البشري الى مستويين عالين، المستوى الإيماني العالي الذي لن يضره شيء، بحيث يؤثر على إيمانه، وذلك لما وصل إليه من قمة في الوعي والنضج العقلي والإيماني، ودخوله دائرة الإخلاص المطلوبة من وجوده في هذه الدنيا.

والمستوى الآخر هو المستوى الشيطاني العالي في تسافله الذي لن يهتدي بأية وسيلة من وسائل الهداية التي تعرض له، مضافاً الى أنه لن يكف عن عمله العدواني ضد الإنسانية ككل، خصوصاً المؤمنين منهم. وقد يكون ذو القرنين مدركاً لهذا الأمر بشكل كبير، ولذلك كان علاجه مرحلياً ولم يكن جذرياً.

ثالثاً: إن قيادة العالم بشكل كامل، بحيث لا تغيب عنه منطقة من مناطق الأرض إلا وقد حكمها بعدله ومساواته وتخليصها من الظلم والفساد، تحتاج الى قيادة من طراز خاص، قيادة تكون ذات قدرات وإمكانات كبيرة، بحيث تكون مناسبة لإستيعاب كل هموم ومشاكل الأرض. منذ أن عمّرها الإنسان والى جيلنا الحاضر ولما بعده. هذا الكم الهائل من الأجيال وتعاقبها، ونموها وتبدلها، وما يحدث فيها من تغيرات حضارية، لم يكن ذو القرنين قادراً ومؤهلاً بشكل كامل وتام لهذا الأمر. وهو قد يعلم بذلك وأن الأمر غير منوط به، وإنما لقائد أكثر منه قدرة على تنفيذ هذه المهمة.

ولا يستبعد أن يأجوج ومأجوج كانوا أقواماً لهم إمكانات عالية، وطرق

للإختفاء والظهور كبيرة، لم يكن بإمكان ذي القرنين اجتيازها ودحرجها ببساطة، ولذلك استغل غيابهم، وردم الفتحة التي كانوا يخرجون منها، ومعلوم أنه مهما كان البناء قوياً ومتيناً فإنه مع مرور الزمن سوف يتآكل ويتفتت شيئاً فشيئاً. ولذلك كان لابد من أن يأتي اليوم الذي سيخرجون فيه مرة أخرى. وحينها سوف يكون القائد العالمي المذخور لهم بالمرصاد، وسيتم القضاء النهائي على يأجوج ومأجوج على يديه المباركتين وجنده المخلصين.

ومن هذا يعلم أننا في هذا الوجود الدنيوي، أن البشرية قد عاشت مع نوعين من القيادة، فتارة تعاملت مع وجود قائد ومصالح له قابلية قيادة العالم، وتارة مع قائد مصالح ولكن قيادته وإن كانت فاعلة وكبيرة، لكنه لم يكن بمقدوره القيام بالقيادة العالمية الكبرى.

وفي كلا القيادتين، لم تكن الظروف مؤاتية في هذا العالم، لأن يمارسا دورهما في القيادة، ومن ثم بسط العدل والمساواة في جميع اصقاع الأرض. ولذلك مثل أولئك القادة يصبرون ويعمل كلٌّ منهما على تهيئة قواعد إيمانية يكون لها دور في بناء الأسس المتينة وتهيئتها للقائد العالمي الذي ستتوفر له الظروف المناسبة، والتي يتمكن بها من النزول العملي لقيادة المجتمع العالمي.

والآن بعد أن عرضنا بعض الأسباب التي منعت ذا القرنين من القضاء النهائي على يأجوج ومأجوج. هناك أطروحة للسيد الشهيد محمد الصدر قدس سره لفهم يأجوج ومأجوج، منطلقاً من الفهم الرمزي للأخبار، وودت أن أذكرها لأهميتها، يقول: مرت البشرية، بحسب ما هو المقدر لها في التخطيط الإلهي العام، بشكلين منفصلين من الأيدولوجية. الشكل الأول: الإتجاه الذي

ينفي ارتباط العالم بخالقه بالكلية. ونستطيع أن نسميه بالمادية المحضة أو الإلحاد التام.

الشكل الثاني: الإتجاه الذي يربط العالم بوجود لخالقه، بشكل وآخر.

ولكل من هذين الإتجاهين فروعه وإنقساماته التي تختلف باختلاف المستوى العقلي والحضاري للمجتمع البشري. ويمكن القول بأن تاريخ البشرية على طوله عاش في الأعم الأغلب الإتجاه الثاني، بمختلف مستوياته، ونتيجة لجهود الأنبياء وتربية الصالحين، ومهما فسد المنحرفون والمصلحيون، فإنهم لم يخرجوا عن الإعتراف الغامض بالخالق الحكيم. ويكفينا مثلاً على ذلك قوله تعالى على لسان مشركي قريش: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) الزمر: ٢٩/٣. فهم بالرغم من تطرفهم بالكفر، مؤمنون بالخالق، ومن ثم مندرجون في الإتجاه الثاني. وعلى هذا الغرار. يقابل ذلك، الإتجاه الأول الرافض لوجود الخالق تماماً.. والمعطي زمام قيادة الإنسان بيد نفسه، بالرغم من قصوره وتقصيره.

ولم يوجد على مر التاريخ لهذا الإتجاه وجود مهم، فيما عدا الأفكار الشخصية المتفرقة في التاريخ. ما عدا مرتين فيما نعرف: المرة الأولى: إتجاه المادية البدائية، المتمثلة بشكل رئيسي في قبائل يأجوج ومأجوج. والمرة الثانية: إتجاه المادية الحديثة المعاصرة، بمختلف أشكالها وأنواعها.

وقد كان المدّ المادي الأول خطراً وبالغ الضرر على ذوي الإتجاه الثاني عموماً، وبخاصة تلك الشعوب الصالحة المتبعة لدعوات الأنبياء. ولعل القسط الأهم من الضرر لم يكن هو الإفساد العقيدي، وإن كان هذا موجوداً من أولئك



الملحدين البدائيين، وإنما الأهم من أشكال الضرر هم الضرر الإجتماعي والإقتصادي وأشكال القتل والنهب الذي كانت توقعه القبائل البدائية الملحدة على المجتمع المؤمن.

ومن هنا خطط الله تعالى للقضاء الحاسم على هذا المد الواسع، بإيجاد قائد كبير ذو حركة عالمية وقدرة واسعة، وممثل لأفضل أشكال الإتجاه المؤمن، هو الإسكندر ذو القرنين. وقد شكى المجتمع المتضرر لهذا القائد من حملات اولئك البدائيين: (قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا) الكهف: ٩٤. أي أجره، لكي تكفينا شرهم وتكسر سوكتهم.

وقد استطاع هذا القائد الكبير أن يعلن دعوة الله في الأرض، ويحصر نشاط ذلك المد المادي في أضيق نطاق، وأن يعيد المجتمع البشري إلى سابق عهده، من كون الإتجاه المسيطر هو الشكل الثاني للأيدولوجية، ويبقى الإتجاه الأول إتجاهاً شخصياً متفرقاً. وقد اتخذت تدابير ذي القرنين في هذا الصدد، شكلين أساسيين:

الشكل الأول: بناء السد الموصوف في القرآن الكريم، المتكون من الحديد والصفير. وهو يحتوي على الحماية العسكرية من هجمات القبائل البدائية الملحدة.

الشكل الثاني: بناء السد المعنوي في المجتمع المؤمن، وزرع المفاهيم وقوة الإرادة الكافية ضد الإنحراف والفساد.

ولعل في الإمكان مع بعض التوسع في فهم القرآن الكريم. أن نحمل السد الموصوف فيه على السد المعنوي الذي يفصل بين الحق والباطل. وأن الحديد والصفير عبارة عن مكوناته المفاهيمية. إلا أننا نعرض ذلك كأطروحة محتملة، على غير اليقين. وإن كان ذلك ممكناً في لغة العرب. ولكننا سنسير بهذا الإتجاه

ريشما تتم هذه الأطروحة.

(قال: مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ) مما لديكم من المال والحطام، بعد أن مكّنه الله تعالى من الملك والهداية معاً. وكان السد الذي بناه ذو القرنين، ضخماً ومهماً، إلى حد يكفي لكبح جماح البدائين الملحدّين ورد عاديّتهم. (فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا). فإن الإتجاهات الملحدّة تكون دائبة في نشر عقيدتها واختراق السدّ الإيماني وقهر قوة الإرادة والإخلاص عند المؤمنين. وإلا أن سدّ ذي القرنين، كان منيعاً لا يمكن لهذه الإتجاهات أن تؤثر فيه.

ولكنه على أي حال، لم يستطع القضاء عليه نهائياً، بل بقي بوجوده الضعيف مؤثراً في المجتمع الإنساني بمقدار ما يستطيع (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ). ولم يكن مقدراً في التخطيط الإلهي استئصاله عن الوجود، لإمكان مشاركته في التمحيص العام. ولذا كان لا بد من الإقتصار على كبح جماحه وكسر شوكته فقط، ببناء السدّ ضده، على وجه الأرض أو في نفوس المؤمنين.

ومن هنا بقي هذا الإتجاه في التاريخ، لكي يتمحض بعد ثلاثة آلاف عام من السيطرة الجديدة للمادية على البشر للمرة الثانية، ولكنها في هذه المرة لست بدائية، ولكنها مادية (تقدمية) ومعقدة ومفلسفة وذات شعارات برّاقة. وذات قوّة ومنعة بحيث يصعب مجرد التفكير في منازلتها فضلاً عن القضاء عليها. وهو معنى قوله في احد الأخبار السابقة: (لا يدان لأحد في قتالهم).

لقد خرقت السدّ القديم، ولم يعد كافياً للسيطرة عليهم وكبح جماحهم. إن ذلك السدّ كان مناسباً مع مستوى عصره العقلي والثقافي والعسكري، ولم يعد الآن كافياً (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) أي

من كل جهة يتشرون. كذلك انتشرت المادية الحديثة. انتهى كلامه قدس سره<sup>(١)</sup>.

عموماً نكتفي بهذا القدر من البيان والتوضيح. ولنرجع الى رحلات ذي القرنين الثلاث لنرى أن كل رحلة منها الى تلك الأقسام كانت تمثل بعداً فكرياً، ومستوى من الفهم والوعي، تتحرك من خلاله تلك الشعوب، وبالتالي فإنها بكل تأكيد تسيطر على ترتيبهم في حياتهم الخاصة، بحيث تشمل الفرد والأسرة والمجتمع، وما يحكم ذلك من مصالح ومفاسد. فكانت هناك معرقات ومشاكل فكرية وعقائدية، كما كان في رحلته نحو مغرب الشمس، ولعلها تكون هي الأبرز من بين مشاكلهم.

ثم واجه في رحلته نحو المشرق، تلك الأقسام الذين مثلوا في بدائيتهم مشكلة من مشاكل الإنسانية الكبرى وهو الجهل، بوصفه كمفهوم كلي تنضوي تحته الكثير من المصاديق، ليتحول الى مفهوم تشكيكي تنضح منه أبعاد عملية مؤثرة في محيطها الجماعي.

وحينئذ أمثال أولئك القوم هل يتركون دون أي إجراء تنفيذي يتشلون من خلاله من مستنقع الجهل والتخلف؟! أم نسلط عليهم طاغية يحكمهم، لأنهم لا يستحقون إلا ذلك التصرف، كما يقول ستيورات مل في كتابه (في الحرية) وهو يحكم البرابرة<sup>(٢)</sup>.

(١) تاريخ ما بعد الظهور: السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره، نشر دار التعارف

للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م: ص ١٥٠ وما بعدها.

(٢) ينظر: تاريخ الفكر الأوربي الحديث: رونالد سترو مبرج، ترجمة أحمد الشيباني، نشر دار

القارئ، الرياض، ط٣، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م: ص ٣٩٢.

وفي رحلته الثالثة الى منطقة ما بين السدين، وجد هناك مشاكل تستهدف الفرد من أجل إضعافه مادياً وأخلاقياً.

فكان لابد لذي القرنين من أن يتعامل مع كل مشكلة من تلك المشاكل تعاملاً خاصاً بها، وأن يجد لها الحلول المناسبة حتى وإن كانت مرحلية، أو أن يؤجل بعض الحلول، الى وقت آخر أو مرحلة أخرى من التاريخ. بالرغم من وجود المقتضي والذي تمثل بوجوده، ولكن المانع موجود، أمام ذلك المقتضي، فلم يتحقق الحل، وهنا لا يتحتم أن يكون المانع من آثار المادة وتعلقاتها، وإنما قد يكون سلوكياً ويقع ضمن ضابطة عدم الإستعداد النفسي، لقبول ما يقدمه لهم ذو القرنين، كونهم في مرحلة متدنية للغاية من الفكر البشري، هذا كما حدث معه في رحلته الى القوم المتواجدين في مشرق الشمس.

## ما حصل مع ذي القرنين في رحلاته هل سيحصل مع الإمام المهدي في ظهوره؟

والآن لننظر الى ذي القرنين ذلك القائد البشري الكبير في تلك المرحلة من التاريخ، وكيف يمكن لنا أن نأخذ بعض الصور الإصلاحية من خلال حركته وتعامله مع تلك الأقوام، ونحاول أن نستشف منها الممارسات الإصلاحية التي سيستخدمها الإمام المهدي عليه السلام في ظهوره المبارك، وهو يؤدي دوره في قيادة العالم. ومن هذه الممارسات يمكن أن نذكر منها ما يلي:

أولاً:

إن الإمام المهدي عليه السلام سوف يساعد المجتمعات بشكل كبير، متى ما سلّمت له أمرها، ولن يألوا جهداً في سبيل ذلك.

وهذا يعني أن الشعوب، التي تسعى صادقة في طلب المساعدة والعون من الإمام فإنه سوف يكون حاضراً معها للتعجيل في خلاصها مما تعانيه ويحيط بها من مشاكل.

وهذا كما حدث عندما قدّم ذو القرنين حلاً سريعاً الى القوم الذين سكنوا منطقة ما بين السدين، وذلك عندما قام ببناء الردم وسد به فتحة خروج وتسرب يأجوج ومأجوج. وهذا بعكس فيما إذا كانت هناك معرقات ومماطلات، أو قبول من بعض ورفض من آخرين، فإنه سيؤدي بالتالي الى تأخير الحلول التي تنتج بسببها العدالة والرقى الإنساني بكل معاييرهم. وإن كان تأخيراً نسبياً، إلا أنه بالتالي سيكون له أثر في اللجوء بالمجتمعات الأخرى. وهذا كما حدث في رحلة

ذي القرنين نحو مغرب الشمس، إذ لم يكن التسليم له من جميع القوم على حد سواء، بل كان هناك من قبل التسليم له لأنه رأى الحق فيه، وهناك من كفر بما أتى به.

ثانياً:

انه لن يطلب أي مقابل جزاءً لما يقدمه لهم. وهو بذلك لن يرهق كاهل تلك الشعوب في سبيل تخليصها من مشاكلها وما تعانيه منها، وهذا مما سيكون له بالغ الأثر، في إنجذابها إليه وإلى ما يدعو له من رسالة الإسلام الحقّة، وكيف أن الشعوب ستنبهر بالوسائل التي سيقدمها في سبيل التغلب على كل مشاكلهم وتقديم الحلول المناسبة لهم.

بحيث يحدث كل هذا بالمجان وبلا أي مقابل، إلا مجهودهم وتحركهم معه، وإعانتته على إتمام أمرهم. وهذا الشيء لا بد من حدوثه، إذ الإمام المهدي عليه السلام لا يقدم لهم الحلول كاملة وجاهزة دون أن يكون لهم دور معلوم لإكمال وتمام أمرهم. هذا الأمر الذي يعبر عنه الإشتراكي (سان سيمون) بقوله: أن المجتمع هو آلة عضوية، حيث يسهم كل جزء من أجزاء هذه الآلة بتحريكها وحركتها ككل. فالمجتمع ليس مجموعاً من أفراد منفصلين لا رابط بينهم ولا ترابط.

هذا طبعاً، إذا ما التفتنا إلى سيطرة الدول الكبرى على مقدراتهم وسلب ثرواتهم في السابق، وكيفية زوالها بالمرّة عنهم، ومن ثم إعادة مقدراتهم الطبيعية بالكامل. وهذا المنظر سيبين أن الشعوب المستضعفة كيف أنها تبحث عن حلول لمشاكلها، التي تسبب بها الإستكبار والطغيان، وكيف أنهم أصبحوا عاجزين عن

المواجهة، حتى بدوا أمامه وكأنهم لا يفقهون قولاً، وهذا قد يصلح تفسيراً لقوله تعالى: (وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا) الكهف: ٩٣. وهو أنه ليس المعني منه عدم قدرتهم على الكلام، أو أنهم في مستوى متدني من الفكر، لقلة مفردات اللغة المتداولة بينهم. كيف وأنهم قد تكلموا وبيّنوا لذي القرنين مواصفات العدو وقدراته، ومن ثم طلبوا منه المساعدة، بذوق أخلاقي عالي، ولم يكن في خطابهم معه أي نوع أو إشارة تدل على الجهل والقصور.

فأنظر الى محاوراتهم مع ذي القرنين، وبكم محور قد تكلموا معه:

١- قالوا: (يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ)، وهنا استخدموا كلمة الفساد، وهذا يدل على أن مفهوم الإصلاح والصلاح كان متداولاً بينهم، وإلا كيف عرفوا الفساد ومفرداته، وهذا بطبعه يدل على رقي فكري.

٢- (فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا) وهنا في قولهم هذا، قد علموا بأن أي جهد بشري يبذل يستحق أن يكون له مقابل وعطاء، ولم يكونوا من الذين يطلبون تقديم الأشياء لهم دون مقابل، أي أنهم لم يرضوا بأن يكونوا كلاً وعولاً على غيرهم. وهذه في الحقيقة سمة إنسانية راقية.

٣- (أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) أنظر الى طلبهم لبناء السد، ولأي سبب أرادوا تشييده، فهم أرادوه لمنع المعتدين والغازين، وهو سبب وجيه، لأنهم يريدون أن يبنوا مدينتهم ويعمروها، وأن يعيشوا بسلام آمنين بعيداً عن الوحشية والهمجية التي تمثلت بياجوج وماجوج.

٤- (أثوني زُبْرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَثُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا). وهذا القول فيه دلالة وإشارة على أنهم كانوا قومًا يتمتعون بوجود قدرات اقتصادية جيدة، فوجود زبر الحديد والنحاس، واستخدامه يدل على مستوى حضاري لا بأس به في تلك الحقبة من الزمن، ولكن الظاهر أن القوة التي كان يمتلكها يأجوج ومأجوج أكبر من حجم قواهم بكثير، ولذلك أصبحوا عاجزين حتى عن الكلام لوصف حالهم وبث شكواهم. وكأنهم يعيشون حالة الصدمة التي يتلعثم فيها اللسان عن القول وبيان ما يختلج في نفسه من آلام ومشاعر.

وهذا ما يبدو واضحاً الآن وكيف أن المجتمعات وخصوصاً الإسلامية منها أصبحت عاجزة عن مواجهة ذلك المد الإستكباري العالمي، وكيف أنه أفسد عليها شبابها، وكيف سرق خيراتنا، وكيف نشر وسائل الفساد والتخريب فيها، دون أن تستطيع التحرك بالضد منه. فبدت وكأنها جاهلة، وفي مستويات من القصور العقلي والحضاري قبال ذلك المد الذي حطم لها كل وجود. ولذلك سيقدم لهم العلاجات الفكرية والعقائدية الخالصة، كسلاح عقلي وتحصين فكري ضد أيديولوجياتهم المنحرفة، كما سيقدم لهم الحلول المتعلقة بالجانب المادي التي تبعد أي تسلط مادي آخر عليهم.

ثالثاً:

سيكون تعامل الإمام المهدي مع شعوب الأرض كل بحسب طاقاته، وفهمه واستيعابه، فهناك منهم ذوو مستوى الفهم العالي والمتوسط والمتدني، فهؤلاء بالطبع سيحتاج كل منهم نوع من التربية يختلف ويتفاوت بعضه عن



الأخر. ولذلك فهناك شعوب وأقوام ستدخل في الإسلام، وسيكون نموها الحضاري وفهمها للرسالة الإسلامية الدقيق أسرع من غيرها، وقد تكون أسرع حتى من كثير من الدول التي كانت تبدو ظاهراً بأنها إسلامية، ولذلك ستتكامل بخطوات حثيثة. وهناك في نفس الوقت شعوب ستكون سرعتها في التكامل الحضاري والإيماني أقل من غيرها وهكذا.

ولذلك سيولد هذا التفاوت في الفهم والاندماج برسالة الإسلام بعداً زمنياً طويلاً نسبياً لكي تكتمل البشرية بمجموعها، وحينئذ فإن أولئك المتخلفون عن الركب سوف يمارس معهم نوعاً من أنواع التربية المكثفة والخاصة، لتقليص الفارق الزمني ومسافة التكامل بينهم وبين المجتمعات الأخرى.

## هل رحلات ذي القرنين كانت الى الفضاء ولم تكن على الأرض؟

هذه المسألة طرحت في الآونة الأخيرة من قبل بعض الباحثين، نود التطرق لها ومناقشتها، لأنها لا تخلو من فائدة:

في كتابه الطور المهدوي يذهب سبيط النيلي، وهو يتكلم عن ذي القرنين ويأجوج ومأجوج، حيث قال: (لقد استخدمت في القصة لغة قرآنية بخلاف القصص القرآني وورود ذكر اسم أقوام مجهولين عندنا هم (يأجوج ومأجوج)، إذ لا يوجد على الأرض قوم آذانهم طويلة تستخدم عندهم فرشاً وغطاء، وبمقدورهم شرب ماء بحيرة طبرية عن آخره، كما ورد في الحديث، كما لا يوجد قوم على الأرض لا ستر لهم من الشمس ولا يوجد سور في الأرض يشبه سد ذي القرنين مما يدل على أن أي تفسير يحاول فك رموزها على نطاق الأرض سيكون فاشلاً<sup>(١)</sup>).

ثم يقول: (ولا أدري لماذا لم يتأمل المفسرون بقول الإمام علي عليه السلام [كل البشر ولد آدم إلا يأجوج ومأجوج] إذ تكفي هذه العبارات بمفردها على التيقن من أن الرحلة كانت لخلق ليسوا من ولد آدم وبالتالي فإنها ليست رحلة أرضية)<sup>(٢)</sup>.

(١) الطور المهدوي: عالم سبيط النيلي، نشر دار المحجة البيضاء، بيروت، ط ٤، ١٤٣٠ هـ -

٢٠٠٩ م: ص ٤٣.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤٣.

ثم يعرض دلائله على أن رحلة ذي القرنين كانت في الفضاء والى كوكب آخر غير الأرض:

يقول: (إن الدلائل كثيرة جداً ومن أهمها الأسلوب القرآني نفسه، فلم يذكر القرآن سفرًا أو رحلة بمثل هذه العبارة: (ثم أتبع سبباً) فهذه العبارة بمفردها تدل على السفر في الفضاء، ذلك لأنها في القرآن لم تستخدم إلا في هذا المعنى فقط:

المورد الأول: (.. يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرِّحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ \* أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى ..) غافر: ٣٦-٣٧.

المورد الثاني: (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ) الحج: ١٥.

المورد الثالث: (أَمْ هُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ) ص: ١٠.

فهذه الموارد واضحة في معنى الارتقاء إلى الفضاء. والموارد الأخرى الأربعة في نفس القصة، ومجموع الموارد لهذا اللفظ (الأسباب) هو ثمانية موارد.

وهناك مورد واحد فقط لا يصرح بالرقى إلى السماء هو قوله تعالى: (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ) (البقرة: ١٦٦).

ثم يصل بالنتيجة الى أن: رحلة ذي القرنين كانت في الفضاء والى الكواكب

الأخرى ولم يكن للأرض نصيب منها، فهو قد ذهب الى كوكب الزهرة ووجد فيها قوماً بطور يقرب من طور الأرض، وخيّر الله بين العقاب والقوة وبين الاقتناع والإحسان، ثم انطلق بالمرحلة الثانية بالغاً مطلع الشمس ووصوله الى كوكب (عطارد) فوجد قوماً ليسوا من العلم بحيث يمكن تعليمهم وليسوا أشراراً ليعاقبهم، إنهم شبه عراة يمرون بطور بدائي، ولذا لم يفعل تجاههم أي شيء. ثم ينطلق في رحلة بالمرحلة الثالثة بنفس الإتجاه السابق نحو الكواكب الداخلية ثم وصل الى قوم درجة تطورهم ادنى من القوم السابقين وهم مساكين لا يحسنون حتى التعبير. فجعل تدني اللغة دليلاً على تدني معارفهم، وهم الذين طلبوا منه أن يخلصهم من يأجوج ومأجوج<sup>(١)</sup>.

والرد على ما جاء في كتاب الطور المهدي يكون كالآتي:

## حركة ذي القرنين ضمن السياق القرآني

في الحقيقة أن الإسلام لا يعارض العلم ولا يعارض الإكتشافات الجديدة<sup>(٢)</sup>، ولكننا هنا نريد أن ننظر الى السياق القرآني للملامح قصة ذي القرنين فسنلاحظ:

(١) المصدر نفسه: ص ٤٦ وما بعدها.

(٢) نحن هنا لا نتكلم عن إمكانية قيادة الإمام المهدي عليه السلام للكون بأجمعه وبما يحويه من مجرات وكواكب، وما قد يكتشف في المستقبل، على اعتبار تقدم العلوم وتطورها، مضافاً لما سيضاف لها من عمق يصدر من الإمام بالمباشر. وهذا قد يعطي عدّة احتمالات من ضمنها؛ أنه قد يتم إكتشاف كائنات عاقلة أخرى تسكن في كواكب غير كوكبنا الأرضي، وحيث ستكون هذه الكائنات تحت قيادة الإمام المهدي لا محال. وهذا الأمر هو الذي يبدو من حاكمية وخلافة الإمام في هذا الكون.

أولاً:

إن قصة ذي القرنين جاءت ضمن القصص الثلاثة الأخرى التي ذكرت في سورة الكهف، لتكون كعبر أولاً، وكيفية تعامل وتصرف المؤمنين في هذه الأرض ثانياً، حيث قال تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) الكهف: ٧. فقد تضمنت سورة الكهف أربع قصص أو حكايات يستقل كل منها عن الآخر من جانب، كما تتداخل هذه القصص بالآخر من جانب ثان. أو لنقل من جانب ثالث: إنها تحوم على ما أفرزته مقدمة السورة من أفكار تتمثل بخاصة في الآيتين الآتيتين اللتين سبقتا قصة أهل الكهف: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا). ففي هذه المقدمة يحدثنا النص عن وظيفة الكائن الآدمي على

وعندما جاءت كلمة الأرض في القرآن الكريم أو الروايات، ولم يتم التطرق الى الكواكب الأخرى، بإعتبار وجود كائنات عاقلة فيها وستنقاد في يوم ما الى حكم الإمام المهدي عليه السلام، فذلك لأن مستوى الفهم البشري في تلك الأحقاب الزمنية التي نزلت فيها الكتب السماوية، لم تكن مؤهلة لقبول مثل هكذا طرح، وهي كانت ولحد زماننا هذا المعاش، توجد فيها نماذج بشرية لا تؤمن بالجن على سبيل المثال بالرغم من إنه قد ذكر في الكتب السماوية، مع وجود كثير من الآثار له في عالم الخارج.

والمهم في هذا الأمر إننا نريد القول ان شروط ظهور الإمام المهدي كلها ملزمة في وجودها وتحركها في كوكبنا الأرضي لا غير. وكل ما ورد في الكتب السماوية، وخصوصاً القرآن الكريم، فإن أحداثه وقصصه التي جاءت ببعده حركي للإنسان، وما حصل له من تجارب مع الآخرين وما حدث من آثار إجتماعية بسببها، فهي قد حدثت في الأرض لا غير.

وبعد أن يتم ظهور الإمام وقيادته للعالم في هذه الأرض، يمكن أن ينتقل للكواكب الأخرى، فيما لو اكتشفت، وأصبحت تلامس وجودنا الأرضي بآثارها وانعكاساتها.

الأرض وإخضاعه للاختبار (أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)، مع ملاحظة أن النص رسم الأرض تابعاً خاصاً هو الزينة، أي أن الدنيا أو الأرض تظل مجرد زينة أو حلية أو متاع عابر صاغته السماء بمثابة منبهات أو مثيرات، لها صلة بدوافع الشخصية، لتختبر السماء من خلالها نمط الإستجابة التي ستصدر عنها، وهل أنها استجابة سوية ملتزمة مع مبادئ السماء التي أمرتنا بالالتزام بها، أو أنها استجابة مريضة تتمركز حول الذات وإشباعها بلا قيد؟

وقد عوّبت السماء في الآية الثانية على هذا المتاع أو الزينة، حينما ألغته أساساً، وجعلته صعيداً أجرد (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا) ونحن ينبغي ألا نقف عند هذه الصورة (صَعِيدًا جُرُزًا) أو صورة الأرض الجرداء. وينبغي ألا نقف على الصورة المتقدمة وكأنها مجرد صورة فنية أو تعبير جمالي بقدر ما ينبغي أن ننظر الى هذه الصورة أو الرمز، الى أنها صورة فنية بالغة الجمال تنطوي على دلالة بالغة المدى أيضاً. فالمتاع أو الزينة تظل مجرد حلية خارجية على الأرض ثم تتلاشى هذه الزينة حتى تصبح الأرض جرداء ملساء لا أثر لها من الزينة المذكورة. وحيال هذا تحسنا الصورة الفنية المتقدمة الى أننا إزاء اختبار أو إمتحان ينبغي أن تجتازه بنجاح ما دامت الزينة أو المتاع مجرد لباس أو نبت مصيره الى الزوال التام، أي أنه متاع فاقد للقيمة أساساً، فيما ينبغي ألا نقيم له أي وزن على الإطلاق<sup>(١)</sup>.

إذن القصص الأربعة التي جاءت في سورة الكهف والتي من ضمنها قصة ذي القرنين لا تخرج عن إيقاع عدّة صور واقعية قد حدثت في الأرض وقد

(١) قصص القرآن الكريم: د. محمود البستاني، مؤسسة السبطين العالمية، قم، ط ٢،

١٤٢٨ هـ: ج ١، ص ٢٣٥ وما بعدها بتصرف.

تنوعت فيها الأدوار والتصرفات، تارة بحسب الظرف والمقام الذي يتصرف من خلاله المؤمن، وتارة أخرى للفرد غير المؤمن. كل ذلك من أجل الاستفادة من تلك المواقف والأدوار التي حدثت في الأرض، وما عليك إلا كيفية الاستفادة منها، وأنت تؤدي دورك فيها.

وبنظرة إجمالية حول تلك القصص الأربعة:

إننا نرى في قصة اصحاب الكهف أن الفتية قد جسدوا مفهوماً مهماً، وهو نبذ الحياة وزينتها، وكيف أنهم ضاقوا ذرعاً بمناخ الكفر، فقرروا أن يعتزلوا عن هذه الحياة، فأووا الى الكهف. وهو على عكس موقف ذي القرنين وكيف أن الله تعالى يبين لنا تحركه في شرق الأرض وغربها، وهو يجاهد في سبيل نشر الهداية وتخليص الناس من الظلم، وهو قد يبدو ظاهراً يخالف الموقف الإنزوائي والإنطوائي لإصحاب الكهف، والحقيقة هي خلاف ذلك، فقد كان كلا الموقفين منها صحيحاً في نفسه، وقد عمل كل منهما بحسب الظرف الذي كان يحيط به، وبالتالي استخدم تكليفه بهذا الإتجاه، ولا ينبغي أن نحمل أصحاب الكهف التقصير بعدم الخروج ومواجهة الظالمين في عهدهم. وذلك لأن الخروج له موازينه وأدواته والبيئة والظرف الناظر له.

ولو جئنا الى نفس تحرك وتصرف ذي القرنين، لرأينا بالرغم مما أوتي من أسباب مكتته من أن يحكم شرق الأرض وغربها، إلا أنه كان عبداً صالحاً متواضعاً يجب نشر الهداية ومساعدة الآخرين، وكيف أوصله إيمانه الى الحكمة العالية في التصرف فيها وهبه الله.

ولو قارناه مع القصة الثانية وصاحب الجنتين فيها، وكيف أنه قد انغربها،

وبكثرة أولاده، بالرغم من أن تملك مزرعتين لا يعد حالة نادرة، إذا ما قورن بالكثير من المصادر الإقتصادية الأخرى، حتى ظن بأنها لن تبيد أبداً. وقد أخذه الغرور بعيداً، بحيث وصل الأمر بإنحرافه العقائدي الى أن شكك حتى بقيام الساعة.

فإننا سنجد الفارق كبير والأمر لا يقاس بينهما، لأن هناك كان أحد لا يرى لنفسه مقاماً ولا أية أهمية، سوى أنه عبدٌ وجندي من جنود الله. والآخر لا يرى إلا وجوده وذاته التي أراد أن يعلو بها على الآخرين بمجرد أن رأى جنتيه نظرتان ممتلئتان.

هذا فضلاً إذا ما قورن ذلك المغرور الذي يلهث وراء زينة الدنيا، مع اصحاب الكهف، وكيف كانوا نموذجاً فريداً في نبذهم لزينة الدنيا وزخرفها، لكان الأمر أكثر عجباً.

أما لقصة موسى مع العبد الصالح، يقول الدكتور محمود البستاني: ان السماء وفقاً لحكمتها تمنح بعض الشخصيات العبادية عطاءات خاصة، قد لا تمنحها للبعض الآخر. سواء أكانت هذه الشخصيات متماثلةً في الوظيفة الاجتماعية التي رسمتها السماء لهم، أم كانت متفاوتة، كأن يكون بعضها على مستوى النبوة، والآخر غائباً عن أنظار الناس لا يعرفه أحد منهم.

وهذه الحقيقة الفنية التي تنطق بها حوادث القصة نفسها، عبر ملاحظتنا لموسى في الشطر الثاني من القصة، أنه كان ينكر على العالم قتله لأحد الاشخاص، وخرقه للسفينة، وابتناؤه للجدار، هذه الحقيقة قد أشارت إليها بعض النصوص المفسرة ايضاً في ذهابها إلى أن موسى عليه السلام عندما التقى العالم وطلب ان



يتبعه ليتعلم منه، اجابة العالم حيثئذ بما مؤداه:

((أنك يا موسى قد وكلت بعلم لا أطيعه، ووكلت بعلم لا تطيقه)).

وهذا يعني ان السماء تمنح هذه الشخصية أو تلك عطاءات خاصة لا تمنحها لآخر، وفقاً لحكمة يتطلبها الموقف<sup>(١)</sup>.

إذن نحن في سورة الكهف أمام منظومة قصصية تكونت من أربعة وهي:

١- قصة اصحاب الكهف.

٢- قصة الرجل ذو الجنتين.

٣- قصة موسى والعبد الصالح.

٤- قصة ذي القرنين.

وهذه المنظومة إرتبطت إرتباطاً وثيقاً بالأرض، وكل واحدة من هذه القصص تبين واقع إجتماعي محاط بالمشاكل، وهو مختلف عن الآخر، وكأن الله تعالى يريد أن يبين لنا من خلال ذكره لتلك القصص، أنكم لو سرتتم في الأرض وتدبرتم فيها، فإنكم لن تجدوا سوى الإختلاف والإضطراب والتكالب والجهل، وهذا الذي يمثله معسكر الشر، وبمختلف مستوياته واتجاهاته، وبالطرف الآخر لن تخلو تلك البقاع أو الأمكنة المتفاوتة والمتباينة في الأرض من المصلحين. وقد يكونون من الأنبياء أو من الناس الصالحين الطيبين، وقد يكونون غير معروفين حتى من قبل الأنبياء، وهؤلاء يمثلون معسكر الخير.

(١) قصص القرآن الكريم، مصدر سابق: ج ١، ص ٤٤٣.

ومن خلال هذا الإستعراض القصصي، فإنك تجد أموراً متوقعة الحدوث، وأخرى عجيبة وغريبة، وقد لا تخطر على قلب بشر، ولكنه على كل حال هي موجودة ولها واقع، وما عليك إلا أن تصدق بها وتتعامل معها على أنها قطعة من التاريخ، أحدثت بناءً في المسير البشري الطويل، وعليك أن تستفاد منه في حياتك وتجاربك التي أنت تمضي من خلالها يوماً بعد آخر في هذا الوجود الكبير. فما عليك إلا أن تستغلها الاستغلال الصحيح، لتتمكن من معرفة وجودك في هذا الكون لتنتقل به نحو افق البقاء والخلود.

إذن المسألة هنا والتي تريد أن تبينها قصص سورة الكهف وتؤكد عليها، هي مسألة كيفية الارتباط بالأرض، ومن ثم النجاح من خلال هذا الارتباط، وكيف لا وإن مسألة التكليف قد نزلت مع آدم وهو في هبوطه الى الأرض، لا في إنتقاله الى كواكب أخرى حتى يتم تكليفه هناك.

ثانياً:

إن الآية التي بينت مسألة التمكين لذي القرنين تقول: (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) الكهف: ٨٤، نجد فيها أن القدرة وتهيئة الأسباب كانت في الأرض، والآية المباركة صريحة وواضحة في بيان ذلك الأمر، حيثئذ لن نحتاج الى ذلك التفسير المعبر عنه (التفسير التأويلي)<sup>(١)</sup>، الذي حاول أن يستخدمه سبيط النيلي في كتابه.

(١) ظهرت مؤخراً نظرية جديدة بعنوان انها نظرية فلسفية، شاعت في اواسط فلاسفة أوروبا المعاصرين، ومن ثم في العالم الغربي بأسره، لا يرون فيها اقتصار تعدد القراءات على النصوص - أي الكتاب والمقروءات - واستناداً لهذه النظرية فإن كلام الأشخاص، بل أكثر من ذلك، أية قضية يمكن تصور انعكاسها في ذهن الإنسان يمكن أن تكون ذات

إذن ما دام أن الله تعالى قد خصص ذلك التمكين بالأرض، فما الداعي بعدها لأن يصرف الى غيرها؟!!

ومعنى التمكين هو الإقذار يقال: مكنته، ومكنت له أي أقدرته، فالتمكين في الأرض القدرة على التصرف فيه بالملك، كيفما شاء وأراد<sup>(١)</sup>. والمراد بالأرض هنا أرض معينة، وهي أرض ملكه<sup>(٢)</sup>. كما في قوله تعالى (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) يوسف: ٥٦. إذ لو كان هناك تصرف بكواكب أخرى كالزهرة وعطارد أو غيرها، لذكر ولما تم التغاضي عنه بإعتبار مفردة أخرى من مفردات العظة وأخذ العبرة.

ثم هناك قرينة أخرى قد ذكرت في الآية ٩٤ من نفس السورة وهي قول القوم الذين طلبوا من ذي القرنين، بناء السد، حيث تبين من قولهم أنهم في الأرض. وذلك عندما اشتكوا من يأجوج ومأجوج بقولهم: (يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ...) فقد حددوا مكان فسادهم وهو في الأرض. ولو كان في كوكب آخر لذكر إسم ذلك الكوكب. وهذا جداً كافي في بيان المطلب ولن تحتاج بعد ذلك الى تأويلات بعيدة عن أصل الموضوع.

وحول نوعية إفسادهم جاء في تفسير روح المعاني: وكان إفسادهم في الأرض بالقتل والتخريب وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر، وقيل بأخذ الأقوات وأكلها، وروى أنهم كانوا يخرجون أيام الربيع، فلا يتركون شيئاً أخضراً

معاني متعددة. وقد عرفت هذه بنظرية (التفسير التأويلي). ينظر: تعدد القراءات، محمد

تقي مصباح الزدي، ص ٢٤.

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج ٣، ص ٣٦٠.

(٢) ينظر تفسير التحرير والتنوير، مصدر سابق: ج ١٥، ص ١٢٦.

إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه<sup>(١)</sup>.

ثالثاً:

لا أدري لماذا حصر استخدام لفظ السبب للدلالة على معنى واحد، ظاناً أنه لم يستخدم في القرآن إلا في السفر في الفضاء!.

علماً ان لفظ (السبب) كما بيته كتب اللغة له عدة استخدامات، ولا يمكن أن يحصر ضمن سياق ودلالة واحدة.

فالسَّبَبُ: سَبَبُ الأمر الذي يوصل به، وكلّ فصل يوصل بشيء فهو سببه. والسبب: الطريق، لأنك تصل به الى ما تريد<sup>(٢)</sup>.

وجاء في لسان العرب: السبب: كل شيء يتوصل به الى غيره، وكل شيء يتوصل به الى الشيء، فهو سببٌ. وجعلت فلاناً لي سبباً الى فلان في حاجتي وودجاً أي وصلة وذريعة<sup>(٣)</sup>.

وقال صاحب تفسير مجمع البيان: (وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) أي فأعطيناه من كل شيء علماً يتسبب به الى إرادته ويبلغ به حاجته<sup>(٤)</sup>.

(١) تفسير روح المعاني، مصدر سابق: ج ١٦، ص ٤٧٩.

(٢) كتاب العين: لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠-١٧٥)، نشر دار أحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م: ص ٤٠٤.

(٣) لسان العرب: العلامة ابن منظور، نشر- دار الحديث، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م: ج ٤، ص ٤٦٠.

(٤) مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج ٦، ص ٦٣٣.

وقال صاحب تفسير الميزان: والسبب الوصلة والوسيلة، فمعنى إيتائه سبباً من كل شيء أن يؤتى من كل شيء يتوصل به إلى المقاصد الهامة الحيوية ما يستعمله ويستفيد منه كالعقل والعلم والدين وقوة الجسم وكثرة المال والجند وسعة الملك وحسن التدبير وغير ذلك، وهذا امتنان منه تعالى على ذي القرنين وإعظام لأمره بأبلغ بيان<sup>(١)</sup>.

ثم غريب قوله: إن استعمال كلمة سبب، لم يستخدم في القرآن إلا في معنى السفر في الفضاء، علماً أنها استخدمت في إحدى الآيات وهو يذكرها، وهي قوله تعالى: (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ) البقرة: ١٦٦. ويحاول أن يحرفها عن معناها الحقيقي، فيضطر إلى أن يجد لها تأويلاً، يتناسب ويتلاءم مع ما ذهب إليه. وكفى في ذلك كسراً للتقييد الذي أراد أن يحيطه بكلمة الأسباب ويحصره بمعنى السفر إلى الفضاء.

فقد جاء في كتب التفسير لقوله تعالى: (وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ) يعني لم يبق تأثير لشيء دون الله<sup>(٢)</sup>.

وقال الطبرسي: (وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ) فيه وجوه (أحدها) الوصلات التي كانوا يتواصلون عليها و(الثاني) الأرحام التي كانوا يتعاطفون بها و(الثالث) العهود التي كانت بينهم يتوادون عليها و(الرابع) تقطعت بهم أسباب أعمالهم التي كانوا يوصلونها و(الخامس) تقطعت بهم أسباب النجاة، وظاهر الآية يحتمل الكل، فينبغي أن يحمل على عمومها، فكأنه قيل قد زال عنهم كل سبب يمكن أن يتعلق به، فلا ينتفعون بالأسباب على اختلافها من منزلة أو قرابة

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج ١٣، ص ٣٦٠.

(٢) المصدر نفسه: ج ١، ص ٤٠٨.

أو مودة أو حلف أو عهد على ما كانوا ينتفعون بها في الدنيا وذلك نهاية في الأياس<sup>(١)</sup>.

رابعاً:

لنأتي على آية أخرى من القرآن الكريم، قد ذكر فيها يأجوج ومأجوج، وقد جاءت في سورة غير سورة الكهف، وكيف تبين لنا بأن هناك تحرك وخروج آخر لهم، إذ قال تعالى: (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) الأنبياء: ٩٦. وهذا الخروج والتحرك لا بد أن يكون في الأرض، وذلك لأن لو كان يأجوج ومأجوج في كوكب عطارد أو بالقرب من كوكب عطارد، فلا معنى للإنذار وتهديد أهل الأرض بهم، لأنهم في كوكب آخر، وأذيتهم ستكون على أهل ذلك الكوكب لا محال.

هذا ولقد تعارف بأن الإمام لن يظهر حتى تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً، فقد جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (المهدي مني، اجلي الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً...) (٢). فهذا الحديث واضح الدلالة بأن الكوكب الذي ستكون فيه الأحداث، والذي سيمتلئ ظلماً وجوراً، هو الأرض. وهذا ما موجود نصاً، ولم يذكر أي كوكب آخر ليشارك الأرض في الظلم والجور، ولا هناك ذكر لوجود كوكب غير الأرض يمدنا بمخلوقات منه، تؤدي دوراً لها خارج كوكبها، بسبب قصور ذاتي لدى الأرض، بحيث لا تستطيع إيجاد أسباب الظلم العام، وهذا خلاف ما هو

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج ١، ص ٣٢٣.

(٢) منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر: آية الله العظمى الشيخ لطف الله الصافي

الكلبايكاني، نشر دار المرتضى، بيروت، ط ٣، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م: ج ٢، ص ٥٩.

معاش واقعاً في هذه الأرض.

فهي لها القابلية في أن تمد المؤمنين بوسائل الطاعة، وكذلك لها القابلية على أن تمد الأشرار بوسائل الشر. وما ذلك إلا لأن الأمر يتعلق بالإستخدام، فإذا أحسنوا أحسنت لهم الأرض، وإن أساؤا انقلبت عليهم بالسوء، وهذا الأمر لعله تشير إليه الآية المباركة: (كُلًّا نُمِدُّ هُوَآءًا وَهَؤَآءًا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) الاسراء: ٢٠. ومن ضمن هذا الظلم، هو ما سيلاقونه من قوم يأجوج ومأجوج، بإعتبار أنهم مفردة من مفردات الظلم، وأداة من الأدوات التي سوف تستخدم في إملاء الأرض ظلماً وجوراً.

وبمعنى آخر: ان الأرض لها قابلية أن تنجب إيماناً مطلقاً، فيما لو استغلت استغلالاً صحيحاً بهذا الجانب، وكذلك لها قابلية أن يتولد فيها الشر وبأعلى مستوياته، بحيث يؤثر كثيراً وطويلاً على مجريات الأمور بين الناس.

وهذا الأمر أوكل الى الناس في كيفية الإستفادة من سبل الهداية المتوفرة والمتاحة بين أيديهم، والتي تركزت حول الأنبياء والرسل والمصلحين، فإن أطاعوهم فقد اهتدوا، وعاشوا الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة. وإن عصوهم واختاروا طريق الغواية والضلال تحولت الأرض عليهم جحياً.

والأرض تمتلك من القدرات والطاقات لتتحول وبالأعلى الإنسان بما فيه الكفاية بل وزيادة. وحينئذ فما حاجتنا لظهور أقوام من كواكب أخرى مثل يأجوج ومأجوج في إحداث الظلم على وجه الأرض؟!.

وجاء في تفسير الفرقان حول هذه الآية: (وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) أنه فتح الشر الشامل للأرض، حيث تملأ به الأرض ظلماً وجوراً، ثم يملأها الله

بالمهدي عليه السلام قسطاً وعدلاً... ثم يقول: ولعلّ (كلّ حَدَب) دون (كل مرتفع) للإشارة الى أصلاب الأحداب الناسلة عنها كل يأجوج ومأجوج، وكذلك كافة القوات المتظاهرة المتظاهرة، فإن أصل الحدب هو مرتفع الظهر، فإنه ظهر القوة البدنية، إذا ف (كل حدب) قد تعني كل طاقة مرتفعة مترفعة انتسالية، أم حربية وسياسية واقتصادية وثقافية وعقيدية أو هي من أحداب وقوات بشرية، حيث تحشر في آخر الزمن، فتهدر الانسانية الى هوات البهيمية من ناحية والى سقطات مختلف الموتات، روحية وبدنية من أخرى، فتصبح الحياة الإنسانية ظلمات بعضها فوق بعض، ويخلق الظلم على كافة جنبات الحياة، فلا يبقى من الحيوية الإنسانية أثراً وثماراً إلا اجترم، ولا حرمة إلا اخترمت، حتى يقوم قائم الحق الذي به يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً.

وقد تؤشر (وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا) لبني إسرائيل، أن يأجوج ومأجوج، هم أيّاً كانوا، ليسوا إلا من جنودهم الأصلاء في الإفساد العالمي بعد الجنود الاسرائيليين، حين يسيطر بنو إسرائيل على كافة الأحداب، فتنسل يأجوج ومأجوج ومن معهم من (كل حدب) وكما هم أنفسهم ينسلون<sup>(١)</sup>.

خامساً:

إن ما استدل به من أوصاف يأجوج ومأجوج، من أنهم قوم آذانهم طويلة يستخدمونها كفرش وأغطية، وبمقدورهم شرب ماء بحيرة طبرية عن آخره، وأخذها من المسلمات، فهي واقعا بعيدة عن المقام الذي نتكلم فيه الآن، فنحن ننظر الى سياق قرآني، وكنص متكامل ذو دلالة قرآنية واضحة، ولم يتعرض

(١) الفرقان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج ١٩، ص ٢٤٣.



القرآن، لا من قريب ولا من بعيد، ولا حتى على نحو الإشارة، على أن يأجوج ومأجوج أقوام صفاتهم كالتي ذكرها صاحب كتاب الطور المهدوي. وفي ذلك خروج عن المنهج الموضوعي في قراءة النص القرآني، وخصوصاً إذا ما التفتنا الى أن الحديث الذي أستشهد به، وهو يأخذ منه صفات يأجوج ومأجوج، فهو من الأحاديث التي لا يؤخذ بها حسب التشدد السني. وفي الحقيقة ان روايات وأحاديث يأجوج ومأجوج والدجال قد تبلغ مجلداً، ولكن فيها الغث الذي هو واضح بأنه موضوع، بالرغم من أنه صحيح على شرط الشيخين. وحيث لا يمكن الأخذ بها على علّاتها، وبهذه الطريقة المسرفة في تقدير حال من أحوال يأجوج ومأجوج.

هذا فضلاً إذا ما تنزلنا وقلنا بأن وجود اولئك الأقوام في كوكب آخر، فهل هنا يصبح لدينا مسوغاً لقبول مثل هكذا خلق، يفرش أذنيه ويشرب بحيرة كاملة، بقدر مساحة بحيرة طبرية، وكيف يا ترى ستعامل معهم المخلوقات الأخرى المتواجدة معهم في نفس الكوكب، إلا أن نحتاج الى نوع آخر من الخلق تكون لهم قابلية شرب المحيطات وليس البحيرات حتى يتمكنوا منهم!.

نعم يبقى شيء آخر لا بد منه، من أجل الإحاطة بالموضوع، وهو إن صح هذا الحديث على كل حال، فهو يعتبر من الرمزيات، وقد استخدم فيه الرمز ليصف حالة من حالات اولئك القوم يمتازون بها عن غيرهم، هذا الأمر المهم الذي غفل عنه صاحب الكتاب المذكور، واضطر للإنتقال الى القول الذي تبناه.

ولعل أفضل وأكمل من عبر عن هذا الرمز وشرح فقراته هو السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره وهو ينفي عن هاتين القبيلتين كل الغرائب. حيث قال: ان ما ذكرت من تصرفات يأجوج ومأجوج، كشر بهم بحيرة طبرية حتى تجف،

كما في خبر مسلم، أو شربهم النهر حتى يجف، كما في خبر ابن ماجه. فإن هذا مما لم يتضح فهمه، مهما تزايد عددهم وطال بقاؤهم، ومهما طالت اجسامهم، كما تقول الأساطير.

ومنها: إرسا لهم السهام إلى السماء لأجل غزوها، وليس في هذا غرابة إذا كانوا أغبياء إلى هذه الدرجة، وإنما الغرابة في أن تعود السهام مكسوة بالدم من أجل إيهاهم بأنهم قد قتلوا الناس الموجودين في السماء. فإنه من الأساطير التي لا يمكن أن يكون لها أي مبرر، فضلاً عن موافقته لقانون المعجزات.

هذا ولكن أغلب هذه الأشياء ستصبح حقائق، عند دمجها في تكوين متكامل من الفهم الرمزي، ومعه تصبح هذه الاعتراضات، واردة على الفهم التقليدي لمثل هذه الأخبار، لا المقاصد الحقيقية منها<sup>(١)</sup>.

ثم يقول قدس سره في مكان آخر:

هذا ولقد خرقت الحضارة المادية الجديدة السد القديم، ولم يعد كافياً للسيطرة عليهم - أي ياجوج وماجوج - وكبح جماحهم. ان ذلك السد كان مناسباً مع مستوى عصره العقلي والثقافي والعسكري، ولم يعد الآن كافياً (حتّى إذا فتحت ياجوج وماجوج وهم من كل حدب ينسلون) الانبياء: ٢١/٩٦. أي من كل جهة ينتشرون، كذلك انتشرت المادية الحديثة.

هذا وتسيطر الحضارة المادية على خيرات البلاد الإسلامية، في ضمن سيطرتها على العالم كله. وتستولي على مصادرها الطبيعية فتشرب البحيرات، والأنهار - كما أشارت الأخبار - بمعنى أنها تستغلها تماماً لصالحها، وتمنع أهلها

(١) تاريخ ما بعد الظهور، مصدر سابق: ص ١٤٩ وما بعدها.

من الإستفادة منها. فيحصل الفقر والقحط في البلاد المحكومة المستعمرة (حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مئة دينار لأحدكم اليوم).

وتأتي الأجيال المتأخرة من أتباع الحضارة المادية، فيقولون: (لقد كان بهذا المكان ماء). فإنهم عرفوا من التاريخ أن هذه المنطقة كانت تغل لأهلها وتفيدهم. وأما الآن - وبعد سيطرة الحضارة الكافرة - فقد أصبحت الغلات لها. وأصبح وجود الماء كالعدم بالنسبة إلى أهل البلاد... وحين يتم للحضارة المادية الملحدة، بسط السيطرة على الأرض، تتجه أطماعها إلى السماء، ومن هنا نجدهم يقولون: (هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم، ولننازلن أهل السماء) وهذا - بمعناه الرمزي - مما حدث فعلاً. فإن الحضارات المادية بعد أن أحكمت قبضتها على أهل الأرض، طمعت بغزو السماء، بادئة بالأقرب من الكواكب، ومن هنا انبثقت فكرة غزو الفضاء الخارجي والسير بين الكواكب.

(فيرمون بنشابهم إلى السماء، فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة بالدم) وهذا - بمعناه الرمزي - مما حدث فعلاً، متمثلاً بإطلاق الأقمار الصناعية والمركبات الفضائية والصواريخ الكونية... ومعنى كونها تعود مخضبة بالدم، هو أنها محاولات ناجحة، وتنتج الأثر المطلوب، فكما أن المتوقع من القتل بالحربة أو السهم أن تتخضب بالدم، كذلك من المتوقع للمركبات أن تنتج الخبرات العلمية المطلوبة، وأن تجلب التراب من القمر مثلاً<sup>(١)</sup>. انتهى.

والآن أظن فيما عرضناه من أدلة واستنتاجات فيه الكفاية لرفع ما توهم به صاحب كتاب الطور المهدوي، بخصوص رحلات ذي القرنين في الفضاء.

(١) المصدر نفسه: ص ١٥٣ وما بعدها، بتصرف.

ولا داعي بعدها لمناقشة الأدلة الأخرى والتي عرضها في استدلالاته، بعد اسقاط الأدلة الأبرز منها، أو لأنها تقع في نفس السياق الرمزي التي أخرجت به أخبار ياجوج ومأجوج. فلا داعي للتكرار.

## هل حقق ذو القرنين دولة

### العدل العالمية؟

بالرغم من المساحة الكبيرة التي كانت تحت سيطرة ذي القرنين، والتي لا تكاد أية مساحة أخرى تضاهيها، لأي رسول أو قائد إلهي، ضمن ما أنزله وبيّنه القرآن الكريم، تبدو تلك السيطرة وللوهلة الأولى كافية لتحقيق دولة الحق الكبرى في ذلك الزمن، ولم تكن تحتاج إلى تأجيلها لعصور متأخرة عنها. ما دامت الفرصة قد تكاملت، وقدمت لذي القرنين باعتبار ذلك التمكين الإلهي له، وتهيئة الأسباب اللازمة لتحقيق أهدافه في الهداية والإرشاد، وتخليص المستضعفين من ظلم الطغاة ورفع الجهل عنهم.

ولكن الأمر ليس بهذه السهولة التي نتصورها مع تلك الظروف التي توفرت لذي القرنين فهناك أسباب منعت من تشكيل تلك الدولة المرتقبة. ومن هذه الأسباب يمكن ذكر ما يلي:

#### السبب الأول:

إن ذا القرنين لم يكن نبياً أو رسولاً، وإنما كان رجلاً صالحاً عابداً، قد أحب الله وأحبه الله. وقد جاء في الأحاديث والروايات ما يؤكد هذه الحقيقة، فعن الأصبغ بن نباته: (قام ابن الكواء إلى علي عليه السلام وهو على المنبر، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن ذي القرنين أنبياً كان أم ملكاً؟ وأخبرني عن قرنيه أمن ذهب أم من فضة؟ فقال له: لم يكن نبياً ولا ملكاً، ولا كان قرناه من ذهب ولا فضة، ولكنه كان عبداً أحب الله فأحبه الله، ونصح الله فنصحه الله، وإنما سمي ذا

القرنين، لأنه دعا قومه الى الله عزّ وجلّ فضربوه على قرنه فغاب عنهم حيناً ثم عاد إليهم فضرب على قرنه الآخر، وفيكم مثله<sup>(١)</sup>.

وهنا ربما يعترض أحدهم ويقول: إذن لماذا لم يحقق أمر الدولة العالمية كل من نوح وسليمان عليهما السلام، وهم أنبياء، وأحدهم من أولي العزم؟

وجواب ذلك قد تم ذكره عندما تكلمنا عن نوح وسليمان عليهما السلام سابقاً، عند ذكرنا للأسباب التي منعت من انشاء الدولة العالمية. ولكن هنا لا بأس من أن نجيب مرة أخرى ولو إجمالاً ولكن بنظرة من زاوية أخرى:

فهنا عليهما السلام لم يحققا أمر الدولة العالمية بسبب:

أولاً: ان نوح عليه السلام بعد الطوفان ونجاته هو والمؤمنين القلائل الذين صدّقوا بدعوته. فإن الفرصة لم تكن سانحة له، كون المجتمع لم يصل بعد الى أن يكون مجتمعاً عالمياً، وإنما كان في مرحلة ولادة جديدة، وهذا لا يتناسب مع تلك الدولة العالمية العادلة المقصودة في محل بحثنا.

ثانياً: ان سليمان عليه السلام صحيح أنه قد إمتاز بتسخير الرياح والجن والى غيرها من أمور التمكين، إلا أن ملكه ومملكته كانت صغيرة، ولم تتجاوز بأقصى إتساع لها فلسطين وبعض المناطق المجاورة لها. وبقيت مصر وبلاد فارس ووادي الرافدين ودول البحر المتوسط بعيدة عن حكمه وإدارته. وحينئذ يكون واضحاً عدم إنطباق أمر تشكيل الدولة العالمية العادلة عليه وعلى قيادته سلام الله عليه.

ثالثاً: وهنا شيء مهم أيضاً لا بد من ذكره، ألا وهو: كما أن البشرية تتكامل

(١) الميزان في تفسير القرآن، ج ١٣، ص ٣٩٢، نقلاً عن كتاب كمال الدين وإتمام النعمة.

في ابعادها الحضارية والعقائدية والفكرية، فإنها بالتأكيد ستحتاج الى رسالة ومرسل، قد تكامل بمستوى تكاملها وتطورها وزيادة، حتى يكون ملماً بكل احتياجاتها. وحينها سيكون كل رسول أو نبي متفاعلاً ومنسجماً مع المستوى والبعد العقلي والحضاري الذي وجد فيه. ولذلك كلما انتقلنا الى مرحلة من مراحل سير البشرية احتجنا الى رسول جديد وبشريعة جديدة، تواكب وتلاحظ ما أستحدث وما أستجد من أمور لم يكن لها في السابق وجود، بحيث تكون الشريعة السابقة عاجزة عن إيجاد الحلول لها.

وهذا في الحقيقة إن دل على شيء - أي الإحتياج الى إنزال رسل وشرائع جديدة - فيدل على أن الأرض لا تزال لم تمتلئ بالمشاكل والأزمات، ولا تزال تظهر الى السطح بؤر لمشاكل هي بحاجة الى من يعالجها، ويدبر أمر زواها.

وبالتالي فالرسول الذي تكون شريعته قادرة على حل جميع المشاكل التي تعترض البشرية في حاضرها ومستقبلها، بالتأكيد ستكون هي خاتمة الرسالات والشرائع، وسيكون صاحبها أو وصيه هو المؤهل لقيادة العالم نحو الدولة العادلة.

ثم اننا لو التفتنا الى مسألة التمكين، وتهيئة الأسباب، فإننا نلاحظ بأن القرآن الكريم لم يأت بها بلفظ مطلق الأسباب، وإنما قال: (وَأْتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) ولم يقل تعالى وأتيناه أسباب كل شيء، وكلنا يعرف وجود من التبويض التي تلوح بهذا الأمر.

وفي هذا الصدد يقول صاحب تفسير الفرقان: (وكل شيء) هنا لا يعني الإستغراق الشامل لسبب الوحي والنبوة وأضرابها! وإنما (كل شيء) في سبيل

تمكينه في الأرض، ثم ولا يعني كلاً من هذا الكلام، وإنما البعض من كل قدر ما يحتاجه كما تلمح له (من) فقد آتاه الله بعضاً من الأسباب اللائقة من كل شيء في سبيل تمكينه في الأرض<sup>(١)</sup>. والمراد بالأرض أرض معينة، وهي أرض ملكه، كما في قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ)<sup>(٢)</sup> يوسف: ٥٦.

### السبب الثاني:

إن الله تعالى بحسب ما بيينه في كتابه الكريم، وهو يعرض لنا قصة ذي القرنين من خلال ثلاثة مواقف أو رحلات قام بها في شرق الأرض وغربها، اتضحت لنا عدة أمور وهي على النحو التالي:

إن هذه الحياة الدنيا فيها الكثير من الأسرار والمواقف المتباينة للبشر، بالرغم من أن خلقتهم واحدة وربهم واحد، ولكن هناك طبائع وعادات يكتسبها الفرد والجماعات حسب المعطيات المتوفرة، وقد تكون هذه الطبائع والمعطيات مصيرية وحادة بتوجهاتها، إن لم ينقذها الله تعالى برسله والمصلحين الذين حملوا ما أراد منهم الرسل، ليكونوا كالطبيب الدوار بين الناس بطبه، ليعافوا الناس من أمراضهم وعقدتهم النفسية، ويجلوا عنهم مكتسبات المحيط الخارجي الضارة، وإبقاء الصالح منها. وهذا الإطار الإصلاحي العام هو الذي يتحرك بواسطته الأنبياء والمصلحون بشكل عام، فإن لم يستطع الرسول أن يحقق إصلاحاً شاملاً، أو تكون هدايته بمساحة جزئية، بسبب جهل القوم المبعوث لهم، أو لعدم تقبلهم لهذا الدين عناداً، أو لأي سبب آخر، احتجنا هنا إلى رسول آخر يكمل ما بدأه السابق. وهذا يعني أن وجود أي رسول أو مصلح، وفي أية لحظة من الزمن،

(١) الفرقان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج ١٨، ص ١١٥.

(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، مصدر سابق: ج ١٥، ص ١٢٦.



لا بد أن يحقق ثمرة من بعثه ووجوده الحركي، تعين اللاحق في الإستمرار، فهم كالبناء يبدأ من الأساس ثم يعلو.

ولو إلتفتنا الى الرحلات الثلاثة التي عرضها لنا القرآن، نجد أن ذا القرنين لم تكن معالجاته نهائية، بل أن كل ما قد تحرك به من حلول فهي كانت أما جزئية أو لم يتحرك قبال المشكلة بشيء، بل إنه قد يعلم بأنه غير قادر على إحداث التغيير والهداية الكاملة، وهو يرحل الى تلك الجهات.

فلو نأتي الى رحلته الأولى وهي: (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا\* قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا\* وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا) الكهف: ٨٦، ٨٧، ٨٨. فهنا وجد ذو القرنين قوماً بآخر المعمورة يومئذ من جانب الغرب بعد أن رأى بحراً، لا مطمع في وجود برّ بعده، فكان المنظر أن يرى الشمس تغيب في البحر لإنطباق الأفق عليه، وهؤلاء القوم كان فيهم الصالح والظالم وفيهم المشرك والمؤمن.

ولو إلتفتنا الى عمل وسيرة ذي القرنين فيهم، لو وجدنا أنه لم يتوصل الى هداية القوم كلهم، بل إكتفى ببيان سبل الهداية، وأن هناك معاد يحاسب فيه الإنسان على أعماله وما قدّم وما آخر. فأمن قسم وكفر وأشرك آخرون. والذي قام به هو فقط تعذيب الظالمين، ثم تركهم لعذاب الله يوم الآخرة. وقد يكون التعذيب بالتأديب والتأنيب أو الحجز عن الظلم، أو قد يكون آخر الدواء الكي، وهو القتل فيما اذا كانت حياته ستوقع ظلماً في قومه.

وهذا واقعاً لم يكن حلاً نهائياً، لأننا نقصد بالحل النهائي هو هداية القوم كلهم، وليس جزء منهم. وكما قلنا سابقاً فإن الخلل والتقصير ليس في شخص الرسول أو المصلح، وإنما يكون في الأشخاص المرسل إليهم، أو الظروف الاجتماعية بشكل عام تكون غير مؤهلة، لأن تهيء لهم محيطاً ناضجاً لإستقبال دعواتهم الإيمانية وقبولها في مجتمعهم بشكل كامل. وهكذا تجتمع عدة عوامل تكون مانعة وحاجبة لقبول الهداية. وحينئذ كان التصرف الأمثل هو الذي قام به ذو القرنين دون غيره.

أما بالنسبة الى رحلته الثانية: (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا \* كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا) الكهف: ٩٠، ٩١. وهنا سار نحو المشرق وعندما بلغ الصحراء من الجانب الشرقي، وجد الشمس تطلع على قوم حياتهم كانت بدائية للغاية، بحيث لا يمتلكون ملابس تكفيهم لتغطية ابدانهم من الشمس، ولم تكن لهم بيوت تأويهم، بل ذهب بعض المفسرين الى أن أولئك القوم كانوا يسكنون في أرض صحراوية تخلو من الجبال والأشجار والملاجئ.

عموماً فإن المراد بالستر هو كل شيء يتم به الوقاية من الشمس، كالبناء واللباس أو غيره كالجبال والأشجار والملاجئ والكهوف. ولأن هؤلاء كانوا في درجة من البداوة كانوا يسكنون في أرض مستوية مكشوفة، لا تظلمهم إلا شمسهم ولا تقلهم إلا أرضهم، دون أي ظل أو قل سواهما، وفي حديث للأصبيغ بن نباته عن أمير المؤمنين: (قد أحرقتهم الشمس وغيرت أجسادهم

وألوانهم حتى صيرتهم كالظلمة)<sup>(١)</sup>.

وهنا لا يحدثنا القرآن بالفعل الذي قام به ذو القرنين معهم، فقط وصف لنا حالهم، الذي يفهم منه أنهم كانوا بدائيين الى درجة عجيبة.

وإذا ما كان أولئك القوم في أقصى المشرق وفي تلك المنطقة النائية، يا ترى هل كانوا كلهم مؤمنين أو كلهم كافرين، أو قسم من هذا وقسم من ذلك، فإنه لا يبدو شيء من ذلك فيهم، لعدم وجود أية حوارية بينهم وبين ذي القرنين يذكرها القرآن، ولكونه قد وجدهم في حالة من البداوة الشديدة، تيقن بعدم جدوى دعوتهم للإيمان ولن يحقق معهم أي هدف مهما بقي معهم وأرشدتهم.

وهذا الأمر في الواقع لا يمكن أن يكون بهذا الحال في الدولة العالمية العادلة. إذ لا توجد مثل تلك الحالات عند أولئك القوم، وان وجدت فهي يجب أن تعالج بالأساليب المناسبة لها في ذلك الزمن. لا أن تترك هكذا دون حلول. حتى وإن طال صبر المصلح عليهم وطالت فترة هدايتهم.

وأما بالنسبة الى رحلته الثالثة: (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا \* قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا \* قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا \* آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا \* فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا \* قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) الكهف: ٩٣-٩٧. فترى هنا إن ذا

(١) الفرقان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج ١٨، ص ١٢٥.

القرنين لم يُقدم على القضاء النهائي على يأجوج ومأجوج، بحيث يشكل جيشاً ليواجههم ويقضي عليهم وعلى فسادهم، وإنما اكتفى بأن بنى السد أو الردم. وهنا أيضاً ملاحظة أخرى وهو أن هذا البناء لم يبنى بحيث يستمر في حجز يأجوج ومأجوج الى نهاية الدنيا، حتى ترتاح البشرية منهم ومن فسادهم، وإنما بناه وله أجل فيه ينهار ويندك دكاً، ليخرج يأجوج ومأجوج مرة أخرى ليهارسوا فسادهم في الأرض، وهذا ما تشير له الآية المباركة: (حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) الأنبياء: ٩٦.

فلاحظ هنا بأنه بالرغم من سعة ملك ذي القرنين وانتقاله إنتقالات نوعية على سطح هذه الأرض، إلا أن ملكه وسيطرته، كانت على نحو الحلول ذات الصبغة المرحلية والمعالجة الآنية، التي سيكون لها خطوة في بناء الدولة العالمية في مستقبل البشرية.

### السبب الثالث:

إن لله تعالى جنوداً يؤدون أدواراً مهمة للغاية، بل قد يقومون بخدمات جليلة للأنبياء، قد يعلم بعض من الأنبياء بهم، والبعض الآخر قد يكون غير ملتفت إليه بعنوانه وصفته التي حباه الله تعالى بها. وخير مثال على ذلك الخضر أو العبد الصالح الذي تحرك ضمن دور له في زمن موسى عليه السلام وكما قال تعالى: (فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا) الكهف: ٦٥. وكيف كان موسى غير عالم بدوره، وما علة وجوده، ودواعي أفعاله. بحيث إنه عليه السلام لم يستطع معه صبرا، وكما جاء في القرآن: (قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)\* وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا) الكهف: ٦٧، ٦٨. وذلك لما قام به من أفعال تبدو ظاهراً نكراء وغير مرحب بها. بالرغم من

أنها كانت تدور ضمن مدار الرحمة الإلهية التي تحفظ بها المصالح، ويستمر بها المسير الإنساني لنيل سَمَوه وكماله الخلقى والعقلي.

فلو جردنا آيات موسى عليه السلام في هذا المقام عن الخصوصية، وعممنا الأعمال الخارجية التي تصادفنا في حياتنا اليومية من مواقف، أو ما تمر به المجتمعات من أحوال وتقلبات، قد يبدو كثير منها أنه مخالف للعقل أو أنها تصرفات لا ترضى بها الشرائع السماوية، ولذلك سنقوم مباشرة بالإستنكار ورفض وشجب مثل هكذا أفعال.

والحقيقة أن الأمر ليس كله بهذه الصورة. إذ لعله هناك حالات ومواقف يكون الصالح فيها هو ذلك الفعل الذي رفضناه واستغربنا حدوثه، كما حدث مع موسى عليه السلام في استغرابه من افعال العبد الصالح. ولذلك قد تكون هناك اعمال في وجودنا الدنيوي يقوم بها عباد الله تعالى، ولكن قد خفيت عناوينهم عنا. وهم الذين يعملون كثيراً من الأمور يحافظون فيها على إبقاء الظروف المناسبة لتكون وسيلة لإستمرار الحياة.

وكذلك يمكن عد ذلك الشخص الذي كان موجوداً في مجلس سليمان عليه السلام من هؤلاء العباد، عندما أراد سليمان أن يجلب عرش بلقيس الى مجلسه فنهض الذي عنده علم من الكتاب إذ قال تعالى: (قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ\* قَالَ عِفْرِيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ\* قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) النمل: ٣٨-٤٠. والحقيقة أن ذكر مثل هكذا عباد صالحين في القرآن، والإشارة الى

بعض من اعمالهم وأحوالهم مع الأنبياء أو بدونهم، فيه دلالات وإشارات الى وجودهم الضروري في هذا الكون أو هذه الدنيا، وهم جزء من الأسباب والعلل، التي تحقق كثيراً من الأهداف والنتائج، وكل ما في الأمر قد خفيت علينا، لخفاء عناوينهم الواقعية عنا ونحن نحسب الأمور والأعمال التي تحدث بسببهم، أنها أموراً واعمالاً متوقعة، وما هي إلا نتاج طبيعي لحركة الطبيعة نفسها، أو لإنعكاسات إجتماعية وثقافية معينة.

ولذلك لا يبعد أن يكون ذو القرنين قد انكشف أمره لأحد أنبياء عصره، ومن ثم عندما قام ذو القرنين بتلك الرحلات، وكان نبي زمانه هو الذي يتصل به، ليكون له خارطة طريق صحيحة، وبيان ما يريد الله تعالى من ذي القرنين. وهذا بالتالي قد يكون سبباً يضاف الى الإحتمالات التي طرحت لمعرفة طريقة الإتصال الإلهي مع ذي القرنين:

ومن خلال ثلاثية المشهد الذي عرضه القرآن لثلاثة من العباد الذين آتاهم الله من فضله، أحدهم الذي عاصر سليمان عليه السلام والثاني الذي تحرك مع موسى عليه السلام والثالث ذو القرنين، فكان لهم أثر في إضافة عناصر عززت من البعد الغيبي في إطار زمن حدوثها، وبالتالي لتكون مصدراً إيمانياً غيبياً عالي العطاء للأجيال المؤمنة في زمانهم وفي المستقبل الآت.

فإذن إذا كان الأمر بهذه الصورة فلن تكون هناك فرصة لإقامة الدولة العالمية التي تنهأ بالعدالة والمساواة المطلقة، والتي تسعد بها البشرية جمعاء، بإعتبار ان الأمر متعلق بعناوين أخرى هي محل وقوع الحكم والأمر عليها للإتيان بهذا المنجز البشري الكبير.

## السبب الرابع:

لقد برز من خلال تحرك ذي القرنين أمران، وهما كانا يشكلان جزءاً رئيسياً من الأسباب التي تحرك من أجلها. إن لم يكونا هما الركنان الرئيسيان:

الأول: بيان مظهر من مظاهر الله تعالى وهو يفيض بعطائه لأحد عباده المخلصين وما يمكن أن يصل إليه من مستوى تكون الأسباب الطبيعية حاضرة بين يديه، ليؤدي أدواراً كثيرة في هذا الوجود الدنيوي، يعين بها الأنبياء وأوصيائهم في كثير من الأعمال، لتتحد بالتالي الأيادي الخيرة والصالحة، بالرغم من تفاوتها في التكامل وفي تسلسلها الرتبي في هذه الدنيا. وفي ذلك درس عالي المضامين في العمل الجماعي، وما يتحقق به من سرعة بإنجاز الأعمال.

ولذلك فإن ما حصل عليه ذو القرنين من سلطة وتمكينه في الأرض، إنما جاء من قبل الله تعالى نتيجة صلاحه وتقواه. ولم يكن ينظر للدنيا نظرة اللهو واللعب والخوض في الملذات. وإنما كان عبداً قد أطاع الله في كل شيء، وقد استطاع أن يتغلب على موقعه الإجتماعي، فكبج شهواته وأراد أن يسير بالناس بالعدل، ولذلك مكّنه الله تعالى في الأرض، وآتاه من كل شيء سبباً ليستخدمها في طاعة الله.

وهنا إشارة مهمة لكل المؤمنين، وهي بأن الله تعالى قد وهب ذا القرنين من القدرات والمواهب والتصرف الواسع في أرضه، بالرغم من أنه لم يكن نبياً، كما تواردت الأخبار. وذلك لكي لا يأتي شخص ويقول: إن الكرامات والهبات الإلهية لا تعطى ولا ينالها إلا الأنبياء والمرسلون كونهم يمتلكون قابليات ومواصفات خاصة، لا يمكن لأي أحد أن يصل لمثلها، وبالتالي سوف نحرم من

إستحقاقاتهم وعطاياهم.

ولكن هنا بحركة ذي القرنين وما حباه الله به نتيجة طاعته وإخلاصه وإيمانه العالي، فقد فتح الباب لكل من هو دون خط الرسالة والإمامة، أن يتحرك من أجل الوصول الى مثل تلك المقامات، وبذلك خير دليل على أن أبواب التكامل مفتحة للولوج ودرجات الرقي مهينة للصعود لمن كان يرجو هذا الأمر فعمل له عمله.

الثاني: إن ذا القرنين لم يكن يريد أن يكون هو القائد الأوحى في الأرض، والكل تكون رعاياه، بحيث هذا هو هدفه الرئيسي، وإنما كان يجب أن يساعد الناس، وأن يوصل لهم سبل الهداية والإيمان، ومد يد العون إليهم، ولذلك تجشم عناء رحلاته الثلاث البعيدة، وهو يجوب شرق الأرض وغربها، باحثاً عن من يحتاج المساعدة في أمور الدنيا والدين. ولذلك تراه لم يتعاجز أو يعتذر عندما طلبوا منه أن يبني لهم سدّاً عظيماً، بل تجده كان سعيداً، بإنجازته ذلك، فشمّر عن ساعديه ولم يغادر القوم حتى أكمل لهم بناءه. فهو يدور بالأرض عارضاً خدماته للناس، كل الناس بلا استثناء.

والحقيقة ان ذا القرنين بتحركاته تلك قد أعطى درساً لكل صاحب قوة وقدرة من المؤمنين في كيفية استخدامها الإستخدام الأمثل في مساعدة الإنسانية جمعاء. ومحاولة الوصول الى الأماكن البعيدة التي يعيش فيها المستضعفون. وهذا الأمر ينطبق على الأمة الإسلامية بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكيف أنها فرطت في القوة والهيبة التي جاءت بفضل الإسلام، والتي جعلتهم من أكبر القوى المهابة في المنطقة، وبدلاً من أن يستخدموها كما استخدمها ذو القرنين، تراهم في فتوحاتهم أخذوا في الغالب منحى غير المنحى الإسلامي الصحيح،



ولذلك نجد أن الإمام علي عليه السلام وولديه الحسن والحسين عليهما السلام لم يشتركا في ما يسمى بالفتوحات الإسلامية، لأنها لم تكن منضبطة ومؤطرة بثوابت الإسلام الواقعي، وإنما دخل في إطارها العام البعد الذاتي والشخصي، وتصارع الأهواء والأطماع الدنيوية، لتتحول شيئاً فشيئاً إلى صراع طبقي أوجد في داخل المجتمع المظالم والإستضعاف.

بينما الإسلام الواقعي لا يسعى إلى التعنصر، وأن تعتبر نفسك قطب الدنيا ومركزها، وإنما عليك أن تسعى لخدمة الناس، لا إلى كيفية أن تخدمك الناس، وعلى السلطة العليا في الإسلام أن تحيط خبراً بأدنى المستضعفين والمعوزين في الأرض. وأن تتحرك لهم كما تحرك ذو القرنين وذهب لتلك الأقوام، من أجل تقديم المساعدة، ومد يد العون لهم، وليمثل بالتالي عين الله في أرضه التي تراقب العباد، لترسل لهم عبداً صالحاً يمثل لحظة استجابة الإحتياج الإنساني بتحرك يد القدرة التي انتخبت عبداً مخلصاً من عبادها لينحت سمة من سمات التطبع في هذا الوجود، وليحوها إلى صورة أخرى طابعها الإشراق والرضا والأمان، بعد أن كانت تحيط بتلك السمة التشتت والظلام والضياع.

## المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: الفقيه الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، نشر دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- ٣- اعجاز القرآن الكريم: من بحوث المؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، لمجموعة من الباحثين، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط٢، ١٤٢١هـ.
- ٤- الإمبراطورية الفارسية عبر التاريخ: أ.ت. أولستد، مجموعة من المترجمين، نشر الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.
- ٥- أسرار الآلهة والديانات: أ.س. ميغو ليفسكي، ترجمة دكتور حسان ميخائيل، نشر دار علاء الدين، دمشق، ط٤، ٢٠٠٩م.
- ٦- أسطورة العود الأبدي: ميرسيا إلياد، ترجمة نهاد خياطة، نشر دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٧م.
- ٧- أطلس الكتاب المقدس وتاريخ المسيحية: دار أوفير للطباعة والنشر، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٧م.
- ٨- أطلس الدارسين للكتاب المقدس: نشر دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، بيروت، ط١، بدون سنة طبع.

- ٩- أطلس التاريخ القديم: بإشراف ابراهيم حلمي الغوري، نشر دار الشرق العربي، بيروت، ط٤، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- ١٠- أطلس تاريخ الأنبياء: سامي المغلوث، نشر دار العبيكان، الرياض، ط١١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.
- ١١- أطلس الأديان: سامي المغلوث، نشر دار العبيكان، الرياض، ط٣، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
- ١٢- أنوار الأصول: تقارير أبحاث الشيخ آية الله العظمى ناصر مكارم الشيرازي، بقلم أحمد القدسي، نشر دار علي بن أبي طالب، قم، ط٣، ١٤٣٢هـ.
- ١٣- أبي آدم: د. عبد الصبور شاهين: نشر دار رؤية، القاهرة، ط١، ٢٠١٧م.
- ١٤- أسئلة معاصرة عن الإمام المهدي: علي الزيدي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.
- ١٥- اقتصادنا: السيد الشهيد محمد باقر الصدر، نشر دار الكتاب الإسلامي، ط٤، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- ١٦- بصائر الدرجات: أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار (ت ٢٩٠هـ)، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
- ١٧- بحار الأنوار: العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي، نشر دار الأميرة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م - ١٤٢٩هـ.

- ١٨- تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، نشر مؤسسة التاريخ، بيروت، ط ١، بدون سنة طبع.
- ١٩- تفسير مقتنيات الدرر: السيد علي الحائري الطهراني، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط ١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.
- ٢٠- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي (٥٤٤-٦٠٤هـ)، حققه وعلق عليه عماد زكي البارودي، نشر المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط ١، بدون سنة الطبع.
- ٢١- تفسير القمي: أبي الحسن علي بن ابراهيم القمي، من اعلام القرن الثالث، تحقيق الشيخ محمد الصالح، نشر دار ذوي القربى، قم، ط ١، ١٣٢٨هـ.
- ٢٢- تفسير من وحي القرآن: آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله، نشر دار الملاك، بيروت، ط ٢، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ٢٣- تفسير الكشاف: أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تعليق خليل مأمون شيخا، نشر دار المعرفة، بيروت، ط ٣، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- ٢٤- تفسير البحر المحيط: محمد بن يوسف الشهرير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (٦٥٤ - ٧٥٤هـ)، نشر دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

٢٥- تفسير نور الثقلين: الشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي، تحقيق السيد علي عاشور، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢٦- تسنيم في تفسير القرآن: العلامة الشيخ عبد الله الجواد الطبري الأملي، تعريب السيد عبد المطلب رضا، نشر دار الاسراء، بيروت، ط٢، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٢٧- تفسير العياشي: محمد بن مسعود ابن عباس السلمي السمرقندي المعروف بـ (العياشي)، تصحيح وتعليق العلامة السيد هاشم الرسولي المحلاتي، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٢، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

٢٨- التفسير الكاشف: محمد جواد مغنية، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م.

٢٩- تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة: العارف الحاج سلطان محمد الجنازدي، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٣٠- التفسير التطبيقي للكتاب المقدس: التعريب والجمع التصويري والمونتاج شركة ماستر ميديا، طبع في بريطانيا، ٢٠٠٢م.

٣١- التفكير اللغوي بين القديم والجديد: د. كمال بشر، نشر دار غريب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.

٣٢- تكوين العقل الحديث: جون هرمان راندال، ترجمة جورج طعمة، نشر سلسلة ميراث الترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م.

٣٣- تطور الفكر الماركسي: الياس فرح، نشر دار الطليعة، بيروت، ط ٢، ١٩٧١هـ.

٣٤- التوحيد: الشيخ الجليل الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ)، صححه وعلق عليه المحقق السيد هاشم الحسيني الطهراني، نشر مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط ١٠، ١٤٣٠هـ.

٣٥- تاريخ الشرق القديم: ديكانوف ي.م وآخرون، ترجمة د. محمد العلامي، نشر دار الفكر، عمان، ط ١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٣٦- تاريخ الحضارات العام: اشراف موريس كروزيه، نقله الى العربية فريدوم. داغر وآخرون، نشر دار عويدات، بيروت، ط ١، ٢٠٠٦م.

٣٧- تاريخ البشرية: ارنولد توينبي، ترجمة نيقولا زيادة، نشر الدار الأهلية، بيروت، ط ١، ١٩٨١م.

٣٨- تاريخ الحضارة الهلينية: أرنولد توينبي، ترجمة رمزي جرجيس، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣م.

٣٩- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: د. فيليب حتي، ترجمة د. جورج حدّاد وعبد الكريم رافق، نشر دار الثقافة، بيروت، ط ١، ١٩٥١م.

٤٠- التاريخ اليهودي العام: صابر طعيمه، نشر دار الجليل، بيروت، ط ٣، بدون سنة طبع.

٤١- تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم: محمد عزّة دروزة، نشر دار المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

- ٤٢- تاريخ حضارة وادي الرافدين: د. أحمد سوسة، نشر دار الحرية، بغداد، ط١، ١٩٨٣م.
- ٤٣- تاريخ فلسطين القديم: ظفر الإسلام خان، نشر دار النفائس، بيروت، ط٣، ١٩٨١م.
- ٤٤- تاريخ الأفكار السياسية: جان توشار، ترجمة د. ناجي الدرواشه، نشر دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠١٠م.
- ٤٥- تاريخ الأفكار السياسية: مارسيل بريلو وجورج ليسكيه، نشر الدار الأهلية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
- ٤٦- التاريخ الحقيقي لليهود: نجيب زيب، نشر دار الهادي، بيروت، ط٣، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- ٤٧- تاريخ ما بعد الظهور: السيد الشهيد آية الله العظمى محمد الصدر قدس سره، نشر دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- ٤٨- تاريخ اباطرة وفلاسفة الإغريق: بلوتارك (فلوטר خوس)، ترجمة جرجيس فتح الله، نشر الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ٢٠١٠م - ١٤٣٠هـ.
- ٤٩- تاريخ اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي، تحقيق عبد الأمير مهنا، نشر شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

٥٠- تاريخ الفكر الأوربي الحديث: رونالد سترو مبرج، ترجمة أحمد الشيباني، نشر دار القارئ، الرياض، ط٣، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٥١- تاريخ الأديان: د. رؤوف سبهاني، نشر مؤسسة البلاغ، بيروت، ط١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٥٢- تاريخ الغيبة الكبرى: السيد الشهيد آية الله العظمى محمد الصدر قدس سره، نشر دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٥٣- تاريخ الخليقة: د. خزعل الماجدي، نشر دار تكوين، بيروت، ط٢، ٢٠١٨م.

٥٤- تعدد القراءات: الاستاذ محمد تقي مصباح اليزدي، ترجمة ماجد الخاقاني، نشر دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.

٥٥- التحليل العلمي والمنقول في تفسير القرآن الكريم: ضياء الدين العاملي، نشر دار الجواهر، بغداد، ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٥٦- تاريخ الأديان: فاروق الدملاجي، نشر دار الأهلية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

٥٧- جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط١، ٢٠١٦م.

٥٨- الجغرافية البشرية: د. علي وهب، نشر المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.



٥٩- جنى الجنان في دلالة كلمات القرآن: علي محمد سلام، نشر دار المكتب العربي للمعارف، القاهرة، ط ١، ٢٠١٦م.

٦٠- حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور: د. أحمد سوسة، نشر وزارة الإعلام العراقية، بغداد، ط ١، ١٩٧٩م.

٦١- حضارة بابل وآشور: غوستاف لوبون، ترجمة محمود خيرت المحامي، نشر دار الرافدين، بيروت، ط ٢، ٢٠١٧م.

٦٢- حضارات ما قبل التاريخ: د. خزعل الماجدي، نشر دار تكوين، بيروت، ط ٢، ٢٠١٨م.

٦٣- خطب الجمعة لشهيد صلاة الجمعة: آية الله العظمى السيد الشهيد محمد الصدر، نشر هيئة تراث السيد الشهيد الصدر، بيروت، ط ١، ٢٠١٣م-١٤٣٤هـ.

٦٤- الخصال: الشيخ الجليل أبي جعفر محمد بن علي بن الحسن بن بابويه القمي المعروف بالصدوق، نشر دار المرتضى، بيروت، ط ١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٦٥- الخصائص: أبي الفتح عثمان بن جنى، تحقيق محمد علي النجار، نشر دار المكتبة العلمية، القاهرة، ط ١.

٦٦- دراسات في تاريخ الرومان: د. محمد محفل و د. محمد الزين، نشر جامعة دمشق، ط ١، ١٤٣٥هـ-٢٠١٥م.

٦٧- دراسات تاريخية من القرآن الكريم: د. محمد بيومي مهران، نشر دار النهضة العربية، بيروت، ط ٢، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

- ٦٨- دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية: د. سعود بن عبد العزيز الخلف، نشر دار اضواء السلف، الرياض، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ٦٩- دلالة الألفاظ في القرآن العظيم: د. محمد حسين الصغير، نشر الأمانة العامة للعبة الحسينية، كربلاء، ط ١، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.
- ٧٠- الدولة والمجتمع: د. محمد شحرور، نشر دار الساقبي، بيروت، ط ١، ٢٠١٨م.
- ٧١- دين الإنسان: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط ٨، ٢٠١٧م.
- ٧٢- دروس في أصول فقه الإمامية: د. عبد الهادي الفضلي، نشر مركز الغدير، بيروت، ط ١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- ٧٣- دليل الجمهورية العراقية: الأستاذ محمود فهمي درويش وآخرون، نشر دار مطبعة التمدن، بغداد، ط ١، ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م.
- ٧٤- دروس في علم الأصول: السيد الشهيد محمد باقر الصدر، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط ١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- ٧٥- الدروس: شرح السيد كمال الحيدري للحقلة الثانية للسيد الشهيد محمد باقر الصدر، بقلم علاء السالم، نشر دار فراق، قم، ط ١، ١٣٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- ٧٦- ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح: محمد خير رمضان، نشر دار القلم، بيروت، ط ٢، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٧٧- ذو القرنين الملك العادل: منصور عبد الحكيم، نشر دار الكتاب العربي، دمشق، ط ١، ٢٠١٤ م.

٧٨- رفع الشبهات عن الأنبياء: حوار فتوائي مع آية الله العظمى السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره، نشر هيئة تراث السيد الشهيد الصدر، بيروت، ط ١، ٢٠١١ م.

٧٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ)، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

٨٠- رحلات وزيارات الى الإعجاز القرآني: السيد حامد، نشر المكتب العربي للمعارف، القاهرة، ط ١، ٢٠١٨ م.

٨١- سليمان صرخة النبوة في وجه الخرافة التوراتية: د. حسن الباش، نشر دار قتيبة، دمشق، ط ١، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.

٨٢- شظايا لسانية: د. مجيد الماشطة، نشر دار السياب، لندن، ط ١، ٢٠٠٨ م.

٨٣- شك داروين: د. ستيفن ماير، ترجمة د. موسى إدريس، د. مؤمن الحسن، نشر مركز براهين للأبحاث والدراسات، ط ١، ٢٠١٦ م.

٨٤- طوفان نوح: وليم ريان ووالتر بتمان، ترجمة فارس بطرس، نشر دار سايمون وسجستر، ط ١، ٢٠٠٥ م.

٨٥- الطور المهدوي: عالم سبيط النيلي، نشر دار المحجة البيضاء، بيروت، ط ٤، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

٨٦- علم اللغة العام: فردينان دي سوسور، ترجمة د. يوثيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي د. مالك يوسف المطلبي، نشر دار آفاق عربية، بغداد، ط١، ١٩٨٥م.

٨٧- عظمة بابل: هاري ساغز، ترجمة خالد أسعد عيسى، نشر دار رسلان، دمشق، ط١، ٢٠١١م.

٨٨- العراق القديم: جورج رو، ترجمة وتعليق حسين علوان حسين، نشر وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ط١، ١٩٨٤م.

٨٩- علل الشرائع: الشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ)، نشر المكتبة الحيدرية، النجف، ط١، ١٣٨٥هـ-١٩٦٦م.

٩٠- الغيبة: الشيخ الجليل أبي عبد الله محمد بن ابراهيم الكاتب المعروف (ابن أبي زينب النعماني)، المتوفي حدود سنة ٣٦٠هـ، تحقيق فارس حسون كريم، نشر دار مدين، قم، ط١، ١٤٢٦هـ.

٩١- الفرقان في تفسير القرآن: الشيخ الدكتور محمد الصادقي، نشر دار الأميرة، بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.

٩٢- قاموس الفلسفة: ديديه جوليا، نقله الى العربية د. فرنسوا أيوب وآخرون، نشر مكتبة إنطوان، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٩٣- قصة الحضارة: وول ديورانت، ترجمة د. أحمد زكي نجيب محمود، نشر دار الفكر، بيروت، ط١، بدون سنة طبع.

٩٤- قصص الأنبياء: أبي الفداء اسماعيل بن كثير (٧٠١-٧٧٤هـ)، تحقيق عبد المجيد طعمة حلبي، نشر دار المعرفة، بيروت، ط١٣، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٩٥- قصص القرآن: الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٩٦- قصص القرآن الكريم: د. محمود البستاني، نشر مؤسسة السبطين، قم، ط٢، ١٤٢٨هـ.

٩٧- الكافي في تاريخ القدس: رجا عبد الحميد عرابي، نشر دار الأوائل، دمشق، ط١، ٢٠٠٩م.

٩٨- كتاب العين: أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠-١٧٥هـ)، نشر دار احياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٩٩- الكامل في التاريخ: عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد ابن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بـ (ابن الأثير) (٥٥٥ - ٦٣٠هـ) تحقيق الشيخ خليل شيحا، نشر دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

١٠٠- الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث: ميخائيل شارو ييم بك، نشر مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م - ١٤٢٥هـ.

١٠١- كتاب السياسة: أرسطو طاليس، ترجمة أحمد لطفي السيد، مراجعة وتحقيق يعقوب البيطار، نشر دار التنوع الثقافي، دمشق، ط١، ٢٠١٨م.

- ١٠٢- اللسانيات: د. نعمان بوقرة، نشر دار عالم الكتب، عمان، ط ١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- ١٠٣- لسان العرب: العلامة ابن منظور، نشر دار الحديث، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.
- ١٠٤- المعجم الفلسفي: مراد وهبة، نشر دار المطبوعات الأكاديمية، القاهرة، ط ١، ١٩٩٨م.
- ١٠٥- معجم العلوم الإنسانية: اشراف جان فرنسوا دوريته، ترجمة د. جورج كتورة، نشر دار مجد، بيروت، ط ١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- ١٠٦- معجم مقاييس اللغة: أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا المتوفي سنة ٣٩٥هـ، نشر دار احياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- ١٠٧- المعجم الوسيط: ابراهيم مصطفى وآخرون، نشر المكتبة الإسلامية، بيروت، لم تذكر جهة وسنة الطبع.
- ١٠٨- المعجم الموضوعي لإحاديث الإمام المهدي: علي الكوراني، نشر دار المرتضى، بيروت، ط ١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- ١٠٩- معجم الأديان: ميرسيا إلياد وآخرون، ترجمة وتعليق خليل كدري، نشر مؤمنون بلا حدود، بيروت، ط ١، ٢٠١٨م.
- ١١٠- معجم الحضارات السامية: هنري س. عبودي، نشر دار جروس برس، بيروت، ط ٢، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

١١١- موسوعة السياسة: د. عبد الوهاب الكيالي وآخرون، نشر المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط٤، ٢٠٠١م.

١١٢- موسوعة الفلسفة: د. عبد الرحمن بدوي، نشر دار ذوي القربي، قم، ط١، ١٤٢٧هـ.

١١٣- موسوعة تاريخ الإمبراطورية الفارسية: بيار بريانت، ترجمة بيتري دانيلز، نشر الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ٢٠١٢م - ١٤٣٣هـ.

١١٤- الموسوعة الكبرى للمذاهب والفرق والأديان: د. سليم الياس، نشر مركز الشرق الأوسط الثقافي، بيروت، ط١، بدون سنة طبع.

١١٥- الميزان في تفسير القرآن: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، نشر مؤسسة الاعلمي، بيروت، ط٢، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

١١٦- مجمع البيان في تفسير القرآن: الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تحقيق السيد هاشم الموسوي، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

١١٧- ميزان الحكمة: محمد الريشهري، نشر دار الحديث، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

١١٨- منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر: آية الله العظمى الشيخ لطف الله الصافي الكلبايكاني، نشر دار المرتضى، بيروت، ط٣، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

١١٩- الملل والنحل: أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني (٤٧٩ - ٥٤٨هـ)، تحقيق سيد كيلاني، نشر دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

١٢٠- المقدمة: العلامة عبد الرحمن (ابن خلدون) المغربي، نشر دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٢١- مفاهيم القرآن: الشيخ جعفر السبحاني، نشر مؤسسة الإمام الصادق، قم، ط٤، ١٤١٣هـ.

١٢٢- ماضي النجف وحاضرها: العلامة الشيخ جعفر باقر آل محبوبة، نشر دار الأضواء، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٢٣- بحوث في علم الأصول: تقريرات السيد الشهيد آية الله العظمى محمد باقر الصدر، بقلم السيد محمود الهاشمي، نشر مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي، قم، ط٣، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

١٢٤- المباحث الأصولية: آية الله العظمى الشيخ محمد اسحاق الفياض، نشر مكتب الشيخ الفياض، قم، ط٢، ١٤٢٧هـ.

١٢٥- المقدمات والتنبيهات في شرح أصول الفقه: الشيخ محمود قانصو، نشر دار المؤرخ العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

١٢٦- المدخل الى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: د. رمضان عبد التواب، نشر مكتبة المتنبى، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٣هـ.



- ١٢٧- مفصل العرب واليهود في التاريخ: د. أحمد سوسة، نشر دار الوراق، بيروت، ط١، ٢٠١٤م.
- ١٢٨- من ألواح سومر: صمويل كزيمر، ترجمة طه باقر، نشر دار الوراق، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.
- ١٢٩- ملحمة كلكامش: طه باقر، نشر وزارة الاعلام العراقية، ط١، ١٩٧٥م.
- ١٣٠- معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم: د. محمد أبو المحاسن عصفور، نشر دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، بدون سنة طبع.
- ١٣١- مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر، نشر دار الوراق، بيروت، ط١، ٢٠١١م.
- ١٣٢- موجز تاريخ العالم: ه.ج. ويلز، نشر دار أقلام عربية، القاهرة، ط١، ٢٠١٧م.
- ١٣٣- المزهري في علوم اللغة وأنواعها: العلامة عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، شرح وضبط وتعليق محمد أحمد جاد المولى وآخرون، نشر دار التراث، القاهرة، ط٣.
- ١٣٤- المنطق: الشيخ محمد رضا المظفر، نشر دار التعارف، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.
- ١٣٥- نهج البلاغة: تعليق آية الله العظمى السيد محمد الحسيني الشيرازي، نشر دار العلوم، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

١٣٦- نيتشه وجذور ما بعد الحداثة: تحرير د. أحمد عبد الحلیم عطية، نشر دار الفارابي، بيروت، ط ١، ٢٠١٠م.

١٣٧- الوجود الإنساني بين العلم والدين: د. جومانه الحويك ناصيف، نشر الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط ١، ٢٠١٥م-١٤٣٦هـ.

١٣٨- اليهود وعقدة بابل: د. سهيل قاشا، نشر دار الرافدين، بيروت، ط ١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

١٣٩- اليهود في تاريخ الحضارات الأولى: جوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، نشر مكتبة النافذة، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٩م.

١٤٠- اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني: السيد الشهيد محمد الصدر، نشر دار المعارف، بيروت، ط ١، ١٩٧٩م.

علي الزيدي

## الدولة العادلة

يوتهيا أم واقع

قراءة في الدين والتاريخ



أثار موضوع قدرة الإنسان وسيطرته على هذه الأرض، محاولات عدّة لبيان هذا الأثر، ووضع النظر والقوانين الضابطة لحركته في هذا الكون الفسيح، ولكن تباينت الرؤى، واختلفت النتائج، بحسب نظرة من يسعى إلى التغيير وإقامة نظام عام وشامل يسود على البشرية كلها، أو في بعض مناطقها.

فتبارى القادة والفلاسفة في هذا الميدان، فكان للفكر البشري أن يسير بخطوات كبيرة نحو ترتيب ذلك الحشد التراكمي للأفكار والتجارب من أجل الوصول للسعادة وترسيخ أسس العدل والمساواة.

لكن ما نقل لنا من تصورات دوغمائية ادّعت كثير من الأفكار الدينية تبنيها، بعد أن صيغت لأغراض شخصية ومقاطع ذاتية، هي أبعد ما تكون عن الحقيقة، وهي تتعامل مع الأرض والسماء، لتربط الإنسان بشكل من أشكال المطلق بمفهوم المشيئة الإلهية، وتطويقها بالتالي لأي تحرك عقلي في مجال الإبداع والتغيير، وبيان فاعليته في القدرة على المساهمة في تبديل وتحسين ما يحيط به من ظروف طبيعية أو إجتماعية على حد سواء.

هذا من جهة، وما تبنته جهات أخرى بالضد منها، بحيث أرادت أن تعزل أي فكر ديني وتبعد أي مقدس، وعدم السماح له في المشاركة لبناء وإيجاد الدولة السعيدة والحكم العادل.

ISBN 978-9-9229356-0-7



9 789922 935607



العراق / بغداد 07739584181 jam3alaama@yahoo.com